الجغرافيا والثورة

المجلد الثانى

تحرير

ديفيد ليفنجستون

تشارلز و. ج. ويزرز

ترجمة

عاطف معتمد   بدر مصطفى   عزت زيان

المركز القومى للترجمة

270

يتناول هذا الكتاب العلاقة بين الجغرافيا والثورة في سياق التطور التاريخي للشعوب، مع إعطاء أمثلة أوربية وأمريكية وأفريقية. الثورة التي يقصدها الكتاب متباينة المفهوم بعضها يعتني بثورة المعرفة وانتشار المعلومات عبر الأصقاع الجغرافية المختلفة، وبعضها الآخر يهتم بموقف التباين الجغرافي من الثورة والحراك الشعبي من أجل التغيير وهناك مناطق جغرافية تبدو قابلة للالتحام في الثورة والتغيير فتصنع جغرافيا "ثائرة" ومناطق أخرى تبدو ملكية محافظة على النظم القديمة وتخشى التغيير وتبدو "مستعصية على الثورة". وبما أن الجغرافيا وسيط حتمي في انتقال التقنيات المعرفية، والأسلحة والأمراض والأفكار والتقاليد الثورية، فإن فهم التباين والتميز الجغرافي مهمة لا غنى عنها للتنبؤ بما سيحدث في مستقبل الشعوب والبلدان أخذا في الاعتبار دور الأيديولوجيات والمذاهب الفلسفية في تشحيم حركة السير وعجلة الدوران.

الجغرافيا والثـورة

(المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2706
- الجغرافيا والثورة (المجلد الثانى)
- ديفيد ليفنجستون، تشارلز و.ج. ويزرز
- عاطف معتمد، بدر مصطفى، عزت زيان
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة كتاب:
Geography and Revolution
Edited by: David N. Livingstone and Carles W.J. Withers

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الجغرافيا والثورة

(المجلد الثانى)

تحرير : ديفيد ليفنجستون
تشارلز و.ج. ويزرز
ترجمة : عــاطـف معتـمـد
بـــدر مصطـفى
عـــزت زيـــان



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الجغرافيا والثورة/ تحرير: ديفيد ليفنجستون،
تشارلز و.ج ويزرز؛ ترجمة: عاطف معتمد، وبدر مصطفى، وعزت زيان.
الجيزة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧
٣١٦ ص؛ ٢٤ سم
١- الجغرافيا - السياسية
(أ) ليفنجستون، ديفيد (محرر)
(ب) ويزرز، تشارلز و.ج (محرر مشارك)
(جـ) معتمد، عاطف (مترجم)
(د) مصطفى، بدر (مترجم مشارك)
(هـ) زيان، عزت (مترجم مشارك)
(ى) العنوان ٣٢٠,٩

رقم الإيداع ٢٠١٥/٤٠٩٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.978-977-92-0107-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـــويات

الفصل الثامن

الفوتوغرافيا، الثورات البصرية والجغرافيا في العصر الفيكتورى

جيمس ريان James R. Ryan

كان اختراع التصوير الفوتوغرافى فى العام ١٨٣٩ بمثابة لحظة ثورية فاصلة فى العلوم والفنون والتكنولوجيا والوعى البصرى. ومن المؤكد أن العصر الفيكتورى قد شهد إسهامات عديدة لتطوير استخدام هذا الوسيط فى تلك المجالات. وكان التصوير الفوتوغرافى وسيلة جديدة مذهلة لجمع المعارف الجغرافية وتصنيفها ونقلها لكل من الجماهير والنخبة فى منتصف القرن التاسع عشر، ومن ثم لا ينبغى الاستهانة بمكانته بوصفه تقنية ثورية: فقد صار بوسع الرحالة أو المستكشفين، متسلحين بكاميراتهم، تسجيل مشاهد من رحلاتهم حتى يعرضوها على الجمهور فى وطنهم؛ وهكذا غدت "الوقائع" الجغرافية البعيدة صوراً تمتاز بالتفاصيل، وأمكن بعد ذلك إدراج تلك الوقائع البصرية فى مجموعات مختلفة من المعلومات، وفهرستها، وتصنيفها، وإعادة تعريفها بالعديد من الطرق - كموضوعات جمالية، ومواضيع للتدقيق العلمى، ودليل على إنجازات الأفراد والمؤسسات.

يسعى هذا الفصل لتحديد التبعات الثورية للتصوير الفوتوغرافى وتطبيقاته فى علم الجغرافيا فى بريطانيا فى العصر الفيكتورى. لقد ظلت الجغرافيا، ولفترة طويلة، خطاباً يتعلق بصنع التمثيلات البصرية للعالم وتفسيرها. والحقيقة أنه ربما يكون أساس هذا

"الدافع إلى صنع الصورة"، على حد وصف ديفيد ليفنجستون، يعود في المقام الأول إلى "استعادة عصر النهضة لتصور بطليموس للجغرافيا بوصفها علمًا معنيًا في الأساس بتصوير (أو تمثيل) العالم"[١]. وفي السنوات الأخيرة، أبدى الجغرافيون اهتماما متزايدا بالكيفية التي شكل بها هذا الدافع، نحو "جعل الأشياء مرئية"، كل أشكال اللغات الجغرافية، وتطبيقاتها، وأفكارها[٢]. وهناك إشارات عديدة إلى الارتباط المجازي بين الرؤية البشرية والمعرفة الجغرافية، وقد تنبه الجغرافيون إلى أن العلاقة بين البصر والمعرفة ليست بتلك العلاقة المباشرة التي يتم افتراضها في بعض الأحيان؛ حيث إن المشاهدة تسبقها عمليات الإدراك الحسي ومعالجات ثقافية معقدة؛ لذا فالقول بأن "الرؤية يقين" ليس صائبًا على الدوام، وكما يقول المؤرخ الجغرافي هـ. س. داربي H. C. Darby، في معرض حديثه عن طبيعة الوصف الجغرافي، نقلا عن جورج بيركنز مارش George Perkins Marsh: "العين...لا ترى إلا ما تسعى إليه"[٣].

إن الطبيعة الوسائطية للملاحظة والتصوير أساسية لكم كبير من الأدبيات الجغرافية الحديثة التي تدرس تمثيل المناظر الطبيعية في اللوحات، ورسم الخرائط، والأدب، والهندسة المعمارية، والتصميم[٤]. وبالمثل عُني المؤرخون الجغرافيون ورسامو الخرائط بدراسة الكيفية التي من الممكن أن تؤدي بها تطبيقات، مثل رسم الخرائط الجغرافية، لبناء المعرفة الجغرافية من خلال التقاليد الفنية المختلفة والاستراتيجيات الخطابية، والتي تعمل دائما ضمن إعدادات السلطة[٥]، وفي هذا السياق بزغ الاهتمام بدور التصوير في إنتاج المعرفة الجغرافية[٦].

يستند هذا الفصل أيضا على الدراسات الحديثة التي تسعى إلى وضع اتجاهات العصر الفيكتوري العلمية المختلفة في إطار مجموعة من السياقات الثقافية والاجتماعية، والسياسية. وقد بدأ مؤرخو العلم، والتكنولوجيا، والطب، وكذلك مؤرخو الجغرافيا، في دراسة الطرق التي من خلالها غدا للعلوم الفيكتورية دور فاعل في نظر العامة، ولا سيما عبر المعارض والمحاضرات والمتاحف، بالإضافة إلى دراسة الكيفية التي من خلالها أصبحت الممارسات البصرية وتقنياتها في أغلب الأحيان ذات دور

محورى فى كشف المعارف العلمية وتوضيحها[٧]. وقد تمخض عن هذا المجال دراسات قدمت رؤى بالغة الأهمية حول المناقشات المعقدة التى دارت إبان العصر الفيكتورى بصدد استخدامات الفوتوغرافيا كشكل من أشكال الأدلة للعلوم[٨]. وتثير مثل هذه الأعمال أسئلة مهمة لكل من يحاول تقييم تأثير التصوير على علم الجغرافيا فى الحقبة الفيكتورية، كما أنها تدعونا لإمعان النظر فيما عبر عنه المعلقون المعاصرون من مزاعم ومخاوف حول إمكانيات وحدود التصوير كشكل من أشكال الأدلة الجغرافية، كما ندرك منها أننا بحاجة إلى إيلاء اهتمام خاص إلى سبل اعتماد التصوير الفوتوغرافى من قبل مؤسسات مثل الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن، وإلى المناقشات المعاصرة حول مدى فعالية التصوير الفوتوغرافى فى العمل الميدانى الجغرافى وبعثاته. ويحدونى أمل فى أن أقدم من خلال المثال التالى توضيحًا لمدى فعالية التصوير الفوتوغرافى كوسيلة لبناء وتسجيل أنواع معينة من المعرفة الجغرافية وإسباغ الشرعية عليها، بالإضافة إلى مكانته بوصفه تكنولوجيا ثورية، بضرف النظر عن الجدل الذى من الممكن أن تثيره مثل تلك القضية.

علم التصوير الفوتوغرافى وفنه

"توقف الزمان والمكان عن الوجود. وتصنع المروحة دوامتها الهزازة، وتتغلب عجلة المجداف على الأمواج، والقاطرة تلهث فى دوامة السرعة؛ والحوار متواصل بين شاطئ محيط وآخر؛ وأضحى الدفق الكهربائى ساعى بريد؛ وقوة البرق تنقل الرسائل بطول الأسلاك. وباتت الشمس رسامًا يصور الطبيعة، وأنواع البشر، والآثار؛ وتفتح ألواح فضية عينها الزجاجية من تحت جفن نحاسى؛ لتلتقط فى لمح البصر منظرًا أو أناسًا من البشر أو أطلالاً مهجورة"[٩].

هكذا كتب تيوفيل جوتييه(*) فى العام ١٨٥٨؛ ليعبر عن تلك الروح الثورية فى عصره ومكانة التصوير فى عالم حديث يقوم بتسخير قوى الطبيعة لتقدم البشرية. وعلى

(*) تيوفيل جوتييه Théophile Gautier (١٨١١-١٨٧٢): شاعر وناقد وروائى فرنسى. (المترجم)

الرغم من أنه لا يستخدم الكلمة [كلمة ثورة]، فإن جوتييه يستحضر شعور "الثورة" القوى من خلال استخدامه لتلك التوصيفات الحركية العديدة بما يعكس معناها العصرى ألا وهو "التغيير الجذرى"(١٠). والحقيقة أن الربط بين "الثورة" والمؤسسات الجديدة والتقنيات الحديثة هو فى حد ذاته نتاج العصر الحديث الذى منه ولدت الفوتوغرافيا كوسيط جديد، كما يعبر جوتييه بوضوح عن ذلك الاهتمام الواسع النطاق فى منتصف القرن التاسع عشر بالتصوير الفوتوغرافى كوسيلة ثورية جديدة لتسجيل العالم. وقد رأى كثير من المعاصرين فى التصوير الفوتوغرافى زواجًا رائعًا فريدًا من نوعه بين العلم والفن- فيما وصفه المعلق الفرنسى فرانسيس واى Francis Wey بأنه "حلقة وصل بين الاثنين"(١١). وانتشر توصيف الفوتوغرافيا بأنها "علم وفن"، ولأول مرة صار من الممكن- عن طريق التصوير الفوتوغرافى- صنع نسخة دائمة من صورة التقطت بصندوق الكاميرا المظلم، وصنع صور غنية بالتفاصيل للعالم الطبيعى، بل وصنع نسخ متعددة من نفس الصورة. وخلافا لغيره من سبل التمثيل المرئى، مثل الرسم أو النقش، لا يعتمد التصوير بصورة كلية على الإنسان كصانع للصورة. وكما قال جوتييه: الشمس رسام، وليس على عين الكاميرا نحاسية الجفن إلا أن تنفتح حتى تلتقط المشهد أمامها فى لمح البصر. والأكثر من هذا أن الصور حققت نوعًا من الحيادية، فهى بمثابة آثار مادية لهذا العالم، وبقايا بصرية للضوء المنعكس. ومن ثم يمكن للصور أن تشكل معرفة مستقلة عن المراقب عن كثب، وأن تقدم وسيلة للتصور والإحاطة عن بعد، ومن خلال ربط الكاميرا بالأجهزة البصرية الأخرى مثل التلسكوب والمجهر، تكيفت الكاميرا بسرعة لتلتقط أشياء تتجاوز قدرات رؤية الإنسان، بدءًا من سطح القمر وحتى نوع رفرفة أجنحة الطيور حال الطيران.

وقد لاحظ العديد من المعلقين اللاحقين مدى ما أحدثه التصوير من تغييرات ثورية فى الإحساس بالمكان والزمان والذاكرة والوعى البشرى؛ ففى مقالته المعروفة "العمل الفنى فى عصر الاستنساخ الآلى"، يصف فالتر بنيامين(*) التصوير الفوتوغرافى بأنه "أول وسيلة

(*) فالتر بنيامين Walter Benjamin (١٨٩٢-١٩٤٠): فيلسوف، وعالم اجتماع، وناقد أدبى، وواحد من أشهر أعضاء مدرسة فرانكفورت فى النظرية النقدية. المترجم

ثورية حقيقية للاستنساخ"، معتبراً أنه يتميز بقدرة استنساخية لا حدود لها[١٢]. وقد زعم العديد من مؤرخي التصوير الفوتوغرافي أن هذا الوسيط قد أحدث ثورة في الإدراك البصري، فقد قدم معنى جديدا أكثر اتساعا للإدراك الحسي في القرن التاسع عشر: يقول وليام إيفينز William Ivins: "بدأ القرن التاسع عشر باعتقاد أن كل ما هو منطقي حقيقي، وانتهى بالاعتقاد بأن كل ما له صورة فوتوغرافية هو الحقيقة وحده"[١٣].

على أن من السهل جداً نعت الفوتوغرافيا بالثورية. ومن الواضح أن التصوير لم يبدد العديد من التقاليد أو المعارف القائمة؛ فبادئ ذي بدء، خرج التصوير من رحم بحوث راسخة في بصريات العدسات الزجاجية وكيمياء الأملاح الحساسة للضوء، ولا يعتبر معرفة جديدة بزغت إلى الوجود بصورة مباغتة. وعلاوة على ذلك، فقد ورثت الفوتوغرافيا – بوصفها تكنولوجيا تمثيل بصري – الأعراف الجمالية، مثل المنظور الخطي الذي كان راسخاً في الفنون البصرية الأخرى. والحقيقة أنه لم يكن للتصوير الفوتوغرافي أن يبرز بوصفه "وجهة نظر حديثة" من دون التقاليد التصويرية لواقعية المنظور التي ورثتها عن طريق رسم المناظر الطبيعية[١٤]. وبالتالي فقد عزز التصوير الفوتوغرافي من التقاليد الراسخة وواقعية المنظور التي ورثها من فن الرسم الغربي ولم يتحدها. وأخيرا، شمل مصطلح "التصوير الفوتوغرافي" مجموعة واسعة من التقنيات والأشياء – بدءاً من أجهزة التجسيم البصري Stereoscopes إلى بطاقات الصور الفوتوغرافية للمشاهير carte-de-visites – والتي غالبا ما كان لها تأثيرات بصرية مختلفة جدا على الرائي. وهكذا يمكن النظر إلى التصوير على أنه كان بمثابة تقنية مثلت بعض استخداماتها أعراضا، وليست أسبابا، لتحولات أكثر عمقا في إعادة تنظيم الرؤية في القرن التاسع عشر[١٥]. ولكل هذه الأسباب، يمكن القول بأن التصوير قد وسع من أنظمة التمثيل القائمة، وعززها بقدر ما أحدث ثورة في وسائط المعرفة.

ومع ذلك، فقد أدرك العديد من كتاب القرن التاسع عشر الإمكانيات الثورية الكامنة في التصوير لمختلف فروع الفن والعلم. وسارع المعلقون بجمع المواضيع التي تبدو ملائمة للصور الفوتوغرافية، من اللوحات إلى الأمور العامة، بالإضافة إلى مجالات جديدة للدراسة بوسعها أن تستفيد من تلك الوسيلة، من علم الفلك إلى الجغرافيا.

وبالنسبة للهواة فى القرن التاسع عشر، فقد بدا التصوير مناسبًا لتسجيل ونشر المعرفة الجغرافية، فيقول وليام ليك برايس William Lake Price، فى عام ١٨٦٨:

"لقد أسهم التصوير الفوتوغرافى، وبطرق عديدة، فى زيادة المعرفة والسعادة البشرية، وسوف يستمر وبشكل متزايد فى ذلك الإسهام، فقد أتاح لنا أن نكون على ألفة مع كل جوانب عالمنا؛ من المناطق الاستوائية إلى القطبين، وسكانه، من النوبى الأسمر حتى الإسكيمو الشاحب، وإنتاجاته الحيوانية والنباتية، ومدنه، وطبيعة جباله"[١٦].

ومثل البواخر والسكك الحديدية والتلغراف، بدا التصوير مذيبًا للمسافة التى تفصل بين "هناك" و"هنا"، وتدفع بجمهور جديد ليقف أمام حقائق كانت تبدو له جد بعيدة. وهكذا كان للتصوير دور محورى فى إحداث تغييرات ثورية فى المخيلة الجغرافية لأوروبا وأمريكا الشمالية فى القرن التاسع عشر. ومن خلال قراءة متمعنة فى الكتابات النقدية المبكرة حول التصوير فى بريطانيا، وفرنسا، وأمريكا الشمالية، يبين جوان شوارتز Joan Schwartz أن التفكير فى التصوير الفوتوغرافى يكشف عن طرق جديدة لتصور العالم: فمن خلال عمليات الإنتاج والتداول والاستهلاك، أصبحت الصور أشبه بـ"وكلاء بصر" [بديل للعين البشرية] كما وصفها شوارتز، و"أداة فاعلة للخيال الجغرافى"، ونشاط تعريفى وسيط مع العالم المادى والبشرى[١٧].

الجغرافيا والفوتوغرافيا

كانت الجغرافيا، بالمعنى التقنى، مثلها مثل التصوير الفوتوغرافى، ابنة القرن التاسع عشر. وعندما عرض تالبوت تفاصيل تجاربه الفوتوغرافية فى الجمعية الملكية فى العام ١٨٣٩، لم يكن قد مر على تأسيس الجمعية الملكية الجغرافية سوى أقل من عقد من الزمان، وكانت قد انتقلت للتو إلى مقرها الصغير فى ٣ واترلو بلاس Waterloo Place، حيث عقدت اجتماعات منتظمة لزملائها- والذين لم يتجاوز عددهم حينئذ ثمانمائة زميل، وتنامت مكانة الجمعية فى منتصف القرن، لا سيما فى ظل فترات رئاسة السير رودريك مرشيزون Roderick Murchison، وتضخمت مواردها المالية بصورة كبيرة لتنتقل إلى مقر أكبر فى ١٥ وايتهول بلاس Whitehall Place، وفى عام ١٨٥٩، نالت

الميثاق الملكى والدعم المالى من وزارة الخزانة. ومع نمو الاهتمام العام بمجال الاستكشاف والتبشير فى أفريقيا وأعمال ديفيد ليفنجستون David Livingstone، زادت شعبية الجمعية وزاد معها عدد الزملاء بشكل كبير، ووصل عددهم بحلول العام ١٨٧٢ إلى أكثر من ثلاثة آلاف زميل، وظلت الجمعية المؤسسة الجغرافية الأهم (إن لم تكن الوحيدة) فى بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، بإشرافها على أعمال البعثات العلمية، والمسح، ورسم الخرائط على نطاق عالمى، وفى العقد السابع من القرن ١٩، انتقلت إلى مقرها الجديد فى ١ سافيل رو Saville Row، وسعت إلى دعم تدريس الجغرافيا فى المدارس والجامعات. وقد جمعت بين كونها مركزًا للمعلومات الجغرافية، وجمعية علمية، وناديًا للسادة من الرجال، ومنطلقًا للإمبراطورية، واحتلت الجمعية، ولا سيما من خلال رؤساء أقوياء مثل مرشيزون، موقعا محوريا بين المؤسسات العلمية البريطانية، والحكومة الإمبراطورية، والمجال العام على نطاق أوسع. والحقيقة إن الجمعية قد قامت برعاية وتوظيف الحماس الجماهيرى الكبير للاستكشاف الجغرافى وهيمنة "ثقافة الاستكشاف" فى بريطانيا الفيكتورية[١٨]، ومقارنة ببقية الجمعيات العلمية الأخرى، تميزت الجمعية الجغرافية بمكانة شعبية مهيبة وامتياز علمى كبير، وبالتالى فإنه ليس من المثير للدهشة أن يتبنى العديد من زملائها اهتماما نشطا بتكنولوجيا ثورية جديدة متمثلة فى التصوير الفوتوغرافى.

وقد كانت مقدرة التصوير الفوتوغرافى، كوسيلة جديدة لتسجيل الحقائق بصورة مرئية والإسهام فى تطوير معارف جديدة، محل اعتبار منذ اختراعه، وكانت الجغرافيا واحدة من مجموعة علوم، بما فى ذلك التاريخ الطبيعى، وعلم الفلك، والجيولوجيا، وعلم النبات، والطب، لدرجة جعلت المعلقين يرون أن بوسع الجغرافيا الاستفادة كثيرا من التصوير الفوتوغرافى، وهكذا بادر الجغرافيون بالاهتمام بهذا الوسيط: ففى ديسمبر ١٨٣٨، على سبيل المثال، كان ألكسندر فون هومبولت Alexander von Humboldt أحد أعضاء لجنة أكاديمية العلوم التى راحت تقيم اختراع داجير Daguerre، وأعجب هومبولت به أيما إعجاب، ولا شك أنه أدرك مدى فائدة ابتكار داجير بالنسبة للمسعى الجغرافى: فكان هومبولت من بين أوائل الألمان الذين اشتروا كاميرا داجير فى برلين، وقد أعطى

هومبولت داجير وصفا رائعا معتبرا إياه مناظرا لقمة جبل تشيمبورازو Chimborazo – قمة الأنديز العظيمة التى حاول أن يصعدها فى عام ١٨٠٢[١٩]. وفى العام ١٨٤١، قال جورج جرينوف George Greenough، رئيس الجمعية:

"إذا كان هناك فن بعينه قادراً على أن ينقل للعقل تصوراً لمثال ما فلا شك عندى أنه يتمثل فى التصوير الفوتوغرافى، فهو قائم على التأمل الانعكاسى، ويمنح الصورة ديمومة بقدر يزيد أو ينقص؛ وما المسافة والتقريب والمنظور بالنسبة له إلا وسيلة غاية فى السهولة تبارى قلم الرسام؛ فهو فاعل فى اللحظة الزمنية، وبيقين لا يخطئ"[٢٠].

والواقع أن تقدير جرينوف للتصوير الفوتوغرافى قد نبع إلى حد كبير من حقيقة أنه فن يشترك مع الجغرافيا فى نظرتها العلمية ثنائية الأبعاد للعالم، وأنه، كما أشار بول كارتر، وسيلة مهمة لإضفاء الشرعية على الزعم القائل بأن "الجغرافيا تمتلك القدرة على اختزال العالم بدقة فى إسقاط موحد"[٢١]. وبالنسبة لعلماء مثل جرينوف، فقد كانت المهمة الرئيسة للجغرافيا هى المسح ورسم الخرائط الدقيقة لسطح الكرة الأرضية؛ وهكذا وجد التصوير مكانا رحبا فى دوائر العلوم الجغرافية لقدرته على المساعدة فى رسم الخرائط، وقام السير رودريك مرشيزون، خلال فترة ولايته الثانية فى منصبه رئيساً للجمعية (١٨٥٦–١٨٥٨)، بتشجيع استخدام التصوير الفوتوغرافى باعتباره وسيلة دقيقة واقتصادية لإنتاج الخرائط[٢٢]. على أن التصوير الفوتوغرافى كان أيضا تجسيداً لمرادفات المراقبة والمحاكاة التى كانت محور عمل البعثات الجغرافية الفيكتورية بهدف وضع تصور للعالم بأسره، وعلق السير جون هيرشيل، وهو أول من نحت مصطلح "الفوتوغرافيا"، فى العام ١٨٦١، بأن الجغرافيا الوصفية المثلى هى التى "تظهر صورة حقيقية أمينة، أقرب إلى الصور، صممها داجير على ألواح فضية، دون ملاحظة منها أو تعليق"[٢٣]. فقد كان علم الجغرافيا، بتركيزه على رسم الخرائط والمسح الطبوغرافى وتسجيل الثروات الطبيعية والتخطيط الاستراتيجى، كان بمثابة تطبيق عملى بشكل مكثف. ومع ذلك، ولأنه مسعى يركز على الاستكشاف والغزو، وفهم سطح الأرض، عولت الجغرافيا على تطبيقات فيها الكثير من الخيال، وهكذا كان التصوير الفوتوغرافى مهمًا للجغرافيا لقدرته الرمزية على الإحاطة بالواقع الجغرافى، وكذلك فائدته العملية فى ترسيم المناظر الطبيعية بصريا.

أدى التصوير الفوتوغرافى مجموعة من الأدوار، رسمية وغير رسمية، فى جغرافية القرن التاسع عشر؛ فكان بمثابة أداة للاستكشاف، ولعب دوراً راصداً للمناظر الطبيعية، كما كان شاهدا على الحملات العسكرية، وسلاحًا فى يد التاريخ الطبيعى، ومنهجية للعلوم المهتمة بالأعراق، وتقنية للدعاية والتعليم. كما لعب التصوير دورا مهمًا فى تبادل الصور الجغرافية والمعرفة بين المجالات المختلفة من العلوم والثقافة الشعبية؛ فقد تبادلت أفرع العلم الصور الفوتوغرافية باستمرار، وخاصة الجغرافيا والأنثروبولوجيا، وأشكال الثقافة الجماهيرية، بما فى ذلك المعارض، وعروض الإسقاط الضوئى، والمجلات الشعبية، والكتب المدرسية. وكذلك كان له دور كبير فى مؤسسات مثل المتاحف والجمعيات الجغرافية والمعارض. وينطوى الأثر الأوسع نطاقًا للتصوير على الخطاب الجغرافى على مجموعة متنوعة من التطبيقات، من النشر التجارى وحتى التصوير الفوتوغرافى للهواة، والمؤسسات، ومن الجيش إلى الجمعيات التبشيرية. وعلاوة على ذلك، كان للصور جغرافيتها التاريخية الخاصة بوصفها موضوعات ذات معانٍ قابلة للتغيير يمكنها أن تشغل، فى وقت واحد فى بعض الأحيان، عدداً من "الفضاءات المكانية الاستطرادية" المختلفة من حميمية قاعات الرسم إلى قاعات المحاضرات فى أية جمعية علمية[٢٤]. وأود فيما يلى أن أركز على جانب واحد من هذه القصة، من خلال تحديد مكانة التصوير الفوتوغرافى فى الجغرافيا البريطانية، مع التركيز على بعض الأمثلة، كاستخدامه بوصفه أداة استكشاف ميدانية، فضلا عن كونه دليلاً بصريًا فى المساحات الحضرية للمؤسسات العلمية، ولا سيما الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن.

الفوتوغرافيا والاستكشاف

"إن كنا نتحدث عن الحقيقة وكل ما يتعلق بها، فإن الفوتوغرافيا جديرة تمامًا بأن تنال الثقة، وما يجرى من عمل الآن هو بمثابة استشراف لمستقبل له انعكاساته المهمة على كل فرع من فروع العلم.. تخيلوا لو أن لدينا صوراً حقيقية للفراعنة أو القياصرة، للرحالة وما شاهدوه، ولو أن بطليموس كان قد ألحق بسجلاته مثل تلك الصور، أو فعل

ماركو بولو ذات الأمر مع الأماكن التى قصدها والناس الذين التقاهم فى رحلته الشاقة. نحن الآن نصنع التاريخ، والصور الشمسية تزودنا بوسيلة لتدوين سجلات هويتنا، وما حققناه فى هذا القرن التاسع عشر من تقدم"(٢٥).

كانت هذه كلمات جون طومسون، المصور والجغرافى (١٨٣٧-١٩٢١)، فى محاضرته "الفوتوغرافيا والاستكشاف" التى ألقاها فى قسم الجغرافيا بالجمعية البريطانية لتقدم العلوم فى كارديف فى العام ١٨٩١. وبوصفه مصورا محترفا، ورحالة محنكًا، وجغرافيًا مخضرمًا؛ كان طومسون مناصرًا متحمسا لما حملته الفوتوغرافيا من مقدرات ثورية، ومن هنا أسبغ عليها هذا الاسم السحرى "الصورة الشمسية"؛ لتسجل بدقة كل ما يحيط بنا، فى عالم يتغير على نحو بالغ السرعة. ومن خلال عمله رحالة ومصورًا محترفًا، وكاتبًا له العديد من المؤلفات، بالإضافة إلى أنشطته العديدة بوصفه زميلا للجمعية الجغرافية الملكية، ومعلمًا لفنون التصوير الفوتوغرافى منذ العام ١٨٨٦، قام طومسون بمجهود ضخم للتعريف بأهمية التصوير الفوتوغرافى للجغرافيا البريطانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ومع حلول العام ١٨٩١، لم يعد التصوير الفوتوغرافى نشاطًا مقتصرًا على المتخصصين، وأضحت شركات من قبيل كوداك تنتج كاميرات يمكن الاعتماد عليها، بالإضافة لكونها أقل سعرا وقابلة للحمل، ومع ذلك، لم تترسخ مكانة التصوير الفوتوغرافى بوصفه وسيلة للمعرفة الجغرافية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من تلقاء نفسها، هذا لأن تعريف كلمة "جغرافيا" نفسها كان فى مرحلة إعادة صياغة. وقد تزامنت جهود علماء مثل طومسون للتعريف بالتصوير الفوتوغرافى بوصفه وسيلة دقيقة للتوصيف الجغرافى، مع اهتمام متزايد داخل الجمعية الجغرافية والجمعية البريطانية منذ العقد السابع فى القرن التاسع عشر لتأسيس "جغرافيا علمية"(٢٦). وتُظهر هذه الجهود أن مكانة التصوير الفوتوغرافى بوصفه وسيلة لاكتساب المعارف الجغرافية لم تتحقق بين عشية وضحاها، إذ كان التصوير الفوتوغرافى ومكانته فى جغرافيا العصر الفيكتورى، لا سيما أنشطة الاستكشاف، بمثابة محور المناقشات الدائرة حول وضع الجغرافيا بوصفها علمًا.

لقد أسهم التصوير الفوتوغرافى فى نشاط جغرافى قام على استكشاف الأراضى وغزوها. وقد قال أحد المعلقين فى العام ١٨٦٤: "إن أعظم وظيفة للتصوير الفوتوغرافى أنه قد أزال من دروب العلم عائقى المكان والزمن، وجلب عقولاً من الأراضى المتحضرة لتشهد ظواهر مساحات شاسعة من الأراضى لم تصلها الحضارة بعد، أو أنها أضحت فى حال احتضار هناك". ويستطرد قائلاً: "تحقيقا لتلك الغاية ولأهداف العلم، لابد أن يكون المصور مرادف المستكشف والعكس بالعكس"[٢٧]. ولأن التصوير الفوتوغرافى فى الأساس تكنولوجيا تقوم على جودة الضوء وانعكاسه، فقد اكتسب رمزية خاصة (صبغة روحانية) وصار جزءًا من خطاب جغرافى أساسه "لاهوتية الممارسة الاستعمارية"؛ حيث ترسخ الاعتقاد بأن هذا التمدد المتبادل للحضارة المسيحية والمعرفة العلمية هو بمثابة انتقال بالنور إلى "مجاهل معتمة" من الكرة الأرضية[٢٨].

إن منطلقى فى هذا المقال قائم على فرضية مفادها أن التصوير الفوتوغرافى قد أصبح، فى بعض الحالات، أداة للتجريبية العلمية والإمبريالية الغربية معًا: فتصوير العالم كان وسيلة لفهمه والسيطرة عليه فى آن واحد. ويتفق مثل هذا الرأى مع آراء بعض مؤرخى الخطاب الاستعمارى ونقاده الذين اعتبروا الفوتوغرافيا بمثابة تقنية للمراقبة عززت الرؤية الإمبراطورية بشكل لا لبس فيه[٢٩]. ولكننى، سعيًا وراء تفسير مرتبط أكثر بالسياق، فإننى لن أنشغل هنا بإبراز صورة نمطية للتصوير الفوتوغرافى الذى يسجل مجموعة ديناميكية وغير متجانسة من الممارسات، حيث يمثل عمل علماء الأنثروبولوجيا ومؤرخى العلوم تذكيرا مهما بضرورة المشاركة فى ممارسات مادية محددة يكون التصوير الفوتوغرافى جزءا لا يتجزأ منها، بدءًا من تقنيات العمل الميدانى إلى سياقات من العرض والاستنساخ القابلة للتغيير[٣٠]. وبغض النظر عن مبالغات المعجبين من العصر الفيكتورى بالتصوير، فإن التصوير قد صار بالتأكيد أداة مهمة للتوثيق والتعريف فى بريطانيا القرن التاسع عشر، وفى ذلك نوهت جنيفر تاكر فى عملها الرائد عن دور التصوير الفوتوغرافى فى العلوم خلال العصر الفيكتورى إلى أنه:

"يبدو من المناقشات التى دارت فى بريطانيا القرن التاسع عشر حول دور الصور الفوتوغرافية فى مجموعة متنوعة من البيئات – من البؤر الميدانية وحتى المختبرات بل وجلسات استحضار الأرواح – أن الفيكتوريين لم يعتبروا الأدلة المصورة صادقة دون قيد أو شرط، والحقيقة أنهم فسروا الوقائع المبنية على الصور الفوتوغرافية عبر مجموعة متنوعة من الطرق المختلفة"(٣١).

تظهر دراسة تاكر لتطبيقات التصوير فى مجالات الأرصاد الجوية وعلم البكتريا والعلوم الروحانية، خلال العصر الفيكتورى، أن هناك العديد من العمليات المعقدة التى تنطوى عليها عملية الوصول إلى اتفاق حول معنى الصور الفوتوغرافية ومدى دقتها. وعلى الرغم من أن تركيز تاكر هنا قد انصب على أدلة فوتوغرافية كان موضوعها ظواهر إيهامية مثل البرق أو الأرواح، فإننى أرغب فى تأكيد القول بأن الاستخدام العلمى للتصوير الفوتوغرافى فى العمل الميدانى الجغرافى كان محكوما أيضا بالقيود التقنية والعملية والثقافية والسياسية. وعلاوة على ذلك، فإن مصداقية المنتج الفوتوغرافى ودقته لم يتحققا بالبصريات والكيمياء وحدهما، ولكنهما تطورا عبر التفاعل مع سياقات الإنتاج، والتفسير، والعرض، حيث كان قبول المنتج الفوتوغرافى مشروطًا بمجموعة من العوامل، بما فى ذلك المكانة الاجتماعية للعلماء والأيديولوجيات المهيمنة على المؤسسات الجغرافية.

وسرعان ما كان للتصوير دور مؤثر فى مهام الاستكشاف لما وراء البحار، وظهرت دعوات كثيرة لاستخدام التصوير الفوتوغرافى فى البعثات الاستكشافية: فعلى سبيل المثال، حمل أحد أعداد دورية آرت يونيون Art Union (صدر فى العام ١٨٤٦) توقعا بأن يكون بوسع آلة التصوير الفوتوغرافى "من طراز تالبوت(*)" أن:

(*) سميت كاميرا تالبوت على اسم ويليام هنرى فوكس تالبوت الذى ابتكر فى العام ١٨٤٠ عملية التصوير الفوتوغرافى السلبى "الكالوتايب"، مستخدمًا ورقًا خاصًا حساسًا للضوء، وذلك على خلاف الأسلوب الذى اتبعه جوزيف نيبسولويس داجير. المترجم

"تكون من الآن فصاعدا مرافقًا لاغنى عنه لجميع البعثات الاستكشافية؛ فعن طريق التقاط صور شمسية لموضوعات طبيعية بارزة، سيكون بوسع المستكشف تحديد طريقه بدقة كبيرة، فيتجنب الشراك ويقلل من حجم المخاطر التى تكون فى انتظار غيره ممن قد يتبعون نفس المسار الذى سلكه"(٣٢).

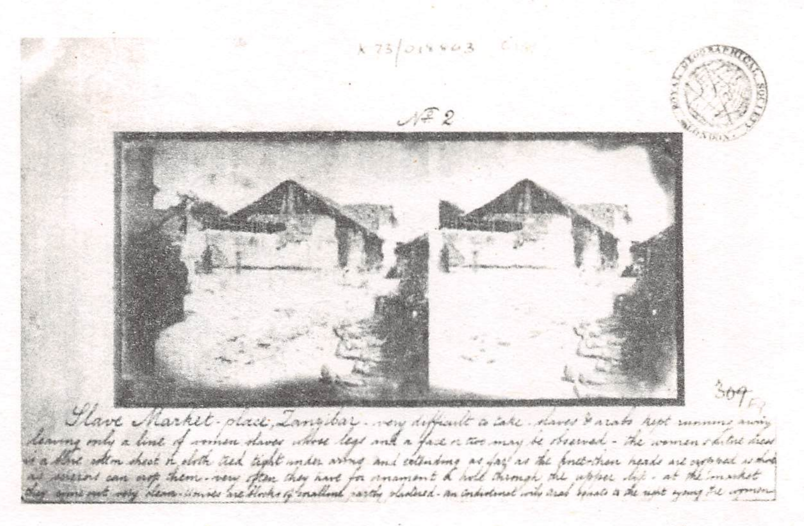
ومع ذلك، فقد كانت معدات التصوير الفوتوغرافى فى صورتها الأولى مكلفة وضخمة وصعبة التشغيل. وحتى منتصف العقد الخامس من القرن التاسع عشر، ظل التصوير الفوتوغرافى بعيداً عن متناول معظم الرحالة العاديين، أما من تمكنوا من حمل الكاميرات فقد كانوا فى كثير من الأحيان يواجهون صعوبات جمة جراء استخدام معدات معقدة فى ظروف غير مواتية.

فنجد، على سبيل المثال، أن الكولونيل جيمس أغسطس جرانت James Augustus Grant، المستكشف الاسكتلندى، قام بتصوير بعض الصور لزنجبار(*) فى بداية رحلته (١٨٦٠-١٨٦٣) مع جون هانينج سبيك إلى منابع النيل. وتبين صور جرانت المجسمة لزنجبار محاولة مثيرة للاهتمام لاستخدام التصوير الفوتوغرافى المجسم وسيلة جغرافية وصفية؛ حيث تجسد صورة "سوق العبيد فى زنجبار" على سبيل المثال فناء به طابور من العبيد الأفارقة القابعين على الأرض (الشكل ٨-١). ويسجل جرانت ملاحظاته الخاصة على المشهد، وهو يصف لنا مدى صعوبة التقاط الصورة: "لقد كان العبيد والعرب يهربون من الصورة، ولم يبق أمامى سوى طابور من النساء اللائى لا يُرى منهن سوى بعض السيقان والوجوه". وربما كانت الصعوبات التى واجهها جرانت فى محاولة إقناع سكان زنجبار بالتعاون معه لإنجاز بعض الصور الفوتوغرافية سببا

(*) زنجبار: اسم يطلق على مجموعة جزر واقعة فى المحيط الهندى تابعة لتنزانيا فى شرق أفريقيا وتبتعد عن الساحل المسمى تنجانيقا ٣٥ كلم (=٢٠ ميلا) و ١١٨ ميلا عن جنوب ممباسة (كينيا) و ٢٩ ميلا عن شمالى دار السلام، و٧٥٠ ميلا عن مدغشقر و٥٠٠ ميل عن جزر القمر. والجزر الرئيسة التى تشكل أرخبيل زنجبار هى أنجوجا وجزيرة بمبا وتومباتو ومافيا من بين ٥٢ جزيرة من الجزر، منها ٢٧ جزيرة صغيرة تتوزع حول بمبا، وزنجبار كلمة عربية محرفة أصلها بر الزنج. المترجم

وراء تخليه عن الكاميرا، على الرغم من النجاحات الأولية فى استخدامه لها خلال البعثة، ولجوئه للرسومات الملونة. ولم يكن بوسع الصور الفوتوغرافية التقاط الألوان أو تسليط الضوء على ملامح مميزة فى المشهد؛ لأنها كانت قاصرة فقط على اللونين الأبيض والأسود. وهكذا كان على جرانت استخدام الكلمات فى شرح ما ترتديه امرأة وشعرها والأوشام على جسدها، وكذلك المنازل المتاخمة للسوق. غير أن جرانت أراد أيضا لصوره أن تكون تمثيلاً دقيقًا وطبيعيًا؛ أى لقطة من رؤية مستكشف. ومن ثم نجده ينهى شرحه بالإشارة، بنبرة أخلاقية مميزة للرؤية الإمبريالية البريطانية: "عربى جالسًا القرفصاء إلى اليمين يتطلع إلى النساء". ويظهر لنا من ترقيم الصورة أن جرانت كان يقصد أن يتم عرض الصور فى تسلسل مع غيرها من الصور؛ بينما يؤكد الخاتم الرسمى للجمعية الجغرافية الملكية استخدام هذه الصور فى السجل البصرى للأرشيف(٣٣).

ولا ينبغى أن يفوتنا النظر فى اختيار التصوير المجسم فى هذه الحملة. فعندما توضع على بطاقة ليشاهدها مراقب واحد من خلال مجسام - وهى الطريقة المعتادة لمشاهدة مثل هذه الصور- فإن الصورتين، وكلتيهما ملتقط من زاوية مختلفة قليلا بواسطة كاميرا مزدوجة العدسة، تندمجان فى صورة واحدة لتصنع رؤية ثلاثية الأبعاد. وكما أشار جوناثان كرارى، فإن هناك امتزاجًا بين تاريخ المجسام والفوتوغرافيا بشكل عام، وكانت النتيجة هى تجاهل خصوصية المجسام بوصفه تقنية مشاهدة(٣٤). وحتى نقرب الأمر للقارئ فى وقتنا هذا، فإن هذه التقنية كانت بمثابة أداة تؤدى إلى استغراق الرائى بصريًا فى المشهد، ومع المجسام كان من الممكن استخدام التصوير الفوتوغرافى، بشكل غير مسبوق، لإعادة إنتاج المعايشة البصرية للمكان أمام ناظرى الرائى. وكان ديفيد بروستر، مبتكر هذه التقنية والعالم الذى نشر كتابًا عنها بعنوان "المجسام" فى عام ١٨٥٦، من المؤيدين المتحمسين للتصوير الفوتوغرافى خلال البعثات العلمية.



(شكل ٨–١): جيمس أغسطس جرانت، "رقم ٢: ساحة سوق العبيد فى زنجبار"، ١٨٦٠.
بتصريح من الجمعية الجغرافية الملكية، لندن.

كما تم الترويج لاستخدام التصوير المجسم فى الجغرافيا فى الجمعية الجغرافية الملكية. وفى العام ١٨٦٥، اقترح فرانسيس جالتون، العالم الموسوعى، مشروعًا لإنجاز "خرائط فوتوغرافية" من النماذج الطوبوغرافية ثلاثية الأبعاد، ولا سيما للبلدان ذات الطبيعة الجبلية، وتدعيمًا لفكرته، عرض جالتون عشر صور مجسمة صنعها ابن عمه روبرت كاميرون جالتون، الذى كان "مصورًا هاويا وبارعا"، حسب وصف فرانسيس له. وقد شملت الصور "جزيرة سانت بول" **St. Paul** (الشكل ٨–٢)، والتى أظهرت صورة جوية للجزيرة وتضاريسها وطوبوغرافيتها. وثمة محاولة متواضعة لإخفاء طبيعة الصور المكونة للصورة المجسمة.. وعندما ننظر إليها عبر المجسام، تعطينا الصور إدراكًا بمكان ثلاثى الأبعاد، كما لو أننا نطل على تضاريس الجزيرة من فوقها مباشرة. وقد قال جالتون على هذا النوع من "الخرائط الفوتوغرافية": إنه أفضل بكثير من طريقة رسم التضاريس عبر النقش الغائر، إنها نوع مغاير تمامًا من أنواع المحاكاة، كما أن دقة تفاصيلها أفضل بكثير وأشد إتقانًا من أى طريقة أخرى تستعين بالحفر، كما أن حيوية التضاريس تبدو مذهلة تماما"[٣٥].





(شكل ٨-٢): روبرت كاميرون جالتون، "جزيرة سانت بول، من أربعة أجزاء ضمت إلى بعضها، من نموذج نمساوى برونزى". الصورة من مقال فرانسيس جالتون:
"On Stereoscopic Maps, Taken from Models of Mountainous Countries,"،
مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٣٥ لعام ١٨٦٥، ص ٩٩-١٠٤.
بتصريح من الجمعية الجغرافية الملكية، لندن.

وعندما تراكم عدد كبير من مثل هذه الصور المجسمة بمرور الوقت، صار بوسع جغرافى ما فى قاعة الخرائط أو قائد عسكرى ما فى الميدان، استخدام مثل تلك الخرائط المجسمة، وبمقياس رسم مناسب، فى وضع تصور سريع وشامل لتضاريس أى منطقة. وعلى الرغم من أن مشروع جالتون لم يحظ بالانتشار الذى كان يأمله، فإن أهميته تكمن فى الطريقة التى جمع بها بين التصوير الفوتوغرافى وتقنية التجسيم ورسم الخرائط، وهى تعتمد على تقليد راسخ قديم لإسقاطات خرائط الأرض من نقطة مراقب عن بعد، كما أنها كانت بمثابة تمهيد لتطور حدث على المستوى العسكرى تمثل فى التصوير الجوى فى القرن العشرين[٣٦]. وبالطبع، فإن هذه التطورات لم تخطر أصلاً على بال جغرافيى العصر الفيكتورى. وفى عام ١٨٩١، لاحظ جون طومسون أن "المسح النموذجى مستقبلاً سيتم على يدى مهندس طيار يقوم بالتصوير من على متن منطاد"[٣٧].

وفضلا عن استخدام العلوم لها، فقد اكتسبت تقنية المجسام شعبية متزايدة فى وسائل الترفيه والتعليم على حد سواء، حتى إنه خلال العام ١٨٥٨ صار بوسع شركة المجسمات والتصوير الفوتوغرافى فى لندن أن تعرض لقائمة تضم أكثر من مائة ألف منظر من المناظر الطبيعية والمعالم والبشر من جميع أنحاء العالم، وندرك من وفرة مثل هذه المتاجر، التى تعرض لوسائل الترفيه المرئية بهذه التقنية، أن التصوير الفوتوغرافى قد أضحى بدءًا من أواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر وسيطًا تجاريًا للترحال الافتراضى، وأن الرحالة والمستكشفين قد وظفوا الكاميرا فى اقتناص الفرص التجارية بذات القدر الذى تم توظيفها لصالح المؤسسات العلمية[٣٨].

ولم تكن بعثة جرانت وسبيك أول بعثة جغرافية رفيعة المستوى تستعين بمعدات التصوير الفوتوغرافى، فقد استعانت قبلها بعثة الزامبيزى، بقيادة المستكشف/المبشر ديفيد ليفينجستون David Livingstone (١٨٥٨-١٨٦٣)، وبرعاية الجمعية الجغرافية والجمعية الملكية فى لندن، بمعدات التصوير الفوتوغرافى، وهنا برز دور المصور الرسمى ورسام الخرائط تشارلز ليفينجستون شقيق ديفيد، حيث استخدم تشارلز طريقة اللوح الرطب الكولوديونى، والتى رغم تميزها على طريقتى التالبو والكالو، عابها الكم الكبير من الأدوات المعقدة والخطوات التقنية، والطلاء، وعمليات التعريض والتحميض، وكذلك تثبيت ألواح الزجاج فى المكان المطلوب[٣٩]. وعلى الرغم من كم المصاعب والانتكاسات التى عانى منها تشارلز، والتى تنوعت أسبابها، ما بين إصابته بالملاريا والإرهاق، وحداثة خبرته فى التعامل مع التصوير الفوتوغرافى، فإنه قد عادإلى البلاد بنحو أربعين صورة سلبية مجسمة. وبالإضافة إلى ذلك كان جون كيرك John Kirk، "عالم النبات" والمسؤول الطبى عن البعثة، مصورًا هاويًا. وقد اصطحب معه معداته الخاصة، مستخدمًا لوحات محمولة جافة مسبقًا، وكذلك النيجاتيف المصنوع من الورق الشمعى[٤٠].

ومع اكتسابه تلك الصفة الرسمية مع البعثة، صار التصوير الفوتوغرافى وسيلة قوية ومعتمدة لتسجيل المناظر الطبيعية، والسكان، والنباتات، والحيوانات فى المناطق

المراد استكشافها. وفى رسالة مبكرة، اقترح ديفيد ليفينجستون على أخيه تشارلز أن يجهز معدات التصوير الفوتوغرافى قبل الشروع فى المراحل الأولى من البعثة من أجل "تأمين عينات من القبائل المختلفة... وعينات من الأشجار والنباتات أو الحبوب أو الفواكه والحيوانات، فضلا عن المشاهد اللافتة"(٤١). كما يوجه تعليمات مماثلة إلى توماس بينز، الفنان الرسمى للبعثة، وهى نقطة سأعود إليها لاحقًا، حيث إن حظوظ الفنان والمصور فى هذه البعثة كانت متباينة بدرجة كبيرة.

ومن اللافت للانتباه هنا أن تصنيف ليفينجستون للموضوعات التى تثير اهتمام المستكشفين إلى ثلاثة مجالات بصرية - والمتمثلة فى الإثنوجرافيا بمعناها الواسع، والتاريخ الطبيعى، والطبوغرافيا - قد مهد الطريق مستقبلاً للعديد من المجالات البصرية للتصوير الفوتوغرافى وتطبيقاته فى العلوم الجغرافية، وخاصة فى الرحلات. ويرجع ذلك إلى أن هذا التصنيف كان"علميا" على وجه الحصر واستفاد بشكل كبير مما هو متعارف عليه فى التصوير التجارى والفنى؛ حيث يقوم كلٌ من المصور والرسام بمسح السمات الطبوغرافية المهمة، ولا سيما تلك المتعلقة بالملاحة النهرية. وفى هذا الصدد كان التصوير المصاحب لهذه البعثات الاستطلاعية يرسخ تقاليد الممارسة الفنية ضمن المسح العلمى والتجريبى، وهى تقاليد يتم الاقتداء بها وليس من المفضل تجاهلها(٤٢). ومع ذلك، كان من الواضح أن ليفينجستون يريد استخدام قوة الإثبات المتأصلة فى الصور ضمن أعمال المسح التى يقوم بها. وهكذا اعتمد ديفيد ليفينجستون على الصور - جنبا إلى جنب - مع العديد من الخرائط والرسومات التى أعدها كابورا باسا Cabora Bassa فى وضع تقريره المكتوب عن البعثة والذى قدمه فى ديسمبر ١٨٥٨ إلى وزير الخارجية الجديد اللورد ملمسبورى Malmesbury، وتم عرضه لاحقًا فى الجلسات المسائية للجمعية الجغرافية الملكية(٤٣). وفى معرض وصفه للاستكشافات التى أنجزها رفيقه فى الأشهر الأولى للبعثة لمناطق الجنادل فى نهر الزمبيزى، أعرب ليفينجستون عن قناعته بإمكانية مرور قارب نهرى عبر تلك المسارع المائية بـ"سلاسة" عندما يكون النهر فى حال الفيضان. وعزز تأكيده بأن نوه إلى أن "الرسم التخطيطى الدقيق والصورة كانا لأسوأ جندل شهدناه حتى ذلك الحين"(٤٤). وأوضح ديفيد

ليفينجستون أنه قد أدرج الرسومات بالألوان المائية والصور مع تقريره "لأننى أعتقد أن هذا أفضل وسيلة لنقل تصور واضح عما أقصده"، مشيرا إلى الكيفية التى جسدت بها تلك الصور الفوتوغرافية الصخور والقنوات فى النهر[٤٥]، وبالتالى حاول ليفينجستون استخدام الصور للتأكيد على دقة ملاحظاته وكذلك دليل على إمكانية الملاحة للقوارب البخارية بطول النهر. وقد احتاج ليفينجستون إلى حشد مجموعة من الأدلة الداعمة لتأكيد الطلب الذى قدمه للحصول على مركب نهرى جديد، وكذلك لتبرير قيامه بالبعثة من الأساس[٤٦]. وهكذا كان على ليفينجستون التأكيد على القيمة الإثباتية للصور الفوتوغرافية، فقد نبعت مصداقيتها، مثلها مثل الخرائط والرسومات، من تنفيذها ميدانيا من قبل أعضاء موثوق فيهم فى فريق البعثة، ومن ثم صادق عليها ديفيد ليفينجستون بنفسه.

وكما هو الحال مع مسح المناطق الطبيعية، فقد كان الرأى أن التصوير الفوتوغرافى قد يكون ذا فائدة كبيرة فى رصد نباتات وحيوانات الأراضى البعيدة وتسجيلها؛ واستخدم التصوير فى بعثة الزامبيزى، على سبيل المثال، وسيلة لمراقبة التاريخ الطبيعى. وهكذا قام تشارلز ليفينجستون بتصوير الحيوانات التى اصطادها المستكشفون، لا سيما الضخمة منها والتى لا يمكن اصطحابها فى رحلة العودة. وأدرج ديفيد ليفينجستون صورة مجسمة لفرس النهر، كان قد التقطها تشارلز فى التقرير الذى بعث به إلى وزير الخارجية، معقبًا بأنها ستثير اهتمام البروفيسور أوين، كما التقط تشارلز أيضا صورا للأشجار، ولا سيما شجرة الباوباب Baobab، على أن جون كيرك، "عالم النبات ذا الخلفية الاقتصادية "الذى سبق ذكره، كان هو من أظهر كفاءة متميزة فى الاستعانة بالتصوير الفوتوغرافى وسيلة لتسجيل عينات النباتات، وأنواع الغطاء النباتى والأشجار المختلفة، ونجد على سبيل المثال أن من بين الصور المميزة واحدة تصور مشهداً طبيعيا بالقرب من منطقة سينا Senna، تبدو فيها شجرة باوباب كبيرة وشجرة تمر هندى أخرى كبيرة على البعد، كما نرى شجرة مويفا moevwa أصغر حجمًا وجحر نمل كبيراً فى منتصف مقدمة الصورة، بينما بالكاد نرى حافة كوخ فى أقصى اليمين من الصورة (الشكل ٨-٣). وقد أرسل كيرك الصور، مع الرسومات،

وتعليقاته عليها، والعينات النباتية، إلى حدائق النباتات الملكية فى كيو(*)، المقر الإمبراطورى البريطانى لعلوم الطبيعة، كما قام كيرك بتقديم تعليق مفصل على تلك الصورة التى التقطها ليقدم مزيداً من المعلومات الاقتصادية والنباتية.



(الشكل ٨-٣): جون كيرك، "مشهد بالقرب من سينا، شجرة باوباب إلى اليسار، وجحر نمل إلى اليمين فى مقدمة الصورة، وشجرة مويوفا قبالة شجرة تمر هندى ضخمة"، يوليو ١٨٥٩. المكتبة الوطنية فى إسكتلندا. Acc. 9942/40. بتصريح من السيدة. دافنى فوسكيت.

وكان السكان الأصليون من بين محاور التركيز المتميزة الأخرى للعديد من البعثات الجغرافية. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت عملية تمحيص التصنيف العرقى جارية بالفعل، واستخدمت الفوتوغرافيا ضمن أسلوب يرمى إلى جمع بيانات إثنية دقيقة وقابلة للمقارنة(٤٧). ففى بعثة الزامبيزى، على سبيل المثال، وجه ديفيد ليفينجستون شقيقه تشارلز لاستخدام التصوير الفوتوغرافى فى جمع "معلومات عن

(*) كيو Kew: ضاحية على مقربة من لندن. (المترجم)

سمات القبائل المختلفة... من أجل تحقيق أهداف إثنولوجية". وقال له ناصحًا: "لا تختر الأقبح، بل عليك تصوير أفضل عينة من أهل البلد ممن ترى أنهم يمثلون أنموذجًا لعرقهم"(٤٨). وقد كانت تلك القراءة للجسد البشرى بوصفه مؤشرًا على التركيبة الأخلاقية الداخلية مسألة ممنهجة ضمن عدد من المجالات المتداخلة وذات الصلة، بما فى ذلك علم الفراسة وعلم الأعراق البشرية، فضلا عن تقاليد وأعراف محاكاة الأشخاص فى الفن(٤٩).

ومن بين صورتين تبقتا لتشارلز ليفينجستون من بعثة الزامبيزى تصور واحدة امرأتين من أفريقيا، تحمل إحداهما رضيعا على ظهرها، وأخرى واقفة تطحن الذرة بينما يجلس صبيان صغيران على الأرض يمسكان بالسلال (الشكل ٨-٤)(٥٠). وقد التقطت الصورة للمرأتين منهمكتين فى الحركة، وكانتا على علم بعملية التصوير وبوجود كاميرا. وتعد الصورة أبلغ دليل على اهتمام تشارلز بالتقاط ما وصفه بـ"أهل البلد وهم فى مشاغلهم وأنشطتهم" استجابة لتعليمات شقيقه. وقد نصح ديفيد تشارلز قائلاً: "إذا كان ذلك ممكنا، التقط صوراً جماعية للرجال والنساء والأطفال معًا"(٥١).

ومع ذلك، فإننا لا نجد جدوى ظاهرة لمثل هذه الصورة فيما يتعلق بأية مباحث إثنولوجية؛ فالشخصيات هنا لم تصور كلٌ على حدة، كما أنها لا يمكن النظر إليها فى مجملها بوصفها "عينات مميزة" من جهة "أنواع الأجناس" التى كانت قد بدأت فى صياغة هيئة محددة لمجال التصوير الأنثروبولوجى، كما أنه على سبيل المثال ليس ثمة أساس للقياس أو مناظر مفصلة لأجزاء من الجسم، وواقع الحال يقول بأن موضوع الصورة، والذى يتضمن أدوات مادية وعلامات على الممارسات الزراعية، فضلا عن الأشخاص، يبدو كما لو كان مختارا بعناية ليعبر عن أمل ديفيد ليفينجستون فى استغلال هذه القوة العاملة الأفريقية فى مستعمرة أوروبية فى مرتفعات شاير(*)(٥٢). فلقد كانت هذه الصورة مهمة لذاتها، وليس لأى غرض إثنوجرافى، على نحو ينم عن

(*) مرتفعات شاير Shire Highlands: مرتفعات هضبية فى جنوب ملاوى إلى الشرق من نهر شاير. (المترجم).

الاهتمام بالتصوير التجارى الذى قد يحقق أرباحًا، جنبًا إلى جنب مع استيفاء الأغراض العلمية، وهذا من شأنه أن يفسر لنا أيضا تعليق تشارلز، الذى كتبه فى رسالة إلى زوجته خلال الجزء الأول من الحملة: "لقد تحصلت على بعض الصور الجيدة التى آمل فى بيعها فى إنجلترا"(٥٣). وهو ما ينم عن بعض الدوافع التجارية الشخصية المختبئة فى الغرض العلمى الظاهرى، لقد بدا تشارلز مهتمًا بصفة خاصة بتصوير النساء الأفريقيات، وقد نوه لاحقًا بقوله: "لقد التقطت بعض الصور- اثنتين للنساء، واحدة لهن وجرار المياه على رؤوسهن، وأخرى وهن يرتدين أردية احتفالية"(٥٤). وهكذا، وعلى الرغم من تأكيده لاحقًا على المصداقية العلمية للصور الفوتوغرافية، فتشارلز أبدى اهتماما أقل بخدمة متطلبات علم المراكز الحضرية الكبرى مقارنة باهتمامه بالتقاط صور لمشاهد خلابة وغير عادية يمكن تسويقها تجاريًا. غير أن هذا التمييز بين التجارى والعلمى كان تمييزا مربكًا للغاية؛ وقد كان الجدل حول الحدود الفاصلة بين هذا وذاك فى جوهر العديد من مناقشات الجمعية الجغرافية الملكية فى الحقبة الفيكتورية، ومحاولاتها التعريف والترويج لهذا الفرع الجديد من العلوم.



(الشكل ٨-٤): تشارلز ليفينجستون، صورتان بطريقة التجسيم
تم التقاطهما خلال بعثة الزامبيزى (١٨٥٨-١٨٦٣)، جون موراى، لندن.

وهكذا، كان تبنى التصوير الفوتوغرافى، فى هذا المجال، بمثابة اكتشاف وسيلة جديدة وقوية لتقديم المعلومات حول التضاريس والتاريخ الطبيعى وعلم الأعراق البشرية لبقاع مختلفة من العالم. على أن تطبيق التصوير الفوتوغرافى، فضلا عن ترسيم الخرائط والرسم وجمع الأدلة العلمية، لم يكن بالتطبيق المحايد؛ لأنه كان جزءا من العمل فى بعثات كانت أهدافها المعلنة تتمثل فى التأسيس لمستوطنة أوروبية وتعزيز المصالح التجارية، وكان هذا بالتأكيد هو الحال مع بعثات ديفيد ليفينجستون إلى أفريقيا، والتى سعت إلى جلب التجارة والتبشير بالمسيحية، بالإضافة إلى الحضارة بصورتها الأوروبية إلى "القارة السوداء"، فأضحى التصوير الفوتوغرافى جزءا من تلك الروح، كما كان وسيلة مثالية لترسيخ صورة أفريقيا باعتبارها قارة فارغة، وفضاء مفتوحا، بما يخدم مصالح الاستعمار ومستقبله. وواقع الحال يبين لنا أن رؤية ليفينجستون الاستعمارية هى التى حكمت تطبيق فنون التصوير فى هذا المجال، وصارت الإثنولوجيا والتاريخ الطبيعى و"المناظر الطبيعية"، رغم تداخل هذه المجالات، تمثل بؤر تركيز ذلك المسح والقياس والتدقيق العلمى، وكذلك موضوع جماليات التصوير الفوتوغرافى التجارى. وهكذا نرى أنه فى حين وجه تشارلز ليفينجستون كاميرته إلى الأفارقة أنفسهم، فإن كاميرا جون كيرك تعمدت أن تظهر لنا مشهداً للحياة البكر النباتية الصرفة، والتى تكاد لا ترى فيها إنسانا واحداً؛ فقد تعمد كيرك استبعاد العنصر البشرى من كادرات صوره الأفريقية، حتى إنه صار يظهر مصادفة وكأنه متطفل على المشهد الرئيس، كما هو الحال فى الصورة التى التقطها لمناظر طبيعية وأشجار بالقرب من سينا (انظر الشكل ٨-٣ أعلاه)، بل إن المصور لم يستعن بالأشخاص ولو من منطلق إعطاء الناظر إحساساً بحجم تلك الأشجار والتضاريس، على النحو الذى يعمد إليه أى مصور آخر. وفى الواقع لم يكن السبب، وراء ابتعاد كيرك عن التقاط صور فوتوغرافية للبشر، ضعف الإمكانيات التكنولوجية التى أتيحت له، فقد كان كيرك صاحب رؤية انتقائية للسمات الطبوغرافية والعينات النباتية، وقد عكست تلك الرؤية ضيقا فى الأفق ونظرة أحادية، سعت إلى حصر مهمته فى إطار دوره كفرد فى تلك البعثة، على النحو الذى فرضه ليفينجستون. كما أن رؤية كيرك الانتقائية تعكس أيضاً

"توجها نفعيا محددا"، حسبما عبر ديفيد ليفينجستون عنها، تتمثل فى نظرة الأوروبيين إلى أفريقيا كقارة بلا تاريخ، وأن تاريخها لم يبدأ إلا مع الاستعمار. وجنبا إلى جنب مع العرض بالخرائط والكتابة الوصفية، تم استخدام التصوير الفوتوغرافى بطريقة انتقائية ضمن خطاب جغرافى عمد إلى تفريغ بيئات بعينها من وجود الإنسان بها، مما أدى فى النهاية إلى عزل الشعوب الأصلية عن موائلها(٥٥). وانطلاقا من هذا المنظور، أصبحت صور التضاريس والعينات النباتية مكافئا لتقديم "عينات" إثنوجرافية، وفى كلتا الحالتين، صارت الكاميرا وسيلة قوية للتعريف ببيئات غير مألوفة وترجمة للأمكنة "غير المكتشفة" إلى جغرافيا معلومة.

وبحلول العقد السادس من القرن التاسع عشر، زاد ارتباط التصوير الفوتوغرافى بالاستكشاف، حتى على الرغم من الصعوبات التى تفرضها الظروف البيئية القاسية وضخامة الأجهزة والمعدات، ولم يجد فيه العديد من المستكشفين تهديداً لمكانتهم، بل على العكس وجدوا فى التصوير الفوتوغرافى ضالتهم واستخدموه فى التقاط وعرض ما صادفوه من محن وما حققوه من إنجازات. فمثلا، اصطحب الرحالة جيمس تشابمان آلة التصوير فى رحلات الصيد والتجارة فى مجاهل جنوب أفريقيا فى الفترة من ١٨٥٩ حتى ١٨٦٣(٥٦)، وفى ١٨٥٩/١٨٦٠، رافق تشابمان الرحالة توماس بينز، بعدما استبعد هذا الأخير من بعثة ليفينجستون إلى نهر الزامبيزى، حيث قصدا شلالات فيكتوريا على ذلك النهر. وفى رسالة بعث بها فى يناير ١٨٦٠ إلى السير جورج جراى، حاكم منطقة رأس الرجاء الصالح، أوضح تشابمان كيف وقعوا أسرى مشاكل المرض والجفاف وانهيار الروح المعنوية، والتى تفاقمت بسبب الفشل، فكتب يقول:

"مع كل هذا الكم من خيبة الأمل، لست نادما على أننى لم أتمكن من العودة ولو بصورة واحدة جيدة، وإنى لمتيقن من أن معاليكم يوافقنى الرأى"(٥٧).

وهكذا نجد أنه، وحتى فى وقت مبكر، مثل العام ١٨٦٠ كان ينظر إلى فشل التسجيل الفوتوغرافى على أنه مرادف لفشل رحلة الاستكشاف نفسها؛ فقد أعرب تشابمان عن أسفه العميق لفشله، وأخبر السير جورج جراى فى عام ١٨٦٠: "إننى لم أدخر جهداً على الإطلاق حتى أنجح. وقد خصصت أياماً كاملة دون أن أحظى

بنتائج إيجابية رغم محاولتي".[٥٨] وأتت جهود تشابمان في التصوير الفوتوغرافي ثمارها في استكشافاته اللاحقة بين عامي ١٨٦٠-١٨٦٣، عندما تمكن أخيرا من التقاط صور لشلالات فيكتوريا، وتظهر صورة الشلال الأبيض وهوة من الصخور نلمحها وراء بعض النباتات الداكنة في مقدمة الصورة، كما لو أنها تبوح لنا بأن المستكشف الذي كاد يصيبه اليأس قد بوغت بهذا المشهد (الشكل ٨-٥). وهكذا استمر تشابمان حتى حاز مجموعة كبيرة من الصور، وتم عرض الكثير منها في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧، كما أرسل تشابمان أيضا صورا فوتوغرافية - من خلال السير جورج جراي - إلى الجمعية الجغرافية الملكية على أمل أن يحظى باعتراف أوسع نطاقًا بأسفاره[٥٩]. ويتبين لنا من هذه الأمثلة كيف كان التصوير يستخدم ضمن الخطاب الجغرافي باعتباره شاهدا فضلا عن دوره الاستعماري، ومثله مثل ديفيد ليفينجستون، كان جيمس تشابمان يحلم بالاستفادة من الملاحة في نهر الزامبيزي في إقامة مستوطنات استعمارية والاستفادة التجارية من وسط أفريقيا.

ومع ذلك، لا ينبغي لنا أن نتصور أن الصور كانت مناسبة دوما لمهام الاستكشاف الجغرافي؛ فحتى لو لم يكن تشارلز ليفينجستون قد نسي المكونات الكيميائية لعملية التصوير الفوتوغرافي، عندما زارت بعثة ديفيد ليفينجستون شلالات فيكتوريا في العام ١٨٦٠، فإنه من المشكوك فيه أن تتمكن الكاميرا وقتذاك من الإحاطة بنطاق وحجم ذلك المعلم، إذ نجد أن اللوحة المرسومة بالألوان المائية والرسم الأولي (إسيكتش) بالقلم الرصاص، اللذين رسمهما ديفيد ليفينجستون في ذلك الحين أثناء زيارته الثانية إلى الشلال، تحققان جميع الاشتراطات المطلوبة بما يعكس لنا حجم ومدى النهر والوديان. وفي حين أن جميع تقنيات التصوير كانت قاصرة في استحضار هذا الكم من الظواهر الحسية الكامنة في هذا الموقع الدراماتيكي، كان الإسكيتش البسيط السريع المرسوم من عدة زوايا مختلفة أقدر في الإحاطة بحجم المشهد وتفاصيله، مقارنة بالتصوير الفوتوغرافي ذي الآلة الثابتة في بقعة واحدة من الأرض، وذي الكادر المحدود للصورة. والحقيقة أنه بالرغم من نجاح جيمس تشابمان في تصوير شلالات فيكتوريا في نهاية المطاف عام ١٨٦٣، فإن صورته الصغيرة الضبابية لم تنقل الكثير مما في المشهد

من حراك أو حجم أو ألوان، على العكس من اللوحات والرسومات التى قدمها صديقه توماس بينز. وبالمثل، فمع أن التصوير كان مفيدا فى تسجيل أنوا ع أكبر من النباتات، لا سيما الأشجار، فلم يكن مجدياً فيما يتعلق بالعينات النباتية، حيث يتحتم رسم تفاصيل اللون والملمس بل وحتى البذور.



(الشكل ٨-٥): جيمس تشابمان، شلالات فيكتوريا، عام ١٨٦٣
بتصريح من الجمعية الجغرافية الملكية، لندن.

وعلى الرغم من أن التقنية الفوتوغرافية لم تكن بعد قد تطورت بصورة كبيرة، فالتصوير الفوتوغرافي، وبحلول العام ١٨٩٠، احتل مكانته كأداة للاستكشاف الجغرافي، وأمكن للرحالة والمستكشفين الاعتماد على أفلام الجيلاتين والكاميرات المحمولة في تسجيل رحلاتهم، وكما قال جون طومسون في عام ١٨٩١: "بوسع المستكشف أن يحيل القارئ إلى الصور التي التقطها في طريقه حتى يعقد لسان كل ناقد شكاك، ويقدم دليلاً دائمًا على ما تم بذله من جهد حثيث"[٦٠]. والحقيقة إن المستكشفين والمصورين، وفي معرض "عقد لسان كل ناقد شكاك" وإبراز منجزاتهم، لطالما قدموا حكاياتهم عن الصعوبات التي واجهتهم لأجل التقاط تلك الصور، وهذا هو بالتأكيد ما حصل عام ١٨٨٦ مع فاريني G. A. Farini خلال رحلته، التي استعان فيها "ببندقية، وكاميرا، ودفتر"، عبر صحراء كلهاري، في واحدة من أشد مغامرات الاستكشاف والتصوير الفوتوغرافي إثارة؛ يحكي لنا فاريني أن رحلته قد شهدت "بذل أقصى الجهود البدنية، واستخدام أقصى حدود الكفاءة في التصوير الفوتوغرافي من أجل التقاط أكبر عدد من الصور ومن زوايا مختلفة لأعتى شلالات العالم، أي المائة شلال على نهر الأورانج"[٦١]. وهكذا كانت الكاميرا عنصراً رئيسًا في قصة فاريني كإحدى وسائل مغامرة الحصول على المعرفة، وإثبات جدارة المستكشفين، وكانت هي الدليل الذي لا يدحض على ما امتلكه المستكشف من مهارة ومثابرة وإقدام على المغامرة وشجاعة في مواجهة الحيوانات البرية والشلالات، في أي مكان، وبالتالي لم تستخدم الكاميرا فقط وسيلة لقهر المكان والسيطرة عليه، على الرغم من أن فاريني ذاته قد عبر عن سعادته بإذهال السكان الأصليين والهيمنة عليهم من خلال الكاميرا[٦٢]. كما استخدم فاريني ورفيقه المصور "لولو" Lulu، وكلاهما أمريكي الجنسية، التصوير الفوتوغرافي وسيلة ينال بها المستكشف الاحترام العلمي والاعتراف بمؤهلاته في بريطانيا، بعدما قاما بعرض الصور التي التقطاها في معرض فوتوغرافيا في لندن عام ١٨٨٥، وفي الجمعية الجغرافية الملكية في مارس ١٨٨٦ لتصاحب رواية فاريني السردية[٦٣]. على أن سرد فاريني الذي جمع بين الوصف الجغرافي وحكايات

المغامرات أدى إلى التشكيك فى المصداقية العلمية لبعثته، وصارت الصور ذاتها محل ارتياب بسبب مبالغات الحكى عن محاولات الهروب من الموت جوعًا، والفكاك فى آخر لحظة من الحيوانات المفترسة، والأناس الهمجيين، وزعم فارينى أن رحلته قد فندت "التصور السائد منذ فترة طويلة عن أن كلهارى ما هى إلا برية قاحلة"(٦٤). لكن الحقيقة أن صحارى كلهارى لم تحظ لدى فارينى سوى بالقليل من الاهتمام الوصفى ولم تكن سوى خلفية لسرد المغامرات والمواقف الغريبة. وفى حال تساؤل الجمهور متشككا عن السبب وراء عدم وجود صور لهذه الحكايات المثيرة، كان فارينى يرد بأسف بعدم إمكانية استخدام الكاميرا فى مثل تلك المواقف(٦٥). وتبين لنا مثل هذه الروايات أن الصور الفوتوغرافية خلال رحلات وبعثات ذلك العصر لم تكن كافية فى حد ذاتها، بل كانت هناك حاجة كذلك إلى مجموعة من الأدلة الداعمة الأخرى.

كما اعتمد العديد من المصورين ذوى الدوافع التجارية على هذا الأسلوب السردى فى وصف مغامراتهم الفوتوغرافية فى المناطق النائية أو المجهولة؛ فنجد صموئيل بورن، المصور المعروف والذى مكث فى الهند بين عامى ١٨٦٢ و ١٨٧٢، قد استعان بلغة الحملات العسكرية والغزو الإمبراطورى فى وصف رحلات التصوير الفوتوغرافى فى شمال الهند، فى سلسلة من المقالات نشرت فى "الدورية البريطانية للتصوير الفوتوغرافى"، وسرد على القارئ كيفية خروجه فى رحلة استغرقت تسعة أشهر إلى كشمير عام ١٨٦٤ بصحبة ستة خدم، وستة من الحامل الفاخرة المعروفة باسم الداندى Dandy، واثنين وأربعين حمالاً، "كان جيشا لا بأس به فى حد ذاته". وكان بورن حريصًا على أن يخبر القارئ بأن الداندى وصف لا يخص به نفسه، بل هى المحمل الذى كان يقله. ويحكى أن معدات التصوير الفوتوغرافى وحدها كانت تزن عشرين حمولة كاملة، وأن خيمة التحميض كانت ترتفع عشر أقدام وعلى مساحة عشر أقدام مربعة. وبالإضافة إلى ذلك، اصطحب خياما إضافية، وأغطية ومفارش، ومستلزمات رياضية، وكتبا، وأثاثا، وقدرا لا بأس به من قوارير كحوليات النبيذ من نوع

براندى هينيسى Hennessy، وهو نفسه قد رأى ضرورة اصطحاب مثل تلك المستلزمات "بالنظر إلى أننى سأمكث بمفردى قرابة شهرين فى مقاطعات ومناطق نائية دون أن ألتقى أى أوروبى، أخذا فى الاعتبار ندرة الكلام مع هندوس متخلفين". وقد روج بورن لصوره من خلال ترسيخ صورة مغامرته فى بيئة غير معروفة وغير متحضرة، بل وربما تبدو عدائية[٦٦].

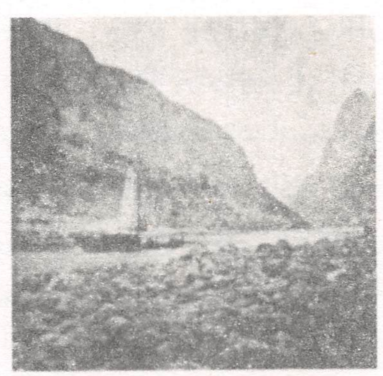
وفى سياق مشابه يشير جون طومسون، المصور التجارى والجغرافى المعروف، إلى الصعوبات التى واجهها فى ظل المناخ المدارى وما صادفه من أمور عدائية خلال رحلته للتصوير الفوتوغرافى فى الصين. ومن موقعه كزميل للجمعية الجغرافية الملكية منذ عام ١٨٦٦، روج طومسون للصور التى التقطها بوصفها فنًا وعلمًا فى آن واحد. وهكذا، وفى العام ١٨٧٣، عرض فى الجمعية الجغرافية الملكية مجموعة من الصور التى التقطها فى جزيرة فرموزا(*) الصينية، كما روج طومسون لأعماله من خلال حرصه الدؤوب على نشر الكتب التى احتوت صورًا فوتوغرافية، وقد أدت مسوحات طومسون الفوتوغرافية واسعة النطاق فى الصين (١٨٧٣-١٨٧٤)، ولندن (١٨٧٨)، وقبرص (١٨٧٩)، على مدى السنوات التالية، إلى شهرته لدى الجمعية الجغرافية الملكية كمصور وعلاّمة فى الجغرافيا[٦٧]. وقد وجد طومسون فى التصوير الفوتوغرافى وسيلة أساسية لتقديم المعرفة الجغرافية، وكما يقول: "ما يتوافر فى هذه الصور من صدق وأمانة يقدم أفضل مقاربة ممكنة لوضع القارئ فى قلب المشهد الذى يطالعه"[٦٨].

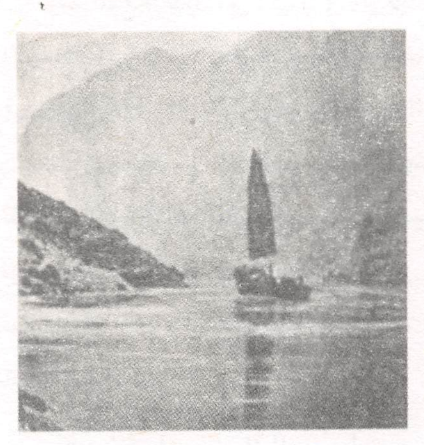
فضل طومسون استخدام طريقة اللوح الرطب والتى تقدم صورًا فوتوغرافية تتميز بالتفاصيل، مما أضفى على الصور قيمة علمية لدى الجمعية. وبعد سنوات، استعرض هـ. ر. ميل H. R. Mill فى الجمعية الأثر الكبير لصور طومسون التى التقطها لكمبوديا والصين، وهو يقول مشيدا "بتلك الدقة الرائعة للتفاصيل": "بوسع الشرائح المحفوظة

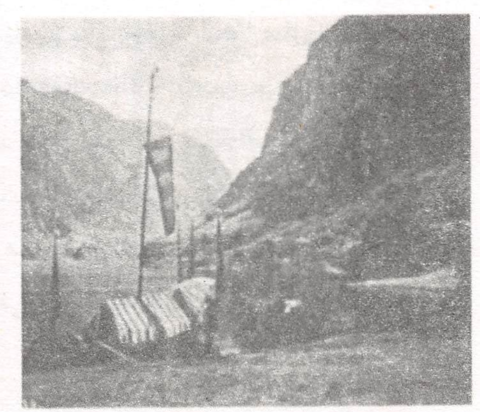
(*) فرموزا Formosa: هو الاسم التاريخى الذى كان يطلق على "تايوان" حاليًا. (المترجم)

لدى الجمعية، والمصنوعة من نيجاتيف السيد طومسون أن تقبل الفحص لكل مليمتر مربع فيها بواسطة مجهر قوى"(٦٩). وكغيره من المصورين المحترفين، كان طومسون يشاهد الجغرافيا من خلال العدسة، وفى الوقت نفسه، كان يجد الدافع فى رومانسية استكشاف المناظر الطبيعية المجهولة بالكاميرا. وفى أوائل العام ١٨٧١، استكشف طومسون أعالى نهر اليانجتسى Yangtze (كيانج Ciang)، وسرد تفاصيل رحلته عبر سلسلة من الصور، بالإضافة إلى السرد المكتوب. وفى كتابه "عرض مصور للصين وشعبها" ، قام طومسون بترتيب صوره الكبيرة وتعليقاتها بصورة متسلسلة وبطريقة سردية شيقة(٧٠). وهكذا نجد إحدى صفحات الكتاب، وهى تعرض سلسلة من أربع صور تمثل جزءاً من السرد البصرى للرحلة عبر النهر، حيث تظهر مناظر لضفة النهر والقوارب العابرة فيه (الشكل ٨-٦). وكان حرص طومسون واضحاً على عرض الطبيعة الخلابة لنهر اليانجتسى، كما أنه أراد عبر الصور رسم خريطة للنهر وتحديد مدى ملاءمته لحركة السفن البخارية. ومن خلال عرضه لسلسلة من الصور فى صفحة واحدة، قدم طومسون للقارئ صوراً فى كل من الزمان والمكان؛ ليصيغ رحلته على شكل سلسلة من المناظر. ومن خلال الربط بين هذه الصور المرقمة وتعليقاته المكتوبة عن رحلته، قام طومسون بترسيم النهر والعوائق المحتملة أمام سفن البخار، بما فيها الصخور فى المجرى، والضفاف الغرينية، وأقسام المنحدرات. وقد تحقق الاعتراف بصور طومسون كوثائق علمية وأعمال فنية فى آن واحد، وخاصة حينما عرض كتابه عن الصين، ومعه أربع صور أخرى لمناظر طبيعية فى تلك البلاد، فى أغسطس ١٨٧٥، كجزء من مجموعة تحتفظ بها الجمعية الجغرافية الملكية فى المركز الجغرافى الدولى فى باريس.









(الشكل ٨-٦): صور جون طومسون "الوادى الخانقى فى منطقة ماى تان، أعالى نهر اليانجتسى"، من كتاب "عرض مصور للصين وشعبها" (بتصريح من الجمعية الجغرافية الملكية، لندن).

ويوضح لنا إنتاج طومسون الفوتوغرافى، عبر جمعه بين التوجه الاستعمارى والمناظر الخلابة، أن مصورى المناظر الطبيعية فى العصر الفيكتورى، وكذلك مشاهديها، لم يعتبروا تلك الصور مجرد "مناظر طبيعية" للفرجة والمتعة ولكنها "مشاهد" مكملة للمعلومات والمصادر الجغرافية عن بقاع غير مستكشفة من العالم. وعلاوة على

ذلك، لم يكن الخيط الفاصل بين "المشهد" العلمي و"المنظر" الفنى قد بان وتميز بعد، وكلاهما كان فاعلاً ضمن مجموعة من السياقات، بما فى ذلك تلك المتعلقة بالنوع الفنى والتسجيل العلمى[٧١]. وربما أمكننا أن نرجع هذه السرديات الفوتوغرافية إلى تقليد راسخ يتمثل فى إنتاج وعرض "المناظر" الخلابة التى ترتبط بشدة بالاستكشاف والمسح الإمبريالى[٧٢]، فنجد على سبيل المثال أن صور نهر النيجر التى التقطها القائد وليام ألين William Allen (١٨٤٠) كانت مرقمة ومصحوبة بتعليقات توضيحية تعرف القارئ باستكشاف النهر، وبينت الخرائط المرفقة مكان التقاط الصور، ووصف ألين العمل بأنه "مسعى لترسيم ملامح تلك البلاد وحياة شعبها"[٧٣].

وقد اتبع العديد من مصورى الرحلات هذا التقليد؛ إذ نجد صور المناظر الطبيعية، بالإضافة إلى كونها خلابة، غنية بالتفاصيل التجريبية، ولا سيما حال ربطها بالسرد. وفى عام ١٨٩١، قام تيودور هوفمان Theodore Hoffman – المصور فى شركة الفوتوغرافيا جونستون وهوفمان التى اتخذت من الهند مقرًا لها – بمرافقة السيد وايت C. White، القاضى البريطانى المقيم فى منطقة سيكيم الهندية، فى رحلة استكشافية إلى جبال الهيمالايا المجاورة، وقد عرضت صور هوفمان والسرد الوصفى لها فى الجمعية الجغرافية، التى كان هوفمان زميلاً لها، فى العام ١٨٩٢[٧٤]، وقد أشادت الجمعية بها منوهة إلى أن:

"كل منظر فى سلسلة الصور ليس مجرد عينة جميلة للتصوير الفوتوغرافى فحسب، ولكنه من الناحية الجغرافية يعطى فكرة أكثر دقة عن الخصائص المادية لتلك الجبال الكبرى فى سيكيم بشكل يفوق أى وصف شفهى أو مكتوب"[٧٥].

ولقد كانت مقدرة الفوتوغرافيا على الاضطلاع بتلك المهمة تحديداً سببًا فى أن تقوم الجمعية، وبدايةً من سبعينيات القرن التاسع عشر، بتجميع مجموعات من الصور الفوتوغرافية التى التقطها المصورون الرحالة المحترفون لمختلف بقاع العالم.

السلطة البصرية وجغرافية العرض

لقد اعتمد الكثير من التأثير الثورى للتصوير الفوتوغرافى داخل الدوائر الجغرافية على تطبيقات الملاحظة فى المجال، وكذلك على سياقات العرض والنسخ التى تبنتها المراكز العلمية الحضرية. وقد قام بعض المستكشفين البريطانيين، أثناء بعثتهم، بإرسال مجموعة من الصور إلى مؤسسات كانت تتخذ من لندن مقرا لها، مثل الجمعية الجغرافية الملكية، أو وزارة الخارجية، أو حديقة النباتات فى "كيو"، ومع ذلك، وبالنسبة للأغلبية منهم، فقد كان من المحتم الانتظار حتى طباعة جميع الصور السالبة (النيجاتيف) بعد نهاية البعثة وعودتها.

كما كان المستكشفون يبادرون، بمجرد عودتهم إلى الوطن، بمحاولة الترويج لقيمة عملهم الفوتوغرافى وأهميته بالنسبة للعلم. وفى أواخر العام ١٨٦٣، وبعد عودته من بعثة زامبيزى، كتب تشارلز ليفينجستون طلبا إلى وزارة الخارجية من أجل الحصول على تعويض مالى عن تكلفة طباعة ما أطلق عليه "عينات الصور الفوتوغرافية"، قائلاً: "لقد شاركت فى وضع الترتيبات اللازمة لطباعة نحو ٤٠ صورة مجسمة لسكان تلك البلاد فى مختلف المهن والأنشطة، ولبعض الأشجار الرائعة والصخور، وغيرهما، وذلك لصالح السير رودريك مرشيزون والبروفيسور أوين"[٧٦]. وبادر ريتشارد أوين، عالم الطبيعة المعروفة، بمساندة تشارلز:

"... فيما يتعلق بالصور، ولكونها التسجيلات الأكثر دقة وملاءمة للطبيعة المادية للقبائل الأصلية، فإننى أقترح أن تتم طباعتها لمصلحة علم الإثنولوجيا، وليس لدى أى شك فى أن صور الصخور بدورها ستكون ذات جدوى لأى مهتم بالجيولوجيا، والحال ذاته مع صور الأشجار بالنسبة لعالم النبات"[٧٧].

عقب هذا الثناء، تلقى تشارلز زيادة لراتبه وكذلك تعويضًا عن تكاليف طباعة الصور الفوتوغرافية. ونظرا لموقعه كمصور رسمى للبعثة، أصبح إنتاج تشارلز ليفينجستون، من الناحية الرسمية، ملكا لوزارة الخارجية. ومع أنه كان راضيا بمثل هذا الإجراء، خاصة بعد حصوله على الاعتراف بعمله ونيله مكافأة تكاليف الطباعة،

فهدفه، فى البداية على الأقل، كان الاستفادة قدر الإمكان من أى منافع تجارية محتملة من هذه الصور.

وكما يتبين لنا عبر العديد من المناقشات الجغرافية الرئيسة فى القرن التاسع عشر، فقد اعتمد إنتاج المعارف الجغرافية الموثوق فيها على خرائط اجتماعية تشترك فى كونها "ممارسة جديرة بالثقة"(٧٨). وكانت مؤسسات من قبيل الجمعية الجغرافية تسيطر بدرجة كبيرة على مثل هذه الخرائط المفاهيمية، وينبغى أن نذكر هنا أن الجمعية بما كانت تملكه من سطوة علمية، كانت هى التى تشمل أى بعثة برعايتها، وهى التى توثق نتائجها، وتمتلك فى الوقت ذاته القدرة على حجب تلك الثقة وذلك الاعتراف. وهكذا، ولأنها كانت بمثابة الممثل والراعى الرسمى للمعرفة الجغرافية، عمدت الجمعية إلى تأطير معنى الصورة الفوتوغرافية، من خلال أنظمتها وأعرافها، لا سيما تلك التى تقصر العضوية والاحترام العلمى على مجموعات محددة من "السادة"، وبقت المرأة مستبعدة من نيل لقب الزمالة طوال الحقبة الفيكتورية، وهى قضية طالما أثارت جدلا كبيرا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر(٧٩). وبالتالى كانت أفكار الرجولة والأنوثة محورية فى تحديد الطرف الذى بمقدوره أن يكون جغرافيًا جديرا بالثقة. كما اعتمدت المكانة أيضا على دعم الشخصيات المؤسسية المشهورة. وربما تعود مصداقية ديفيد ليفينجستون بوصفه مستكشفًا ثاقب الرؤية إلى حد كبير إلى الأنشطة الترويجية للسير رودريك مرشيزون، الذى جهز ليفينجستون للتدريب لفترة وجيزة على يد ريتشارد أوين فى مجال التاريخ الطبيعى، وعمد بصفة عامة إلى تضخيم شخصه على اعتبار أنه يمثل نموذجًا للمثل الفيكتورية العليا للرجولة المسيحية(٨٠).

كان بوسع أشخاص مثل مرشيزون حرمان أى شخص من مكانته التى اكتسبها على مدى سنوات عديدة. وعندما استبعد الرسام توماس بينز من بعثة الزامبيزى فى العام ١٨٥٩ نتيجة تهم زائفة للغاية وجهها إليه تشارلز ليفينجستون، كان هذا إيذانًا بتهاوى مكانته كمستكشف بل وانهيار مسيرته العلمية كذلك. وعلى الرغم من محاولات باسلة بذلها على مدى سنوات لتبرئة اسمه وإعادة الاعتبار لنفسه كفنان، وجد بينز أن

سمعته كرجل محترف وموهوب فنيًا وعلميًا قد دمرت؛ فقد رفضوا طلبه لعقد جلسة استماع علنية فى الجمعية، وقوبلت جميع طلباته بالمشاركة فى البعثات بالرفض، وبناء على ذلك، وعلى الرغم من عرض صور بينز عن الزامبيزى فى الجمعية، لم ينل ما يستحقه من اعتراف بمجهوده الفنى والعلمى. ولم يكن السبب فى ذلك افتقار صور بينز إلى التفاصيل أو الدقة أو القيمة العلمية مقارنة بصور تشارلز ليفينجستون، فالحقيقة أن العكس هو الصحيح، فقد ثبت أن رسومات بينز أطول عمرًا وأكثر مصداقية فى نقل واقع بعثة زامبيزى من صور تشارلز، والتى ذهبت جميعها طى النسيان. لهذا فقد كان السبب الحقيقى وراء ما لحق بسمعة بينز ومكانته العلمية وجودة أعماله البصرية، ما لاقاه من عداء من ديفيد ليفينجستون– الرحالة البطل فى عيون الكثيرين– وحلفائه الأقوياء[٨١].

أما جون كيرك، وعلى النقيض من ذلك، فقد ظل على علاقة جيدة مع ديفيد ليفينجستون الذى كان يعمل فى التصوير الفوتوغرافى تحت رعايته شخصيا، والتقط الصور لاستخدامه الخاص ولصالح العلوم العامة، لا سيما علمى النبات والجغرافيا. كما عرضت صور كيرك فى لندن، على الأرجح فى الجمعية الجغرافية، فى أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر. ومن المفارقات، وبالنظر إلى ما واجهه من صعوبات، كان توماس بينز هو الذى أثنى على الأبعاد الجمالية فى صور كيرك، ففى الكتاب الذى شارك فى تأليفه عام ١٨٧١، بعنوان" تحولات وأساليب حياة الخيمة"، وفى معرض تقديم المشورة للمستكشفين حول استخدامات التصوير الفوتوغرافى، يقول بينز: "لقد شهدنا فى الآونة الأخيرة فى لندن باقة من أجمل الصور التى التقطها دكتور كيرك فى الزامبيزى بكاميرا صغيرة زهيدة السعر"[٨٢].

قبل التوصل إلى طريقة التحميض والنسخ فى أواخر القرن التاسع عشر والتى انتشرت وذاع صيتها فيما بعد، كان نسخ الصور لأغراض النشر والمطبوعات مكلفًا وبالتالى اقتصر عادة على الإنتاج المتخصص. ونجح عدد قليل من الأشخاص البارزين، مثل جون طومسون، فى إقناع الناشرين بإنتاج كتب تحتوى على صور فوتوغرافية

توضيحية، سواء كانت مطبوعة لتصاحب النص أو فى ملزمة منفصلة[٨٣]. ولكن، وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، لم تكن صور الرحالة فى أغلبها تصل إلى جمهورها إلا بعد نقلها إلى وسيط مختلف، وكان هذا بالتأكيد هو الحال مع روايات الاستكشاف الشعبية مثل تلك التى قدمها ديفيد ليفينجستون. وهكذا امتدح ديفيد وتشارلز ليفينجستون الصور لكونها "ساعدت إلى حد كبير في توضيح" ما نشروه من سرديات[٨٤]. وتتضح لنا تلك "المساعدة" من خلال مقارنة صورة تشارلز ليفينجستون الخاصة بالنساء والأطفال (الشكل ٨-٤) ومختلف النقوش على القوالب الخشبية، بما فى ذلك تلك الصورة التى ظهرت على صفحة الغلاف والتى تصور امرأة تطحن الذرة في وعاء جرانيتى، وأخرى تظهر فيها امرأة تحرث التربة، كما يتضح لنا من بقاء هذه الصورة المجسمة فى أرشيف ناشر ليفينجستون جون موراى، أن من قام بنقش القوالب الطباعية الخشبية قد شاهد مضمون تلك الصور، هذا إن لم يكن قد عمد إلى محاكاتها.

لقد كان سرد ديفيد وتشارلز ليفينجستون بمثابة نص بصرى فى حد ذاته لا يمكن الاستهانة به، خاصة مع استخدام طريقة القوالب الخشبية، ومع ذلك، وعلى النحو الذى ذكرناه آنفًا، فقد أدرجت صور الرجال والنساء فى العمل لا لتكون تسجيلاً علميًا لعلم الإثنولوجيا بقدر ما كانت توظيفا بلاغيا يرمى إلى التأكيد على كلام النص، بالإضافة إلى التأكيد على أن الأيدى العاملة المنتجة هى أفضل استراتيجية لتعريف الأفارقة بالحضارة. وعلى الرغم من أن عددا قليلا من الصور يعتمد على الفوتوغرافيا لتقديم المزيد من التفاصيل، فمعظمه كان مكونا من مجموعات الرسومات الموجودة أو من محاولة التوفيق بين وصف ديفيد ليفينجستون النصى ومخيلة المصور يوشع وود ويمبر[٨٥]. وقد أعادت العملية الأخيرة تكرار الطريقة التى اتبعها فى وقت سابق ديفيد ليفينجستون فى أكثر كتاباته مبيعا، ألا وهو "أسفار تبشيرية وأبحاث فى جنوب أفريقيا" (١٨٥٧)، والذى وصف فيه أسفاره المبكرة وترحاله عبر القارة من ساحل المحيط الهندى إلى ساحل المحيط الأطلنطى.

وأبدى ليفينجستون اهتماما خاصا بدقة قوالب الطباعة الخشبية فى مؤلفاته، وأشهرها الأسفار التبشيرية، عندما كتب إلى جون موراى يشكو من عدم دقة النقش الذى نفذه وولف ليصور به المستكشف الذى تعرض لهجوم أسد. وكذلك، خلال إعداد كتابه مع تشارلز عام ١٨٦٥، عمد ديفيد ليفينجستون إلى مزيد من التحقيق لمفهومه عن "الدقة" فى تصويره لقبر زوجته، فقد طلب فى ملاحظاته على الإسكيتش المرسوم بالألوان المائية زيادة سمك شجرة الباوباب، وذلك لجعلها "أقرب إلى ما تبدو عليه الصورة" فى إشارة إلى صورة جون كيرك[٨٦].

وعلى الرغم من اهتمام ليفينجستون بأن تكون الرسوم التوضيحية أقرب ما تكون إلى الحقيقة، فلا يمكن أن نجزم بإذا ما كان قد أجاز استخدام الصور الفعلية فى الكتاب أم لا، هذا لو كان ذلك فى المقدور التقنى والمالى لجون موراى، فقد كان من شأن الصور أن تجعل الناشر يستغنى عن حاجته إلى وسطاء مثل الرسامين والنقاشين. ومع ذلك، سرعان ما أدرك المؤلفون والناشرون أن الصور الفوتوغرافية تفرض نمطها الخاص من قيود الإثبات. فعلى عكس الصور، كانت القوالب الخشبية تتيح مرونة فنية: أى دمج مجموعة متنوعة من الموضوعات فى مشهد واحد أو تجاهل التفاصيل غير المرغوب فيها، وكذلك الربط بشكل أدق بين السرد الدرامى وما يؤكده النص. وفى حين ارتبطت الصور، مثل غيرها من أساليب المراقبة، بالبعثة وحلها وترحالها، كان من الممكن صنع القوالب الخشبية بعد عودة البعثة ولو بفترة. وعلى الرغم من صعوبات التوفيق بين القائم على النقش والرحالة صاحب الكتاب، فإن ما تتصف به القوالب الخشبية من مرونة يجعلها ذات ميزة، حيث إن الرحالة يحدد بنفسه العروض التوضيحية المطلوبة بمجرد عودته إلى الوطن، ويبدأ فى تدوين النصوص السردية عن الرحلة.

نصائح فوتوغرافية للرحالة

ويمكننا أيضا قياس ذلك الأثر الثورى للتصوير الفوتوغرافى فى علم الجغرافيا من خلال استيعابه فى التطبيقات اليومية داخل الجمعيات الجغرافية، فبحلول العام ١٨٦٤، عندما عادت بعثة الزامبيزى، كانت الصور مشهدا مألوفا داخل الجمعية الجغرافية، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، صارت الصور تعرض فى الاجتماعات إلى جانب الخرائط واللوحات والعينات والأدوات، كما تمت إضافة صور المناظر الطبيعية والنباتات والحيوانات و"الأجناس" من البقاع التى كانت مجهولة من العالم إلى مجموعات الجمعية، لتكون مكملة لخرائطها، وبحلول أواخر العقد الثامن من القرن. كانت الجمعية تعقد بانتظام اجتماعات مسائية تعرض خلالها شرائح الصور، وتنشر الصور فى دورياتها، كما عينت معلماً رسمياً ليدرب المستكشفين على التصوير الفوتوغرافى، كما قامت العديد من الجمعيات الجغرافية الإقليمية التى أنشأت فى تلك العقود بتجميع مجموعاتها الخاصة من الصور، واعتمدت على عرضها فى شرائح خلال اجتماعاتها المسائية.

وليس من قبيل الصدفة أن تقوم الجمعية بالترويج للتصوير الفوتوغرافى فى ذات الوقت الذى شهد مطالبة العديد من الجغرافيين توفير وسائط أكثر دقة لتسجيل ملاحظات البعثات. وقد ظهر هذا التركيز المتزايد على الاستكشاف العلمى فى التغييرات التى طرأت على مطبوعات من قبيل "نصائح للرحالة"، فقد تطورت هذه السلسلة الطويلة والمهمة للغاية (نشرت لأول مرة فى عام ١٨٥٤) وانتقلت من عرض جهود الجغرافيين إلى تقديم النصائح للمستكشفين فيما يتعلق بالمعدات وأساليب الرصد من أجل تطوير تنفيذ جهودهم فى العلوم الجغرافية[٨٧]. وقد احتوت الطبعة الثانية الصادرة عام ١٨٦٥، ولأول مرة، على قسم خاص بالتصوير الفوتوغرافى، يحوى مقالاً لجون كيرك عن معدات التصوير المستخدمة فى زامبيزى، ومقالا آخر للبروفيسور بول، الذى يذهب فيه إلى أنه بوسع كل رحالة، من خلال توفير الألواح الجافة بأسعار تجارية، "أن يكون مصوراً، وبطريقة أقل مشقة وكلفةً مما هو متصور".

وكان إدراج التصوير الفوتوغرافي في هذا الدليل الذائع الصيت اعترافا مهمًا بجدوى هذا الوسيط في الاستكشاف[٨٨]. وعلاوة على ذلك، فقد كان هذا الدليل جزءا من اهتمام أوسع نطاقًا بتدريب المستكشفين على الرصد بشكل أوضح وأدق. والحقيقة أن مقصد هذا الاهتمام هو أن يكون المستكشف ذاته أقرب إلى كاميرا للرصد، أي يصبح قادرا على التقاط الحقائق البصرية ميدانيًا، ومن ثم جلبها لمزيد من التدقيق وإعادة الترتيب. ومن بين الدلائل الأكثر أهمية فيما يتعلق بالتصوير الفوتوغرافي، وخاصة في مجال الاستكشاف، ما نجده في جهود بذلها لاحقًا مجموعة من زملاء الجمعية المشهورين، أمثال فرانسيس جالتون لتشجيع الجمعية على تدريب الرحالة على التصوير الفوتوغرافي. وقد لعب جالتون، وهو الشخصية المحورية في مجلس الجمعية منذ منتصف القرن، دورا مهمًا في الجمعية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخاصة في منشوراتها، وشؤونها المالية، والمكتبة، والبعثات، وكما أشرت، فقد نفذ جالتون تجاربه حول الاستخدامات الجغرافية للتصوير الفوتوغرافي منذ العام ١٨٦٥، وقد أصر وبشدة على أن تقوم الجمعية بالاستفادة من التصوير، ففي عام ١٨٧٧، حدد بيان جالتون الذي نشره بعنوان "التعريف بالأفرع العلمية للجغرافيا" تلك الأفرع الرئيسة في الجغرافيا التي ينبغي تشجيعها. وبالإضافة إلى البعثات العلمية والمحاضرات عن الجغرافيا العلمية، أراد مجلس الجمعية تشجيع جمع ونشرها البيانات الجغرافية وكذلك تطوير الرحالة للأدوات المفيدة للتعليم الجغرافي أو البحث العلمي.

وقد أوكلت هذه المهمة إلى لجنة الأغراض العلمية للجمعية، والتي شكلت في يناير ١٨٧٨، وترأسها جالتون على مدى عقد. وتم إرسال بيان جالتون إلى المجالس الملكية، والجمعيات الأنثروبولوجية، والإحصائية، والجيولوجية، وجمعية علوم الحيوان، كما نظمت اللجنة عملية إصدار طبعة جديدة من الدليل[٨٩]. وفي عام ١٨٧٩، وعلى أساس مخطط كليمنتس ماركهام لتدريب الرحالة وتعليمهم، نجحت اللجنة في الحصول على موافقة المجلس على دورة تجريبية ينفذها جون كولز John Coles على المسح ورسم الخرائط، وبحلول العام التالي، أعلنت اللجنة عن الانتهاء من تشييد مرصد الجمعية وقاعة الأدوات الجديدة.

وفي عام ١٨٨٠، كتب فرانسيس جالتون إلى أمين الجمعية هنرى بيتس، ليدعم فكرته- والتى كانت على ما يبدو قيد النظر- القائمة على تدريب الرحالة على التصوير بالألواح الجافة: "وهو ما يعنى وجود غرفة مظلمة وصندوق زجاجى حيث يمكنهم من خلاله ممارسة تصوير الأسلحة، والغرائب، والبورتريه، وخلافه، وبالطبع جميع الأمور المتصلة بضبط الكاميرات والعدسات"(٩٠). فلقد أدرك جالتون وجود فرص هائلة، بداية من نشر الخرائط والرسومات التوضيحية لأعمال الجمعية، ووصولاً إلى إنجاز نسخ من الخرائط السياحية، لاستخدام مصور فوتوغرافى محترف فى التدريب، وطرح على بيتس تساؤلاً حول ما إذا كانت الجمعية "ستجد راحة أكبر فى توفير لوازم التصوير فى مكان واحد؟"(٩١). وفى اجتماع اللجنة عقب ذلك بيومين، والذى ترأسه جالتون (وهو فى موقعه نائب رئيس الجمعية) وبعضوية بيتس، تم التوجيه بمخاطبة شركة لندن للصور المجسمة وبعض كبار المصورين الفوتوغراف بين من أجل الاتفاق على ترتيبات لتدريب الرحالة على التصوير الفوتوغرافى(٩٢).

وبعد تأخر دام عدة سنوات نتيجة صعوبات تتعلق بالتمويل، قامت الجمعية بتعيين جون طومسون مدرب رسميا متخصصا فى التصوير الفوتوغرافى فى العام ١٨٨٦. وعلى الرغم من أن الأمر قد تطلب بعض الوقت، فالتصوير الفوتوغرافى أضحى مدرجًا بالكامل فى خطط التدريب العلمى للجمعية. وكما قال طومسون نفسه فى عام ١٨٨٥: "لا يمكننا أن نعتبر أيا من بعثاتنا فى هذه الأيام متكاملة الأركان من دون التصوير الفوتوغرافى ودوره التسجيلى للخصائص الجغرافية والإثنولوجية للرحلة"(٩٣). ومن هذا المنظور، ألقى طومسون دروسه فى الأستوديو الخاص به فى ٧٠ أ شارع جروسفينور، أى على بعد خطوات من شارع سافيل رو، حيث كان مقر الجمعية الجغرافية آنذاك(٩٤). وقد قال لهنرى بيتس فى ١٨٨٦ أنه قد صادف "نجاحًا كبيراً مع تلاميذه"(٩٥). وعقب ذلك بسنوات صرح بأنه "منذ أيام السير ستانلى وكبار المستكشفين كانوا يطلبون إرشادى حتى أمكنهم من الحصول على تسجيلات فوتوغرافية ممتازة"(٩٦). ومن المؤكد أن طومسون قد تعاون مع مجموعة من كبار الشخصيات الجغرافية، بمن فى ذلك هنرى ستانلى وهالفورد ماكيندر، بل إن المساعدة التى قدمها طومسون لبعثة هالفورد

ماكيندر فى العام ١٨٩٩ إلى جبل كينيا حين أمدهم بالتصوير الفوتوغرافى الملون قد خلدت بعلامة جغرافية مميزة على الجبل[٩٧]. وواصل طومسون عمله لحوالى عشرين عاما؛ وكانت الجمعية ولا تزال تعلن عن دوراته التدريبية فى عام ١٩٠٥[٩٨].

إننا لا نعرف حتى الآن الطريقة التى اتبعها طومسون فى تدريس التصوير الفوتوغرافى، ولكن من المرجح أنه انتهج الإرشادات المعاصرة فى التدريب التى تشدد على ممارسة التدريب والخيال فى كل من العلم والفن؛ ففى كتاب صدر فى عام ١٨٧١ لتعليم التصوير الفوتوغرافى للاستخدام فى كلية التربية العسكرية، فى تشاثام، أكد الملازم وليام آبنى على أنه " لكى تصبح مصورا جيدا فمن الضرورى أن تتعامل مع التصوير بعقلية فنية وعلمية". ويستطرد آبنى ليؤكد على أن تعلم المهارات العلمية بالتجربة والكتب التدريبية هو السبيل إلى "الممارسة المثلى" لفن التصوير[٩٩]. كانت النبرة الأخلاقية لكتيبات التدريب معتادة آنذاك، فعلى سبيل المثال، نجد أن كتيب لويس جاكسون الذائع الصيت والمعنون "المساعد فى تطبيقات المسح" (١٨٨٩)، والذى استعانت به الجمعية، قد ركز على المتطلبات الذكورية فى القائم بعملية المسح، مشيرا إلى أنه يجب أن يكون قادراً على الإدارة الجيدة، فضلا عن التقييم العقلانى للأمور. وقال جاكسون إن المعرفة بالمسح، مثلها مثل الرسم، "لابد وأن تتشكل دائما فى التعليم العادى للرجل الإنجيلى المبجل لأنها قد تكون ذات فائدة فى أى وقت". ويستطرد الدليل لينوه إلى أن إدارة "أعمال المسح المثالية"، مثل "مشروع مسح المثلثات العظيم للهند "Great Trigonometrical Survey"، يجب أن "تعهد إلى أهل العلم، الذين يقدمون أساليب مبتكرة، وأدوات وأجهزة جديدة، فى حين يتم إسناد العمل الروتينى، من تدقيق وإشراف، إلى الرجال الأقل مهارة"[١٠٠]. ومن الواضح هنا أن التأكيد على تراتبية الاحترام الاجتماعى والعلمى كان ضرورياً فى التدريب وتطبيق المسح والوصف الجغرافى، وكان أساس التدريب على الملاحظة هو ذلك الشعور القوى بالذكورة، ويتضح هذا من الآراء التى وردت حول البرنامج التدريبى للجمعية ومنها رأى اللورد أبردارى، رئيسها، فى عام ١٨٨٢:

"يتم تدريب الرحالة كل موسم على استخدام أدوات المراقبة الجغرافية: إنهم من ينطلقون بروح الفروسية الحقيقية، وجاهزون لخوض المغامرة العلمية فى مختلف بقاع الأرض"[١٠١].

ولم تكن الجغرافيا العلم الوحيد الذى شهد محاولات لتطوير تقنيات الرصد والتصوير الفوتوغرافى، فقد سعت العلوم الأخرى، مثل الأنثروبولوجيا وعلم الأرصاد الجوية، إلى تعزيز القيمة العلمية لراغبى البحث عن الحقيقة بالكاميرا[١٠٢]. كما لم يكن من قبيل الصدفة أن يظهر إدراج التصوير الفوتوغرافى فى التطبيقات العلمية خلال العقود التى شهدت ثورة شعبية فى الفوتوغرافيا، فما كان فى نهاية العقد السابع من القرن هواية مقتصرة على النخبة صار بحلول العام ١٨٩٠ ظاهرة منتشرة فى الأسواق. ومع هذا التغيير، أصبح المصورون "المحترفون" أشد حرصًا على تقديم عملٍ مميزٍ، ربما فى صورة "فن"، وليس مجرد لقطات لهواة. وبالمثل، كانت شهرة التصوير وتطور تقنياته وظهور السمة التجارية له سيفا ذا حدين بالنسبة لمؤسسات مثل الجمعية الجغرافية التى توجه مسارات العلوم، فقد أدرك الجغرافيون أن معدات التصوير الفوتوغرافى التى غدت أقل كلفة وأخف وزنًا تنطوى على إمكانيات هائلة لتعزيز مشاريعهم العلمية، ومع ذلك، فإذا كان من الممكن الآن لأى شخص أن يلتقط وينقل الصور لرحلاته، فما الذى يميز إذن بين المستكشف العلمى والسائح العادى؟ وكما نوهت طبعة العام ١٨٦٥ من الدليل الإرشادى للرحالة، فقد أضحى التصوير الفوتوغرافى متاحًا على نحو متزايد لكل من السائح والرحالة، ولكل من الرجال والنساء على حد سواء[١٠٣]. وبالنظر إلى الجدل المتزايد طوال العقد الأخير من القرن حول الاستعانة بالنساء فى الجمعية الجغرافية، فلا عجب أن العديد من زملاء الجمعية الرجال قد أعلنوا عن عدم ارتياحهم لاستخدام مثل هذا الوسيط المتاح استخدامه من الجنسين بلا تفرقة أو تمييز[١٠٤].

* * *

لقد حاولت فى هذا الفصل إيجاز بعض الآثار الثورية للتصوير الفوتوغرافى على الجغرافيا الفيكتورية. ولأجل القيام بذلك، ميزت بالضرورة بين تأثير التصوير على الملاحظات الجغرافية الميدانية وتأثيره على صنع المعرفة الجغرافية عن طريق الاستنساخ(١٠٥). فعلى المستوى العملى، وقياسًا على حجم الإنفاق والاستثمار فى الجمعية الجغرافية الملكية، على سبيل المثال، لم يشكل التصوير تهديدا خطيرا لفكرة الاعتماد على الخرائط الجغرافية ورسمها. ومع ذلك، وكما ذكرت، احتضن المستكشفون التصوير الفوتوغرافى وسيلة لتقديم أدلة موضوعية على رحلاتهم واكتشافاتهم. وكما أضحت أجهزة التصوير أكثر ملاءمة لمتطلبات الترحال والسفر، أصبحت وسيلة لا غنى عنها مع نهايات القرن التاسع عشر، وجزءًا لا يتجزأ من أجهزة المراقبة الجغرافية ميدانيا. ومع ذلك، وكما أكدت، فإن استخدام التصوير الفوتوغرافى فى البعثات لم ينتج عنه التخلى عن الرسم والاسكتش والتصوير بالألوان أو رسم الخرائط، صحيح أنه لا يمكن منافسة الصور فى نقلها الأمين لكل التفاصيل، ولكن أمورًا مثل الحجم واللون والتفاصيل النسبية والمعلومات السياقية كانت تقدم بصورة أفضل عبر وسائل أخرى. والحقيقة إن العديد من الجغرافيين فضلوا الإسكتش على التصوير: لأن الأول ينطوى على تحليل مسبق واختيار(١٠٦). ولكن، وكما أشرت فى هذا الفصل، أتاحت الكاميرا بوصفها وسيط مراقبة جغرافية إمكانية تصوير بيئات معقدة وتصنيفها، مثل "المشهد" و"أنواع الإنسان"، وبالتالى حدث استيعاب سريع للتصوير فى نظرية المعرفة الجغرافية والتى تعتمد على خلق تصور موسع ومتكامل للعالم. وفى عصر الوضعية والتجريبية، بدا التصوير مناسبًا تماما لمثل هذه المهمة؛ لأنه أنتج تمثيلات طبيعية للعالم، وحقائق جغرافية بصرية لا تقبل الجدل، وكانت الفائدة العلمية لهذا الوسيط فى رسم الخرائط معروفة بدءًا من منتصف القرن التاسع عشر، وبحلول العقد الأخير من نفس القرن أتاح التطور التقنى إمكانية المزج بصورة أكثر فعالية بين أدوات المسح وأدوات التصوير(١٠٧).

ولا تكمن أهمية التصوير الفوتوغرافى فى الجغرافيا الفيكتورية فى مجرد استخدام الرحالة له ليكون شاهداً على استكشافاتهم وتسجيل ملاحظاتهم، ولكن أيضا من خلال استخدامه لإعادة إنتاج مشاهد لأماكن وأناس غير مألوفة بغرض عرضها على الجمهور عند العودة للوطن. وهكذا نجد أن التأثير الثورى الحقيقى للتصوير الفوتوغرافى على الجغرافيا الفيكتورية لم يتحقق من خلال الاستخدام العملى له كأداة علمية تراقب وتستطلع وتقيس، ولكن من خلال فعاليته الرمزية، فى عصر الوضعية والتجريبية، وسيلة لجمع الحقائق البصرية للمصادقة على السرديات المكتوبة والمنطوقة عن الاستكشافات وإعادة إنتاج مشاهد من الاستكشافات العالمية، وبهذه الطريقة، حولت الفوتوغرافيا فى جميع أشكالها- من المجسمات إلى شرائح الإسقاط الضوئى- السفر إلى إمكانية افتراضية للجميع تقريبا، فقد أحدث التصوير الفوتوغرافى ثورة فى الخيال الجغرافى فى العصر الفيكتورى بعدما بدد الحاجز المكانى عن طريق تعريف جمهور جديد بالأراضى والشعوب البعيدة.

وكما بينت آنفًا، فإن دقة الإثبات فى الصورة بوصفها سجلاً للواقع الجغرافى لم تكن فقط فى الصورة نفسها، فقد كان من اللازم دعم هذا الدليل بمجموعة متنوعة من الوسائل الإضافية، بما فى ذلك النص المصاحب والتعليقات المنطوقة، وكانت هذه الأدلة الظرفية تعرض دائما ضمن مساحات معرفية معينة، ومنها المجلات وقاعات المحاضرات وغرف الخرائط، والمكتبات. ولم تعتمد مصداقية تلك الأدلة الفوتوغرافية فى تلك المساحات على سياق صنع الصورة وعرضها فحسب، ولكن أيضا على شبكات السلطة وعلاقات المصلحة التى مكنت بعض الأفراد من إدعاء المشروعية بصفتهم مراقبين جديرين بالثقة.

وكان الهدف من توظيف التصوير الفوتوغرافى فى الجغرافيا الفيكتورية، سواء من خلال المجسمات وشرائح الإسقاط الضوئى والكتب المصورة، هو تقديم الإحساس برؤية عالمية شاملة. ومع ذلك، ومع اتساع القدرات البصرية بفضل العلم، ولا سيما من

خلال التطورات فى مجال البصريات ونظريات الضوء، أضحى ظاهرًا أن هناك كمًا كبيرًا من المعارف يتجاوز مجال الرؤية. وهكذا، ومع مطلع القرن التاسع عشر، لم يعد ممكنا التوقف كثيرا عند الفكرة القائلة إنه إذا أمكن مسح العالم بصورة شاملة على الخرائط ذات المقياس الموحد، فإن التصوير الفوتوغرافى من الممكن أن ينجز ذات المهمة عبر مشروع مواز: فالصور لا تكتفى بجمع أجزاء من جغرافية العالم فحسب، بل تضمن انتشارها بطريقة لا حصر لها.

ومن الجدير بالذكر، كما نوهت، أن سجالا مهمًا كان قائمًا بين الجغرافيين البريطانيين خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر بشأن دمج التصوير فى الجغرافيا، وإدراجه فى الكتيبات المنهجية للعلوم الجغرافية مثل كتيب "نصائح للرحالة"[١٠٨]. ومع ظهور كاميرات أصغر حجما وأقل كلفة، بالإضافة إلى انتشار مدارس التدريب على استخدام الكاميرا، انتقل التصوير من كونه أداة للنخبة إلى أداة يمكن أن تكون ذات فائدة فى الجغرافيا الشعبية، وقد اتضح ذلك فى بعض الأعمال المصورة التى التقطها أصحابها أثناء رحلاتهم التجارية، وهو الأمر الذى هدد الهيمنة المؤسسية للجمعية الجغرافية الملكية على الخبرة الجغرافية. وكوسيلة لضمان السيطرة المؤسسية على هذا الوسيط، سارعت الجمعية بتنظيم دورات تدريبية وتخصيص مُدرب رسمى للتصوير الفوتوغرافى فى العام ١٨٨٦، مع التمييز بين المستكشف العلمى المخضرم وبين السائح الهاوى.

وظلت الفوتوغرافيا، ولفترة طويلة، أسيرة للنزاعات التى دارت معظمها حول المكانة المناسبة لما هو شعبى وبصرى داخل العلم. وتبين الدراسات التى أجريت على استخدامات التصوير الفوتوغرافى فى علم الفلك، والأرصاد الجوية، وعلم البكتريا خلال القرن التاسع عشر كيف أن الوسيط، بموضوعيته الواضحة، كان محل احتفاء وكذلك محل شك باعتباره شكلا من أشكال المراقبة العلمية وتوالد المعرفة[١٠٩]. وبالمثل، ففى الجغرافيا كانت النظرة إلى دقة التصوير الفوتوغرافى محل ثناء من البعض وتشكيك

من البعض الآخر. وعلى الرغم من أن الجمعية الجغرافية الملكية قد حظيت بهيبة شعبية لردح طويل، فكثير من زملائها فى أواخر القرن أبدوا مقاومة لما اعتبروه اتجاهاً للمساواة، مثل تقديم شرائح الإسقاط الضوئى وقبول النساء زميلات. ومن المفارقات أنه فى حين كان التصوير الفوتوغرافى يمثل نموذجاً للبطولات الرجولية، فإن استخدامه وسيلة عرض شعبية ارتبط فى أذهان كثير من الرجال بكونه ترفيهاً أنثوياً غير علمى، وهو موقف لم يتبدد بسهولة. ففى سجله الخاص بالجمعية الجغرافية الملكية، والذى نشر فى الذكرى المئوية للجمعية فى العام ١٩٣٠، أشاد ميلر بقاعة العرض والشاشة فى مسرح المحاضرات الجديد والذى تم تشييده فى لوثر لودج، فى أرض الجمعية فى كينسينجتون جور، ولكنه نوه بنوع من السخط إلى أن مجلس مقاطعة لندن "لا يميز بين قاعة خاصة للجمعية العلمية مكونة من علماء والمسرح العام"(١١٠). وبطبيعة الحال، فقد كان الأداء والترفيه دائما جزءا من عملية إنتاج المعرفة الجغرافية والسلطة العلمية. وعلاوة على ذلك، فقد كان أحد الجوانب الرئيسة لهذه العروض اعتمادها على المشاهدة وتقنيات التصوير، فلا غرو إذن أن نجد ميلا فى أوائل القرن العشرين صوب بناء قاعات للعرض الفوتوغرافى داخل مؤسسات مثل الجمعية الجغرافية الملكية. والواقع أن كل ما سبق يكشف عن مدى ما أحدثته الفوتوغرافيا، على الرغم من اعتراض بعض الجغرافيين أحيانا على ذلك، من ثورة فى علم الجغرافيا، محدثةً نقلة فى شعبيتها ومطورةً لمكانتها العلمية.

الهوامش

1. David N. Livingstone, *The Geographical Tradition: Episodes in the History of a Contested Enterprise* (Oxford: Blackwell, 1992), 99.

2. Felix Driver, "Visualizing Geography: A Journey to the Heart of the Discipline," *Progress in Human Geography* 19 (1995): 123–34.

3. George Perkins Marsh, *Man and Nature*, ed. David Lowenthal (1864; Cambridge: Harvard University Press, 1965), 10; quoted in H. C. Darby, "The Problem of Geographical Description," *Transactions of the Institute of British Geographers* 30 (1962): 5. See also Yi-Fu Tuan, "Sight and Pictures," *Geographical Review* 69 (1979): 413–22; Douglas C. D. Pocock, "Sight and Knowledge," *Transactions of the Institute of British Geographers* 6 (1981): 385–93.

4. See, for example, Denis Cosgrove, *Social Formation and Symbolic Landscape* (London: Croom Helm, 1984); Stephen Daniels, *Fields of Vision: Landscape Imagery and National Identity in England and the United States* (Cambridge: Polity, 1993); Denis Cosgrove and Stephen Daniels, eds., *The Iconography of Landscape: Essays on the Symbolic Representation, Design and Use of Past Environments* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988); David Matless, *Landscape and Englishness* (London: Reaktion, 1998); Nicholas Alfrey and Stephen Daniels, eds., *Mapping the Landscape: Essays on Art and Cartography* (Nottingham: Nottingham University Art Gallery and Castle Museum, 1990).

5. See, for example, J. Brian Harley, "Deconstructing the Map," in *Writing Worlds: Discourse, Text and Metaphor in the Representation of Landscape*, ed. Trevor J. Barnes and James S. Duncan (London: Routledge, 1992), 231–47; David Turnbull, *Maps Are Territories: Science Is an Atlas* (Chicago: University of Chicago Press, 1993); Matthew H. Edney, *Mapping an Empire: The Geographical Construction of British India, 1765–1843* (Chicago: University of Chicago Press, 1997); Denis Cosgrove, ed., *Mappings* (London: Reaktion, 1999); Charles W. J. Withers, "Authorizing Landscape: 'Authority,' Naming and the Ordnance Survey's Mapping of the Scottish Highlands in the Nineteenth Century," *Journal of Historical Geography* 26 (2000): 532–54.

6. See, for example, Joan M. Schwartz, "The Geography Lesson: Photographs and the Construction of Imaginative Geographies," *Journal of Historical Geography* 22 (1996): 16–45; James R. Ryan, *Picturing Empire: Photography and the Visualization of the British Empire* (London: Reaktion; Chicago: University of Chicago Press, 1997); Joan M. Schwartz and James R. Ryan, eds., *Picturing Place: Photography and the Geographical Imagination* (London: I. B. Tauris, 2003).

7. See, for example, Martin Rudwick, "The Emergence of a Visual Language for Geological Science, 1760–1840," *History of Science* 14 (1976): 149–95; Martin Rudwick, *Scenes from Deep Time: Early Pictorial Representations of the Prehistoric World* (Chicago: University of Chicago Press, 1992); Alex Soojung-Kim Pang, "Visual Representation and Post-Constructivist History of Science," *Historical Studies in the Physical and Biological Sciences* 28 (1997): 139–71; Bernard Lightman, "The Visual Theology of Victorian Popularizers of Science: From Reverent Eye to Chemical Retina," *Isis* 91 (2000): 651–80; Anne Secord, "Botany on a Plate: Pleasure and the Power of Pictures in Promoting Early Nineteenth-Century Scientific Knowledge," *Isis* 93 (2002): 28–57; Isobel Armstrong, "The Microscope: Mediations of the Sub-Visible World," in *Transactions and Encounters: Science and Culture in the Nineteenth Century*, ed. Roger Luckhurst and Josephine McDonagh (Manchester: Manchester University Press, 2002), 30–54; Simon Naylor, "The Field, the Museum and the Lecture Hall: The Spaces of Natural History in Victorian Cornwall," *Transactions of the Institute of British Geographers* 27 (2002): 494–513.

8. Jennifer Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter: Visual Representation in Victorian Science," in *Victorian Science in Context*, ed. Bernard Lightman (Chicago: University of Chicago Press, 1997), 378–408; Susan Gamble, "An Appealing Case of Spectra: Photographs on Display at the Royal Society, London, 1891," *Nuncius* 17 (2002): 635–51; Michael Lynch, "Science in the Age of Mechanical Reproduction: Moral and Epistemic Relations between Diagram and Photographs," *Biology and Philosophy* 6 (1991): 205–26; and Alex Soojung-Kim Pang, "Victorian Observing Practices, Printing Technology, and Representations of the Solar Corona," part 2, "The Age of Photochemical Reproduction," *Journal for the History of Astronomy* 26 (1995): 63–75.

9. Théophile Gautier, *L'univers illustré* (1858); quoted in Michel F. Braive, *The Photograph: A Social History*, trans. David Britt (London: Thames and Hudson, 1966), 186.

10. Raymond Williams, *Keywords* (London: Fontana, 1976).

11. As quoted in Ann Thomas, "The Search for Pattern," in *Beauty of Another Order: Photography in Science*, ed. Ann Thomas (New Haven: Yale University Press, 1997), 76.

12. Walter Benjamin, "The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction" (1936), in *Visual Culture: The Reader*, ed. Jessica Evans and Stuart Hall (London: Sage, 1999), 72–79.

13. William Mills Ivins, *Prints and Visual Communication* (1953; Cambridge: MIT Press, 1980), 94; quoted in Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter," 378.

14. A point made by William Mills Ivins, "Photography and the Modern Point of View: A Speculation in the History of Taste," *Metropolitan Museum* 1 (1928): 16–24; and Peter Galassi, *Before Photography: Painting and the Invention of Photography* (New York: Museum of Modern Art, 1981).

15. Jonathan Crary, *Techniques of the Observer: On Vision and Modernity in the Nineteenth Century* (Cambridge: MIT Press, 1996).

16. [William] Lake Price, *A Manual of Photographic Manipulation, Treating of the Practice of the Art; and Its Various Applications to Nature*, 2nd ed. (1858; New York: Arno, 1973), 1–2.

17. Joan M. Schwartz, "Agent of Sight, Site of Agency: The Photograph in the Geographical Imagination" (PhD diss., Queen's University, Kingston, Canada, 1998), 99.

18. Felix Driver, *Geography Militant: Cultures of Exploration and Empire* (Oxford: Blackwell, 2001); and Robert Stafford, *Scientist of Empire: Sir Roderick Murchison, Scientific Exploration and Victorian Imperialism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).

19. See Schwartz, "Agent of Sight, Site of Agency," 101.

20. George Bellas Greenough, "Anniversary Meeting Presidential Address," *Journal of the Royal Geographical Society* 11 (1841): lxxvii.

21. Paul Carter, *On Living in a New Country: History, Travelling and Language* (London: Faber and Faber, 1992), 33.

22. Roderick Murchison, "Presidential Address," *Journal of the Royal Geographical Society* 28 (1858): 155; and "Presidential Address," *Journal of the Royal Geographical Society* 29 (1859): 152.

23. Sir John F. W. Herschel, *Physical Geography: From the Encyclopaedia Britannica* (Edinburgh: Adam and Charles Black, 1861), 2.

24. Rosalind Krauss, "Photography's Discursive Spaces: Landscape/View," *Art Journal* 42 (1982): 311–20. See also Elizabeth Edwards, "Photographs as Objects of Memory," in *Material Memories: Design and Evocation*, ed. Marius Kwint, Christopher Breward, and Jeremy Aynsley, (Oxford: Berg, 1999), 221–36.

25. John Thomson, "Photography and Exploration," *Proceedings of the Royal Geographical Society* 13 (1891): 673.

26. David R. Stoddart, *On Geography and Its History* (Oxford: Blackwell, 1986), 180.

27. Quoted in Andrew J. Birrell, "The North American Boundary Commission: Three Photographic Expeditions, 1872–74," *History of Photography* 20 (1996): 120 n. 5.

28. Livingstone, *The Geographical Tradition*, 171.

29. See, for example, Anne McClintock, *Imperial Leather: Race, Gender and Sexuality in the Colonial Contest* (Routledge: London, 1995), 122–25; and Timothy Mitchell, "The World-as-Exhibition," *Comparative Studies of Society and History* 31 (1989): 230.

30. Key studies of anthropology and photography include Elizabeth Edwards, ed., *Anthropology and Photography, 1860–1920* (London: Yale University Press, 1992); Elizabeth Edwards, *Raw Histories: Photographs, Anthropology and Museums* (Oxford: Berg, 2001); and Christopher Pinney, *Camera Indica: The Social Life of Indian Photographs* (London: Reaktion, 1997).

31. Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter," 380.

32. "The Application of the Talbotype," *Art Union* 8 (1846): 195. The "Talbotype," named after the negative photographic process invented by William Henry Fox Talbot in 1840, and also known as the Calotype, used sensitized paper negatives that were easier to transport than glass. The technique remained popular until the 1850s and was thought by many to be ideal for use by travelers and explorers.

33. The image is taken from an album of twenty-seven photographs of Zanzibar, most of which were made by Grant (Royal Geographical Society Photos X73/018784–018810).

34. Jonathan Crary, *Techniques of the Observer.*

35. Francis Galton, "On Stereoscopic Maps, Taken from Models of Mountainous Countries," *Journal of the Royal Geographical Society* 35 (1865): 102. (Additional notes by Robert Cameron Galton appeared in the same issue of the journal, pages 105–6.)

36. On Western imagery of the earth and space photography, see Denis Cosgrove, "Contested Global Visions: One-World, Whole-Earth, and the Apollo Space Photographs," *Annals of the Association of American Geographers* 84 (1994): 270–94; and Denis Cosgrove, *Apollo's Eye: A Cartographic Genealogy of the Earth in the Western Imagination* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2001).

37. Thomson, "Photography and Exploration," 674.

38. Schwartz, "The Geography Lesson."

39. Frederick Scott Archer's "wet-plate" collodion process (1851) produced much finer images than Calotypes; required an exposure time of a few seconds as opposed to a few minutes, and was free from English patent restrictions which continued to limit the use of Talbot's Calotype until the mid-1850s.

40. Waxed-paper negatives, developed by Gustave Le Gray in 1850, gave finer quality negatives than the normal Calotype paper, but were not as detailed or as sensitive as collodion. A total of twenty-nine of Kirk's Zambesi photographs, as paper and glass negatives and prints, survive in a private collection on loan to the National Library of Scotland, Acc. 9942/40 and 41.

41. David Livingstone to Charles Livingstone, 10 May 1858, in *The Zambezi Expedition of David Livingstone, 1858–1863: The Journal Continued with Letters and Dispatches Therefrom*, ed. John P. R. Wallis (London: Chatto and Windus, 1956), 2:431.

42. Major studies of graphic illustration of scientific travel include Bernard Smith, *European Vision and the South Pacific*, 2nd ed. (New Haven: Yale University Press, 1985); Barbara Maria Stafford, *Voyage into Substance: Art, Science, Nature, and the Illustrated Travel Account, 1760–1840* (Cambridge: MIT Press, 1984); and James Krasner, *The Entangled Eye: Visual Perception and the Representation of Nature in Post-Darwinian Narrative* (Oxford: Oxford University Press, 1992).

43. David Livingstone, "Extracts from the Despatches of Dr David Livingstone to the Right Honourable Lord Malmesbury," *Journal of the Royal Geographical Society* 31 (1861): 256–96.

44. David Livingstone to Lord Malmesbury, 17 December 1858, in *Zambezi Expedition*, 2:294.

45. Livingstone, *Zambesi Expedition*, 2:299.

46. See Tim Jeal, *Livingstone* (London: Heinemann, 1973), 202–14; Reginald Coupland, *Kirk on the Zambesi: A Chapter of African History* (Oxford: Clarendon, 1928), 136.

47. Elizabeth Edwards, "Photographic 'Types': The Pursuit of Method," *Visual Anthropology* 3 (1990): 235–58; and Ryan, *Picturing Empire*, 140–82.

48. David Livingstone to Charles Livingstone, 10 May 1858, in *Zambezi Expedition*, 2:431.

49. Mary Cowling, *The Artist as Anthropologist* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).

50. A second photograph, of a baobab tree, survives in the collection of the National Museum, Livingstone, Zambia.

51. David Livingstone to Charles Livingstone, 10 May 1858, in *Zambezi Expedition*, 2:431.

52. Although no documentation survives with this particular stereoscopic photograph, circumstantial evidence suggests that it was made when the expedition explored the western side of Lake Nyasa (today's Lake Malawi) toward the end of the expedition and that it shows people known to Livingstone as the "Mang'anja." The depiction of African women at work is of particular significance, not least because it combines the Victorian male fascination—notable particularly in medicine and ethnology—with the bodies of black women, with the conventional prominence of work within Victorian art. As a sign of potential Christian moral virtue, the capacity for hard work was always at the forefront of David Livingstone's mind when observing people, not least himself and his own expedition officers but, more specifically here, Africans. Indeed, Livingstone regarded the "Mang'anja" highly for their agricultural skill, industry, and ability to work, virtues he thought would make them a suitable labor force for a future European colony in the Shire Highlands.

53. Charles Livingstone to Hariette Livingstone, 14 Sept–21 Dec 1858, G5/10 National Museum, Livingstone, Zambia; quoted in Gary W. Clendennen, "Charles Livingstone: A Biographical Study, with Emphasis on His Accomplishments on the Zambesi Expedition, 1858–1863" (PhD diss., University of Edinburgh, 1978), 251.

54. Ibid.

55. Mary-Louise Pratt, *Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation* (London: Routledge, 1992), 61.

56. James Chapman, *Travels in the Interior of South Africa, 1849–1863*, ed. Edward C. Tabler, 2 vols. (Cape Town: A. A. Balkema, 1971).

57. James Chapman, "Notes on South Africa," *Journal of the Royal Geographical Society* 30 (1860): 17–18.

58. Ibid.

59. James Chapman, *Travels in the Interior of South Africa*, 2:211.

60. Thomson, "Photography and Exploration," 5.

61. G. A. Farini, *Through the Kalahari Desert: A Narrative of a Journey with Gun, Camera, and Note-book to Lake N'gami and Back* (London: Sampson Low, Marston, Searle, and Rivington, 1886), vii.

62. Ibid., 42–44, 73–78, 223–24.

63. G. A. Farini, "A Recent Journey in the Kalahari," *Journal of the Royal Geographical Society* 8 (1886): 437–53.

64. Farini, *Through the Kalahari Desert*, ix.

65. Ibid., 164–66.

66. Samuel Bourne, "Narrative of a Photographic Trip to Kashmir (Cashmere) and Adjacent Districts," *British Journal of Photography* 13 (1866): 474; see also 474–75, 498–99, 524–25, 559–60, 583–84, 617–19, and the continuation of the narrative in *British Journal of Photography* 14 (1877): 4–5, 38–39, 63–64.

67. John Thomson and Adolphe Smith, *Street Life in London* (London: Sampson Low, Marston, Searle, and Rivington, 1878); John Thomson, *Illustrations of China and Its People, a Series of Two Hundred Photographs with Letterpress Description of the Places and People Represented*, 4 vols. (London: Sampson Low, Marston, Low, and Searle, 1873–74); John Thomson, *Through Cyprus with the Camera, in the Autumn of 1878* (London: Sampson Low, Marston, Searle and Rivington, 1879).

68. Thomson, introduction to *Illustrations of China*, vol. 1.

69. Hugh Robert Mill, *The Record of the Royal Geographical Society, 1830–1930* (London: Royal Geographical Society, 1930), 86–87.

70. Thomson, introduction to *Illustrations of China*, vol. 3, plates 17–24.

71. Rosalind Krauss, "Photography's Discursive Spaces." See also Estelle Jussim and Elizabeth Lindquist-Cock, *Landscape as Photograph* (New Haven: Yale University Press, 1985).

72. Luciana L. Martins, "A Naturalist's Vision of the Tropics: Charles Darwin and the Brazilian Landscape," *Singapore Journal of Tropical Geography* 21 (2000): 19–33. See also Smith, *European Vision;* and Stafford, *Voyage into Substance.*

73. William Allen, *Picturesque Views on the River Niger, Sketched during Lander's Last Visit in 1832–33* (London: John Murray, 1840), preface.

74. Theodore Hoffman, "Exploration in Sikkim: To the North-East of Kanchinjinga," *Proceedings of the Royal Geographical Society* 14 (1892): 613–18.

75. "Twenty-three Photographs of Mountain Scenery in Sikkim," *Proceedings of the Royal Geographical Society* 15 (1893): 288.

76. Charles Livingstone to Austin Layard, n.d., FO97/322, fol. 156; quoted in Clendennen, *Charles Livingstone*, 255.

77. Richard Owen to Charles Spring-Rice, 9 December 1863, FO97/322, fol. 158; quoted in ibid., 256.

78. Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter," 389.

79. Morag Bell and Cheryl McEwan, "The Admission of Women Fellows to the Royal Geographical Society, 1892–1914: The Controversy and the Outcome," *Geographical Journal* 162 (1996): 295–312.

80. Norman Vance, *The Sinews of the Spirit: The Ideal of Christian Manliness in Victorian Literature and Religious Thought* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 2–3; see also Driver, *Geography Militant*.

81. Jane Carruthers and Marion Arnold, *The Life and Works of Thomas Baines* (Cape Town: Fernwood, 1995), 54–65; and Stafford, *Scientist of Empire*, 181–82.

82. Thomas Baines and William Barry Lord, *Shifts and Expedients of Camp Life* (London: Horace Cox, 1871).

83. For a notable example of the latter, see H. B. George, *The Oberland and Its Glaciers: Explored and Illustrated with Ice Axe and Camera* (London: Alfred W. Bennett, 1866).

84. David and Charles Livingstone, *Narrative of an Expedition to the Zambesi and Its Tributaries and of the Discovery of the Lakes Shirwa and Nyassa, 1858–1864* (London: John Murray, 1865), vii.

85. See Tim Barringer, "Fabricating Africa: Livingstone and the Visual Image, 1850–1874," in *David Livingstone and the Victorian Encounter with Africa*, ed. John M. MacKenzie (London: National Portrait Gallery, 1996), 183.

86. See Oliver Ransford, *David Livingstone: The Dark Interior* (London: John Murray, 1978), 232; MacKenzie, *David Livingstone*, 51.

87. Francis Galton, "Hints to Travellers," *Journal of the Royal Geographical Society* 24 (1854): 345–58.

88. John Kirk, "Extracts from a Letter," *Journal of the Royal Geographical Society* 34 (1865): 290–92; Pole, "Photography for Travellers and Tourists," *Journal of the Royal Geographical Society* 34 (1865): 295.

89. Francis Galton, ed., *Hints to Travellers* (London: Royal Geographical Society, 1878).

90. Francis Galton to H. W. Bates, 10 November 1880, Royal Geographical Society Archives, London (henceforth RGS Archives).

91. F. Galton to H. W. Bates, 10 November 1880, RGS Archives.

92. Scientific Purposes Committee, 12 November 1880, Royal Geographical Society Committee Minute Book, RGS Archives, 177.

93. John Thomson, "Exploration with the Camera," *British Journal of Photography* 32 (1885): 373.

94. Thomson had moved his studio from Buckingham Palace Road, Belgravia, to Mayfair in the early 1880s and remained at 70a Grosvenor Street until 1905, when the studio moved to nearby New Bond Street. One Savile Row was the headquarters of the Royal Geographical Society from 1870 until 1913, when it moved to its present home at 1 Kensington Gore.

95. John Thomson to H. W. Bates, 28 December 1886, RGS Archives. Thomson initially charged ten shillings for an hour's teaching, half of this amount covering the cost of instruments, chemicals, and all other materials. See John Thomson to H. W. Bates, 25 January 1886, RGS Archives.

96. John Thomson to A. R. Hinks, 7 November 1917, RGS Archives. In 1886 Thomson offered Henry Stanley free training in photography for any of his officers on his Emin Pasha expedition. It is uncertain if his offer was taken up. See J. Thomson to H. W. Bates, 28 December 1886, RGS Archives.

97. It seems that Thomson found out about this monument to himself only by chance in 1921, the year he died. John Thomson to A. R. Hinks, 10 February 1921; A. H. Hinks to John Thomson, 15 February 1921, RGS Archives.

98. "Instruction for Intending Travellers," *Journal of the Royal Geographical Society* 26 (1905): viii.

99. William de W. Abney, *Instruction in Photography: for use at the S.M.E. Chatham* (Chatham: SME, Printed for Private Circulation, 1871), 1–2.

100. Lowis D'a Jackson, *Aid to Survey-Practice: For Reference in Surveying, Levelling, and Setting-out; and in Route-Surveys of Travellers by Land and Sea* (London: Crosby Lockwood and Son, 1889), xii, 1, 2.

101. Lord Aberdare, "The Annual Address on the Progress of Geography," *Proceedings of th Royal Geographical Society* 4 (1882): 329–39.

102. See Elizabeth Edwards, "Photographic "Types"; and Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter."

103. Pole, "Photography for Travellers and Tourists."

104. See Bell and McEwan, "Admission of Women Fellows."

105. The importance of this distinction is also noted in Ann Shelby Blum, *Picturing Nature American Nineteenth-Century Zoological Illustration* (Princeton: Princeton University Press, 1993); and Alex Soojung-Kim Pang, *Empire and the Sun: Victorian Solar Eclipse Expeditions* (Stanford: Stanford University Press, 2002), 113.

106. For a later assertion of this view, see Sidney W. Wooldridge, "The Status of Geography and the Role of Field Work," *Geography* 40 (1955): 73–83.

107. See, for example, H. Schlichter, "Celestial Photography as a Handmaid to Geography," *Proceedings of the Royal Geographical Society* 14 (1892): 714–15; H. Schlichter, "The Determination of Geographical Longitudes by Photography," *Geographical Journal* 2 (1893): 423–29; and E. G. Ravenstein, "Correspondence on 'The Determination of Longitudes by Photography,'" *Geographical Journal* 2 (1893): 557–58.

108. See also Driver, *Geography Militant*, 49–67.

109. For debates in astronomy where photography was seen from the 1890s as an "authoritive chemical retina" that could provide detailed accurate records of the stars, see Lightman, "Visual Theology," 675. For discussion of debates over the meaning of photographs within meteorology, bacteriology and spiritualism, see Tucker, "Photography as Witness, Detective, and Imposter." See also Lorraine Daston and Peter Galison, "The Image of Objectivity," *Representations* 40 (1992): 81–128.

110. Mill, *Record of the Royal Geographical Society*, 229–30.

الجزء الثالث

الجغرافيا والثورة السياسية

الجغرافيا وحوكمة الدولة

عادة ما توصف الثورات السياسية بمواقع جغرافية: كالثورة الإنجليزية، والصينية، والكوبية، والفرنسية، والإيرانية، والمكسيكية، والروسية، وغير ذلك كثير. ففى مثل هذه السياقات، غالبا ما تؤخذ قضايا الجغرافيا على أنها مرادفة لمسائل المقياس المكانى - أى المدى الذى تغطيه الثورة "كتمرد" محلى، وقضية قومية، وسمة دولية مشتركة - وقد تفهم على أنها نابعة من توزيع غير عادل مكانيا للموارد فى مجتمع معين، وهناك أيضا إحساس بأنه يمكن الوصول إلى حالة سياسية جديدة أفضل، أو بعبارة أخرى جغرافيا سياسية جديدة وجغرافيا جديدة للسياسة، من خلال الثورة السياسية، ويمكن أن تتحقق الرفاهية السياسية المستقبلية، ويمكن أن يتحقق ذلك نتيجة عدالة جغرافية أكبر. واختصارا، يوجد فى هذه المعانى العديدة جغرافيا للثورة السياسية وجغرافيا "من أجل" الثورة السياسية.

وتركز الفصول الأربعة التى تكون هذا الجزء على هذه القضايا؛ حيث يرى مايهيو Mayhew فى الفصل التاسع مثلا أن جزءًا من صعوبة فهم طبيعة "الثورة الإنجليزية(*)" فى أربعينيات القرن السابع عشر يكمن فى معرفة نطاقها الإقليمى وأسبابها، مع الاعتراف بأن لها أبعادا بريطانية وأوروبية أيضا. ففى فرنسا، كانت ثورة ١٧٨٩ وما بعدها ترجع إلى السخط على الأسرة الحاكمة، والذى كان أكثر وضوحا فى أماكن من غيرها، وربما كان يتزايد بسبب التباين الجغرافى المحلى لفشل موسم الحصاد وارتفاع

(*) تشير الثورة الإنجليزية فى الماركسية إلى حقبة الحروب الأهلية الإنجليزية وحقبة الكومنولث (١٦٤٠-١٦٦٠)، حيث كان البرلمان يتحدى سلطة الملك تشارلز الأول، ويشارك فى الصراع الأهلى ضد قواته، وأعدمه فى ١٦٤٩. وتشير الرؤية الماركسية للثورة الإنجليزية إلى أن الأحداث من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٠ فى بريطانيا كانت ثورة بورجوازية تحطم فيها الجزء الأخير من الإقطاع الإنجليزى (الدولة) على يد الطبقة البورجوازية (ومسانديها)، وحل محلها دولة (ومجتمع) كانا يعكسان تأسيس الرأسمالية الزراعية (والصناعية لاحقا). ويرى هذا التحليل أن الثورة الإنجليزية كانت محورية فى التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، ومن دولة الإقطاع إلى دولة الرأسمالية فى بريطانيا. (المترجم)

الأسعار فى أعقاب صيف رطب غير متوقع. وكما يذكر هيفرنان Heffernan فى الفصل العاشر، كانت إحدى نتائج الثورة الفرنسية تتمثل فى ظهور هيكل إدارى جديد لفرنسا، وكان هذا بمثابة جغرافيا أعيد ترتيبها لتساير أشكال الحكم الجديدة للأمة. ومع ذلك، تعتبر فصول الجزء الثالث أكثر اهتماما بمكان الجغرافيا فى الثورات المختلفة والسياقات الثورية المختلفة، مقارنة باهتمامها بتقديم تفسيرات مكانية لطبيعة الثورات السياسية. وبالنسبة لبعض المؤلفين، يتوجه الاهتمام أيضا نحو طبيعة التغير الثورى الذى حدث فيما كانت عليه الجغرافيا فى فترات الاضطراب الفكرى والسياسى، أكثر من البعض الآخر.

ويستكشف مايهيو المواقع المؤسسية لجامعة أكسفورد ومواقع نصوص كتب الجغرافيا الإنجليزية، من أجل تناول الصلات بين الجغرافيا والثورة السياسية فى إنجلترا فى منتصف القرن السابع عشر. وعلى أى حال، كانت الجغرافيا - المصاحبة للتاريخ فى التربية الإنسانية لفترة طويلة - تمر "بثورة" فى هذه الفترة فى كل من أسلوبها وهدفها، وهى الثورة التى أظهر مايهيو أنها سمحت لكتب الجغرافيا بأن تصبح مواقع للحوار السياسى والدينى. ولكن هذه الثورة فى النصوص لم تبدأ فى أكسفورد، إلا أنه من المؤكد أنها كانت أكثر وضوحا هناك، وذلك فى كتب الجغرافيا المنهجية بصورة خاصة، وبينما أصبحت نصوص الجغرافيا بمثابة مواقع فى حرب الكلمات على طبيعة العقيدة البروتستانتية، كانت الجغرافيا تستدعى بطرق مختلفة حسب الولاء السياسى والدينى للفرد. وهكذا كانت الثورة السياسية تستفيد من الدعاوى التى أطلقت من أجل الثورة الشاملة فى كتب الجغرافيا.

وإذا كانت محتويات النصوص الجغرافية قد تغيرت نتيجة "انقلاب" العالم رأسا على عقب فى إنجلترا فى منتصف القرن السابع عشر، فقد قدمت الجغرافيا فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر وسيلة لتشكيل النظام الوطنى، ووسيلة للحياة فى الأوقات الثورية، كما يقول إدمى منتل Edme Mentelle. ويمكن ملاحظة وجود صلات معقدة أيضا هنا: بين ثورة فى الجغرافيا من حيث التقاليد المتعلقة بالأسلوب، ومكان الجغرافيا فى عصر الثورة، نظرا لأن الموضوع كان يدرس بطرق مختلفة فى مجموعة

من المؤسسات قبل الثورة وبعدها، ومن حيث الجغرافيا الاجتماعية للمواقع والأماكن الثورية. وكما يوضح هيفرنان، فقد قدم نص جغرافية إدمى منتل فى ١٧٥٨ تصريحا بالتدريس فى "المدرسة الملكية العسكرية" فى باريس، حيث وفر له هذا الموقع الأساس للعديد من الأعمال الجغرافية الأخرى، وسهل له الدخول فى مجتمع البلاط بعد ذلك. ولكن منتل لم يكن مواليا محافظا بعد ذلك؛ فالأمم الجديدة تتطلب جغرافيات جديدة، ما لم تتطلب جغرافيين جددا دائما. فمنذ ١٧٩١، بدأ منتل برنامج كتب الجغرافيا الجمهورية. وتظهر محاضراته التى ألقاها فى "الإيكول نورمال Ecole Normale" أنه يستخدم الجغرافيا كمعرفة حقيقية لتحقيق مواطنة فرنسية جديدة. وقبل وفاته بقليل، كرمه الملك لويس الثامن عشر، حيث كان قد أصبح آنذاك الجغرافى الذى بنى نفسه ثم أصبح سياسيا رائدا. وفى هذا التقرير عن منتل وأعماله، يمكن أن نرى كيف أن الجغرافيا - كخطاب تعليمى أساسا - كانت تستخدم فى عصر ثورى لخدمة أهداف سياسية مختلفة، ولخدمة فرنسا فى النهاية، إن لم تكن مفيدة دائما.

وفى أماكن أخرى، كانت الجغرافيا تستدعى أيضا لخدمة احتياجات أمة جديدة. فكما يوضح لفنجستون فى الفصل الحادى عشر، فى حالة يديدياه مورس Jedidiah Morse تحديدا، كانت الجغرافيا "فى" أمريكا فى عصر الجمهورية المبكرة ذات أهمية حيوية "من أجل" أمريكا، وسيلة لإزالة سوء الفهم المستمر لدى الأوروبيين، ولدمج المحليات المقسمة باستمرار فى أمة واحدة متحدة تحت سماء الرب، وكان مورس يتقمص دور الجغرافى الوطنى مثل جيفرسون. ومع ذلك، أسهمت جغرافيات مختلفة فى تشكيل أمريكا بعد الثورة؛ فبينما كان عمل جيفرسون فى ١٧٨٧ "مذكرات عن ولاية فرجينيا" يمثل "رصدا إقليميا" لتلك الولاية ودفاعا عن الهوية الأمريكية فى وقت ما، كان يبدو أن عمل مورس "جغرافية أمريكا" (١٧٨٩) يقدم "جغرافيا أخلاقية للأمة" مصبوبة فى قالب إنجلترا الجديدة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تيموتى دوايت، الذى كانت رؤيته لأمريكا كجمهورية مسيحية تكمن فى مشاهد إنجلترا الجديدة الرعوية العظيمة. وكما يظهر لفنجستون هنا بوضوح، كان هناك بحث عن أنواع معينة من الجغرافيا، وحتى عن أوضاع جغرافية معينة، لدعم عالم جديد بعد الثورة "و" نظام أخلاقى جديد يكمن فى الفضيلة المدنية، وكانت كتب الجغرافيا بمثابة الوسيلة لتحقيق كل منهما.

ويتناول وبكى Rupke فى الفصل الثانى عشر، مثل هيفرنان جزئيا، موضوع الجغرافيين فى عصر الثورة. ولكن بينما تتمثل رواية منتل فى الحياة خلال الثورة، والحفاظ على حياته بينما العالم يموج من حوله، كانت إعادة قراءة أعمال همبولت Humboldt على أنه ثورى أمرا حدث بعد وفاته؛ فإعادة القراءة هذه جعلت همبولت الجغرافى "ثوريا" بعد وفاته، كما حدث مع وبكى، مع مراعاة أن هذه الحقيقة لا تهم أكثر من مجرد معرفة كيف ولماذا؛ إذ إن نشر مراسلات همبولت الخاصة إلى صديق ديمقراطى ألمانى أتاحت الفرصة لقراءة أعماله فى الشؤون العامة والدولية بصورة مختلفة بعد وفاته. وكما كان الحال فى حياته الجغرافية النشطة، كان لجغرافيات تلقى أعمال همبولت بعد وفاته أهمية سياسية وقومية مختلفة. ولكن صورة همبولت الجغرافى الكونى فى بريطانيا – وهى الصورة التى كانت مفيدة فى دعم تصورات معينة للعلم – تلطخت بسبب ارتباط همبولت الظاهر بالسياسات الثورية بصفة عامة وبالقومية الألمانية بصفة خاصة.

وهكذا تتضح قضايا مهمة محددة فى هذا الجزء. ففى ثلاثة سياقات جغرافية وثورية مختلفة على الأقل – أمريكا بعد الثورة، الثورة الفرنسية، الحرب الأهلية الإنجليزية – كان يتم استدعاء الجغرافيا للمساعدة على فهم الثورة السياسية، ولمعرفة ماذا تعنيه "الثورة" هناك، والمساعدة على إدارة نتائجها. وهكذا كانت الجغرافيا تستخدم "لإعداد خريطة" الثورة من حيث الواقع والمفهوم، وكذلك، تعتبر فكرة الثورة مفيدة فى فهم التغيرات فيما كانت عليه الجغرافيا وفيما فعلته، خاصة فى أنواع كتب الجغرافيا، ومن حيث الأسلوب أيضا، وقد أثيرت القضايا المنهجية بدورها هنا أيضا. ونظرا لأنه لم يكن أى من الأفراد الذين نناقشهم هنا "جغرافيا ثوريا" – بالرغم من محاولة منتقدى همبولت جعله كذلك بعد وفاته – فإن توثيق مسار حياة الفرد يمكن أن يساعد فى إلقاء الضوء كاملا على موقع الجغرافيا والجغرافيين فى سياق الاهتمامات الاجتماعية والسياسية الأوسع.

الفصل التاسع

الجغرافيا فى الثورات الإنجليزية

الجغرافيا فى أكسفورد وحرب الأفكار (١٦٠٠-١٦٦٠)

روبرت مايهيو obert J. Mayhew

الجغرافيا والثورة الإنجليزية: مبادئ توماس هوبز

فى ستينيات القرن السابع عشر، أولى توماس هوبز(*) فى كتابه "التنين" عناية لـ"الثورة الإنجليزية"، مشيرا إلى ذلك المبدأ المهيمن الذى جمع بين الجغرافيا و"الثورة الإنجليزية" فى مسيرة التأريخ الحديث(١). ويعتنى ذلك المبدأ بالمدى المكانى الذى يمكن من خلاله فهم أحداث الفترة الممتدة من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٠، فقد أشار هوبز إلى ثلاثة مستويات مكانية للتحليل؛ فأولا، كان يرى أن هناك سياقا "أوروبيا" يجب فهم الثورة

(*) توماس هوبز (٥ أبريل ١٥٨٨-٤ ديسمبر ١٦٧٩) فيلسوف إنجليزى، يشتهر اليوم بعمله فى الفلسفة السياسية؛ حيث أرسى كتابه "التنين Leviathan" (١٦٥١) أساس معظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعى. وبالرغم من أنه كان رائدا فى توظيف الأسس العقلانية فى الحكم الدكتاتورى المطلق، فإنه طور أيضا بعض أسس الفكر الليبرالى الأوروبى: حق الفرد؛ المساواة الطبيعية بين البشر؛ الطبيعة المصطنعة للنظام السياسى (التى أدت لاحقا إلى التمييز بين المجتمع المدنى والدولة)؛ وفكرة أن كل القوى السياسية الشرعية يجب أن تكون "نيابية" وتعتمد على موافقة الشعب؛ والتفسير الليبرالى للقانون الذى يترك للناس حرية عمل أى شىء لا يمنعه القانون صراحة. وذهب هوبز إلى أن المجتمعات السياسية تعتمد على "العقد الاجتماعى". وبالإضافة إلى الفلسفة السياسية، ساهم هوبز أيضا فى عدد من المجالات الأخرى، مثل التاريخ والهندسة وطبيعة الغازات واللاهوت والأخلاق والفلسفة العامة. (المترجم)

الإنجليزية فى إطاره، ومن ثم فقد اعتبر أن تشارلز الأول(*) كان قريبا جدا من السلطات ذات التوجه الكاثوليكى فى كل من فرنسا وإسبانيا، مما أدى إلى الارتياب فيه من قبل البرلمان وأتباع المذهب الكالفنى(٢). وثانيا، وضع هوبز مسار الحرب الأهلية فى إطار سياق "أمة متعددة الممالك"، ما يشير إلى أن التوترات بين إنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا كانت عاملا معجلا بانهيار الحكومة(٣). وثالثا، نظر هوبز إلى "النطاق المحلى" بطريقتين، حيث ناقش جغرافية الولاء Geography of Allegiance، معتبرا أن المدن كانت ذات ولاء مشيخى(**)، وبالتالى كانت مناطق تأثير ونفوذ للبرلمان، ما يضع الريف فى المقابل إلى جانب تشارلز. ولاحقا، قدمت قراءة هوبز سردية جغرافية للصراع المتجلى آنئذ(٤).

(*) كان تشارلز الأول (١٩ نوفمبر ١٦٠٠-٣٠ يناير ١٦٤٩) ملكا على ثلاث ممالك هى إنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا، من ٢٧ مارس ١٦٢٥ حتى تاريخ إعدامه فى ١٦٤٩، وبعد أن تولى تشارلز الحكم، اختلف مع برلمان إنجلترا الذى حاول الحد من امتيازاته الملكية؛ إذ كان يؤمن بالحق الإلهى للملوك، واعتقد أنه يمكن أن يحكم طبقا لضميره الخاص. وكان الكثير من رعاياه يعارضون سياساته، وخاصة فرض الضرائب بدون موافقة البرلمان، واعتبر أن أعماله تمثل أعمال ملك مستبد طاغية، وكانت سياساته الدينية، بالإضافة إلى زواجه من كاثوليكية رومانية، قد ولدت عداوة وعدم ثقة جماعات إصلاحية مثل البوريتانيين والكالفنيين، الذين اعتبروا أن رؤاه كاثوليكية جدا. وكان يساند كبار رجال الكنيسة مثل ريتشارد مونتاجو ووليام لود، وفشل فى مساعدة القوى البروتستانتية خلال حرب الثلاثين عاما، وأدت محاولاته لإرغام كنيسة أسكتلندا على تبنى الممارسات الأنجليكانية إلى حروب الأساقفة، وتقوية موقف البرلمانين الإنجليزى والأسكتلندى، ما ساعد على التعجيل بسقوطه شخصيا. (المترجم)

(**) المشيخية Presbyterianism: فرع من البروتستانتية الإصلاحية التى ترجع أصولها إلى الجزر البريطانية. وتستمد هذه الكنائس المشيخية اسمها من الشكل المشيخى لحكم الكنيسة، وهو عبارة عن الحكم من خلال مجالس ممثلة من الكبار؛ حيث ينظم الكثير من الكنائس الإصلاحية بهذه الطريقة، ولكن عندما تستخدم كلمة مشيخية اصطلاحا، فإنها غالبا ما تنطبق فقط على الكنائس التى ترجع أصولها إلى الكنائس الإنجليزية والإسكتلندية التى تحمل اسم المجموعات السياسية الإنجليزية التى تشكلت خلال الحرب الأهلية. وتركز العقيدة المشيخية عادة على إعلاء سلطة الرب، وسلطة الكتب المقدسة، والحاجة إلى النعمة من خلال الإيمان بالمسيح. وكان حكم الكنيسة المشيخية مضمونا فى أسكتلندا من خلال قوانين الاتحاد فى ١٧٠٧، التى كونت مملكة بريطانيا العظمى. وفى الحقيقة فإن معظم المشيخيين الموجودين فى إنجلترا ترجع أصولهم إلى أسكتلندا، وقد انتقلت الطائفة المشيخية إلى أمريكا الشمالية غالبا عن طريق المهاجرين الإسكتلنديين والأيرلنديين الإسكتلنديين. وتلتزم الطوائف المشيخية فى أسكتلندا بعقيدة جون كالفن وأتباعه المباشرين بالرغم من وجود عدد من الرؤى الدينية داخل المشيخية المعاصرة. (المترجم)

وقد أدت النقاشات التى دارت حول نطاقات هوبز الثلاثة - ومدى أهميتها النسبية كسياقات تفسيرية - إلى تقوية أواصر الصلات الرئيسة التى صاغها المؤرخون بين الجغرافيا والثورة الإنجليزية. وحين نفكر بطريقة عكسية، بهدف منح النقاش نكهة مميزة، سنجد أن الحوارات على النطاق المحلى حول مدى الولاء للسلطة قد استطلعت ما إذا كان الولاء كان أكثر "تباينا" على المستوى الجغرافى بدرجة تتجاوز تلك الصياغة الناعمة التى يقدمها تقسيم هوبز للريف والمدينة[٥].

وتعد هذه الحوارات أكثر من مجرد كونها تجريبية، فقد كانت هناك تساؤلات كثيرة عن مدى أهمية الولاء على مستوى الوحدات الإدارية الصغيرة، فى الوقت الذى تتركز فيه أنماط حياة الطبقة العليا فى المناطق الحضرية الكبرى[٦]. وبعبارة أخرى، فقد أخضع للبحث ذلك المفهوم الجغرافى للنزعة "المحلية localism" باعتباره أداة للتفسير. وتنطبق تعليقات مماثلة على أطروحة "الانتماء للنزعة المحلية "localist، وهى تلك الفكرة الأكثر تقدما عند ديفيد أندردون David Underdown الذى رأى أن الولاء يختلف بحسب المنطقة الإيكولوجية، حيث نجد أن المناطق الرعوية أقل خضوعا لنظم الحكومة، وأنها قد تبدى ميلا أكثر- مقارنة بالمناطق الزراعية - نحو التحالف مع البرلمان. وهكذا حاول أندردون أن ينتقل من مجرد النمط المكانى للولاءات إلى تفسير يتحدد بالإيكولوجيا الإقليمية. ولكن هذا النموذج واجه أيضا اعتراضات قوية تتعلق بمدى انطباقه العام، بل وتأثيره على تجربة ولتشاير(*)، التى تمثل دراسة الحالة الخاصة به[٧]. واختصارا، فإن كيفية إدراك المحلى، وما إذا كانت المحلية أثرت على الحرب الأهلية الإنجليزية، تمثلان قضيتين لم يتم التوصل إلى اتفاق بشأنهما.

وربما كان النطاق الثانى الذى تناوله هوبز - أى الأمة البريطانية والممالك المكونة لها - يمثل القضية الجغرافية التاريخية الأكثر مناقشة فيما يتعلق بالجغرافيا والثورة الإنجليزية. وليس هناك مجال للدخول فى التفاصيل هنا، ولكن ثمة اعتراف الآن بأن الثورة "الإنجليزية" - من حيث أسبابها وظهورها - كانت شأنا إنجليزيا لا يمكن

(*) ولتشاير Wiltshire: مقاطعة حبيسة فى شمال غرب إنجلترا. (المترجم)

تجنبه، ويكمن فى التوترات وسوء الفهم والتحالفات التى سهلتها النظم السياسية الدينية المختلفة فى إنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا. وكما لخص رَسل الأمر:

"إن الحرب الأهلية الإنجليزية(*) هو الاسم الذى نعطيه لذلك الجزء من الحروب الأهلية البريطانية التى خاضها الإنجليز على الأراضى الإنجليزية. ويعتبر هذا الجزء صغيرا نوعا ما، بل إنه لا يمثل حتى الجزء الأول من الحروب الأهليـة البريطانية ... فإذا نظرنا إلى الحروب الأهلية البريطانية ككل، فمن الواضح أنها بدأت وانتهت كصراع بين إنجلترا والقوى المجاورة من أجل السيطرة على الجزر البريطانية"[8].

وإذا كان هذا الادعاء قد حظى بتأييد كبير، فقد كان موضع تساؤل من جانبين أيضا؛ فمن ناحية، يقول هيرست إن "بريطانيا" كمفهوم فى ذلك الوقت كانت تعنى القليل جدا مقارنة بإنجلترا أو الانتماء على مستوى المقاطعة[9]. ويبدو أن هذه النقطة تلخص على مستوى مكانى مختلف الحجج المطروحة حول عدم حقيقة وجود مجتمعات المقاطعات. ولأن حجة الممالك المتعددة لا تعنى أن الولاء كان مدفوعا بالنطاق المكانى فى حد ذاته (على عكس نطاق المقاطعة)، فقد دفعت الاختلافات السياسية والدينية والتاريخية المعروفة بين ممالك من كافة الأطراف إلى الصراع بغض النظر عن الصورة الجغرافية الذاتية.

(*) كانت الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٢-١٦٥١) بمثابة سلسلة من الصراعات المسلحة والمؤامرات السياسية بين البرلمانيين (أصحاب الرؤوس المستديرة Roundheads) والملكيين (الفرسان Cavaliers) فى مملكة إنجلترا حول أسلوب الحكم أساسا؛ حيث حرضت الحرب الأولى (١٦٤٢-١٦٤٦) والثانية (١٦٤٨-١٦٤٩) أنصار الملك تشارلز الأول ضد أنصار البرلمان، بينما شهدت الحرب الثالثة (١٦٤٩-١٦٥١) صراعا بين أنصار الملك تشارلز الثانى وأنصار البرلمان، وانتهت الحرب بانتصار البرلمانيين فى معركة ورسيستر Worcester فى ٣ سبتمبر ١٦٥١. وكانت النتيجة العامة لهذه الحرب ثلاثية الأبعاد: محاكمة تشارلز الأول وإعدامه، ونفى ابنه تشارلز الثانى، وإلغاء الملكية الإنجليزية، وإنشاء كومنولث إنجلترا (١٦٤٩-١٦٥٣) أولا، ثم مجلس الوصاية (١٦٥٣-١٦٥٩) تحت الحكم الشخصى لأوليفر كرومويل. وانتهى احتكار كنيسة إنجلترا للعبادة المسيحية فى إنجلترا بتدعيم المنتصرين للهيمنة البروتستانتية المستقرة فى أيرلندا. ومن الناحية الدستورية، قررت الحروب سابقة أن الملك الإنجليزى لا يمكن أن يحكم بدون موافقة البرلمان، بالرغم من أن هذا المفهوم تقرر قانونا كجزء من الثورة المجيدة فى ١٦٨٨ فقط. (المترجم)

ويقود التساؤل الثانى – عن أهمية "المسألة البريطانية" بالنسبة إلى الحرب الأهلية – إلى النطاق المكانى الثالث عند هوبز؛ إذ يزعم البعض، وخاصة سكوت، أن مقولة "بريطانى" عبارة عن بنية استرجاعية ليست جزءًا من معجم مفاهيم أولئك الذين خاضوا الحرب الأهلية[١٠]. ويقول سكوت إننا نحتاج إلى التحول إلى النطاق الذى يفهم الإنجليز فيه مشاكلهم، وهذا لا يتمثل فى الأمة، ولكنه يتمثل فى الساحة الأوروبية. وتعانى حجة سكوت من نفس ضعف حجة هيرست على أحد النطاقات: أى حقيقة (وإن كانت موضع جدل) أن الإنجليز لم يفكروا فى ضوء المفاهيم البريطانية، ومن ثم فقد عملوا بطرق يحكمها منطق يتمثل نطاقه المكانى فى الأمة[١١]. وبنفس الطريقة، ليس هناك حاجة إلى اعتبار هذه النطاقات منفصلة عن بعضها تماما، فقد كانت حالات الممالك المتعددة منتشرة فى أوروبا، وكانت التوترات السياسية والدينية التى تثيرها أمرا شائعا فى الحوارات البريطانية[١٢].

ومع ذلك، فإن الحوارات حول النطاقات المكانية التى يجب فهم الأحداث على أساسها لا تتناول المبدأ الرئيسى الذى يجب أن تربط به الجغرافيا والحرب الأهلية الإنجليزية، بناء على قول هوبز، فالمدخل التفسيرى لدى هوبز لفهم أحداث ١٦٤٠-١٦٦٠ ليس "نطاقا" ثوريا، ولكنه "فضاء" ثورى، أى فضاء الجامعات التى كانت بالنسبة إليه "محور التمرد" لسببين: أولا: أثارت الجامعات القيم الجمهورية باهتمامها بالاتحادات القديمة. وثانيا، غذت الجامعات الحوارات داخل اللاهوت البروتستانتى بين أتباع المذهب الكالفنى والأرمينيانى(*)؛ حيث تسربت هذه الحوارات إلى المجال العام وأشعلت حربا فى الأفكار[١٣].

(*) تعتمد الأرمنيانية Arminianism على الأفكار اللاهوتية للإصلاحى الهولندى يعقوب أرمينيوس (١٥٦٠-١٦٠٩) ومؤيديه التاريخيين المعروفين باسم المعترضين Remontrants. وكانت تعاليمه تتمسك بالأسس الخمسة للإصلاح، ولكنها كانت تتميز بشكل ما عن تعاليم محددة لمارتن لوثر، وتسفنجلى، وجون كالفن، وغيرهم من الإصلاحيين البروتستانتيين، حيث كان أرمينيوس أحد تلامذة بيزا (خليفة كالفن) فى الجامعة اللاهوتية فى جنيف. وتعرف الأرمنيانية بأنها تنوع طائفى من المسيحية البروتستانتية، حيث ظهرت الأرمنيانية الهولندية أساسا فى "الاحتجاج" (١٦١٠)، وهو بيان لاهوتى وقعه ٤٥ قسا وقدم إلى السلطات العامة فى هولندا، وقد دعت السلطات العامة سينود دورت (١٦١٨-١٦١٩) إلى دراسة البنود الخمسة للاحتجاج. (المترجم)

وقام مؤرخو الثورة الإنجليزية بدراسة الجامعات بصورة مكثفة؛ إذ يقول كرستوفر هيل وتشارلز وبستر إن البيوريتانية(*) كانت تشجع على البحث العلمي؛ لأنها كانت تنتقد السلطة العتيدة. وهناك اختلافات مهمة بين الاثنين، حيث كان هيل يعتبر الجامعات (وقبل أن يصك إدوارد جيبون مصطلحه) أماكن للفتور والكسل، تسعى إلى تخريج تجار وصناع أدوات ومستكشفين(١٤)، مع اعتبار كلية جريشام(**) مقر تعليم نابض. وعلى العكس، كانت ثورة وبستر البيوريتانية تؤثر كثيرا على الجامعات وتعتمد عليها أيضا. وفى الحالتين، حظيت ثقافة التعلم الجغرافى بالاهتمام، حيث كان هيل يرى أن الدائرة البيوريتانية/البرلمانية حول إيرل ليستر Earl of Leicester تساند الجغرافيا والاستكشاف، وكان وبستر يتطلع إلى الكتاب الذى ألفه نثنائيل كاربنتر المعنون "الجغرافيا الأكسفوردية Oxonian Geography"، والجغرافيا التجارية عند لويس روبرتس، وكتاب جيرالد بوت "التاريخ الطبيعى لأيرلندا"(١٥).

ويحتاج تحليل هيل/وبستر إلى تبرير على ثلاثة أسس. فأولا، يميل هذان المؤرخان إلى معالجة كل أشكال الكالفنية على أنها "بيوريتانية"، بينما أظهر آخرون كما سنرى أن الكالفنية الأصولية كانت "التيار الرئيسى" الدينى فى إنجلترا مبكرا فى عهد أسرة ستيوارت، ولهذا السبب، تعتبر حدود القوة بين البيوريتانية والثورة العلمية أقل وضوحا

(*) البيوريتانية Puritanism أو التطهُّرية: مذهب مسيحى بروتستانتى يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية، والسياسية، واللاهوتية، والأخلاقية. وقد ظهر هذا المذهب فى إنجلترا فى عهد الملكة إليزابيث الأولى وازدهر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية. وتستند تعاليم هذا المذهب إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدرًا وحيدًا للعقيدة الدينية دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة. وهناك بُعد تاريخى يجب الإشارة إليه فى معارضة البيوريتانيين للسلطة الدينية، فبعد الحروب الدامية التى شهدتها إنجلترا عمدت الملكة إليزابيث إلى نشر المذهب الإنجليكانى وتأسيس الكنيسة الإنجليكانية، وتأسس المجلس الأعلى للكنيسة الإنجليكانية ١٥٨٣ غير أنه مارس الاضطهاد على البيوريتانيين ما دفعهم إلى الهجرة، وانتشر المذهب البيوريتانى فى المدن الصغيرة والمتوسطة، وأسس أتباعه ما يشبه الحكومات الصغيرة وأدى ذلك إلى صراع عنيف مع العرش الإنجليزى الذى اتخذ من قساوسة الإنجليكانية أدوات ووسائل لتحقيق أغراضه. (المترجم)

(**) عبارة عن مؤسسة للتعليم العالى تقع فى بارنارد إن هول Barnard Inn Hall خارج هولبورن فى وسط لندن بإنجلترا. وقد تأسست فى ١٥٩٧ بناء على رغبة السير توماس جريشام، وهى تستضيف الآن أكثر من ١٤٠ محاضرة عامة مجانية كل سنة داخل مدينة لندن. (المترجم)

مما كان يعتقد. وثانيا، ليس واضحا تماما ما الذى يعنيه أى من هيل أو وبستر "بالعلم"، فبينما يسترجع مؤرخو العلم عصر النهضة والفلسفة الطبيعية الحديثة ذات التوجه العلمى[١٦]، نجد أن التقسيم البسيط بين العلم "الحديث" والبحث المعرفى الذى سبقه، وهو التقسيم الذى يعتمد عليه هيل/وبستر، لم يعد له معنى. وأخيرا، وبناء على النقطة السابقة، كان كل من هيل ووبستر يعتبران الجغرافيا بحثا واضحا بذاته لا يرتبط بالزمن، ولا يتغير تاريخيا. وهكذا يشير وبستر إلى عمل بوت Boate على أنه "تطور كبير فى الجغرافيا الاقتصادية"، بينما لم يكن واضحا ما الذى كان يعنيه هذا التقسيم للمعرفة فى القرن السابع عشر[١٧]. وكذلك، تعتبر جغرافية هيل استكشافا ورواية على وجه العموم، مما يستبعد التقليد النصى الذى سيطر على التعريفات المعاصرة للجغرافيا (انظر أيضا حجج ويزرز Withers المتعلقة بهذا الشأن فى الفصل الرابع)[١٨].

وتعرض موقف هيل/وبستر لانتقاد شديد من نيكولاس تياكى وموردخاى فاينجولد، حيث يشير كل منهما إلى أن ثقافات الجامعات ليست راكدة ولا تعتمد على البيوريتانية ولا حتى على الكالفنية فى قوتها[١٩]. ومع ذلك، لا يدفع أى منهما الحوار قدما من حيث وجهى الضعف الآخرين فى حجة هيل/وبستر، أى تعريف العلم وتعريف الجغرافيا، إذ يذكر كل منهما الجغرافيا بصورة عامة مثل هيل ووبستر، وذهبا فى ذلك بطريقة تتفق مع الصورة التى يعارضانها وليس الصورة التى يقترحانها، إذ يشيران ببساطة إلى كاربنتر ومجموعة من الجغرافيين الكالفنيين بكلية إكستر فى أكسفورد، وكما سنرى، كان هناك ما يوافق هواهم فى الثقافة الجغرافية فى أكسفورد، حتى إذا لم يدركوا ذلك.

وإذا كانت الجغرافيا طارئة على هذا الحوار حول ثقافة التعليم الجامعى، وذلك لأن هذا الحوار - وهو ما ينطبق على الشروط المرجعية المبدئية لهيل - قد غطى سلسلة كاملة من الاستقصاءات المسماة "بالعلم" بصورة عفى عليها الزمن نوعا ما، فإن علاقة الجغرافيا بهذا الاسم كانت غامضة (كما أشار ويزرز سلفا أيضا). ولم يقدم مؤرخو الجغرافيا الذين اعتمد عليهم مؤرخو الثورة الإنجليزية الكثير لتوضيح الموقف لعدة أسباب، فأولا، كانت الصورة السائدة لتاريخ الجغرافيا تشير إلى أنها لم تظهر إلى الوجود فى الجامعات البريطانية كمادة جامعية قبل ١٨٨٧[٢٠]؛ حيث ركزت الأعمال التى أجريت على الجغرافيا فى الجامعات البريطانية قبل ماكندر على موضوعات أخرى

غير محتواها وسياقها السياسى، وهى النقطة المطروحة بين مؤرخى الحرب الأهلية. وهكذا يقدم مسح تيلور (الذى اعتمد هيل عليه كثيرا) رؤية بسيطة للسياسة، نظرا لأنه كان بمثابة ببليوجرافيا عددية، وكان هيل يتبع مفهومه الذى عفى عليه الزمن للجغرافيا "الحقيقية" كاستكشاف[٢١]، بينما ركزت دراسة ليسلى كورماك الجيدة للجغرافيا فى الجامعات الإنجليزية حتى ١٦٢٥ على الأسلوب، وتوافر الكتب، والقراءة؛ وليس على السياسة ما عدا مسائل الوطنية والإمبراطورية[٢٢].

وتتناول مناقشتى فى هذا الفصل فضاء هوبز الثورى، أى الجامعة، وتنظر إلى الثقافة الجغرافية فى جامعة أكسفورد فى الفترة من ١٦٠٠-١٦٦٠. وبالنسبة لحجة هوبز، هناك أسباب بديهية للنظر إلى الجغرافيا على أنها شاركت فى جانبين من التعليم الجامعى يرى أنهما تسببا فى انتشار داء التمرد، فأولا، كثيرا ما كانت الانتقادات التربوية الإنسانية تعتبر الجغرافيا مساعدة للتاريخ، إذ كانت الجغرافيا بمثابة "العين" التى يستطيع بها الدارسون قراءة تواريخ الاتحادات القديمة التى كان هوبز يعتبرها خطيرة جدا، بل إن هوبز ذاته اعترف بهذه العلاقة فى ترجمته للمؤرخ اليونانى ثوكيديديس[*]، حيث أضاف إلى ترجمته خريطتين بناء على الأسس التقليدية تماما والمتمثلة فى أنه بدون هذه المعلومات الجغرافية سنجد أن التاريخ لا يمكن "قراءته بصبر، ولا فهمه جيدا، ولا تذكره بسهول"[٢٣]. وثانيا، كانت كتب الجغرافيا بمثابة مواقع للحوار الدينى، وكانت الصراعات بين الأرمينيان والكالفنيان تنتشر فى هذا السياق. وإذا كان هوبز قد صور الثورة الإنجليزية على أنها حرب أطلقتها الأفكار، فإن بعض الشرارات الأولى قد أطلقتها الجغرافيا.

(*) ثوكويديدس Thucydides (من نحو ٤٦٠-٣٩٥ ق.م): مؤرخ أثينى، وفيلسوف سياسى. حيث يفسر كتابه "تاريخ الحرب البيلوبونيزية" حرب القرن الخامس قبل الميلاد بين إسبرطة وأثينا حتى سنة ٤١١ ق.م. وقد أطلق عليه لقب "أبو التاريخ العلمى" بسبب معاييره الصارمة فى جمع الأدلة وتحليلها من حيث السبب والأثر دون الرجوع إلى تدخل الآلهة، كما يتضح فى مقدمة عمله. وكان يسمى أيضا أبا مدرسة الواقعية السياسية، التى ترى أن العلاقات بين الأمم تعتمد على القوة وليس الحق، ولا يزال كتابه يدرس فى الكليات العسكرية المتقدمة فى أنحاء العالم ومرجعا للعلاقات الدولية، وبصفة عامة، أظهر هذا المؤرخ اهتماما بتطوير فهم الطبيعة الإنسانية لتفسير السلوك فى الأزمات مثل الطاعون، المذابح، والحروب الأهلية. (المترجم)

ويتكون الفصل الذى بين أيدينا من ثلاثة أجزاء، بعد صياغة هوبز لحجته، فأولا، يقول إنه كانت هناك ثورة فى الشكل العام للجغرافيا فى الفترة من ١٦٠٠-١٦٢٥، بسبب النظريات التربوية الإنسانية المتأخرة، وثانيا، سمح هذا الشكل المنظم حديثا بالحوارات السياسية الدينية، وفى الفترة من ١٦٠٠-١٦٦٠، كانت هذه الحوارات مدخلا إلى الانقسام بين الكالفنية والأرمينيانية، وأخيرا، وبعيدا عن كتب الجغرافيا، سنرى أن الجدالات التى أحاطت بالحرب الأهلية استندت إلى معلومات جغرافية.

مكانة الثورة فى الجغرافيا الإنجليزية

مرت طبيعة الجغرافيا الإنجليزية كشكل نصى بتغير ثورى فى السنوات التى تلت ١٦٠٠، حيث جاء الدافع إلى هذا التغير فى سلسلة من الأعمال المنتجة فى سياق جامعة أكسفورد.

وقبل هذا الوقت، كانت سياقات العصور الوسطى الرئيسة، التى كانت المعرفة الجغرافية تنتقل من خلالها، تتمثل فى: سجلات الوقائع التاريخية، التى كانت تميل إلى تصدير تاريخها بمعالجة جغرافية؛ ودوائر المعارف، التى تقدم ملخصا لكل المعارف وتعامل المعرفة بالعالم على أنها عنصر معيارى[٢٤]. وعندما نتناول أشهر سجل تاريخى بريطانى، وهو "التسلسل الزمنى المتعدد Polychronicon" الذى أعده رانولف هجدن فى القرن الرابع عشر، سنجد ملامح قليلة تتعارض مع كتب الجغرافيا المنتجة بعد ١٦٠٠. وقد خصص هجدن الكتاب الأول من هذا السجل لوصف العالم جغرافيًا، ما يعتبر تصديرا لتأريخه[٢٥]. فقد وصف كل أمة باختصار، ولكن كان هناك القليل من التنظيم المنهجى، حيث وصف الأمم المتباينة بطرق مختلفة، رغم ادعاء هجدن مبدئيا بأنه "سيتم التعبير عنها بنظام"[٢٦]. وهكذا تبدأ الفصول المتعلقة بالهند وفرنسا بأصول أسماء المواقع الجغرافية، ثم تنتقل إلى حدود الأمم، بينما يشهد وصف اليونان وروما بنية مختلفة فرضتها رغبة هجدن فى الاقتباس من مصادر تقليدية. ولكن التعقيدات وعدم الاتساق تزايدت فى القسم الويلزى، والذى كان فى طبعة كاكستون الإنجليزية

فى ١٤٨٠ بمثابة عرض منظم للمعلومات قدمه جيرالد الويلزى. وهكذا لم يكن هناك شكل معيارى لترتيب أو عرض المعلومات.

وطوال نصف القرن السابق على ١٦٠٠، وعندما فقد السجل التاريخى فى العصور الوسطى بريقه، كانت الجغرافيا تظهر على أنها شكل منفصل، وكان ذلك بمثابة عملية إعادة ترتيب شكلى أكثر وضوحا فى حالة التاريخ منها فى الجغرافيا[٢٧]. ومع ذلك، لم تكن النصوص الجغرافية المبكرة التى أنتجت على هذا النحو منهجية تماما. وهكذا أخذ روجر بارلو فى كتابه "موجز مختصر للجغرافيا" فقرات كاملة من نصوص قديمة، وكان لديه أجزاء طويلة من مواد غير متجانسة، كما يوجد فى السجل التاريخى المعروف باسم أحداث هولنشيد Holinshed جزء جغرافيا وضعه ويليام هاريسون، حيث يجمع مواد بالغة التنوع إلى جوار بعضها البعض[٢٨].

فما الثورة التى حدثت فى نصوص الجغرافيا بعد ١٦٠٠؟ يمكن أن نبنى رؤية مبدئية بالنظر إلى الصورة التى أعطتها المواد التمهيدية لمهمة كتابة الجغرافيا، حيث يتحدث كل كبار الجغرافيين فى أكسفورد فى ذلك الوقت عن طموحهم للكتابة "بأسلوبهم". ففى هذا الصدد، كانوا يدعون أنهم مبدعون من حيث التأليف، بالرغم من انتحال مواد من مصادر أخرى، وهكذا يقول بيتر هيلين Peter Heylyn إن عمله المعنون "الكون الصغير" كان يضم قضايا "من بنات أفكارى"، وأضاف إن هذا يعنى "أننى أخذت الموضوع من الآخرين، لكن معظم الكلمات كلماتى، أما الأسلوب فهو خاص بى تماما"[٢٩]. كما استطاع روبرت ستافورد Robert Stafforde فى كتابه "وصف جغرافى" أن يقول إن المعلومات المتاحة فى كتابه مأخوذة من الآخرين، ولكن "الأسلوب أخذته من معلمى"، عميد كلية إكستر، جون بريدو John Prideaux[٣٠]. وكذلك بدأ الذين يجمعون تقارير الرحلات فى وصف اختلافهم عن الجغرافيا من حيث عدم وجود الأسلوب. وكذلك ارتأى صمويل بوركاس Samuel Purchas أن الكتاب الذى يحمل عنوان "أعمال هاكليوت بعد وفاته Hakluytus Posthumus" رتبه "شخص لم يكن يحاول أن يعرض "تاريخ" الطبيعة طبقا لقواعد "التخصص" بصورة منهجية، ولا ليناقش ويجادل بصورة "فلسفية"[٣١].

ولكن ماذا يعنى هذا الاهتمام "بالأسلوب"؟ هل يتطلب هذا اتجاها منهجيا أكثر أصالة من الذى يدعى هجدن أنه يعبر عنه بالنظام؟ لقد قدم كل جغرافيى أكسفورد تقسيمات واضحة لموادهم ما بين الاعتبارات "العامة" والمسائل "الخاصة" المتعلقة بأمثلة معينة. ويتضح هذا بصورة خاصة فى كتاب كاربنتر "الجغرافيا" فى ١٦٢٥، حيث تظهر طبقة فوق أخرى من التقسيم من حيث ثنائية العام/الخاص، وكان هذا يتضح فى أشكال تمهيدية. وكذلك، يتناول الكتابان على التوالى المسائل العامة المتعلقة بالعالم (الكتاب الأول) ثم ما يسمى بالمسائل "الموضوعية" (الكتاب الثانى)، وحتى عندما كان هذا الأسلوب أقل اكتمالا، كان ولا يزال حاضرا، فمثلا، يضم كتاب جورج أبوت George Abbot "وصف مختصر للعالم بأسره" (١٥٩٩) المصطلحات (العامة) للجغرافيا قبل تناول أمثلتها (الخاصة) حول العالم، ويمكن العثور على تقسيمات مماثلة فى كتاب هيلين "الكون الصغير Microcosmus" وفى كتاب ويليام بمبل William Pemble "مقدمة مختصرة إلى الجغرافيا" فى ١٦٣٠[٣٢].

لقد كان "للأسلوب" تأثير كبير على طريقة وصف الأمم، حيث وصل الأسلوب إلى المستوى المنهجى مقارنة بأعمال الجغرافيين السابقين مثل هجدن أو بارلو؛ حيث يتبع الجغرافيون الآن نظاما دقيقا فى عرض المعلومات. وحتى كتاب أبوت "الوصف المختصر" - الذى يتوافق اسمه مع حجمه الذى لا يتجاوز ستين صفحة - كان يظهر نظاما واضحا، حيث كانت كل أمة توصف على التوالى من حيث حدودها والممالك التى تتكون منها، والأمم التى تجاورها، وأخيرا جزء يغطى الدين والتاريخ والغرائب. وبعد ذلك كان لدى أبوت نظام محدد عرض فيه المواد، ويمكن أن نرى ذلك فى أعمال جغرافية كبيرة أيضا. ولكن المحتوى لم يختلف كثيرا عن الأعمال السابقة فى العصور الوسطى: فقد كان شرح أصول الأسماء، والحدود، والدين، والغرائب لا يزال موجودا، ولكن ذلك كان بتسلسل منهجى، فبالمقارنة بالسجلات التاريخية فى العصور الوسطى، كان هناك تراجع عن الإشارة إلى "العناية الإلهية"، ولكن هذا لم يكن بمثابة تحول

علمانى فى الجغرافيا، إذ أصبح لكل من الإكليسيولوجيا(*) واللاهوت دور جوهرى فى الكتابات الجغرافية المنهجية كما سنرى[٣٣]. وكان كل هؤلاء المؤلفين يزعمون استخدام العرض المنهجى جيدا، وكذلك، يبدو أنهم جميعا كانوا يتبعون صياغات النظام الذى وصفناه لدى أبوت بدرجات متفاوتة من الدقة. وبينما كان الجغرافيون السابقون يتبعون خططا مختلفة جدا عن بعضهم، كان هناك فراغ فى أسلوب العرض؛ لأن الأشكال العامة للسجلات التاريخية انهارت، وهكذا بدأت كتب الجغرافيا منذ ١٦٠٠ تتبنى أسلوبا محددا لها، وظهر قدر من التماثل فيما بينها، ما يبرر اعتبارها تمثل أسلوبا متكاملا.

وكانت أطراف هذا التكامل فى الأسلوب لا تزال غير منتظمة فى أوائل القرن السابع عشر، إذ إن كاربنتر – الذى مدحه مؤرخو الجغرافيا بسبب أسلوبه المنهجى – له مرثاة طويلة عن قلة مكافآته فى أكسفورد، بينما كانت ترجمة توماس ماى Thomas May فى ١٦٣١ للمسح الثقافى العام الذى قدمه باركلى تحت عنوان "مرآة العقول Icon Animorum" تعيش فى عالم ذهنى لم يتأثر كثيرا بدعوات الأسلوب المنهجى[٣٤]. ومع ذلك، فإن اتباع أسلوب متفق عليه فى الجغرافيا – بحيث يركز على أسلوب ثنائيات العام/الخاص – هو الذى يؤثر على القارئ مقارنة بالنصوص الجغرافية المبكرة.

ولكن، ما الأصول الفكرية لهذا التوافق الشكلى الملحوظ حول "الأسلوب"؟ يمكن أن نلاحظ وجود أصلين: أحدهما عام والآخر خاص. وأظهرت الإنسانية الأوروبية بصفة عامة طموحات مضادة من أجل التمتع بوفرة المعلومات المتاحة، والسيطرة

(*) تهتم الإكليسيولوجيا Ecclesiology بدراسة لاهوت الكنيسة المسيحية. ومع ذلك، فإنه عندما ظهرت الكلمة فى إنجلترا فى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، كانت تعرف بأنها "علم بناء وزخرفة مبانى الكنائس"، ولا تزال تستخدم بهذا المعنى وإن كان ذلك نادرا، أما بالمعنى اللاهوتى، فإنها تتناول أصول المسيحية، وعلاقتها بالمسيح، ودورها فى الخلاص، وسياستها، ونظامها، ومصيرها، وقيادتها. ونظرا لأن اختلاف مفاهيمها يعطى شكلا للمؤسسات المختلفة، يمكن أن تشير الكلمة أيضا إلى كنيسة معينة أو طبيعة طائفة معينة، تصف نفسها أو غير ذلك، ومن هنا ظهرت عبارات مثل: الإكليسيولوجيا الكاثوليكية الرومانية، والإكليسيولوجيا اللوثرية، والإكليسيولوجيا العالمية. (المترجم)

والتحكم فى هذه الغزارة وتنسيقها فى أحد أشكال النظام[٣٥]. ويمكن تحقيق هذه الطموحات من خلال أسلوب "التجميع"، أى تبويب المعلومات المستقاة من القراءة تحت مجموعة من العناوين الرئيسة[٣٦]. ولا شك فى أن مثل هذا التجميع كان بمثابة المادة الخام للمسوح الجغرافية. غير أن هذا فى حد ذاته لا يفسر الاهتمام بالأسلوب، إذ كان يقال إن التوازن بين الرغبة فى الوفرة والرغبة فى التنظيم قد تغير مع الزمن، إذ إن المذهب الإنسانوى الذى ظهر فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر شهد اندفاعا نحو التنظيم فى مواجهة تدفق المعلومات[٣٧]. وكان هذا التحول الذى يمكن رؤيته فى كتب الجغرافيا يمثل الأصل "الخاص" للدافع نحو الأسلوب المنهجى، حيث تظهر كتابات بارلو الجغرافية فى أربعينيات القرن السادس عشر وكتابات هاريسون فى سبعينيات نفس القرن، احتفاء غامرا بغزارة المعلومات، بينما نرى فى كتابات جورج أبوت بعد هاريسون بعشرين سنة أن كفة الميزان مالت نحو التنظيم.

ويرتبط الانتقال إلى الرغبة فى تبنى الأسلوب المنهجى بحركتين محددتين، فأولا، كانت هناك الإصلاحات التربوية التى ساقها بطرس راموس Petrus Ramus فى باريس، فقد كانت تعويذة راموس الفكرية تتمثل فى "الأسلوب": لأنه حاول أن يهدم مذهب البحث النقدى الأرسطى(*). ونشر راموس أشكال تقسيم العلاقة بين التخصصات، وأظهر ولعه

(*) مذهب البحث النقدى Scholasticism: أسلوب للفكر النقدى سيطر على تعليم الأكاديميين فى جامعات العصور الوسطى فى أوروبا فى الفترة الممتدة من ١١٠٠-١٧٠٠، ويقوم على ترسيخ أسس العقيدة والدفاع عنها فى سياق تعددى. ويركز هذا الأسلوب على التفسير الجدلى لتوسيع المعرفة بالاستنباط وحل التناقضات، ويعرف هذا الفكر أيضا بتحليل المفاهيم الدقيق والتوضيح الدقيق للفروق. أما فى الدراسة والكتابة، فغالبا ما يأخذ شكل الخلاف الصريح: إذ إن الموضوع المأخوذ من التراث يعالج على شكل سؤال، وتقدم استجابات الخصوم، ويطرح مقترح مضاد وتفند حجج الخصوم. ونظرا لتركيزه على الأسلوب الجدلى الدقيق، كان هذا الأسلوب يطبق على العديد من مجالات الدراسة الأخرى. أما من ناحية كونه برنامجا، فقد بدأ هذا الأسلوب كمحاولة لتحقيق الانسجام بين المفكرين المسيحيين فى العصور الوسطى، وتحقيق الانسجام بين السلطات المختلفة فى تراثهم، والتوفيق بين اللاهوت المسيحى والفلسفة التقليدية والقديمة، خاصة فلسفة أرسطو والأفلاطونية الجديدة. (المترجم)

التنظيمى بالثنائيات[٣٨]، وثانيا، كان لأعمال "الأساليب المنهجية" تأثير مباشر على النصوص الجغرافية المنتجة فى أكسفورد، وحاول التربويون الألمان - ومن أهمهم بارثولوميو كيكرمان ويوهان ألستيد Johann Alsted - أن يستغلوا بعض ابتكارات راموس، وذلك من أجل التوفيق بينها وبين الأرسطية؛ والابتعاد عن اهتمام راموس بالبنى الثنائية لصالح تقسيمات أكثر عمومية للمعرفة؛ وأفضى الاهتمام بالأسلوب المنهجى إلى مجالات بحث جديدة فى أسلوبهم الموسوعى للمعرفة، وكان كل منهما يوسع اختصاصه ليشمل الجغرافيا، حيث كتب كيكرمان بحثا صغيرا عن الجغرافيا، ووضعه ألستيد فى مشروعاته الموسوعية[٣٩].

وتتضح أهمية أنصار الأسلوب المنهجى (وراموس بدرجة أقل) بالنسبة إلى "الجغرافيا الأكسفوردية" واندفاعها إلى الأسلوب المنهجى فى عدد من النقاط، حيث أظهر كاربنتر عداء راموس الشديد للعلوم الطبيعية الأرسطية فى كتابه "الجغرافيا"، ولكنه ظل مثل راموس "متأثرا بالمفاهيم والمصطلحات التقليدية"[٤٠]. وقد أشار كاربنتر إلى كيكرمان فى إحدى النقاط، ولكن تأثيره كان أكثر وضوحا فى كتاب هيلين "الكون الصغير"، حيث تكونت افتتاحياته من إشارات هامشية متكررة إلى بحث كيكرمان الجغرافى فى ١٦١٢، ما زود هيلين صراحة بالأسلوب المنهجى بغض النظر عن ادعائه السابق بأنه ابتكره بنفسه[٤١]. ويشير نمط نصوص هيلين فى الإشارات الهامشية إلى أنه كان يرتب خلاصة قراءته ويجمعها تحت عناوين رئيسة على المستوى الأوربى والقومى، ما كانت نتيجته ظهور شكل "منهجى" لكتاب جغرافيا. وفيما عدا هذه الإشارات الصريحة، فإنها تحقق المصداقية لعدم اعتبار أساليب أبوت، وبمبل، وستافورد، مستمدة من نفس المصادر، أى أدلة كيكرمان وألستيد التى كانت شائعة جدا فى أوائل القرن السابع عشر[٤٢]. وقد اعتمد جغرافيو أكسفورد على الأسلوب المنهجى الذى قدمه أنصار هذا الأسلوب كطريقة لتنظيم المواد المجمعة فى نظام للعناوين الرئيسة المكانية، والذى تحول بعد ذلك إلى أسلوب يسمى الجغرافيا.

ويظهر من هذا التحليل نقطتان مهمتان جدا لمشروعنا الذى يربط بين الجغرافيا والثورة الإنجليزية؛ فأولا، كان السياق الذى ظهرت منه المشروعات التربوية لدى راموس وأنصار الأسلوب المنهجى يتمثل فيما يدعى "الإصلاح الثانى"، الذى حاول فيه البروتستانت الأوروبيون التوافق مع وضعهم المتورط فى "الحروب الدينية"، وبعبارة أخرى، فإنه مثلما حاول مؤرخو الثورة الإنجليزية أن يستعيدوا العلاقات بين هذا الحدث وسياقه الأوروبى، فإننا نستطيع أن نرى أن الثورة العامة فى الجغرافيا الإنجليزية تنبع من سياق الصراعات الطائفية الأوروبية. ولكن بينما ترى الحكمة التقليدية تحول الأعمال الموسوعية الألمانية إلى إنجلترا باعتبارها ظاهرة بيوريتانية، أو كالفنية على الأقل، نجد أن عادات التفكير المتعلقة بأساليبها فى الجغرافيا كانت تظهر عبر التقسيمات الدينية لدى الكالفنيين مثل أبوت وكاربنتر، وكذلك بصورة واضحة فعلا لدى الأرمينيانى البارز بيتر هيلين، وهذا يدعم الافتراض الذى طرحه هوارد هوستون Howard Hoston والقائل بأنه نظرا لأن أنصار الأسلوب المنهجى يعارضون الكالفنية – فى إمكانية التوصل إلى معرفة "الرب" من خلال الجهود الفلسفية – فإن منهجهم يعتبر متجانسا مع الأرمينيان[٤٣].

وتتمثل النقطة الثانية فى أن هذه الثورة العامة سمحت بمشاركة النصوص الجغرافية فى الحوارات السياسية الدينية؛ حيث كان أحد الاهتمامات الرئيسة للمعرفة الموسوعية المنهجية يتمثل فى تطوير خريطة للتخصصات. وقد ترسخت مكانة الجغرافيا باعتبارها "عين" التاريخ فى مثل هذه الخرائط، وكذلك استقر مكانها فى مناهج الآداب المصممة لتنشئة أطراف ماهرة سياسيا. وإذا كان الموقع التخصصى للجغرافيا فى مناهج الآداب قد أدى إلى صبغها بالصبغة السياسية على المستوى العام، فقد كونت الثورة العامة جغرافيا منهجية تشمل تقاليدها معلومات متعلقة بالسياسة والدين والتاريخ فى كل بلد، وبعبارة أخرى، كان لكتب الجغرافيا المنهجية التى ظهرت فى أوائل القرن السابع عشر مواقفها الواضحة التى تشارك منها فى القضايا السياسية الفاصلة، وسنتناول فيما يلى كيفية ظهور ذلك فى الثورة الإنجليزية.

مكانة الثورة الإنجليزية فى الجغرافيا (١٦٠٠-١٦٦٠)

نزاع الحدث وسياقه

شهدت حقبة الثورة الإنجليزية سلسلة من الصراعات الفكرية التى ظهرت فى كتب الجغرافيا المنهجية التى أنتجت فى جامعة أكسفورد. وكان المدخل إلى هذه الصراعات يتمثل فى الصدام بين مجموعتين متنافستين من البروتستانت: الكالفنيين والأرمينيان، كما يقول هوبز فى كتابه "التنين". وقد انتشر هذا الجدل فى كتب الجغرافيا صراحة، وقدم عروضا جيوبوليتيكية مختلفة للمؤسسات السياسية والدينية الأوروبية. وقبل أن نعرض هذه السلسلة من الصراعات، يجب أن نستعرض مجموعتين من السياقات، فأولا، هناك سياق الصدام الدينى بين الكالفنية والأرمينيانية، وثانيا، هناك سياق مشاركة جغرافيى أكسفورد فى هذا الصدام.

وقد حدث تغير هائل، أو انعكاس فى الواقع، فى الرؤية المقبولة للحراك الدينى الذى أدى إلى انهيار الحكومة الإنجليزية فى منتصف القرن السابع عشر. ففى رواية كرستوفر هيل وغيره للثورة الإنجليزية، صورت المؤسسة الموقرة التى تدور حول مطران كانتربرى الذى يثق فيه تشارلز، وليام لود William Laud، على أنها انهارت بسبب الراديكالية المبدئية للمذهب البيوريتانى، حيث إن الثورة الإنجليزية كانت ثورة بيوريتانية فى جزء كبير منها، واستمرت هذه الرؤية لتفسر ثقافة العلم داخل الجامعات. ومع ذلك، يعتبر هجوم تياكى المذكور سلفا على مفهوم الثقافة العلمية للجامعة جزءًا من مراجعة أوسع لفهمنا للثقافة الدينية(٤٤). وعندما ننطلق من منظور عام ١٦٠٠، نجد أن التيار الرئيسى فى الكنيسة كان كالفنيا: "فالمذهب المسيحى الأصولى يعنى الكالفنية"(٤٥). وكان هذا البيان ينطبق حتى ١٦٢٠، ولكن فى العقد التالى-بدأت مجموعة من القساوسة - الأرمينيان - فى مهاجمة المذهب الكالفنى. ومن خلال رؤية للمراجعة، كان وليام لود والأرمينيان - بطباعهما المتهورة - هم من قادوا ثورة فى الأفكار، الأمر الذى كان بمثابة دافع كبير إلى الانهيار الصادم لنظام الحكم الإنجليزى.

وقد أحدث الحوار بين الكالفنية والأرمينيانية إثارة في الفكر البروتستانتي الأوروبي ككل، ما أدى إلى استنكار المذاهب الأرمينيانية في المجلس الكنسي المعروف باسم "مجلس دورد"(*) وذلك في ١٦١٨. وفي إنجلترا، كان هذا هو الوقت الذي بدأ فيه هذا المذهب في اكتساب الأتباع، وكانت العملية تركز على أكسفورد، وكان لهذه الحرب الفكرية الدينية تأثير على طرق إعداد الأجيال الأولى من الكتب الجغرافية المنهجية كبيانات دينية. وشهدت الأطراف الدينية المتصارعة في أكسفورد عددا من أعضائها الكبار يؤلفون كتبا في الجغرافيا خلال الفترة ما بين كتاب أبوت "الوصف المختصر" في ١٥٩٩ وكتاب هيلين "الكوزموجرافيا" في ١٦٥٢؛ فعلى الجانب الكالفني، كان جورج أبوت المدافع الرئيس عن الكالفنية الجامعة لأوروبا باعتباره أسقف كانتربري، حيث كان كتابه "الوصف المختصر" الذي أعده في شبابه يستعرض المذهب الكالفني[٤٦]. وكذلك أنتجت كلية إكستر Exeter تحت إدارة بريدو Prideaux عددا من كتب الجغرافيا التي صاغت رؤية كالفنية، خاصة رؤية كاربنتر وستافورد[٤٧]. وبالمثل، كانت محاضرات ويليام بمبل في الكلية المجدلية Magdalen Hall – "معقل البيوريتانيين"[٤٨] – دليلا على ميوله الكالفنية واهتمامه بالجغرافيا الرياضية(**). ويتمثل الجانب الأرمينياني في جغرافية أكسفورد في شخصية بيتر هيلين(***) في كلية هارت Hart Hall، والذي كانت الطبعات المختلفة لكتابه "الكون الصغير" في ١٦٢١ و١٦٢٥ تحوى روحا من المذهب الأرمينياني، والتي أكدها كتابه "الكوزموجرافيا" حتى في مرحلة انحدار ذلك المذهب.

(*) كان مجلس دورت The Synod of Dort مجلسا وطنيا عقدته الكنيسة الإصلاحية الهولندية في بلدة دورترشت في ١٦١٨-١٦١٩ لتسوية الانقسام الحاد الذي نتج عن ظهور الأرمينيانية؛ حيث عقد أول اجتماع في ١٣ نوفمبر ١٦١٨، وعقد الاجتماع الأخير، رقم ١٥٤، في ٩ مايو ١٦١٩، وحضر هذا الاجتماع أيضا ممثلون مصوتون من ثماني كنائس إصلاحية أجنبية. وكان اسم دورت بمثابة الاسم الإنجليزي المؤقت لمدينة دورترشت (ولا تزال كذلك باللغة العامية المحلية). (المترجم)

(**) الجغرافيا الرياضية Mathematical geography: فرع من فروع الجغرافيا يتناول شكل وحركات الأرض والكواكب والمجموعات النجمية، وتمثيلها على الخرائط والأشكال. (المترجم)

(***) بيتر هيلين Peter Heylin (٢٩ نوفمبر ١٥٩٩-٨ مايو ١٦٦٢): قس إنجليزي ومؤلف العديد من الأعمال الجدلية التاريخية والسياسية واللاهوتية؛ حيث أدمج مفاهيمه السياسية في كتبه الجغرافية مثل "الكون الصغير Microcosmus" في ١٦٢١، و"الكوزموجرافيا Cosmographie" في ١٦٥٧.

وقد وضع هيلين كتابه فى أوج فترة خلو العرش(*) الإنجليزى. ومع ذلك، لم يكن صوت هيلين وحيدا فى الجغرافيا، بل إن ترجمات روبرت جونسون المنمقة لمسوح جيوفانى بوتيرو Giovanni Botero الجغرافية كانت أرمينيانية فى مضمونها، وفى ثلاثينيات القرن السابع عشر، وفى الوقت الذى كانت فيه حركة الإصلاح اللوديانية Laudianism تحتل المكانة الرسمية فى الكنيسة الإنجليزية، تضمنت كتب الجغرافيا المعيارية مواقف ربما صدمت التيار الكالفنى لو كانت قدمت قبل ذلك بقرن.

مذاهب أصولية متنافسة

مثلت كتب الجغرافيا ميدانا رحبا عرضت فيه الرؤى المختلفة - الكالفنية والأرمينيانية- طبيعة الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية الحقيقية. فقد طور الجغرافيون الكالفنيون موقفا يتسق مع رؤاهم الكنسية بصفة عامة، وكانت الطبعة الأولى من كتاب أبوت "الوصف المختصر" موجزة جدا لدرجة عدم احتوائها على أية تفاصيل، ولكن طبعة ١٦٠٥ الموسعة تغيرت جديا؛ ففى مادة أضيفت حديثا إلى الجزء الإنجليزى، قال أبوت إن الإنجليز تحولوا إلى المسيحية فى عصر ترتليان(**) Tertullian (نحو ٢٠٠م)، وإن البعثة التى أرسلها البابا جريجورى الكبير(***) تحت رعاية أوغسطين أسقف

(*) فترة خلو العرش interregnum: هى الفترة الممتدة من إعدام الملك تشارلز الأول فى١٦٤٩، وحتى تنصيب ابنه تشارلز الثانى فى ١٦٦٠. (المترجم)

(**) أكوينتوس سبتميوس فلورنس ترتوليانوس (ترتليان بالإنجليزية Tertullian)، من ١٦٠م تقريبًا - ٢٢٥م تقريبًا - : مؤلف مسيحى غزير الإنتاج عاش فى قرطاج ضمن إمارة أفريقيا الرومانية. كان ترتليان أول مؤلف مسيحى ينتج قدرا كبيرا من الأدب المسيحى اللاتينى، وكان أيضا مدافعا قويا عن المسيحية ومحاورا قويا ضد الهرطقة، وكان يسمى أيضا "أبو المسيحية اللاتينية"، و"مؤسس اللاهوت الغربى". (المترجم)

(***) يعرف البابا جريجورى الأول Pope Gregory I (باللاتينية جريجوريوس الأول)، من نحو ٥٤٠ إلى ٦٠٤، بالقديس جريجورى العظيم بصفة عامة، وقد شغل منصب البابا من ٣ سبتمبر ٥٩٠ حتى وفاته فى ٦٠٤، وهو مشهور بكتاباته التى كانت أكثر انتشارا من كتابات أى من الباباوات السابقين. وهو معروف أيضا بالقديس جريجورى المحاور فى الأرثوذكسية الشرقية، بسبب حواراته، ولهذا السبب، فإن الترجمات الإنجليزية للنصوص الأرثوذكسية تسميه أحيانا "جريجورى المحاور". (المترجم)

كانتبرى لم تكن ذات أهمية، وبعبارة أخرى، كانت المسيحية البريطانية أولية وليست بابوية(٤٩)؛ حيث دخل الفساد الرومانى إلى الكنيسة البريطانية فى عصر الساكسون(*) فقط(٥٠). وأضاف أبوت هجوما قويا على الأديرة قبل "الإصلاح" لأنها "لوثت نفسها ببذاءات كثيرة وأنواع قذارة متباينة"(٥١).

وبعد أبوت بعشرين سنة، تبنى كتاب كاربنتر "الجغرافيا" موقفا كالفنيا أيضا. ولا شك فى كالفنية كاربنتر على المستوى الشخصى، حيث تتجلى فى خطبه عداوته للأرمينيان، ويضعها فى سلة واحدة مع الكاثوليكية الرومانية(٥٢). ومع ذلك، كان مؤرخو الجغرافيا ينظرون إلى عمل كاربنتر الجغرافى دائما فى ضوء دقته الرياضية والتنظيمية، بحيث كانوا يتجاهلون تدخلاته الدينية، وكان الكتاب الأول بمثابة إهداء إلى إيرل بمبروك على عمله "الحمية للدين"، وكان بمبروك - الذى كان مستشارا لجامعة أكسفورد - هو الذى "أخر التأثير الكامل للثورة الأرمينيانية على أكسفورد"(٥٣). ومن حيث "سياسة الدراسة"، كان كاربنتر مهما لاكتساب دعم الجزويت(**) الذين كانوا يمثلون فى العلم "مجموعة متجانسة من مجتمعهم الخاص، ولا يرغبون فى معارضة" بعضهم(٥٤). وكذلك كان ينتقد مواقف نصوص الإنسانيات من المسائل العلمية، كالتى تبناها جوزيف سكاليجر Joseph Scaliger (الذى أشار هيلين إليه بإعجاب فى كتاب "الكون الصغير") من أجل أصدائها الدينية، وفى ذلك كتب كاربنتر يقول:

"تولى نقاد عصرنا - الذين يحبون البابوات والمستبدين - تبنى موقفًا عامًا لاستنكار ما لم يفهموه قط. وكانت محاولة حسم الشك الكوزموجرافى فى استخدام

(*) الساكسون Saxon: الساكسون واحدة من جماعات القبائل الجرمانية التى غزت وسكنت بريطانيا فى القرنين الخامس والسادس، قادمين من شمال ألمانيا وهولندا والدنمارك، حيث اتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية. وكانت تلك القبائل ثلاث: الأنجل والسكسون والقوط، وصاروا بعد ذلك جماعة واحدة سميت أنجلوساكسون. (المترجم)

(**) طائفة كاثوليكية يسوعية تنتشر فى أوروبا بصفة عامة، وفى البرتغال وإسبانيا وفرنسا بصفة خاصة، تأسست فى ١٥٣٤، عملت على دعم البابا وانتقاد الطوائف البروتستانتية، وسعت إلى نشر مذهبها عبر جمعيات خيرية وثقافية فى دول العالم الفقير. (المترجم)

القواعد اللغوية لتحديد معنى كلمتين عبريتين أو ثلاث تعنى إهمال الجوهر والانشغال بالقشور"(٥٥).

واختصارا، فإنه إذا كان كاربنتر رياضيا أو علميا فى جغرافيته من المنظور الحديث، فهناك سياسة واضحة فى أسلوبه تنأى به عن سيطرة أنماط الدراسة التى يربطها "بالبابوية".

ومع ذلك، كان كتاب كاربنتر "الجغرافيا" أكثر صراحة من حيث كالفنيته: لأنه قدم أيضا تعليقات دينية مباشرة. وعلى عكس المد الأرمينياني، الذى كان فى حالة صعود فى أكسفورد عندما كتب ذلك، كان كاربنتر يرى أن "الطقوس الخارجية والنظم الكنسية - التى يمارسها الحكماء - ليست أكثر من أمور "عادية" تقبل الاعتراف بالتغيير"(٥٦). ومع ذلك، كان الأكثر من هذا يتمثل فى رفض كاربنتر الجغرافى لمذهب السبتيين. فنظرا لأن كاربنتر كان كالفنيا أصيلا، فقد كان ساخطا على المساواة الأرمينيانية بين الكالفنية والبيوريتانية، وفى ذلك يقول كاربنتر:

"كم أدى اسم "البيوريتانى" البغيض إلى الإساءة إلى المسيحيين المخلصين... لدرجة توجب على البروتستانتى الراغب فى إنقاذ نفسه أن يقوم بتحول صعب إما عن طريق البابوية أو الأرمينيانية"(٥٧).

وفى هذا السياق، كان كاربنتر يريد أن ينأى بنفسه عن البروتستانتية المتطرفة، بما فى ذلك السبتيون، أى منهج الالتزام الشديد بحرمة يوم السبت. وهنا كان وصفه الجغرافى للمناطق الزمنية يسمح له بتأييد الكالفنية الأصولية؛ حيث يطلب منا كالفن أن نتخيل مسيحيا يسافر حول العالم غربا ويفقد يوما، وعابدا مسلما يسافر شرقا ويكسب يوما، ويهوديا يمكث فى مكانه. (لمزيد من التفصيل عن "ثورات الأزمنة" انظر جلينى وثرفت فى الفصل السابع من الكتاب الذى بين أيدينا). وفى ذلك يقول كاربنتر:

"سيراعى المسلم حرمة يوم الجمعة حسب شريعة محمد، وسيراعى اليهودى حرمة يوم السبت، أى يوم سبته، وسيراعى المسيحى يوم الرب، أى يوم الأحد؛ ومع ذلك سيحدث كل هذا فى نفس اليوم، وبالتالى سيستبعد كل منهم حدوث أى خطأ فى حساباته".

وقد استقى كاربنتر فرضيته مما يلي:

"بدا لي أن هذا كان سببا كافيا لإقناع بعض المنتقدين الذين يدعون بقوة أن يوم الرب (الذي يسمونه خطأ بالسبت) يجب أن يكون أخلاقيا فقط. ولو كان الأمر كذلك، طبقا للمقدمات التي أظهرناها سلفا، فإن هذه السخافة ستضمن بالضرورة أن هذا "القانون الأخلاقي" - الذي يسمونه أيضا بطريقة ما "قانون الطبيعة" - يخضع لتغيرات متعددة ينكرها أعظم قساوستنا".

واستنتج كاربنتر أن مراعاة يوم الرب كانت مرتبطة "بالقانون الكنسي" وليس بالقانون الأخلاقي، بحيث كان على كل فرد "أن يحتفي بيوم الرب طبقا لمؤسسة كنيسته التي ينتمي إليها"(٥٨).

وعندما ننتقل إلى كتب الجغرافيا الأرمينيانية، نجد أن كتاب هيلين "الكون الصغير" يتفق مع الكتب التي ناقشناها للتو فيما يتعلق بالأصول البدائية للمسيحية الإنجليزية. وحتى بالرغم من وجود هذا الاتفاق، كان هناك اختلاف دقيق، يكمن في رفض هيلين استبعاد دور الأسقف أوغسطين، وهي خطوة "بالغة التكبر" أعدتها روما. وفي ذلك يقول هيلين:

"حين نقول إن أوستين(*) أول من بشر بالإنجيل، هنا يجب ألا يفهم منه أنه أول من بشر به على الإطلاق؛ وإن كان أول من قدم بشارته إلى الساكسون"(٥٩).

وكما رأينا سلفا، فإن هذا يعبر عن نوع من الخداع اللغوي الذي ربطه كاربنتر بالبابوية. وبالنسبة للأديرة، كان هيلين مؤهلا أكثر من أبوت في توجيه انتقاداته، فباعتباره مؤمنا أرمينيانيًا قدم رثاء في تفسخ بهاء القداسة "الذي أفسد روائع الكنيسة من بعد إتقان"(٦٠)، والأهم من ذلك أن هيلين جعل الإصلاح الكنسي الإنجليزي

(*) أوستين Austin: صيغة اختصار للاسم الكامل للقديس "أوغسطين" (٣٥٤-٤٣٠) والذي يعرف عادة باسم أوغسطين هيبو Hippo، وهو الإقليم الذي تمثله اليوم مدينة عنابة في الجزائر (كانت الجزائر زمن خضوعها للإمبراطورية الرومانية مركزا للفكر المسيحي). (المترجم)

وسيلة وسيطة بين الكالفنية والبابوية، وبالتالى يرى هيلين أن الكالفنية متطرفة ضمنيا، إذ يقول:

"لا يحمل الموقف الإنجليزى تقديرا لأى من لوثر(*)، أو زوينجل(**) أو كالفن؛ بل ويبطل تلك الأشياء التى تتعارض مع كلمة الرب التى تحافظ على الطقوس الكفيلة بإرساء حرية الكنيسة دون إثم". واستنتج أنه "لو كان الجزء الإصلاحى قد بقى متواصلا مع المسموح به فى بعض الظروف مع الكنيسة "الرومانية" - كما تفعل كنيسة إنجلترا الآن - لكان الأمر أفضل كثيرا"(٦١).

وقد طورت كتب جغرافية أخرى هذا المفهوم الأرمينيانى للإصلاح الإنجليزى، ونخص بالذكر هنا ترجمة جونسون لكتاب بوتيرو Botero المعنون "علاقات أشهر

(*) كان مارتن لوثر Martin Luther (١٠ نوفمبر ١٤٨٣-١٨ فبراير ١٥٤٦) راهبا ألمانيا، وقسا كاثوليكيا، وأستاذ لاهوت، وشخصية محورية فى حركة الإصلاح فى المسيحية فى القرن السادس عشر، والتى أصبحت تعرف لاحقا بالإصلاح البروتستانتى. وكان يعارض بشدة ادعاء أن الخلاص من عقاب الرب على الخطايا يمكن شراؤه بالمال. وواجه تساهل يوهان تتزل، وهو راهب دومينيكى، بمقالاته الخمس والتسعين فى ١٥١٧، وأدى رفضه للتراجع عن كتاباته بناء على طلب البابا ليو العاشر فى ١٥٢٠ والإمبراطور الرومانى المقدس تشارلز الخامس إلى حرمانه كنسيا وإدانته كخارج عن طاعة الإمبراطور. (المترجم)

(**) هالدريتش زوينجل Huldrych Zwingli (١ يناير ١٤٨٤-١١ أكتوبر ١٥٣١) مصلح دينى سويسرى، ولد وقت صعود الوطنية السويسرية وزيادة انتقاد نظام المرتزقة السويسرى، والتحق بجامعة فيينا وجامعة بازل ومركز دراسى فى الإنسانيات، وواصل دراسته بينما كان يعمل قسيسا. بدأ فى ١٥١٨ فى نشر أفكاره فى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وهاجم الفساد فى الهرمية الكنسية، وشجع زواج الكهنة، وهاجم استخدام الصور فى أماكن العبادة. وانتشر الإصلاح فى أماكن أخرى من الاتحاد السويسرى، ولكن عدة كانتونات قاومته، وفضلت أن تظل كاثوليكية. وشكل زوينجل تحالفا بين الكانتونات الإصلاحية، ما قسم الاتحاد على أساس دينى. وفى ١٥٢٩ تم تجنب نشوب حرب بين الجانبين فى اللحظة الأخيرة. وفى تلك الأثناء، كانت أفكار زوينجل قد وصلت إلى مارتن لوثر وغيره من الإصلاحيين، والتقوا فى "ندوة ماربورج"، وبالرغم من أنهم اتفقوا على نقاط عديدة فى المنهج، فلم لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق فى المنهج على "الوجود الحقيقى للمسيح فى القربان المقدس". وفى ١٥٣١، طبق تحالف زوينجل حصارا غذائيا فاشلا على الكانتونات الكاثوليكية؛ حيث استجابت هذه الكانتونات بهجوم فورى على زيورخ التى لم تكن مستعدة، وقتل زوينجل فى المعركة عن عمر يناهز ٤٧ سنة، ويعيش تراثه فى الاعترافات والطقوس والأوامر الكنسية للكنائس الإصلاحية حتى اليوم. (المترجم)

الممالك والاتحادات عبر العالم"، وهى الترجمة الموسومة بأنها صورة سياسية للكون مناهضة للإصلاح[٦٢]. وقد نُشرت الطبعة الأولى من ترجمة جونسون فى ١٦٠٨، وتوضح الملاحظات الهامشية أن هيلين اعتمد على هذا المسح الجيوبوليتيكى فى إعداد كتابه "الكون الصغير". وتوضح كل من طبعة ١٦١٦ الموسعة، وطبعة ١٦٣٠، أن ترجمة جونسون الحرة نوعا ما تتحرك فى الاتجاه الأرمينيانى. ويوضح تصدير طبعة ١٦٣٠ مدى "الاقتباس الذى قام به كل مؤلفى كتب الجغرافيا منذ عصر بوتيرو Botero، خاصة بطرس بيرتيوس Petrus Bertius، الذى كانت سهام النقد تراه دوما "العدو الذى يهدد الأمة الإنجليزية"[٦٣]. وكان بيرتيوس "تابعا هولنديا بارزا للفكر الأرمينيانى"، حيث كتب عددا من أعمال الجغرافيا الرياضية قبل الانتقال إلى باريس والتحول إلى الكاثوليكية[٦٤]. وربما كان تحول بيرتيوس محرجا للأرمينيان، بسبب مساواة الكالفنية بين الأرمينيانية والبابوية. وكان بوتيرو جونسون يتبنى خطا أرمينيانيا قويا فى انتقاده الصريح، ما يعتبر تحركا يتفق مع السيطرة التى حققها الأرمينيان بحلول ١٦٣٠، حيث كان النص يتفق مع هذه التعليقات التمهيدية، وكان تصوير الكنيسة الإنجليزية على أنها وسيلة وسيطة، وأن الكالفنية متطرفة، لا يتوافق مع نص هيلين[٦٥]. ولو لم تكن هذه النقطة واضحة بصورة كافية، فقد اتضحت فى الجزء الذى أعده بوتيرو عن هولندا، حيث يتقرر ذلك فى وصف الكالفنية الهولندية لإنجلترا: "ولكن رجالنا فى الديار (الغيورين على نظام جنيف) يعتبرون أكثر عرضة للخداع إذا بحثوا عن هذا الوجه للكنيسة، وخدمة الرب اللائقة، والإخلاص، أو المراعاة الدقيقة ليوم الرب، فى أى من الكنائس الكالفنية، كما فى كنيسة إنجلترا"[٦٦]. وكانت هذه المادة جديدة على طبعة ١٦٣٠، ما يقوى وجهة نظرى فى أن بوتيرو جونسون - الذى كان يبحر مع التيار - كان يتحول إلى الأرمينيانية بصورة متزايدة فى الطبعات المتتالية. ويجب أن نضيف أنه بحلول ١٦٣٠ لم تعد الترجمة قاصرة على جونسون، وذلك لسبب بسيط وهو أنه مات فى ١٦٢٥. ولا يوضح النص من الذى حدَّث الترجمة، ولكن من المعروف أن الذى طبعها هو جون هافيلاند John Haviland، حيث كان هافيلاند يطبع لعدد من المؤلفين، بمن فى ذلك

ريتشارد مونتاجو أشهر الأرمينيانيين المثيرين للجدل فى عشرينيات القرن السابع عشر(٦٧).
ومن المثير أن هافيلاند طرح فى ١٦٣٠ إعادة صياغة أرمينيانية لكتاب بوتيرو "العلاقات"، ويبدا أن إعادة صياغة جزويتية لكتاب "الصورة السياسية للكون" يمكن أن تستوعب بطريقة سليمة إذا ظهرت بروح أرمينيانية.

وتساوى كتب الجغرافيا الأرمينيانية بين الكالفنية والتمرد؛ حيث قارن هيلين فى كتابه "الكون الصغير" بين "الإصلاح الإنجليزى"، باعتباره "تشاورا ناضجا" وأعمال لوثر وكالفن، "التى استقبلت بصخب"(٦٨). وليس مدهشا أن مساواة الكالفنية باللغط الدينى أصبحت سمة بارزة فى كتب الجغرافيا المكتوبة بعد حروب الأساقفة(*) فى ١٦٣٩-١٦٤٠، حيث كان يتم الدفاع عن الكالفنية الإسكتلندية فى مواجهة تدخلات كل من تشارلز الأول و لود Laud. وتناول العرض الجغرافى العام الذى كتبه إفرايم باجيت عن المسيحية والمعنون "صورة الأمم المسيحية Christianography"، فى طبعته الثالثة فى ١٦٤٠ أحداث حرب الأساقفة، منتقدا الكنيسة الإسكتلندية بقوله:

"ولكن لماذا أسمى أعمالهم "إصلاحا"؟ فهل ثمة إصلاح فى أولئك الناس الذين يشهرون سلاحهم فى وجه ملكهم الذى لا يدانيه أحد فى كرمه وورعه، والذى يعترف أمام الرب بإخلاص، ويرعى الديانة الصالحة المباركة"(٦٩).

وأخيرا، كان هيلين - الذى كتب أول وآخر كتابين جغرافيين كبيرين ذوى توجه أرمينيانى ، "الكون الصغير"، و"الكوزموجرافيا" - يعتقد أن مخاوفه المتعلقة بالكالفنية

(*) حروب الأساقفة Bishops' Wars: كانت هذه الحروب (التى تسمى أيضا الحرب الأسقفية العادلة Bellum Episcopale) عبارة عن صراعات سياسية وعسكرية حدثت فى ١٦٣٩ و١٦٤٠، وتركزت حول طبيعة حكم كنيسة أسكتلندا، وحقوق التاج وسلطاته. وكانت تمثل جزءًا من صراع سياسى أوسع عبر أسكتلندا وإنجلترا وأيرلندا، وكانت تعتبر مقدمة للحروب الأهلية الإنجليزية. وقد سميت هكذا بسبب الصراع الجوهرى بين تشارلز الأول الذى كان يفضل نظاما أسقفيا لحكم كنيسة أسكتلندا (بوجود الأساقفة)، على رغبة معظم مكونات النظام السياسى فى أسكتلندا فى نظام الحكم المشيخى. (المترجم)

قد تحققت فى الوقت الذى كتب فيه الكتاب الثانى فى خضم حكومة الوصاية(*). وقال فى كتاب الكوزموجرافيا إن الطبقة العليا أرسلت أطفالها إلى جنيف لتعليمهم، ما كان له نتائج مصيرية، حيث:

"فى مرات عديدة أثبت التعليم الدينى لطبقتنا العليا - ممن تشرب شبابها بمبادئ جنيف - أنه لا يتأثر بأشكال الحكم (الملكى أو الأسقفى) التى وجدوها مستقرة هنا فى البلاد، والممثلة فى التدخل الكبير للدولة فى الشئون المصيرية"(٧٠).

خرائط متناقضة للولاء الطائفى

لقد رأينا كيف أن مناقشات الجغرافيين الأرمينيان للكنيسة الإنجليزية تسربت إلى الطوائف غير الإنجليزية، حيث كان كل من بوتيرو جونسون، وباجيت، وهيلين، يفكرون فى الموقف الإنجليزى فى مناقشاتهم للأمم الكالفنية الأخرى. وبصفة عامة، "تجلت مفاهيم القساوسة البروتستانت الإنجليز عن الكنائس الأجنبية - الرومانية والإصلاحية - وتصوراتهم المختلفة عن طبيعة الكنيسة الإنجليزية"(٧١). وبعبارة أخرى، فإنه عندما تم تناول الأمم الأوروبية فى كتب الجغرافيا الخاصة بالثورة الإنجليزية تسربت التصورات المختلفة للكنيسة الإنجليزية - الكالفنية والأرمينيانية- إلى الأنماط المختلفة للتعاطف والولاء والخوف بصورة ملموسة.

وكان الكالفنيون يؤيدون تحالف الأمم البروتستانتية عبر أوروبا فى مواجهة الكاثوليكية المتنامية، وكانت كتب الجغرافيا الكالفنية تعكس هذا. وفى الواقع، تبنى

(*) حكومة الوصاية Protectorate: كانت فترة حكومة الوصاية تمثل فترة خلو العرش، عندما كانت إنجلترا (التى كانت تضم ويلز فى ذلك الوقت) وأيرلندا وأسكتلندا؛ حيث بدأت حكومة الوصاية فى ١٦٥٣ عقب حل البرلمان، عندما عين أوليفر كرومويل وصيا على الكومنولث. وفى ١٦٥٩، قامت لجنة الأمن بحل برلمان الوصاية عندما أصبح ريتشارد كروموبل - الذى خلف أباه كوصى - غير قادر على السيطرة على البرلمان والجيش. وكان هذا بمثابة نهاية حكومة الوصاية وبداية الفترة الثانية من حكم البرلمان كجهة تنفيذية تقوم بدور المجلس التشريعى ومجلس الدولة. (المترجم)

الإنجليز هذه السياسة البروتستانتية من ١٦٠٩ إلى ١٦١٦ فقط[٧٢]، وكان جورج أبوت من كبار المؤيدين؛ حيث يتضح خوف أبوت "المرضى" من البابوية فى عمله الجغرافى "الوصف المختصر"[٧٣]. فمن الملاحظ مثلا فيما بين طبعتى هذا العمل فى ١٦٠٥ و١٦٢٠ أن أبوت رأى أنه من المناسب إضافة جزء جديد يعبر عن خوفه من الطموحات الإسبانية لتحقيق ملكية عالمية يمكن أن تُخضع الجميع للبابا[٧٤]. وفيما بين ١٦٠٥ و١٦٢٠، تراجعت مكانة أبوت فى البلاط، ويرجع أحد أسباب هذا إلى ولعه بالسياسة الخارجية ذات التوجه البروتستانتى الطائفى، التى لم تتفق مع خطط جيمس الأول[٧٥]. وقد أضاف إلى تهميش أبوت أنه كان يعبر عن آرائه فى الوقت الذى كان جيمس يحاول فيه أن يتفاوض على زواج ابنه تشارلز من الأميرة الإسبانية. وكذلك كان أبوت - فى صياغة كانت شائعة لدى الكالفنيين، ولكنها كانت تتعرض لهجوم متزايد من الأرمينيان - يرى أن البابا مناهض للمسيح، وأن وثنية روما كانت إحدى نبوءات سفر الرؤيا: "من ينظر إلى ما قاله الرب فى "سفر الرؤيا"، سيرى أن عاهرة بابل[*] المقصودة لا يمكن أن توجد فى أى مكان سوى فى مدينة روما"[٧٦].

وكان الجانب الآخر الإيجابى فى خريطة الطائفية الكالفنية فى أوروبا يتمثل فى دعمها للأمم التى اعتنقت البروتستانتية؛ حيث ساند الكالفنيون كل الكنائس المسيحية التى تقع خارج نطاق روما، ما يشير إلى التقارب مع معارضة البابا. وفى هذا الصدد، ساند أبوت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، حيث أثار كتابه "الوصف المختصر" نفس النقطة حول الكنيسة القبطية فى الحبشة: "الناس هناك مسيحيون، وكذلك أميرهم، ولكنهم يختلفون فى أشياء عديدة عن الكنيسة الغربية، ولا يعترفون بأى شكل

(*) عاهرة بابل Whore of Babylon: إحدى الشخصيات الرمزية غير الواقعية فى سفر الرؤيا والتى تكشف صوراً بمعنى مجازى، فالزنا فى العهد القديم ولدى الجيل الأول من المسيحيين كان يعتبر بمثابة عبادة الأصنام الوثنية، كما أن مدينة بابل غدت لدى الجيل الأول من المؤلفين المسيحيين رمزاً لكل المدن العظمى فى الإمبراطورية الرومانية وتعنى هنا مدينة "روما"، ويرد فى سفر الرؤيا عاهرة بابل يحيط بها سبعة تلال، ومن المعروف أن روما مؤسسة على سبعة تلال، وبالتالى يرى البعض أن عاهرة بابل إشارة إلى روما الوثنية التى اضطهدت المسيحيين. (المترجم)

بالسلطة العليا لبابا روما"[٧٧]. وقد قام عدد من الأعمال الجغرافية الشهيرة بمسح شامل عن العقائد فى العالم، أو بصورة أكثر تحديدا، التوزيع المكانى للعقيدة المسيحية، مثل عمل باجيت المذكور سلفا "جغرافية الأمم المسيحية" (١٦٤٠)، وعمل مماثل قدمه إيدوين ساندس Edwin Sandys فى ١٦٢٩، وكانت كلها أعمال تهدف إلى تتبع الطوائف المسيحية المعارضة للسلطة البابوية.

وتعليقا على هذه الخريطة الطائفية الكالفنية، تمت ترجمة المسح الجغرافى الألفى الذى قام به توماسو كامبانيلا، "الحكم الملكى الإسبانى"، إلى اللغة الإنجليزية فى ١٦٥٠ و١٦٥٩، وقدم هذا العمل الذى كُتب فى عام ١٦٠٠ مسح عام لأمم العالم بهدف دراسة نظم الحكم فيها، فضلا عن اقتراح كيف تستطيع إسبانيا فى ظل حكم فيليب الثانى أن تحقق سياسة الملكية العالمية. وكان هدف ترجمة الكتاب من الإسبانية إلى الإنجليزية – وحسمبا تشير إلى ذلك طبعة ١٦٥٩ – سعيا إلى "إيقاظ الإنجليز قبل الانهيار الوشيك لأمتهم"[٧٨]. ونصحت المقدمة التى كتبها ويليام برينى William Prynne القارئ بالنظر فى فصول كامبانيلا عن إنجلترا، والتى تقول إن إنجلترا يمكن أن تتحطم "بحروب داخلية بين إنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا وهولندا". وأشار برينى إلى "الحروب مع الأسكتلنديين والهولنديين... التى أرغمت حكومتنا الملكية القديمة إلى تغيير شكل الحكم إلى الكومنولث". وكان برينى صامدا قويا، ولكنه كان برلمانيا مستقلا فى ظل حكم تشارلز وناقدا عنيفا للأرمينيان، إلا أنه هاجم البرلمان منذ ١٦٤٠ فصاعدا، ونتيجة لذلك، كانت رؤيته للحرب الأهلية خلال فترة خلو العرش مختلفة كثيرا عن رؤية هيلين، فبينما كان هيلين – كما رأينا – يرى أن المبادئ الكالفنية تمثل صميم المشكلة، كان برينى يرى أن الخلاف مع جيران إنجلترا الكالفنيين – هولندا وأسكتلندا – هو الذى يمثل لب المشكلة. وهكذا فإن الخريطة الطائفية للتحالفات التى اعتبرها أبوت بمثابة الخلاص لإنجلترا، كانت ولا تزال تظهر فى النصوص الجغرافية بعد ذلك بنحو ستين سنة.

وعندما نعود إلى كتب الجغرافيا الأرمينيانية، تظهر خريطة تحالفات طائفية مختلفة جدا؛ حيث كان الأرمينيان يرفضون اعتبار روما مناهضة للمسيح، وابتعدوا عن الدعوة إلى سياسة خارجية طائفية.

وهكذا فإن كتاب هيلين "الكون الصغير"، الذى كتب فى ١٦٢١، أشار فى إهدائه إلى تشارلز، أمير ويلز (الذى أصبح لاحقا الملك تشارلز الأول) إلى "مفاوضاته الخطيرة"، ما يعنى الجهود الحثيثة لضمان زواجه من الأميرة الإسبانية[٧٩]. وفى الواقع، ليس هناك مبالغة فى اعتبار هذا الكتاب دفاعا عن التوافق الإسبانى (الذى كان الكالفنيون مثل أبوت يعارضونه كما رأينا). وبهذه الطريقة حقق هذا العمل تأثيره بتبديد التهديد الذى فرضته الأمم الكاثوليكية مثل فرنسا وإسبانيا، وهو ما ينطبق على الموقف الأرمينيانى الصاعد. وحافظ هيلين على مساواته الكالفنية التقليدية للبابا بمناهضة المسيح، وكان يخشى من الإمبراطورية الإسبانية العالمية بطرق جعلت "الكون الصغير" وثيقة فريدة فى عمله[٨٠]. ومع ذلك، ذكر أيضا الخصائص الإسبانية فى الكنيسة والدولة بطريقة لم تؤيدها الكالفنية: "الإخلاص الشديد لوظائفهم، الطاعة العمياء لملكهم، الالتزام بالغ اليقظة للواجبات المدنية"[٨١]. والأهم من ذلك أن هيلين لم يعالج محاكم التفتيش الإسبانية على أنها قوة للشر؛ لأنها فى نظره تأسست لفرض المسيحية على الموريسكيين(*)، والذى "كان تقليدا مقبولا ومطلوبا بصورة عجيبة فى حد ذاته"[٨٢]. وكذلك فإنه بالرغم من أن هيلين اعتبر البابا مناهضا للمسيح، فإنه كان استثنى من ذلك الباباوات حتى نيقولا الثالث(**) معتبرا أنهم كانوا يحافظون على النهج المسيحى[٨٣].

(*) الموريسكيون Morisco: هم مسلمو الأندلس الذين أجبروا على الاختيار ما بين التحول إلى المسيحية أو الإعدام أو طردهم من إسبانيا والبرتغال فى أوائل القرن السادس عشر. وبمرور الزمن، أصبح المصطلح يستخدم بمعنى ازدرائى، وينطبق على الكاثوليك الذين كان هناك شك فى أنهم يمارسون الإسلام سرا. وقد طرد الموريسكيون فعلا من إسبانيا فيما بين ١٦٠٩ (فالنسيا) و١٦١٤ (قشتالة).

(**) كان البابا نيقولا الثالث Pope Nicholas III (من حوالى ١٢٢٥-٢٢ أغسطس ١٢٨٠) يشغل منصب البابا من ٢٥ نوفمبر ١٢٧٧ حتى وفاته فى ١٢٨٠. وكان نبيلا رومانيا عمل مع ثمانية بابوات، حيث عينه البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) شماسا أساسيا لسانت نيكولا فى كارسرى توليانو، وعينه البابا ألكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) حاميا للفرنسيسكان، وعينه البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المحقق العام، وخلف البابا يوحنا الحادى والعشرين (١٢٧٦-١٢٧٧) بعد فراغ دام ستة أشهر فى الفاتيكان انتهى بانتخاب بابوى فى ١٢٧٧، وذلك من خلال تأثير عائلى فى المقام الأول. (المترجم)

وإذا كان هيلين قد خفف من انتقاد الكاثوليكية الرومانية، فقد قدم أيضا انتقادا للتقليد الإصلاحى الأوروبى، وكانت نتيجة ذلك – كما فى الأرمينيانية بصفة عامة – أن تم اعتبار البابوية والبيوريتانية خطرين متساويين ومتعارضين: "لقد سمعت سيدا محترما يقول: إلى أن يخرج الجزويت من كنيسة روما، والمبشرون البيوريتانيون العنيدون من كنائس بريطانيا العظمى، لن يكون هناك أى سلام أبدا فى العالم المسيحى"(٨٤). وفى الواقع، استطاع هيلين فى حالة واحدة (ضمنا) أن يقلب الميزان ضد الكنائس الإصلاحية: لأنه بينما كان يمدح الإسبان على الإخلاص والطاعة، استثنى بسكاى(*) من ذلك:

"لا يصرح الباسك بدخول أساقفة فيما بينهم، وعندما جاء فرناند الكاثوليكى(**) متقدما ناحية هذه المنطقة بصحبة أسقف بامبيلون Pampelune وآخرين، ثار الناس ضده بالسلاح وطردوا الأسقف، وجمعوا كل التراب الذى اعتقدوا أنه سار عليه وطرحوه فى البحر".

وهناك ملاحظة هامشية على هذه الرواية أضافت أن بسكاى كانت "مكانا جيدا لاستقرار البيوريتان"(٨٥)، فبالنسبة إلى هيلين، كان البيوريتانيون والكالفنيون بالتبعية يهددون الاستقرار فى الكنيسة والدولة، ويمكن أن يكونوا أكثر إثارة للمشاكل من الكاثوليك.

(*) منطقة فى شمال غرب إسبانيا، تعرف أيضا باسم "الباسك". (المترجم)

(**) فرديناند الثانى ملك أراجون Ferdinand II of Aragon (١٠ مارس ١٤٢٥-٢٣ يناير ١٥١٦)، الذى يسمى "الكاثوليكى"، ملك صقلية من ١٤٦٨، وملك أراجون من ١٤٧٩. وكان ملك قشتالة باسم فرديناند الخامس، نظرا لزواجه من إيزابيلا الأولى، من ١٤٧٥ حتى وفاته فى ١٥٠٤. واعترف به وصيا على عرش قشتالة لابنته ووريثته جوانا، من ١٥٠٨ حتى وفاته. وفى ١٥٠٤، وبعد حرب مع فرنسا، أصبح ملك نابولى باسم فرديناند الثالث، حيث أعاد توحيد نابولى وقشتالة بصورة دائمة وللمرة الأولى منذ ١٤٥٨. وفى ١٥١٢، أصبح ملك نافار بالغزو بعد فرض ادعاء الوراثة. ويعتبر فرديناند اليوم مشهورا بدوره فى بداية اكتشاف العالم الجديد، منذ أن رعى هو وإيزابيلا أول رحلة لكريستوفر كولومبس فى ١٤٩٢. وشن فى تلك السنة أيضا الحرب الأخيرة ضد غرناطة، حيث محا آخر دولة إسلامية على الأراضى الإسبانية، وهكذا اختتم بنجاح عملية "الاسترداد" التى استمرت قرونا. وبعد وفاته خلفته جوانا التى اشتركت فى الحكم مع ابنها تشارلز الخامس على الممالك الأيبيرية. (المترجم)

ورسمت التصورات الأرمينيانية صورة جغرافية لمستويات التعاطف مع المذاهب الطائفية أو المخاوف من تلك المذاهب بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، تلك الكنيسة التى كانت تعتبر نفسها كنيسة العالم ومؤلفة من عدة طوائف مستقلة ومتساوية، وأن روما كانت إحداها، ولهذا السبب كانت النظرة الأرمينيانية إيجابية تجاه الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، ما حافظ على المزيد من الاستقلال الكنسى عن روما مقارنة بالكنائس الأخرى[٨٦]. وجسد باجيت هذا الاتجاه المتفائل فى مسحه العام للكنائس المسيحية: حيث أدان (كما رأينا سلفا) الكالفنيين الأسكتلنديين على التسلح ضد تشارلز الأول، واستطرد قائلا إنه "فى هذه الإصلاحات الشعبية الحديثة، فإننى أشيد بمن ينادى باستقلال الكنيسة، وأعنى استقلالا لا يسلب الأساقفة ولا يسرق الكنيسة"[٨٧]. وهى إشادة تدين ضمنا الكنائس الكالفنية على فعل هذا.

واتبع كتاب هيلين "الكوزموجرافيا" نفس النهج بالنسبة إلى فرنسا، حيث هاجم هيلين التشدد المتعصب الذى يطلبه البروتستانت الفرنسيون ومحاولتهم تكوين قاعدة ذات سلطة منفصلة عن الملك:

"نظرا لتحولهم إلى الغطرسة الشديدة بسبب هذه القوة الكبيرة، واعتمادهم على توافقهم مع الملك ضمن مقاطعة حرة (كومنولث روشيل[*]، كما تعود الملك هنرى الرابع أن يسميه) فقد استحقوا غيرة وغضب الملك لويس الثالث عشر".

ونظرا لأن هيلين كان يكتب فى ظل الكومنولث الإنجليزى، يبدو أنه أعلن ثانية أن الكالفنية كانت أساس مشكلة التمرد على الملوك. وعلى العكس، كان يمدح الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية على الوقوف "بقوة إلى جانب حقوقهم الطبيعية، ضد اغتصاب السلطة وانتهاكات رؤية روما"[٨٨]. وتظهر صورة مماثلة لما هو أكثر من الازدواجية

(*) كومونولث روشيل Rochell: منطقة فى شمال غرب فرنسا كانت تحت نفوذ طائفة البروتستانت، والإشارة فى النص إلى علاقتهم بالملك هنرى الرابع تشير إلى اتفاقيات السلام التى أعقبت الحرب الدينية الفرنسية التى امتدت لنحو أربعة عقود (١٥٦٢– ١٥٩٨)، والتى شهدت الاقتتال الطائفى العنيف بين الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية مع تلقى كلا الطرفين مساعدات من أطراف خارجية. (المترجم)

تجاه خريطة طوائف التحالفات فى معالجة كتاب "الكوزموجرافيا" للبلاد المنخفضة، المقسمة إلى "المقاطعات المتحدة"(*) وتلك المناطق التى ظلت تحت السيطرة الإسبانية؛ حيث يرفض هيلين مساندة تلك البلاد بسبب عقيدتها البروتستانتية، مدعيا أن الإسبان هم "المالك الحقيقى للكل"، وأضاف أن مواطنى المقاطعات المتحدة استفادوا القليل من تغيير نظام حكمهم و"يتحملون المزيد من الأعباء التعسفية غير الشرعية، مقارنة بأية أمة فى العالم"(٨٩). وهنا أيضا تبدو التشابهات مع حكومة فترة خلو العرش الإنجليزى، خاصة فى استنتاجه فيما يتعلق بالبلاد المنخفضة(**):

"ليس هناك شىء تحتاجه هذه البلاد- التى أنعم عليها الرب ببركاته - سوى أمير كريم، ووحدة الدين، وحكومة مستقرة، وإذا أرضت تلك البلاد ربها القدير فسينعم عليها، وسيتفوقون على كل الأمم المجاورة فى الثروة والقوة والطمأنينة وسيحققون كل سعادة الدنيا"(٩٠).

واختصارا، فقد كان هناك طريقتان متميزتان بوضوح لتناول كتب الجغرافيا المنهجية الجديدة للسياسة فى نصف القرن الذى تلى هذه البداية. وكان هذان النمطان دينيين فى الأساس؛ حيث كانا يتمثلان فى الكالفنية والأرمينيانية، وكانت الاختلافات بينهما واضحة فى تصويرهما للكنيسة والدولة الإنجليزية، وفى شبكات التعاطف والعداوات تجاههما عبر أوروبا؛ حيث ركزت الجغرافيات الكالفنية على فساد الكنيسة الإنجليزية الذى أحدثته كاثوليكية روما واستمرار انحراف روما وإسبانيا وفرنسا بدرجة أقل، وساندت شبكة من التحالفات الطائفية بين الأمم الكالفنية فى أوروبا وخارجها فى الدول المسيحية خارج إطار روما. وعلى العكس، ركزت الجغرافيات الأرمينيانية على التواصل بين الكنيسة الإصلاحية الإنجليزية والكنيسة الرومانية،

(*) المقاطعات المتحدة United Provinces: هو الاسم الذى تمثله اليوم دولة هولندا. (المترجم)

(**) البلاد المنخفضة Low Countries: النطاق الساحلى من شمال غرب أوربا الذى يضم اليوم دول: بلجيكا، وهولندا، وأجزاء من شمال غرب ألمانيا التى يسير فيها المصب الأدنى لمصب نهر الرون، فضلا عن أجزاء من شمال شرق فرنسا. (المترجم)

وانتقدت من خلال التمييز العكسى الإصلاحات الكالفنية العنيفة التى كونت بفضل جيرانها الأسكتلنديين نموذجا للتحريض كلف إنجلترا الكثير. وكانت إسبانيا تعتبر أقل تهديدا مما كانت عليه قبل امتلاكها أسطول الأرمادا(*)، وكانت كنيسة فرنسا المستقرة تتلقى كثيرا من المديح، إن لم يكن أكثر من كنيستها الإصلاحية، فمن المنظور الكالفنى، كانت الجغرافيا الأرمينيانية بابوية بصورة خطيرة، وقد أدى هذا الفصل لإنجلترا عن حلفائها الطائفيين الطبيعيين إلى كارثة. وبالنسبة للأرمينيان، كانت الكالفنية نموذجا للتحريض، حيث أدى استيراد أفكارها من جنيف وهولندا وأسكتلندا إلى إثارة أزمة، وتشير أدلة كتب الجغرافيا الإنجليزية إلى حرب الأفكار الدينيـة التى اندلعت لفترة زمنية طويلة.

الاتجاه إلى مزيد من العمل

الجغرافيا فى الحوارات الثورية الإنجليزية (١٦٤٠-١٦٦٠)

بالإضافة إلى ما قامت به الجغرافيا فى شكلها المنهجى الجديد بالمشاركة فى الحوارات السياسية والدينية، لعبت عوامل القوة فى الاتجاه المعاكس أيضا، حيث انتشرت المعلومات والخيالات الجغرافية فى الحوارات السياسية عندما انزلقت إنجلترا إلى الحرب الأهلية. ويرجع السبب فى هذا التأثير العكسى إلى أنه خلال الفترة الحديثة

(*) الأرمادا الإسبانى Spanish Armada: أسطول إسبانى كان يتكون من ١٣٠ سفينة أبحرت من كورونا فى أغسطس ١٥٨٨ بهدف اكتساح إنجلترا. وكان الهدف الاستراتيجى يتمثل فى الإطاحة بالملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ومؤسسة تيودور البروتستانتية فى إنجلترا، مع توقع أن هذا سوف يوقف تدخل إنجلترا فى هولندا الإسبانية والضرر الذى تلحقه القرصنة الإنجليزية والهولندية بالمصالح الإسبانية. تمكن الأسطول الإنجليزى من هزيمة الأرمادا وظل يطارده على الساحل الشرقى لإنجلترا، وتعرض الأرمادا إلى الفوضى خلال عواصف شديدة فى شمال الأطلنطى، وتحطم جزء كبير من السفن على سواحل أسكتلندا وأيرلندا. وفشل أكثر من ثلث سفن الأسطول فى العودة. وكانت هذه الحملة بمثابة أكبر مشاركة فى الحرب الإنجليزية الإسبانية غير المعلنة (١٥٨٥-١٦٠٤). وفى السنة التالية، نظمت إنجلترا حملة كبيرة مشابهة ضد إسبانيا، حملة دريك - نوريس، والتى تعرف أيضا باسم الأرمادا المضاد فى ١٥٨٩، ولكنها فشلت أيضا. (المترجم)

المبكرة، كانت القراءة ترتبط كثيرا بالعمل السياسي، إذ كشفت دراسات أنطوني جرافتون وليزا جاردان كيف أن جابريل هارفي قرأ تواريخ ليفي[*] Livy بطرق مختلفة لفهم العمل السياسي وتبريره: فقد كانت دراسته "من أجل العمل"[٩١]. ولم يكن هارفي يمثل استثناء عن القاعدة، حيث اتبع الحكمة التقليدية المتعلقة بأهداف مناهج الآداب الجامعية. وقد عرف نثنائيل كاربنتر الآداب بأنها "لا تقتصر على المعرفة المجردة أو التأمل، ولكنها تتجه إلى المزيد من النشاط أو العمل"، إلا أنه رأى أن الجغرافيا تقع خارج هذا الإطار باعتبارها علما"[٩٢]. ولكن يجب أن نعرض لنقطتين في مقابل هذا، فأولا، نجد كما رأينا أن كاربنتر على عكس موقفه هنا قد عرض فعلا نقاطا سياسية في كتابه "الجغرافيا" بحيث يمكن دراستها من أجل العمل، وثانيا، نجد أن معظم الذين يطلعون على كتاب كاربنتر كانوا يشاركون في مناهج الآداب أو كانوا يدرسون وفي أذهانهم غايات عملية بصفة عامة.

لقد أظهر مؤرخو الكتب طوال مدة هذا النهج وانطباقه على الجغرافيا؛ حيث ذكر جرافتون وجاردان أن نصيحة السير فيليب سيدني المتعلقة بكيفية القراءة من أجل المشورة السياسية كانت تفترض أن الجغرافيا تمثل عين التاريخ: "بالنسبة للمسائل التاريخية، أود أن أنصحك قبل البداية بأن تقرأ قدرا من كتاب "مجال الكون" الذي كتبه يوحنا السكروبوسكي[**]، بالإضافة إلى جغرافية بعض الكتاب المعاصرين"[٩٣].

(*) كان تيتوس ليفيوس باتافنُس Titus Livius Patavinus (٥٩ ق م-١٧م) - المعروف بليفي في الإنجليزية - مؤرخا رومانيا كتب تاريخا تذكاريا لروما والشعب الروماني، وكان كتابه "كتب من تأسيس المدينة Books from the Foundation of the City" يغطي الفترة من أقدم الأساطير الرومانية قبل تأسيسها التقليدي في ٧٤٣ ق.م حتى حكم الإمبراطور أغسطس في عصر ليفي. (المترجم)

(**) يوحنا الساكروبوسكي Johannes de Sacrobosco (يكتب أيضا Ioannis de Sacro Bosco) (حوالي ١١٩٥- حوالي ١٢٥٦): دارس وراهب وفلكي ومعلم في جامعة باريس. وهو مشهور بثلاثة إنجازات: أولا: كتب مقدمة مختصرة لنظام الأرقام الهندي العربي، وثانيا: كتب نصا فلكيا مختصرا، كان يقرأ على نطاق واسع، وكان ذائع الصيت في أوروبا خلال القرون الوسطى المتأخرة كمقدمة في الفلك، وثالثا: عمله الذي يهتم بوصف دقيق لعيوب التقويم اليولياني الشرقي الذي كان يستخدم آنذاك، وأوصى بقدر كبير من الدقة بما كان بمثابة التقويم الجريجوري. (المترجم)

ومن الجدير بالذكر هنا - بالنسبة إلى دعاوى كاربنتر - أن الجغرافيا الرياضية كانت تعتبر جغرافيا سياسية بقدر ما كانت جغرافيا موضوعات متخصصة أخرى (نسبة إلى معيار الدراسة الجامعية لتخصص الجغرافيا الفلكية التى وضعها ساكروبوسكو). وبالإضافة إلى هذا، توضح قراءة السير ويليام دريك لمسار الثورة الإنجليزية أنه كان يستخدم المواد الجغرافية لفهم الأحداث، فقد كان دريك مثل العديد من معاصريه يقرأ ويسجل ملاحظات مهمة فى الكتب العامة على شكل عناوين أفكار[٩٤]. وكما رأينا، فقد كانت كتب الثقافة العامة(*) جوهرية فى بناء الشكل المنهجى للجغرافيا، وبمجرد اكتمال هذا البناء طبعا، كانت هذه الكتب ذاتها تتاح للأجيال اللاحقة للبحث عن المعلومات السياسية المفيدة.

وهكذا، كانت كتب الجغرافيا تستخدم فى تكوين كتب الثقافة العامة، وكان الدارسون الذين يحاولون الدفاع عن عمل سياسى أو مناقشته يعتمدون عليها، وكان هذا بمثابة سمة مميزة للحياة الفكرية الحديثة المبكرة التى غطت فترة أطول كثيرا من الثورة الإنجليزية. ولكن الدراسة التفصيلية لهذه العملية تقع خارج نطاق اهتمامى: إذ إننى أحاول أن أقدم لمحة مختصرة عن المنتج النهائى، أى الطرق التى انتشرت من خلالها المعلومات والخيالات الجغرافية فى الحوارات الدائرة حول الثورة الإنجليزية، بدلا من إظهار هذه العملية أثناء التطبيق على دراسة الكتب العامة.

وكنقطة بداية، فإنه من الجدير بالذكر أن كل "الجغرافيين" فى أكسفورد كانوا أيضا مناقشين مهمين للمسائل السياسية والدينية. وربما لا يكون مدهشا أنه يوجد دليل على أنهم كانوا يعتمدون على مكانتهم كجغرافيين لإثارة نقاط جدلية فى حوارات

(*) كتب الثقافة العامة Commonplace Books: مجموعة من كتب تجميع المعرفة، وكانت هذه الكتب بمثابة سجلات قصاصات مليئة بأشياء من كل الأنواع: وصفات طبية، واقتباسات، وخطابات، وأشعار، وجداول أوزان ومقاييس، أمثال، صلوات، وصيغ قانونية. وكانت هذه الكتب تستخدم من جانب القراء: الكتاب، والطلاب، والدارسين؛ لتساعدهم على تذكر المفاهيم والحقائق المفيدة التى تعلموها، وكان كل كتاب فريدا بالنسبة للاهتمامات الخاصة بصاحبه، وأصبحت هذه الكتب مهمة فى أوروبا الحديثة المبكرة. (المترجم)

منشورة، حيث يتضح هذا بقوة فى ورقة دعائية كتبها جورج أبوت، فقد هاجم أبوت ورقة دعائية كاثوليكية على أساس أنها تحاول بصورة زائفة "توسيع نطاقات البابا" وبالتالى ادعاء أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت "كاثوليكية" بمعنى أنها عالمية بالمعنى الجغرافى، ودحض الادعاء بأن الكاثوليكية الرومانية انتشرت إلى أبعد المناطق الغربية من العالم القديم، وفى ذلك يقول: "لقد فشلت الكاثوليكية قليلا فى الجغرافيا، كما فشلت أيضا فى الدين؛ لأنه فى أفريقيا، تتخطى المناطق التى حول مراكش كل هذه المناطق بلا شك [من حيث خطوط الطول غربا]" ومع ذلك فهى لا تقع تحت سيطرة روما. وقد عاد أبوت إلى هذه الحجة - القائلة بأن نجاح الجغرافيا يتحقق بمثل نجاح العقيدة - فى مرحلة لاحقة لرفض ادعاء أن الكاثوليكية الرومانية انتشرت فى العالم كله:

"حتى ذلك الوقت المتأخر، كان البرتغاليون يحاولون الذهاب إلى قاليقوت(*)، واكتشفوا رأس الرجاء الصالح... وكان كل ذلك قبل خروج كولومبس بقليل؛ فمن الذى كان هناك داخل الإطار العام لأفريقيا ويعرف بالنهج الرومانى؟... وبينما كنتم أيها الكاثوليك تتوغلون فى أفريقيا، كما فعلتم فى آسيا، كانت أنحاء كل هذه المنطقة الضخمة لا تعرف شيئا عن البابا ولا عن عبادته"[٩٥].

وهكذا استغل أبوت مكانته جغرافيا لدحض خصومه: حيث يمكن دراسة الجغرافيا من أجل العمل ضد الكاثوليكية. ولم يكن أبوت وحيدا فى هذا الصدد، بل على العكس، كانت حجته وثيقة الصلة بحجة باجيت فى الجغرافيا المسيحية، وحجة ساندى فى كتاب "المنظار الأوروبى Europae Speculum"، حيث قام كل منهما أيضا بطرح مسح عمومى للعالم لتمحيص المعنى الجغرافى لدعاوى الكاثوليكية، فقد كانت المسألة الكاثوليكية جوهرية فى الحوارات بين روما والكنائس الإصلاحية، وكان يمكن كسبها أو خسارتها فى المجال الجغرافى بالتعريف.

(*) أحد أهم المراكز التجارية العربية والهندية، وهو الاسم التاريخى الذى تعرف به اليوم مدينة قوشيقود Kozhikode فى ولاية كيرلا فى جنوب غرب الهند. (المترجم)

وبصفة عامة، كانت الحوارات الموجزة التى أحاطت بالثورة الإنجليزية تعتمد على الجغرافيا من أجل نوعين من المواد، فأولا، كانت معلومات جغرافية معينة تستخدم للدفاع عن حجة ما أو دحضها، وثانيا، كان الخيال الجغرافى العام منتشرا: حيث كانت الأوضاع المشتركة المقبولة والمنتشرة على نطاق واسع فى الأمم المختلفة تشكل العنصر الرئيس فى الحوارات حول العلاقات بين الشعب والبرلمان والملك.

وبالنظر إلى الحوارات التى دفعت تشارلز إلى تحسين مستواه فى كلية إيدجهيل Edgehill فى ١٦٤٢، اعتبر المدافعون عن البرلمان أن تشارلز قد اتبع نماذج للاستبداد مستمدة من الأمم الأوروبية، وخاصة كاثوليكية روما، وعبروا عن هذا بنشر الخيال الجغرافى، وهكذا رأى هنرى باركر أن فرض ضرائب من نوع ضريبة الساحل(*) يعتبر منافيا للدستور الإنجليزى، واستخدم مجموعة من الخيالات الجغرافية لتدعيم رأيه:

"إن هذا الاختراع لرسوم السفن يجعلنا أذلة مثل الترك.... وإذا درسنا ما الذى يجعل العبيد المحمديين(**) يتلقون معاملة بائسة، مقارنة بالألمان؛ أو لماذا يتعرض القرويون الفرنسيون للاستغلال بصورة حقيرة وبائسة وحيوانية، مقارنة بالهولنديين؛ أو لماذا تلقى شعوب ميلانو ونابولى وصقلية القهر والقسوة والاستعباد، مقارنة بمواطنى إسبانيا؟ لن يظهر لنا أى سبب آخر سوى أنهم يخضعون لسلطة مفرطة، وأنهم لا يستفيدون من أى قانون يمكن أن يحميهم"(٩٦).

(*) تشير ضريبة الساحل Ship Money إلى ضريبة حاول تشارلز الأول ملك إنجلترا أن يفرضها دون موافقة البرلمان، عندما حاول أن يحكم بدونه ١١ سنة فيما بين ١٦٢٨ و١٦٣٩. وأصبحت هذه الفترة تعرف بطغيان السنوات الإحدى عشرة. وكانت هذه الضريبة التى طبقت فقط على المدن الساحلية خلال فترة الحرب تفرض ظلما على الناس الذين يعيشون قرب الساحل لأن تشارلز ادعى أنه يملك البحر، وبالتالى فرضها على الناس مقابل استخدامه بغض النظر عن مهنتهم. ما داموا يعيشون داخل مدى ١٥ ميلا من الساحل، يجب فرض الضريبة عليهم. وبدأ جمع هذه الضريبة على البر فى وقت السلم فى ١٦٣٤، ما أثار مقاومة متزايدة بحلول ١٦٣٦. وكان هذا الصراع أحد أسباب الحرب الأهلية الإنجليزية. (المترجم)

(**) المحمديون Mohametan: هى التسمية الأوربية التى كانت تطلق على المسلمين فى إشارة إلى أنهم أتباع رجل اسمه محمد. (المترجم)

ويرى باركر أن غير المسيحيين وغير البروتستانت يميلون إلى الطغيان بسبب تجاهلهم للقانون. وكان هذا بمثابة نوع الرسالة التى كان أى قارئ واع لكتب الجغرافيا يستطيع أن يدركها. وبالنسبة إلى تشارلز الأول، كان فحوى كل هذه الانتقادات يتمثل فى تعطيل الدستور وإعادة صياغته على أسس أجنبية لا تتوافق مع الظروف الإنجليزية: "لقد قررنا ألا نتخلى عن الدستور القديم والعادل المعد جيدا، والذى لم يمدح بصورة كافية حكومة هذه المملكة، وألا نجعل من أنفسنا نحن ملك إنجلترا دوقا للبندقية، وألا نجعل من هذه المملكة جمهورية"(٩٧).

وبينما كان باركر يرى أن الملك دفع إنجلترا بعيدا عن أسسها القانونية نحو الاستبداد التركى، كانت قراءة تشارلز ترى أن التدخل البرلمانى دفع الأمور فى الاتجاه المعاكس، نحو جمهورية البندقية. ومن الواضح أنه مع استقطاب المواقف الدستورية، كان يمكن الاعتماد على تمثيلات جغرافية متعارضة لاقتراح أن الخصوم كانوا أجانب وليسوا إنجليزًا. وكانت هذه التمثيلات تتكرر لدى الطرفين طوال تسلسل الأحداث. وهكذا استطاع هيرلى تصوير الملك تشارلز على أنه يضع القوانين الإنجليزية، "كما هو الحال مع قوانين فرنسا وتركيا"، وتساءل "كيف كانت الملكية مختلفة عن تركيا" بالنسبة لهذا المفهوم"(٩٨). وعلى الجانب الآخر، ادعت ورقة هنرى فيرن Henry Ferne التى أثارت غضب هيرلى أن البرلمان حاول جعل "التاج مكبلا، كما فى الممالك الانتخابية البسيطة مثل بولونيا والسويد"(٩٩). وكان الملكيون يصورون – بطرق ترتبط كثيرا بكتب الجغرافيا – بولندا وهولندا والبندقية على أنها جمهوريات تتكون من خليط مشوش من طوائف مشاغبة، وهكذا صور هيلين بولندا فى "الكون الصغير" و"الكوزموجرافيا" على أنها "بابل الأديان"، وربط بولندا بهولندا فى هذا المجال(١٠٠).

وبقيت عملية الحوار عبر الخيالات الجغرافية دائرة حتى تم إعدام تشارلز واستمر ذلك فى الفترة التى تلت. وعندما حاول المفكرون السياسيون الإنجليز سبر أغوار الأوضاع السياسية المجهولة، بحثوا عبر الزمان والمكان عن علامات ترشدهم، وكان

هذا يعنى بالتعريف البحث فى الجغرافيا والتاريخ. وبررت مذكرة نشرت عشية إعدام تشارلز حق الشعب فى محاكمة ملكه بعدد من الأمثلة الجغرافية والتاريخية، وذلك بالاعتماد على الأدلة الفرنسية والأسكتلندية أساسا[١٠١]. ومن المهم أن تبرير البرلمان ذاته لإعدام تشارلز اعتمد على مجموعة من الأمثلة الجغرافية التاريخية. وفى ذلك تخبرنا المصادر:

"تلقى البرلمان تشجيعا من خلال ملاحظة نعمة الرب على الدول الأخرى؛ إذ إن الرومان – بعد اقتتالهم فيما بينهم على الحكم لعدة عقود – ازدهروا بصورة أكثر كثيرا مما كانوا عليه فى ظل حكم أى من ملوكهم أو أباطرتهم، وازدهرت دولة البندقية لحوالى ألف وثلاثمائة سنة. وكم تفوق حكم البرلمان Commons فى كل من سويسرا وغيرها من "الدول الحرة" الأخرى على غيرها من الدول من حيث الثراء والحرية والسلام وكل مصادر الرخاء! بل إن جيراننا فى "الإمارات المتحدة" تمتعوا كثيرا بالثراء والحرية والتجارة والقوة منذ أن غيروا حكومتهم"[١٠٢].

ومن الواضح أن البرلمان يستطيع الآن تبنى مثال البندقية بصورة إيجابية، بدلا من أن يكون شبحا ملكيا.

وكان جون ميلتون واحدا من أبرز الكتاب السياسيين المتميزين فى عصره، حيث نجد فيه مفكرا يعتمد دائما على أدلة الأمثلة الجغرافية لتأييد مواقفه، حيث برر ميلتون إمكانية طرد أى ملك من موقعه بناء على السلطة العليا للبرلمان، "استنادا إلى الدساتير المعروفة لدى الإمبراطوريتين المسيحيتين الأخيرتين فى أوروبا، الإغريقية والألمانية؛ بالإضافة إلى تواريخ فرنسا، وإيطاليا، وأراجون، وإنجلترا، وأسكتلندا"[١٠٣]. وفى حالة ميلتون، يسهل أن نُرجع الكثير من هذه الأدلة إلى كتابه العام، الذى يوضح أنه جمع المعلومات عن الوضع الراهن لأوروبا من كتاب دى ثو[*] De Thou "تاريخ الزمن

(*) كان جاك أوغسطت دى ثو (توانوس Thuanus) (٨ أكتوبر ١٥٥٣، باريس – ٧ مايو ١٦١٧، باريس) مؤرخا فرنسيا وجامع كتب ورئيس برلمان باريس. (المترجم)

المعاصر "Historia Sui Tempori" (١٦٢٠)، ولكنه كان يجمع أيضا أمثلة غريبة تتعلق بالصين وأفريقيا من كتابات صمويل بوركاس Samuel Purchas[١٠٤]، بل إن الأكثر تأثيرا من هذا كان يتمثل فى الدليل الجغرافى الذى جمعه ميلتون لرفض موقف سالماسيوس Salmasius فى كتابه "دفاعا عن شعب إنجلترا". ومن أجل إثبات موقفه المتمثل فى أنه "مما يتوافق مع الطبيعة تماما أنه يجب أن يعاقب الطغاة على ما فعلوه بطريقة ما... فقد كانت كل الأمم تفعل ذلك باستمرار"، انتقل ميلتون فى بحثه عن الأدلة المؤيدة له من أوروبا إلى أفريقيا، ومن مصر إلى إثيوبيا، ثم عاد إلى الغال[*]. ومن الواضح أن ميلتون درس الأمثلة العامة من أجل العمل بناء عليها، وأنه رتبها فى إطار جغرافى أيضا[١٠٥].

وقبيل استعادة الملكية فى إنجلترا، كان ميلتون لا يزال ينشر نفس أشكال الحجج الجغرافية. وطوال شهرين قبل دعوة تشارلز الثانى إلى العودة ليصبح ملكا على إنجلترا، كان ميلتون يحذر الشعب من أن يخدع بأمثلة البندقية و"الإمارات المتحدة"، ولو حتى بإقامة ملكية دستورية:

"سوف نتمتع بهذه الميزة على الكومنولث المجاور التالى، (إذا استطعنا أن ننأى بأنفسنا عن التفكير المفتون بنموذج يشبه دوق البندقية، والذى دخل مؤخرا فى أذهان الكثيرين، وذلك من خلال شخص ما أو آخر يخفى بدهاء غاياته الخاصة الطموحة للوصول إلى التاج تحت هذه الفكرة الجذابة) وأن حريتنا لن يعوقها أو يعطلها أى ارتباط بأية أسرة قوية مثل أسرة ناساو[**]... ولكن يجب أن نعيش كأوضح وأفضل أمة حرة فى العالم"[١٠٦].

(*) كانت منطقة الغال Gaul تقع غرب أوروبا فى العصر الحديدى والحقبة الرومانية، وتشمل فرنسا، لكسمبورج، بلجيكا، معظم سويسرا، شمال إيطاليا، بالإضافة إلى مناطق من هولندا وألمانيا على الضفة الغربية من الراين. وخلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وقعت الغال تحت سيطرة الرومان. (المترجم)

(**) ناسو The House of Nassau أسرة أرستقراطية متنوعة فى أوروبا. وقد استمدت هذه الأسرة اسمها من السيادة المرتبطة بقلعة ناسو التى تقع فى ناسو الحالية فى منطقة بالاتينيت على الراين فى ألمانيا. وينحدر كل ملوك هولندا منذ ١٨٩٠ وكل دوقات لكسمبورج الكبار منذ ١٩١٢، من أسرة ناسو. (المترجم)

وكما كان الحال بالنسبة إلى تشارلز الأول، كانت البندقية تجسد مثالا جغرافيا مهيبا، ولكن هذه الصورة كانت تثار لأسباب مختلفة تماما.

ما بعد استعادة الملكية فى إنجلترا

بزوغ ثورات جغرافية وأفولها

تقاطعت الثقافة الجغرافية الإنجليزية فى الفترة من ١٦٠٠ إلى ١٦٦٠ مع ثورتين أخريين، حيث كانت الأولى ثورة عامة شهدت تطوراً فى شكل نصوص الكتب الجغرافية فيما بعد العصور الوسطى أو أوائل العصر الحديث، فقد ركزت هذه الثورة على محاولات علماء الإنسانيات المحدثين - خاصة فى المجالات الفرعية والمنهجية - لتكوين أساليب يمكن تنظيم المعرفة الغزيرة من خلالها، وذلك باستخدام المقولات الثنائية أو الفرعية للعناوين العامة والخاصة. ففى كتب الثقافة العامة، كانت الجغرافيا تظهر من خلال جمع المواد تحت عناوين مكانية، ثم كانت تعرض فى شكل تفرضه فكرة الأسلوب، وكانت هذه الثورة العامة تتطلب احتواء كتب الجغرافيا مواد عن الحالة السياسية والدينية لأمم العالم، وكان هذا الفرض هو الذى سهل مشاركة الجغرافيا فى حرب الأفكار التى تحيط بالثورة الإنجليزية. ويبدو أن هذا التغير كان له بعض التأثير على عنوان "الثورة"، بحيث كان يمثل انقطاعا واضحا عن ممارسة استقرت طويلا، وحدث ذلك فى فترة زمنية قصيرة (١٦٠٠-١٦٢٥ تقريبًا)، ثم أصبح يسيطر على الكتابة الجغرافية لفترة طويلة قادمة. وتشير الثورة الثانية - وهى النافذة التى فتحتها كتب الجغرافيا على الثورة الإنجليزية - إلى أنها كانت حرب أفكار أوقدت نارها الاختلافات الدينية بين المذاهب الكالفنية والأرمينيانية، وهو صراع ظهر على الساحة العالمية، والأوروبية بصورة أكثر تحديدا. وكذلك ضمنت ثقافة المكان العام أن المعلومات الجغرافية كانت تجمع من خلال تبادل المذكرات التى كانت تتناول الحوارات حول المفاهيم المختلفة لأسباب الثورة الإنجليزية والنتائج المترتبة عليها.

ولكن ماذا حدث خلال "الاستعادة"؟ لقد ظهرت وطمست الثورتان الجغرافيتان اللتان عرضنا لهما قبل قليل. قد يبدو أن الثورة العامة تحققت ببساطة من حيث إن البنى الأساسية للجغرافيا المنهجية ظلت متماسكة، وكانت توجه تدوين كتب الجغرافيا حتى القرن التاسع عشر، ومع ذلك تلاشت الأصول الفكرية لهذه الثورة العامة، فقد مرت مرورا عابرا تلك المسارات التى تمكنت النظرية التربوية الكالفنية (بشكل أساسى) من خلالها من تشكيل نمط جديد من كتب الجغرافيا عند توقف التسلسل التاريخى للعصور الوسطى، حيث ضاعت أصولها فى الاستجابات البروتستانتية للصراع الطائفى بسرعة مع انتشار هذا الأسلوب فى كل الأمم والمناطق. وفى دراسة كل من هفرنان ولفنجستون للثورتين الفرنسية والأمريكية (فى الفصلين العاشر والحادى عشر من هذا الكتاب) ما يؤيد ادعاء أن الثورة العامة فى الجغرافيا ظهرت وتلاشت على التوالى. ومن الواضح أن إدمى منتل (انظر الفصل العاشر) و جديدياه مورس (انظر الفصل الحادى عشر) نشرا شجرة المعرفة وأشكال تنظيم النصوص فى كتبهما الجغرافية التى نبعت من السياق الذى عرضناه فى هذا الفصل. وفى الواقع، تعتبر الاستمرارية فى هذا الصدد ملحوظة، ولكن أيا منهما لا يبدى أى وعى بالمكان الذى جاءت منه أشكالهما الجغرافية.

ويمكن تصوير نمط عكسى للثورة الثانية التى ناقشناها. فكما ذكر كولنسون وتياكى تحديدا، كانت المركزية المطلقة للكالفنية فى إنجلترا فى عهد أسرة ستيوارت غير مرئية عند "الاستعادة". وتمثلت إحدى النتائج فى أن الكالفنية لم تعد تعتبر إنجليزية فى كتب الجغرافيا المكتوبة بالإنجليزية. ولكن مع تأثير التنوير الأسكتلندى، نجد أن إدراك الكالفنية - على أنها ليست أى شىء "آخر" بالنسبة إلى "الذات" الإنجليزية - قد عاد إلى الظهور كاحتمال مندس بين الكتب الجغرافية الإنجليزية[١٠٧]. وهكذا فإنه على المستوى البسيط، نجد أن الكالفنية وتأثيرها التشكيلى فى الجغرافيا الحديثة المبكرة قد تلاشى. واستمرت ثقافة الحوار السياسى الدينى فى كتب الجغرافيا - والتى تشكلت فى الثورة الإنجليزية - فى ظل فترة حكم أسرة ستيوارت وما بعدهم، صحيح أنه حدث تغير فى الحجج واللغة، ولكن ظل محور الخلاف الفكرى قائما.

وفى عشية "الاستعادة"، كتب مؤلف مجهول لم يذكر من اسمه سوى حرفى "أر.بى R. P" كتاب "وصف جغرافى للعالم"، وتحدث عن "الإنجليز الذين غيروا الآن اسم المملكة إلى حكم الوصاية"(١٠٨). أما فى نسخة مكتبة جامعة كامبردج، تم حذف هذا النص، وربما كان ذلك من تأثير "الاستعادة". ويجب ألا يكون المرء مستغرقا فى أفكار دريدا(*) ليتقبل فكرة أن هذا الحذف لم يقتصر على مجرد الإخفاء، بل إنه أكد أيضا على كل من التغير فى الحكم وما كان يحدث قبله. وإذا كانت "الاستعادة" قد شطبت بطرق عديدة الثورتين الإنجليزيتين فى الجغرافيا - الثورة العامة والثورة السياسية - فمع ذلك ليس بوسع أى جغرافى أن يهم بالكتابة دون الاعتراف بهاتين الثورتين.

(*) كان جاك دريدا Jacques Derrida (١٥ يوليو ١٩٣٠-٩ أكتوبر ٢٠٠٤) فيلسوفا فرنسيا، ولد فى الجزائر الخاضعة للاحتلال الفرنسى. وهو مشهور بتطوير شكل من التحليل السيميائى يعرف بالتفكيكية. وهو واحد من الشخصيات الكبرى المرتبطة بفلسفة ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. (المترجم)

الهوامش

For comments and information that have greatly improved this chapter, I wish to thank David Armitage, Howard Hotson, Anthony Milton, Jonathan Scott, and Quentin Skinner. My thanks for further stimulating comments also go to the editors of this volume and to participants at the conference on which this book is based.

1. Where once there was a debate between proponents of the terms "English Civil War" and "English Revolution," occurring down largely party-political lines, today there are numerous competing representations of the events of 1640–60. In this context the nonaligned can use the terminology with a certain irenicism. For helpful introductions to the historiography of the English Revolution, see Alastair MacLachlan, *The Rise and Fall of Revolutionary England: An Essay on the Fabrication of Seventeenth-Century England* (London: Macmillan, 1996); and Ralph C. Richardson, *The Debate on the English Revolution*, 3rd ed. (Manchester: Manchester University Press, 1998).

2. Thomas Hobbes, *Behemoth; or the Long Parliament*, ed. Ferdinand Tönnies (Chicago: University of Chicago Press, 1990), 3–4.

3. Ibid., 33.

4. Ibid., 22–23, 122–23.

5. See Ann Hughes, "King, Parliament and the Localities during the English Civil War," *Journal of British Studies* 24 (1985): 236–63; Ralph C. Richardson, ed., *Town and Country in the English Civil War* (Manchester: Manchester University Press, 1992); and John Morrill, *Revolt in the Provinces: The People of England and the Tragedies of War, 1630–1648*, 2nd ed. (London: Longmans, 1999).

6. Clive Holmes, "The County Community in Stuart Historiography," *Journal of British Studies* 19 (1980): 54–73; and Richard Cust, "News and Politics in Early-Seventeenth Century England," *Past and Present* 112 (1986): 60–90.

7. David Underdown, *Revel, Riot and Rebellion: Popular Politics and Culture in England, 1603–60* (Oxford: Oxford University Press, 1985); John Morrill, "The Ecology of Allegiance in the English Civil War," *Journal of British Studies* 26 (1987): 451–67; and Ann Hughes, "Local History and the Origins of the Civil War," in *Conflict in Early Stuart England: Studies in Religion and Politics, 1602–1642*, ed. Richard Cust and Ann Hughes (London: Longmans, 1989), 224–53.

8. Conrad Russell, *The Causes of the English Civil War* (Oxford: Clarendon, 1990), 217–18.

9. Derek Hirst, "The English Republic and the Meaning of Britain," in *The British Problem, c. 1534–1707: State Formation in the Atlantic Archipelago*, ed. Brendan Bradshaw and John Morrill (London: Macmillan, 1996), 192–219.

10. Jonathan Scott, *England's Troubles: Seventeenth-Century English Political Instability in European Context* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

11. At a simple level, John Speed's *Theatre of the Empire of Great Britain* (1627) includes maps of England, Wales, Scotland, and Ireland, as well as a map of the four together. On the other hand, Camden's *Britannia* (1586), written before the Union of Crowns in 1603, does not include Scotland (although the 1607 edition does). Yet both projects clearly can draw on the conceptual category of "Britain," however much their usages might vary.

12. J. H. Elliott, "A Europe of Composite Monarchies," *Past and Present* 137 (1992): 48–71; nd J. H. Elliott, "England and Europe: A Common Malady?" in *The Origins of the English Civil War*, ed. Conrad Russell (London: Macmillan, 1973), 246–57.

13. Hobbes, *Behemoth*, 3–4, 58, 62, 73, and 90.

14. Christopher Hill, *The Intellectual Origins of the English Revolution Revisited*, 2nd ed. (Oxford: Clarendon, 1997), 15–76; and Charles Webster, *The Great Instauration: Science, Medicine and Reform, 1626–1660* (London: Duckworth, 1975).

15. Hill, *Intellectual Origins*, 122–47; and Webster, *Great Instauration*, 118, 129, 356, and 427–42.

16. Dennis Des Chene, *Physiologia: Natural Philosophy in Late Aristotelian and Cartesian Thought* (Ithaca: Cornell University Press, 1996); and Anthony Grafton and Nancy Siraisi, eds., *Natural Particulars: Nature and the Disciplines in Renaissance Europe* (Cambridge: MIT Press, 2000).

17. Webster, *Great Instauration*, 429.

18. Lesley Cormack, "'Good Fences Make Good Neighbours': Geography as Self-Definition in Early Modern England," *Isis* 82 (1991): 639–61; and Robert J. Mayhew, "The Character of English Geography, c. 1660–1800: A Textual Approach," *Journal of Historical Geography* 24 (1998): 385–412.

19. Nicholas Tyacke, "Science and Religion at Oxford before the Civil War," in *Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth Century History Presented to Christopher Hill*, ed. Donald Pennington and Keith Thomas (Oxford: Clarendon, 1978), 73–93; and Mordechai Feingold, *The Mathematician's Apprenticeship: Science, Universities and Society in England, 1560–1640* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984).

20. Charles W. J. Withers and Robert J. Mayhew, "Rethinking 'Disciplinary' History: Geography in British Universities, c. 1580–1887," *Transactions of the Institute of British Geographers* 27 (2002): 11–29.

21. Eva G. R. Taylor, *Late Tudor and Early Stuart Geography, 1583–1650* (London: Methuen, 1934).

22. Lesley Cormack, *Charting an Empire: Geography at the English Universities, 1580–1625* (Chicago: University of Chicago Press, 1997).

23. Thomas Hobbes, *English Works*, ed. William Molesworth (London: John Bohn, 1843), 8:x.

24. Natalia Lozovsky, *"The Earth Is Our Book": Geographical Knowledge in the Latin West, c. 400–1000* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2000).

25. Churchill Babington, ed., *Polychronicon Ranulphi Higden Monachi Cestrensis; together with the English Translations of John Trevisa and of an Unknown Fifteenth Century Writer* (London: Longmans, 1865–86), 1:1–2:174.

26. Ibid., 1:79.

27. Daniel R. Woolf, *Reading History in Early Modern England* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

28. Roger Barlow, *A Briefe Summe of Geography*, ed. Eva G. R. Taylor (1541; London: Hakluyt Society, 1932); William Harrison, *The Description of England*, ed. Georges Edelen (1578; New York: Dover, 1994).

29. Peter Heylyn, *Microcosmus; or, A Little Description of the Great World: A Treatise Historicall, Geographicall, Politicall, Theologicall* (Oxford: Oxford University Press, 1621), sig. ¶¶r. An augmented and revised edition of the *Microcosmus* was published by John Lichfield and William Turner in 1625.

30. Robert Stafforde, *A Geographicall and Anthologicall Description of All the Empires and Kingdomes, both of Continents and Ilands in this Terrestriall Globe* (London: Simon Waterson, 1634), sig. A2v.

31. Samuel Purchas, *Hakluytus Posthumus; or, Purchas His Pilgrimes: Contayning a History of the World in Sea Voyages and Lande Travells* (Glasgow: James MacLehose, 1905–8), 1:xl. This does not mean, however, that the drive to method did not influence travel accounts more generally. On this point see Justin Stagl, "The Methodising of Travel in the Sixteenth Century: A Tale of Three Cities," *History and Anthropology* 4 (1990): 303–38.

32. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 2–4; and William Pemble, *A Briefe Introduction to Geography: Containing a Description of the Grounds and General Part Thereof*, 5th ed. (Oxford: Oxford University Press, 1675). Pemble's subtitle obviously invokes this division.

33. The argument that method "liberated" geography from religion is made in a series of articles by Manfred Büttner, the most easily accessible to the English reader being "Bartolomaus Keckermann, 1572–1609," *Geographers: Biobibliographical Studies* 2 (1978): 73–79.

34. See Margarita Bowen, *Empiricism and Geographical Thought: From Francis Bacon to Alexander von Humboldt* (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), 72–75; Nathanael Carpenter, *Geography Delineated Forth in Two Books* (Oxford: Oxford University Press, 1625), 2:267–72; T[homas] M[ay], *The Mirrour of Mindes; or, Barclay's Icon Animorum Englished* (London: Thomas Walkley, 1631).

35. Terence Cave, *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance* (Oxford: Clarendon, 1979); Neil Gilbert, *Renaissance Concepts of Method* (New York: Columbia University Press, 1965); and Neil Kenny, *The Palace of Secrets: Béroalde de Veville and Renaissance Conceptions of Knowledge* (Oxford: Clarendon, 1994).

36. Ann Moss, *Printed Commonplace Books and the Structuring of Renaissance Thought* (Oxford: Clarendon, 1996).

38. Wilbur Howell, *Logic and Rhetoric in England, 1500–1700* (Princeton: Princeton University Press, 1956); and Walter Ong, *Ramus, Method and the Decay of Dialogue: From the Art of Discourse to the Art of Reason* (Cambridge: Harvard University Press, 1954).

39. Howard Hotson, *Johann Heinrich Alsted: Between Renaissance, Reformation and Universal Reform* (Oxford: Clarendon, 2000).

40. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 1:17 and 2 151–52; Webster, *Great Instauration*, 118.

41. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 2:110; Bartholomew Keckermann, *Systema Geographicum Duobus Libris* (Hanover: Petrus Janichius, 1612) Heylyn in his *Microcosmus*, cited Keckermann seven times in his brief "General Praecognita of Geography," more than any other author.

42. Margot Todd, *Christian Humanism and the Puritan Social Order* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), 79; Feingold, *Mathematician's Apprenticeship*, 12, 97; and Ong, *Ramus*, 298–300.

43. Hotson, *Johann Heinrich Alsted*, 228–29.

44. Patrick Collinson, *The Religion of Protestants: The Church in English Society, 1559–1625* (Oxford: Oxford University Press, 1982); Nicholas Tyacke, *Anti-Calvinists: The Rise of English Arminianism, c. 1590–1640* (Oxford: Clarendon, 1987); and Anthony Milton, *Catholic and Reformed: The Roman and Protestant Churches in English Protestant Thought, 1600–1640* (Cambridge: Cambridge University Press, 1995).

45. Collinson, *Religion of Protestants*, 82.

46. Paul Welsby, *George Abbot: The Unwanted Bishop, 1562–1633* (London: SPCK, 1962); Susan Holland, "Archbishop Abbot and the Problem of 'Puritanism,'" *Historical Journal* 37 (1994): 23–43; and Kenneth Fincham, "Prelacy and Politics: Archbishop Abbot's Defence of Protestant Orthodoxy," *Historical Research* 61 (1988): 36–64.

47. Feingold, *Mathematician's Apprenticeship*, 58; Webster, *Great Instauration*, 19–20.

48. Hill, *Intellectual Origins*, 278.

49. George Abbot, *A Briefe Description of the Whole Worlde* (London: John Browne, 1605), sig. M4r. A still later edition of Abbot's work was published by J. Marriott in 1620.

50. Abbot, *Briefe Description* (1605 ed.), sig. M3v.

51. Ibid., sig. N2r.

52. Nathanael Carpenter, *Achitophel; or, The Picture of a Wicked Politician* (London: J. Okes, 1633), sig. Er.

53. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 1: sig. ¶3v; Tyacke, "Science and Religion," 81.

54. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 1:74.

55. Ibid., 93. Heylyn draws on Scaliger's work on historical chronology, the sister "eye" of history to geography. On this point, see Anthony Grafton, *Joseph Scaliger: A Study in the History of Classical Scholarship*, vol. 2, *Historical Chronology* (Oxford: Warburg Institute, 1993).

56. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 2:243.

57. Carpenter, *Achitophel*, sig. C3v.

58. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 1:238–39.

59. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 248.

60. Ibid., 243.

61. Ibid., 249.

62. Joan-Pau Rubiés, *Travel and Ethnology in the Renaissance: South India through European Eyes, 1250–1650* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 294–300.

63. Giovanni Botero, *Relations of the Most Famous Kingdomes and Common-wealths thorowout the World*, 3rd ed., trans. Robert Johnson (London: John Haviland, 1630), sig. A2r–v.

64. Tyacke, *Anti-Calvinists*, 72; cf. Petrus Bertius, *Tabularium Geographicam* (Amsterdam: J. Hondius, 1616).

65. Botero, *Relations of the Most Famous Kingdomes*, 66.

66. Ibid., 207–8. The grammatical construction of this sentence, "our men," makes it transparent that this is written by an Englishman, that is, by Johnson the translator, not by the Italian Botero, and, indeed, Johnson said as much (Ibid., sig. A4v).

67. Milton, *Catholic and Reformed;* and Johan P. Sommerville, *Politics and Ideology in England, 1603–1640* (London: Longmans, 1986).

68. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 249.

69. Ephraim Pagitt, *Christianography; or, The Description of the Multitude and Sundry Sorts of Christians in the World, Not Subject to the Pope*, 3rd ed. (London: J. Okes, 1640), 186. I am not suggesting that Pagitt was himself an Arminian, only that his work tended toward sympathy with that position under the pressure of events.

70. Peter Heylyn, *Cosmographie in Four Bookes*, 2nd ed. (London: Henry Seile, 1657), 159.

71. Milton, *Catholic and Reformed*, 10.

72. Simon Adams, "Spain or the Netherlands? The Dilemmas of Early Stuart Foreign Policy," in *Before the Civil War: Essays on Early Stuart Politics and Government*, ed. Howard Tomlinson (London: Macmillan, 1983), 79–101.

73. Holland, "Archbishop Abbot," 24; and Fincham, "Prelacy and Politics," 37.

74. George Abbot, *Briefe Description* (1620 ed.), sig. B2r.

75. Fincham, "Prelacy and Politics," 52.

76. Abbot, *Briefe Description* (1605 ed.), sig. C4v.

77. Fincham, "Prelacy and Politics," 50; Abbot, *Briefe Description* (1605 ed.), sig. Cviiir.

78. Tomassso Campanella, *Thomas Campanella: An Italian Friar and Second Machiavel; His Advice to the King of Spain for Attaining the Universal Monarchy of the World*, trans. Edmund Chilmead (London: Philemon Stephens, 1659), sig. A2v.

79. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), sig. ¶2v; Thomas Cogswell, "England and the Spanish Match," in Cust and Hughes, *Conflict in Early Stuart England*, 107–33.

80. Heylyn, *Microcosmus* (1625 ed.), 175–77, 34, and 71–72. For *Microcosmus* as a less than fully Arminian tract, see Anthony Milton, "The Creation of Laudianism: A New Approach," in *Politics, Religion and Popularity in Early Stuart England: Essays in Honour of Conrad Russell*, ed. Thomas Cogswell et al. (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 165–68.

81. Heylyn, *Microcosmus* (1625 ed.), 31.

82. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 35.

83. Heylyn, *Microcosmus* (1625 ed.), 105.

84. Ibid., 196.

85. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 36.

86. Milton, *Catholic and Reformed*, 265–66.

87. Pagitt, *Christianography*, 187–88.

88. Heylyn, *Cosmographie*, 176.

89. Ibid., 393 and 395.

90. Ibid., 396.

91. Anthony Grafton and Lisa Jardine, "'Studied for Action': How Gabriel Harvey Read His Livy," *Past and Present* 129 (1990): 30–78.

92. Carpenter, *Geography Delineated Forth*, 1:4.

93. Grafton and Jardine, "Studied for Action," 39.

94. Kevin Sharpe, *Reading Revolutions: The Politics of Reading in Early Modern England* (New Haven: Yale University Press, 2000).

95. George Abbot, *The Reasons which Doctour Hill Hath Brought, for the Upholding of Papistry, which Is Falselie Termed the Catholicke Religion: Unmasked* (Oxford: Oxford University Press, 1604), 4–5, 89, and 181–82.

96. Henry Parker, "The Case of Shipmony Briefly Discoursed" (1640), in *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts*, ed. Joyce Lee Malcolm (Indianapolis: Liberty Fund, 1999) 1:109–10.

97. Charles I, "His Majesties Answer" (1642), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:167.

98. [Charles Herle], "A Fuller Answer to a Treatise Written by Doctor Ferne" (1642), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:254 and 229.

99. Henry Ferne, "The Resolving of Conscience" (1642), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:198.

100. Heylyn, *Microcosmus* (1621 ed.), 189, and *Microcosmus* (1625 ed.), 525.

101. "The People's Right Briefly Asserted" (1649), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:362–68.

102. "A Declaration of the Parliament of England" (1649), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:380.

103. John Milton, "The Tenure of Kings and Magistrates" (1650), in *John Milton: Political Writings*, ed. Martin Dzelzainis (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), 10.

104. John Milton, "Commonplace Book," in *The Complete Prose Works of John Milton*, ed. Don Wolfe (New York: Columbia University Press, 1953–82), 1:362–513.

105. John Milton, "A Defence of the English People" (1658), in Dzelzainis, *John Milton: Political Writings*, 157.

106. John Milton, "The Readie and Easie Way to Establish a Free Commonwealth" (1660), in Malcolm, *Struggle for Sovereignty*, 1:518.

107. Robert J. Mayhew, *Enlightenment Geography: The Political Languages of British Geography, c. 1650–1850* (London: Macmillan, 2000).

108. R.P., *A Geographicall Description of the World* (London: John Streater, 1659), 3.

الفصل العاشر

الأفكار الجغرافية لدى إدمى منتل في عصر الثورة الفرنسية

ميشيل هفرنان Michael Heffernan

"في تلك الأوقات التي يجتاح فيها إعصار ثوري عظيم..
ثمة أيام تشعر فيها أرواح أناس عاديين بالارتقاء والسمو،
وتلقى ساعة تتجلى فيها بطولاتها".

كلود بيرو Claude Perroud، ١٨٩٦

يعتني هذا الفصل بحياة وأعمال جغرافي فرنسي بارز في الحقبة الثورية ألا وهو إدمي منتل (١٧٣٠-١٨١٥). ولا مفر من الاعتراف من أن منتل كان شخصية بسيطة في تاريخ الجغرافيا الأوروبية، فبالرغم من أعماله الشهيرة، يبدو أن معظم كتاباته الجغرافية عانت من تجاهل الأجيال التالية، فلم يميز نفسه بين الرحالة ولا المستكشفين. وبينما كان العلماء الآخرون في عصره يبحثون عن الشهرة والثروة والاعتراف بالمكانة العلمية من خلال مغامرات وراء البحار، ظل منتل ملازما للجغرافيا المكتبية. ويبدو أنه نادرا ما كان يخرج من محبوبته باريس.

وقد شعر مؤرخو الجغرافيا القلائل الذين تناولوا أعمال منتل بالحيرة تجاه أعماله هذه. ففى تقريره الرائع عن حياة منتل وأعماله خلص ليسلى مارشانت Leslie Marchant إلى قائمة طويلة من الأخطاء، والاستطرادات، وارتباك المفاهيم التى تنتشر فى كتبه[1]. كما بدا منتل بمثابة "الغول bête noire" فى المراجعة المسحية الجزئية التى أعدتها آن جودلفسكا Anne Goldlewska عن الجغرافيا الفرنسية من كاسينى(*) Cassini إلى همبولت(**)[2]، فطبقا لجودلفسكا، كانت كتابات منتل الجافة وأساليب تدريسه الجامدة مسئولة جزئيا عن "فقدان بوصلة الاتجاه والمكانة" الذى عانت منه خلال الثورة وما بعدها[3].

ويطرح هذا سؤالا واضحا: لماذا نهتم بهذا الفرد غير المهم فكريا؟ وبالتحديد، لماذا نستخدم منتل محورا لمناقشة تهدف إلى تناول تأثير الثورة الفرنسية على نظريات وتطبيقات الجغرافيا، بدرجة ما على الأقل؟ وتكمن الإجابة عن هذين السؤالين فى التباين المربك بين الانتقادات القوية التى أثارها مؤرخو الجغرافيا ضد منتل، والمكانة

(*) جوفانى ماريا كاسينى (1745-1824) Cassini: إيطالى عمل صانعا لمجسمات الكرة الأرضية، وجغرافيا ونحاتا وكارتوجرافيا. وكان عمله الكارتوجرافى الرئيس يتمثل فى "الأطلس الجديد لجغرافية العالم Nuovo Atalnte Geogrfico Universale " فى ١٧٩٢-١٨٠١. وفى ١٧٩٠ أنتج فى روما عمله الذى يضم ١٢ كرة أرضية، وضم معلومات حديثة عن كارتوجرافية: العالم بعد الرحلات الثلاث التى قام بها القبطان جيمس كوك حول العالم. (المترجم)

(**) ألكسندر فون همبولت Alexander von Humboldt (١٤ سبتمبر ١٧٦٩-٦ مايو ١٨٥٩): جغرافى بروسى، عالم طبيعة ومستكشف، وكان الأخ الأصغر للوزير والفيلسوف وعالم اللغة البروسى فيلهيلم فون همبولت (١٧٦٧-١٨٣٥). وقد أرسى عمل همبولت الكمى فى الجغرافيا النباتية أساس مجال الجغرافيا الأحيائية. وفيما بين ١٧٩٩ و١٨٠٤، سافر همبولت كثيرا إلى أمريكا اللاتينية، وكان يستكشفها ويصفها للمرة الأولى من منظور علمى حديث. وقد كتب ونشر وصفه للرحلة فى مجموعة هائلة من المجلدات على مدى أكثر من ٢١ سنة. وكان من أول من اقترحوا أن الأراضى التى تحد المحيط الأطلنطى كانت ملتحمة فى وقت ما (وخاصة أمريكا الجنوبية وأفريقيا). وبعد ذلك، حاول عمله المكون من خمسة مجلدات والمعروف باسم "الكون Cosmos" (١٨٤٥) أن يوحد فروع المعرفة العلمية المختلفة. وساند همبولت علماء آخرون وعمل معهم، ومنهم جوزيف لويس جاى لوساك، جيستوس فون ليبيج، لويس أجاسيز، ماتيو فونتين ماورى، جورج فون نويماير، وخاصة إيمى بونبلاند، حيث أجرى معه معظم استكشافه العلمى. (المترجم)

الملحوظة التى حققها وحافظ عليها طوال حياته. فبالرغم من انتقاداته كمفكر، فإنه كان ناجحا للغاية كأديب؛ إذ إنه لم يقتصر على كونه واحدا من أكثر الجغرافيين انتشارا فى عصره، بل كان أيضا يملك قدرة مذهلة على إعادة اكتشاف ذاته باستمرار حسب متطلبات المناخ السياسى، فخلال حياته الطويلة، كان يحصل على رعاية كريمة من مجموعة متنوعة من الشخصيات والقادة السياسيين فى ظل النظام القديم، والمراحل المختلفة للجمهورية، والإمبراطورية النابليونية الأولى. وعبر كل هذه الاضطرابات، كان منتل يحتفظ بمواقع بارزة فى المؤسسات العلمية الرائدة فى البلاد، بالرغم من إعادة الهيكلة المنتظمة والكاسحة التى كانت تتعرض لها هذه المؤسسات.

ويجب أن نؤكد على أن هذا الفصل "ليس" محاولة لإنقاذ منتل من الافتراء الذى هالته عليه الأجيال اللاحقة، ولا يمثل محاولة لاستعادة مكانته كجغرافى جدير بالذكر. ولكن الهدف يتمثل فى محاولة فهم كيف أن جغرافيا محدودا مثل منتل كان قادرا على شق مثل هذا الطريق بنجاح، بالرغم من كل أوجه الضعف الظاهرة فى أعماله، وخلال حقل ألغام المشهد السياسى الفرنسى بينما كانت البلاد تترنح بين الملكية والجمهورية والإمبراطورية. فعلى أحد المستويات، يمكن قراءة الرواية المطروحة لاحقا على أنها تعليق على سياسة الحياة العلمية خلال الثورة الفرنسية. وثمة هدف منهجى أوسع هنا، حيث تتمثل الحجة التى يقوم عليها هذا الفصل فى أن مؤرخى الجغرافيا يستطيعون الوصول إلى رؤى جديدة للطبيعة المتغيرة لمجالهم بالتطلع إلى ما وراء التمثيلات المتميزة لتخصصهم العلمى بصورة أكثر جلاء؛ إذ إن حياة وأعمال جغرافى غير متميز فكريا مثل منتل، والذى كانت شهرته واسعة مثل أى من معاصريه مع ذلك، لا بد أن تخبرنا بالكثير عن مكانة الجغرافيا فى الحياة السياسية والفكرية الفرنسية خلال الثورة، مقارنة بمسار بعض الشخصيات البارزة التى تخطت إنجازاتها سياقها التاريخى.

لقد تعرض المؤرخ الثقافى الأمريكى روبرت دارنتون Robert Darnton لما سماه "الأدب السرى the literary underground" للنظام القديم أى الأدب المشاغب والمروج

للفضائح فى "شارع جرب"(*)(٤). وقد أدى مذهب دارنتون إلى الاعتقاد بأن حياة الكتاب الصغار وأعمالهم يمكن أن تستخدم للتوصل إلى شىء مهم عن الأفكار العامة الكبرى، والتى تتمثل فى هذه الحالة فى الطبيعة المتغيرة للجغرافيا الفرنسية خلال الثورة، حيث يصر دارنتون على أن آلاف المذكرات المثيرة والجنسية غالبا، والتى أنتجها كتاب مغمورون فى الأيام الأخيرة للنظام القديم كانت مهمة لتدفق الأفكار التى انطلقت بعد ١٧٨٩ مثل البحوث الفلسفية الأكثر رقيا فى "الثقافة الرفيعة High Enlightenment"(٥).

وكما يوضح دارنتون أيضا، فإنه من الصعب جدا على أى حال التوصل إلى حد فاصل بين هذه الأشكال المختلفة للكتابة فى القرن الثامن عشر. فقد كان الكثيرون من هؤلاء الكتاب البائسين الساخطين الذين كانوا يتسكعون فى شارع جرب يوجدون أيضا ويزاحمون العظماء والمستقيمين فى الصالونات الأدبية الرائدة التى كانت تناقش القضايا الشائكة فى ذلك الوقت. وأظهر دارنتون فى الصورة الحية التى رسمها لباريس فى أواخر القرن الثامن عشر أن نفس الكاتب كان يمكن أن ينكب على كتابة مقالة فاضحة شبه جنسية فى الصباح، للحصول على مال سريع لإسكات الدائنين عادة، وذلك قبل أن يستقر بعد الظهر على الكتابة الجادة فى عمل كبير فى الاقتصاد السياسى(٦). وهناك عدد مدهش من هؤلاء الكتاب "أصحاب الجباه العالية والحياة الوضيعة" أصبحوا شخصيات رائدة فى الثورة: مثل جاك بيير بريسو دى وارفى Jacques-Pierre Brissot de Warville، الفيلسوف الذى أصبح ثوريا وقاد الجيروند(**)

(*) حتى أوائل القرن التاسع عشر، كان شارع جرب Grub أحد شوارع الأحياء الفقيرة فى لندن، وكان مشهورا بتركز "الكتاب الفاشلين" والشعراء المتطلعين، والناشرين البسطاء وبائعى الكتب، وكان شارع جرب يوجد على هوامش المشهد الصحفى والأدبى فى لندن. وكان يحفل بالمداخل الضيقة إلى الأزقة والأفنية، التى كان العديد منها يحتفظ بأسماء اللافتات القديمة. وكان مجتمعه البوهيمى يقع فى وسط المجاورات الفقيرة بمنازلها البسيطة منخفضة الإيجار، والمواخير، والمقاهى. (المترجم)

(**) كان الجيروند Girondists يمثلون فصيلا سياسيا فى فرنسا فى ١٧٩٢-١٧٩٣ فى الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطنى خلال الثورة الفرنسية. وكانوا يشنون حملة للقضاء على الملكية، ولكنهم قاوموا العزم المتصاعد للثورة، ودخلوا فى صراع مع "الطتلة البرلمانية المعروفة باسم المونتاين Montagnards" (وهم فصيل أكثر راديكالية فى نادى اليعاقبة). وأدى هذا الصرع فعليا إلى سقوط الجيروند وإعدامهم الجماعى، =

قبل إعدامه أثناء فترة حكم "الرعب"(*). ويقول دارنتون إن بريسو جمع بين مساره قبل ١٧٨٩ كمؤلف رسائل رفيعة المستوى فى الإصلاح الجنائى ونظرية القانون الجنائى، وحياة سرية كجاسوس للشرطة وكاتب مذكرات مجهولة المؤلف يزعم وجود فساد وفضائح فى بورصة باريس، حيث كان ذلك لصالح ممول سويسرى سدد الديون التى ألقت ببريسو فى السجن فى كل من باريس ولندن[٧]. وكما سنرى، فإن المسار غير المعتاد لإدمى منتل (الذى كان صديقا مقربا لبريسو وتبادل الرسائل معه) يشير إلى أن جدل دارنتون حول العلاقة المعقدة بين "الثقافة الرفيعة" و"الحياة الوضيعة" فى الأدب يمكن أن يكون مفيدا للمؤرخ الجغرافى، كما كان كذلك بالنسبة إلى المؤرخ الثقافى للثورة[٨].

جغرافية الثورة الفرنسية والجغرافيا فى الثورة الفرنسية

قبل تحليل مسار منتل، يجب أن نحدد موقع أعماله فى سياق الجغرافيا الفرنسية وقت الثورة. فكما رأينا، كان أفضل تقرير عن ""العلم الجغرافى" الفرنسى فى هذه الفترة – وهو عمل آن جودلفسكا "جغرافيا بلا حدود" – يرسم صورة كئيبة لتخصص أولى غير مؤكد يعانى أزمة هوية فى هدفه ومبادئه الرئيسة[٩]. حيث ترى جودلفسكا أن الجغرافيين الفرنسيين الرواد فى الفترة الثورية، خاصة منتل، ظلوا متمسكين بالنمط الوصفى العقيم فى البحث، ورفضوا عن قصد إمكانية التفسير أو الجدل النظرى، ومن ثم كانت الجغرافيا بهذا الشكل بمثابة عرض بسيط للحقائق البحتة غير المترابطة عادة للأماكن المختلفة، وكان معناها وتفسيرها يترك لدراسات التخصصات الأخرى.

= وبداية حكم الإرهاب. وكان الجيروند يشكلون مجموعة من الأفراد ذوى الانتماءات المختلفة، ولم يكونوا حزبا سياسيا منظما، وكان الاسم يطلق بصورة غير رسمية فى البداية، لأن معظم الشخصيات البارزة المؤيدة لوجهة نظرهم كانوا من النواب من جيروند فى جنوب غرب فرنسا، وأصبح الاسم معياريا مع تاريخ لامارتين فى ١٨٣٧. (المترجم)

(*) حكم الإرهاب (٥ سبتمبر ١٧٩٣–٢٨ يوليو ١٧٩٤)، ويعرف أيضا بحكم الرعب أو "الإرهاب" اختصارا، كان عبارة عن فترة عنف حدثت بعد بداية الثورة الفرنسية، وأثارها الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة: الجيروند واليعاقبة، وكانت تتميز بإعدامات جماعية "لأعداء الثورة"، ووصل عدد القتلى إلى عشرات الآلاف، حيث أعدم ١٦٥٩٤ بالمقصلة (٢٦٣٩ فى باريس)، و٢٥٠٠٠ آخرين فى بقية أنحاء فرنسا. (المترجم)

وتصر جودلفسكا على أن الضعف الفكرى للجغرافيا الفرنسية خلال تسعينيات القرن الثامن عشر كان مدهشا؛ لأن الظروف كانت مواتية جدا لتطور جغرافيا جديدة أكثر قوة، وكان يمكنها أن تجمع بين العلوم الإنسانية والطبيعية، حيث وفر التقدم السريع فى الأساليب الكارتوجرافية وظهور الأشكال العلمية الصريحة للاستكشاف خلال القرن الثامن عشر كميات غير مسبوقة من المعلومات، بالإضافة إلى خرائط دقيقة تغطى جزءًا كبيرا من الكرة الأرضية(١٠). وكان المعاصرون يدركون هذه الفرص جيدا: حيث أصر ديدييه روبرت دى فوجوندى Didier Robert de Vaugondy – فى مادة "الجغرافيا Geographie" فى دائرة معارف دينيس ديديرو Denis Diderot وجان لو رون دالمبرت Jean le Pond d'Alembert فى خمسينيات القرن الثامن عشر – على أن القرن الثامن عشر سيعتبر العصر الذهبى للجغرافيا الفرنسية(١١). ومع ذلك، وطبقا لجودلفسكا، فقد فشل التخصص فى تطوير لغة مناسبة لمهمة تفسير جبل الأدلة الجديدة المتراكمة؛ إذ إن قليلاً من المفكرين المهمين الحقيقيين الذين كانت استكشافاتهم وكتاباتهم تشق الطريق للأمام (مثل ألكسندر فون همبولت، وجان أنطونى لترونى، والكونت دى فولنى conte de Volney) تعرضوا لتجاهل معظم زملائهم بصورة مؤسفة(١٢).

وكان مؤرخون آخرون للجغرافيا الفرنسية خلال الحقبة الثورية أقل بصيرة، وبدون إبداء حماس كبير لإنجازات التخصص، حيث يوافق نوما بروك Numa Broc فى مراجعته الرائعة للعمل الذى يحمل عنوان "جغرافية الفلاسفة" على أن "الثورة تتميز بتباطؤ واضح فى البحث الجغرافى"، ويقدم تفسيرا بسيطا مفاده أن "المشاكل الداخلية، والحروب القارية، والفوضى البحرية، وضياع المستعمرات" أدت إلى قطع تدفق المعلومات الجديدة وتوقف الإحساس العام بالإثارة الذى كان يصاحب حقبة الاستكشاف السابقة، خاصة فى المحيط الهادى، ففيما بين الحملات السيئة الحظ فى أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر وأوائل تسعينيات القرن الثامن عشر، التى قام بها لابيروز laperouse ودينتريكاستو d'Entrecasteaux (حيث انطلق الثانى فى محاولة فاشلة للعثور على الأول) والاستكشافات اللاحقة فى أوائل القرن التاسع عشر، والتى قام بها بودان Baudin فى أستراليا وجنوب شرق آسيا وجزر الهند الشرقية، كان هناك

ما يسميه بروك "فراغ شبه كامل"[١٣]. وبينما كان يمكن أن توفر هذه الفجوة فرصة للجغرافيين "للبحث فى الأسس المنهجية لعلمهم"، فإن الصفحات القليلة التى خصصها بروك لجهودهم - فيما كان يمكن أن يكون مراجعة شاملة - تمثل شهادة بليغة على عدم قدرة التخصص على العمل على مستوى المفاهيم أو المستوى النظرى عندما حرم من المواد الخام الجديدة[١٤].

وتقدم دراسة مارتن شتاوم Martin Staum - الأكثر تركيزا للجغرافيا فى "فئات العلوم القانونية والسياسية" فى "المعهد القومى للعلوم والآداب" فيما بين ١٧٩٦ و١٨٠٣ - مراجعة أكثر سخاء لسجل مسار التخصص، ولكنه يستنتج أيضا أن الحقبة الثورية فشلت فى الحفاظ على تفوق فرنسا فى القرن الثامن عشر كمركز للاستكشاف الجغرافى. ويرى شتاوم أن "زمام الدراسات الجغرافية انتقل بصورة واضحة إلى العالم الناطق بالألمانية"[١٥] بحلول منتصف القرن التاسع عشر.

وما دام هذه التقييمات السلبية صحيحة، فإنها تشير إلى سخرية أخرى. فعلى أى حال، كانت الثورة بمثابة عملية جغرافية جوهرية، وربما كانت هى التى أطلقت الحوار حول الجغرافيات الجديدة الحقيقية والخيالية التى ظهرت بعد ١٧٨٩ بصورة منطقية. وكان هناك اعتقاد فى صميم المنهجية الثورية بأن الثورة مثلت انفصالا حادا عن الماضى، وبشرت بمفاهيم جديدة تماما للفضاء والزمان. ويلخص جول ميشيلى - مؤرخ القرن التاسع عشر الأكثر تعاطفا مع الثورة - المثل الثورية بصورة دقيقة بعد جيل عندما أصر على أن سنة ١٧٨٩ قد "أبادت" الجغرافيات والتواريخ القديمة، فكتب قائلا: "لم يعد هناك أى جبال أو أنهار أو حواجز بين البشر.... بل إن الزمان والفضاء اللذين يمثلان الظواهر الطبيعية التى تخضع لها الحياة لم يعودا موجودين"[١٦].

وبالنسبة للثوريين الذين كانوا يحاولون بناء نظامهم الجمهورى الجديد. كان هذا يعنى فرض اتجاهات جديدة على الزمن بالقوة، خاصة من خلال التقويم الجمهورى[١٧]، وإعادة تنظيم جغرافيات البلاد على كل النطاقات من المحلية إلى الوطنية، حيث درسوا بتوسع فى السنوات الأخيرة الفضاءات الثورية الجديدة التى شكلوها، مثل الجغرافيات

الإدارية المعدلة، والفضاءات العامة (وخاصة الدينية) التى أعادوا ترتيبها وتخصيصها للبلدات والمدن، والفضاءات المؤسسية الجديدة التى كونوها فى نفس هذه البلدات والمدن (ومنها المؤسسات التعليمية والعلمية)، والجغرافيات الصغيرة للبيئات الشخصية والعائلية التى تحققت السيطرة عليها حديثا[١٨]. وقد أظهر هذا البحث أن هذه الفضاءات الجديدة لم تكن مجرد منتجات للثورة، بل كانت أيضا بمثابة المواقع التى تشكلت فيها الثقافة السياسية الثورية، وتعرضت للتحديات، وأعيد تشكيلها بعد ١٧٨٩[١٩]. وكما لاحظت مونا أوزوف Mona Ozouf فى عملها الرائع عن الفضاءات العابرة للاحتفالات الثورية:

"ليس هناك نهاية لقائمة الاستعارات المكانية المرتبطة بفرنسا الجمهورية أو الثورية: فمنذ بداية الثورة ربط تشجيع محلى بين الحرية التى أعيد اكتشافها والفضاء المكانى الذى أعيد غزوه؛ إذ إن تحطيم البوابات، وعبور خنادق القلاع، والسير بحرية فى أماكن كان الدخول إليها ممنوعا يوما ما - والتى كان يجب فتحها واقتحامها - كان بمثابة الفرحة الأولى للثورة"[٢٠].

وعندما يفكر المرء فى التغيرات الجغرافية الملحوظة التى حدثت نتيجة للثورة، يجد أن الوصفات الجغرافية التى أنتجت فى ذلك الوقت، وكانت تبدو جامدة، والتى كان يرثيها مؤرخو الجغرافيا حقا، تبدو غير قابلة للتفسير فعلا، فقد كتبت هذه الوصفات فى خضم زلزال سياسى كان يغير جغرافية البلاد. ولكن حقيقة أن الثورة أزالت أيضا القيود الأخلاقية والدينية والسياسية - التى كان المؤلفون يعملون فى إطارها خلال النظام القديم - تجعل تردد الجغرافيين الفرنسيين لا يزال يبدو أمرا غريبا.

يقدم الفصل الذى بين أيدينا بعض التفسيرات لهذا التباين المدهش بين النص والسياق؛ حيث نتناول هنا أعمال إدمى منتل وحياته المعقدة فى محاولة لفهم العلاقة بين الجغرافيات الجديدة التى تشكلت من حيث النص والكارتوجرافيا خلال الثورة الفرنسية، والجغرافيات الجديدة التى ظهرت على الأرض؛ أى بين الأفكار الجغرافية فى الثورة الفرنسية وجغرافيات الثورة الفرنسية.

الجغرافيا ونهاية النظام القديم (إدمى منتل ١٧٦٠-١٧٨٩)

ولد إدمى منتل فى باريس فى ١١ أكتوبر ١٧٣٠ لأسرة برجوازية متماسكة. ولا يعرف الكثير عن حياته المبكرة. وتمتع أخوه الأصغر فرانسوا سيمون منتل بتعليم أكثر قيمة فى باريس، وذلك تحت توجيه فيليب بوشيه Philippe Bauche الجغرافى المقرب من الملك من ١٧٢٦ إلى ١٧٧٣. وكانت هذه بداية واعدة له كجغرافى مستقبلا، ما مهد الطريق لمساره كمساعد كارتوجرافى لسيزار فرانسوا كاسينى دى تورى (كاسينى الثالث) Cesar Francois Cassini de Thury (Cassini III) فى خمسينيات القرن الثامن عشر، وكمستكشف وفلكى فى جويانا الفرنسية حيث استقر هناك فى ١٧٦٣، ومات هناك أيضا عن عمر يناهز ٦٨ سنة فى ١٧٧٩[٢١].

ويبدو أن إدمى منتل قد تعلم بتكلفة أقل من أخيه فى بوفيه(*) على يد أستاذ البلاغة والتاريخ القديم، جان بابتست لويس كريفير Jean Baptiste Louis Crevier. ثم انطلق منتل فى مسار سيئ الحظ فى التجارة، قبل أن يحصل أخيرا على عمل كموظف حكومى صغير فى باريس. ولا يوجد فى سنوات منتل المبكرة ما يشير إلى مساره كجغرافى محترف، حيث كان يبدو أكثر اهتماما بالأدب والشعر عندما كان شابا، وكان منشوره الأول الذى طبع فى ١٧٥١ عبارة عن إعادة صياغة شعرية للملحمة التقليدية "موت بوليكتوس(**) La mort de Polieucte"، ثم تبع هذا

(*) بوفيه Beauvais: بلدة فى شمال فرنسا. (المترجم)

(**) القديس بوليكتوس Polyeuctus من ميلتين (مات فى ١٠ يناير ٢٥٩): قديس رومانى قديم. ويقول التراث المسيحى إنه كان ضابط جيش رومانى ثريًا استشهد فى ميلتين فى أرمينيا فى ظل حكم فالريان. وقد كتب سيميون ميتافريزيس أنه بدافع الغيرة من صديقه القديس نيركوس تحول بوليكتوس علانية إلى المسيحية. "ونتيجة لشعلة الحماسة، ذهب القديس بوليكتوس إلى ميدان المدينة ومزق مرسوم ديكيوس الذى يفرض على كل فرد عبادة الأصنام. وبعد ذلك بقليل، قابل موكبا يحمل ١٢ صنما عبر شوارع المدينة، فألقى الأصنام على الأرض وداسها بقدميه، فقامت السلطات بتعذيبه وتجاهلت دموع واحتجاجات زوجته باولينا وأطفاله وصهره فليكس، وقطعت رأسه. (المترجم)

أشعار قصيرة أخرى، ظهر اثنان منها على الأقل فى العمل الشهير "ميركور دو فرانس"(*)[٢٢].

وفى أواخر خمسينيات القرن الثامن عشر، وبينما كان منتل لا يزال يعمل موظفا فى وزارة المالية، حاول أن يجرب حظه ككاتب ساخر، حيث نشر خطابا يحمل اسما مستعارا إلى زائر أجنبى متخيل فى ١٧٥٧ يسخر فيه من الصحافة الدورية الفرنسية فى ذلك الوقت[٢٣]. ونشر بعد هذا مسرحية طويلة فى ١٧٥٨، "حين يحب بطل التحرير"، التى مثلت على مسرح بوردو، وكانت بمثابة مسرحية هزلية مفعمة بالحيوية تتضمن بعض الشخصيات المستهترة المألوفة: ابن غير شرعى لأرستقراطى محلى، وفتاة قروية جميلة، وكاهن ماكر، حيث انتهت مغامراتهم بارتباط سعيد بين البطل والبطلة.

وتقدم معالجة منتل الأقل إغراء للكاهن فى هذه المسرحية تفسيرا لرؤاه السياسية الظاهرة، حيث يبدو أنها تشكلت بتأثير مناهضة فولتير للكهنة، والتى كشفت عن نفسها بصورة أكثر صراحة فى عمل آخر لم يوقع عليه باسمه، وهو العمل المعنون "حقيبة جيليت la porte-feuille du R. F. Gillet"، حيث أثار السخرية من محاولات الكنيسة الكاثوليكية والملكية تعطيل نشر المجلدات المبكرة من "دائرة معارف ديديرو ودالمبرت" فى أواخر خمسينيات القرن الثامن عشر[٢٤]. وعرض منتل فى ملهاته سلسلة ساخرة

(*) ميركور دو فرانس Mercure de France: مجلة أدبية فرنسية نشرت فى القرن السابع عشر، وبعد عدة تحولات تطورت إلى ناشر، وهى الآن جزء من مجموعة نشر إيديسيون جاليمار Editions Gallimard. وقد نشرت هذه المجلة من ١٦٧٢ إلى ١٧٢٤ (مع انقطاع من ١٦٧٤ إلى ١٦٧٧) تحت عنوان ميركور جالانت Mercure galant/gallant، ثم تغير الاسم إلى ميركور دو فرانس فى ١٧٢٤. وتعرضت المجلة للاضطهاد (تحت حكم نابليون) من ١٨١١ إلى ١٨١٥ وتوقفت عن النشر فى ١٨٢٥. وظهر الاسم مجددا فى ١٨٩٠ على غلاف مجلة أدبية وفى (١٨٩٤) لدار نشر كانت ترتبط مبدئيا بالحركة الرمزية. ومنذ ١٩٩٥، أصبحت جزءاً من مجموعة نشر إيديسيون جاليمار. ويجب ألا نخلط بين هذه المجلة ومجلة ميركور القرن التاسع عشر Mercure du XIXe siècle (1823-30). (المترجم)

وفجة نوعا ما من التعريفات "الجديدة" كمدخل إلى شعر بطولى ساخر عن سقوط راهب يسوعى فى الجحيم، ولكنه وقع عقدا مع بلوتو إله الجحيم ليعود إلى الأرض لمواصلة السير فى طريق الأشرار. وظهر شعر منتل بعد سنتين من ظهور عمل مؤلف مغمور يتناول طائفة الجزويت ويحمل عنوان "d'Alembert's Sur la destruction des Jesuite en France" (١٧٦٥)، وبعد خمس سنوات من طرد طائفة الجزويت من البلاد، ولذلك لم يكن هدفه أصيلا ولا مثيرا للجدل[٢٥]. ولكنه على عكس النقاد الكاثوليك للجزويت، والذين كانوا مسئولين عن إبعاد الطائفة من فرنسا، كان منتل يرى بوضوح أن التراث الجزويتى كان بمثابة ظاهرة خطيرة لمرض كاثوليكى أوسع.

وفى ضوء هذه البداية الأقل خصوبة فى عالم الأدب، يبدو من الصعب العثور على تفسير لقرار منتل تأليف كتاب دراسى فى الجغرافيا بينما كان يجرب الأشكال الأخرى من الكتابة، بالرغم من أنه من المؤكد أنه تأثر كثيرا بعمل أخيه الأصغر الكارتوجرافى فى مسح فرنسا مع كاسينى الثالث. وكان كتاب منتل "مبادئ الجغرافيا" الذى ظهر فى ١٧٥٨ نصا بسيطا ينقسم إلى جزأين، حيث كان الجزء الأول يحتوى على حقائق عن "القارات" الأربع: أوروبا ، والأمريكتين، وأفريقيا، وآسيا؛ بينما كان الثانى يحتوى نفس التفاصيل ولكن عن فرنسا ذاتها؛ وكان للكتاب كله تقديم يحتوى على ملاحظات تمهيدية عن الحاجة إلى الانتقال من العام إلى الخاص. ولم يكن لظاهر هذا الكتاب الدراسى الحميد علاقة قوية بالأفكار الحادة المناهضة للكهنوت (والمناهضة للجزويت بصفة خاصة) والتى كشف عنها منتل فى كتاباته الأخرى، ولكنه ربما تأثر بالرغبة فى تحدى هيمنة أساليب التعليم الكاثوليكية، والجزويت بصفة خاصة.

وطبقا لمارسيل جراندير Marcel Grandiere، يمكن تقسيم التعليم الفرنسى فى القرن الثامن عشر إلى ثلاث فترات: من ١٧١٥-١٧٤٦، عندما كانت أساليب التعليم الكاثوليكية تمارس احتكارا فعليا؛ ومن ١٧٤٦-١٧٦٢، عندما قامت أفكار بديلة أكثر علمانية بلعب دورٍ أكبر؛ ثم من ١٧٦٢-١٧٨٨، عندما أدى البحث الذى كتبه جان جاك

روسو عن التعليم ويحمل عنوان "إيملى[*] Emile" إلى إعادة صياغة كل الحوار التعليمى وفتح الطريق لتعليم وطنى صريح يستبق التطورات فى ظل الثورة[٢٦].

وظهر كتاب منتل المتواضع بينما كان الاحتكار التعليمى للكنيسة يواجه تحديا للمرة الأولى، وربما كانت لهجته العلمانية المتميزة تعكس هذه الحقيقة. فمن المؤكد أنه كتب بينما كان الصدام بين "الفلاسفة" والكنيسة حول طبيعة ومضمون " دائرة معارف ديديرو ودالمبرت" قد وصل إلى ذروته. وكما رأينا، فقد أثر هذا الصراع مباشرة على أعمال منتل الساخرة، ويمكن أن يكون نفس هذا الموضوع قد أثر على قراره بوضع كتاب فى الجغرافيا يمكن أن يكون بديلا متواضعا للأعمال المستخدمة فى المدارس الكاثوليكية[٢٧]. حيث كانت الجغرافيا تدرس فى هذه المؤسسات دليلا على النظام الإلهى، وكموضوع عملى عام يبرز توسع الإيمان. وكانت الجغرافيا فى رؤية منتل التفصيلية بمثابة أسلوب نصى وكارتوجرافى مباشر لتوصيل حقائق علمانية راسخة عن العالم. أما فى الرؤية العالمية الكاثوليكية، فقد كانت هذه دراسة تضفى الشرعية على دور الكنيسة وتحافظ عليه؛ ومن منظور منتل المتأثر بفولتير، كانت دراسة الجغرافيا تشكك ضمنا فى دور الكنيسة، وذلك دون أن تتحدى فكرة الكون الذى خلقه الرب صراحة.

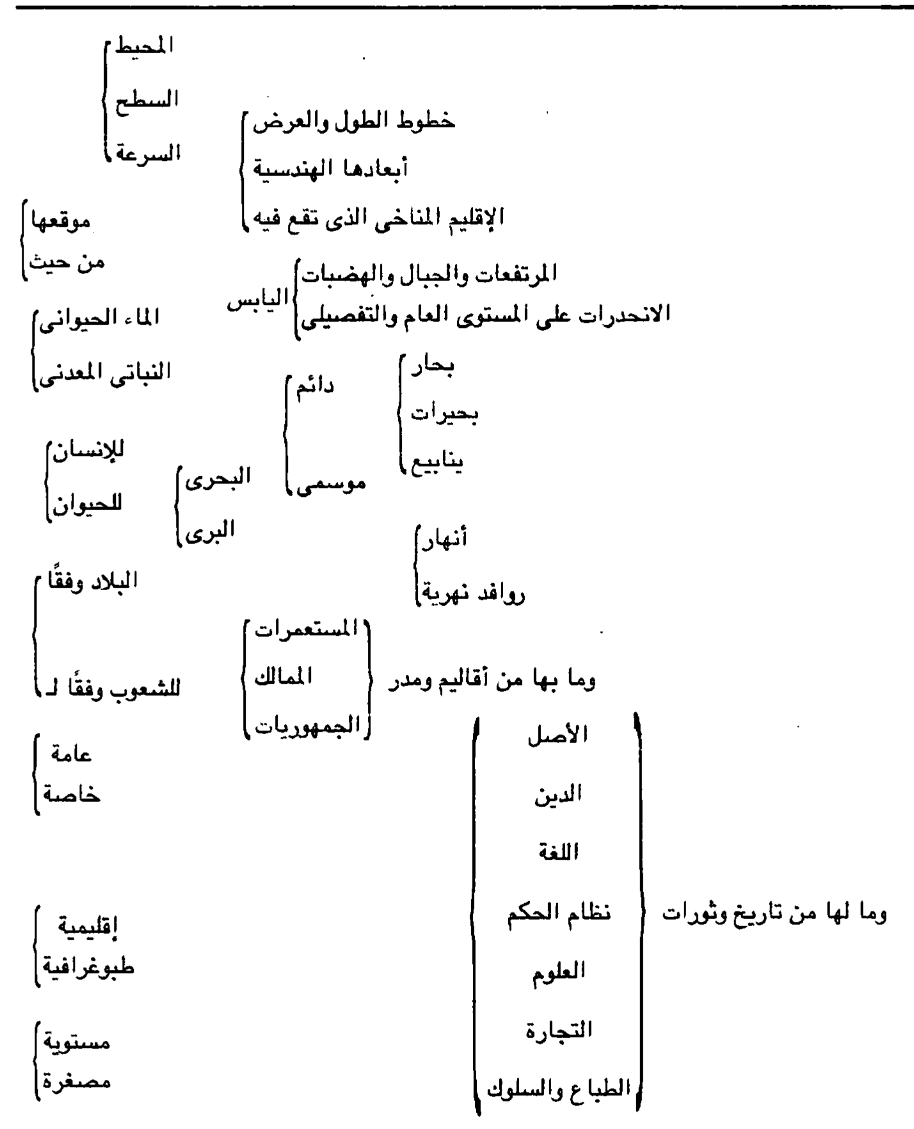
وربما كان كتاب منتل هو السبب وراء تعيينه فى ١٧٦٠ لتدريس الجغرافيا والتاريخ فى "المدرسة الملكية العسكرية"، وهى مؤسسة تدريب الضباط التى تأسست فى باريس، والتى تخرج فيها الشاب نابليون بونابرت لاحقا. ولا تزال كيفية تعيين منتل

(*) رسالة إيملى أو "رسالة فى التعليم" Emile, or On Education: رسالة عن طبيعة التعليم وطبيعة الإنسان كتبها جان جاك روسو، التى قال عنها إنها "أفضل وأهم كتاباتى كلها". وبسبب جزء من هذا الكتاب بعنوان "مهنة الإيمان للنائب سافوا Profession of the Savoyard Vicar"، حظر العمل فى باريس وجنيف وحرق علانية فى ١٧٦٢، وهى سنة نشره الأولى. وخلال الثورة الفرنسية، كان هذا العمل ملهما لما أصبح بمثابة نظام تعليم وطنى جديد. (المترجم)

غير واضحة، ولكن الأستاذ الشاب الطموح اقتنص الفرصة، وألقى سلسلة من المحاضرات على الطلاب الضباط. وتم تدريس الجغرافيا والتاريخ في المدرسة العسكرية منذ بدايتها، ولكن كبرامج مختلفة[٢٨]. غير أن منتل جمع بينهما في سلسلة من الروايات الجغرافية التاريخية حول الحروب والسياسة وصعود الحضارات وسقوطها، مع ضرب أمثلة مستمدة من العالم التقليدى أساسا[٢٩]. وتطورت هذه الأفكار في عمل منتل الأول خلال وجوده في المدرسة العسكرية، والمعنون "دليل جغرافى وزمنى وتاريخى" الذى كان مصحوبا بخرائط جيدة عديدة. وقد أهدى منتل هذا المجلد إلى الآنسة دى فتس جيمس Mlle de Fitzjames، حفيدة دوق برونسفيك Duke of Brunswick الإنجليزى الأيرلندى، الذى أسس أسرة عسكرية أصبحت مهمة في خدمة فرنسا بحلول منتصف القرن الثامن عشر[٣٠].

ونظرا لاستقرار منتل في منصبه، فقد أنتج مجلدا تلو الآخر من كتب الجغرافيا والتاريخ الدراسية للاستخدام في المدارس الثانوية والكليات طوال ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى العشرات من الخرائط والأطالس الجديدة[٣١]. وكان العديد من هذه الأعمال متعدد المجلدات، وكانت تنشر على نفقة منتل الخاصة، بالرغم من أن ذلك لم يكن بصورة غير ربحية، إذا كان عدد مرات إعادة الطبع يمكن أن يتخذ دليلا. ويبدو أن أكثر عناوينه نجاحا قبل الثورة كان: "مبادئ التاريخ الرومانى" (١٧٦٦، وقد أعيد إصداره في مجلدين في ١٧٧٣-١٧٧٤)، و"أسس الكوزموجرافيا" (١٧٨١، وأعيد إصداره في ١٧٨٢، ١٧٩٥، ١٧٩٨-١٧٩٩)، بالرغم من أن إسهامه المكون من ثلاثة مجلدات "جغرافية الماضى" لصالح "الموسوعة المنهجية" (١٧٨٧-١٧٩٢) التى أعدها تشارلز جوزيف بانكوك، والمجلدات الثلاثة المرتبطة بها من عمله "قاموس الجغرافيا الحديثة" (١٧٨٤-١٧٨٩) لنفس الناشر، ربما كانت أكثر أعماله شهرة[٣٢].

مخطط عام لمختلف

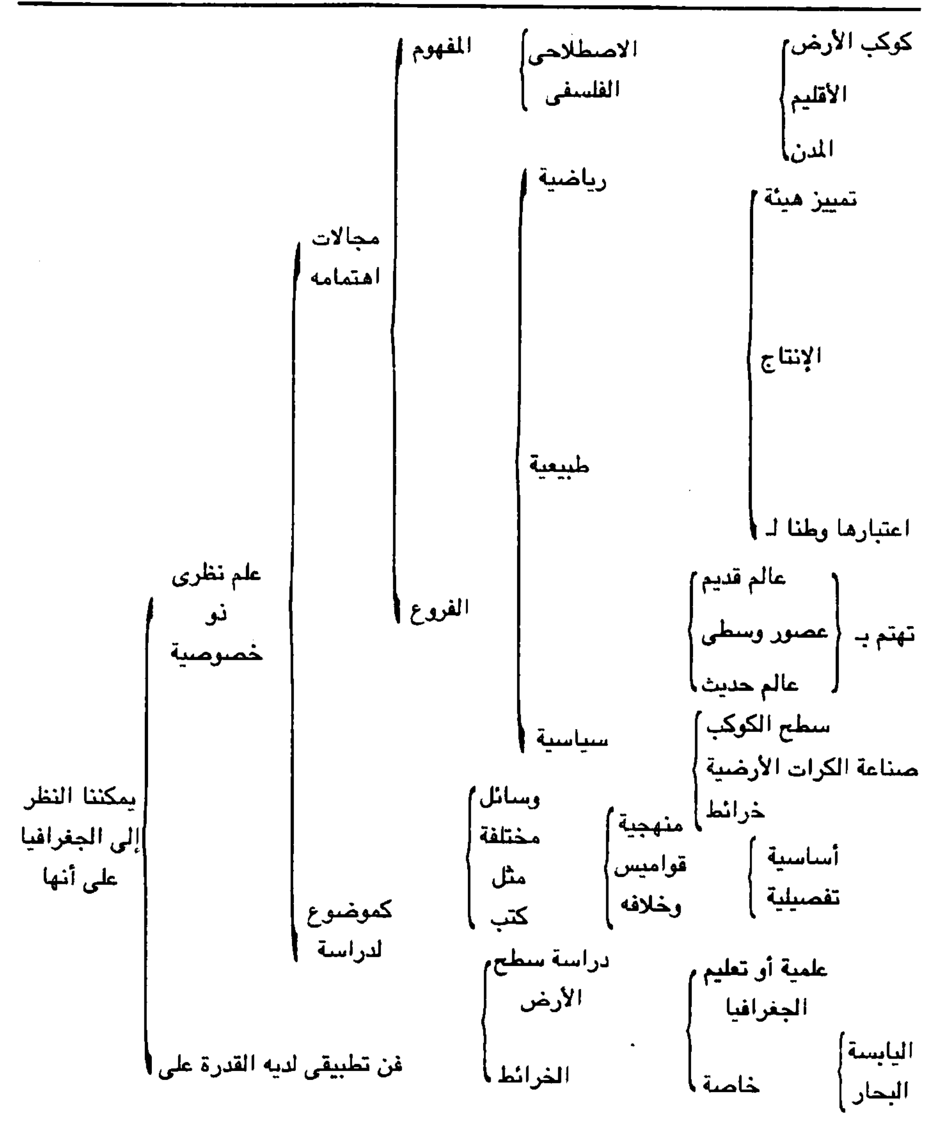


شكل (١٠-١): تصنيف منتل

المصدر: Edme Mentelle, Encyclopédie méthodique

وينشر هنا بتصريح

العلاقات المرتبطة بالجغرافيا



للمعرفة الجغرافية – ١٧٨٧
(Paris: Panckoucke)
من المكتبة البريطانية

ويكشف الشكل الذى أعده منتل لتوضيح المجالات المختلفة للمعرفة الجغرافية فى نهاية "إعلانه" فى المجلد الأول من "جغرافية الماضى" عن الاتجاه المركب بدقة الذى طوره أثناء تدريسه، بالرغم من أنه يجب التركيز على أن كتاباته الخاصة نادرا ما كانت تنظم كما يتطلب هذا الشكل (شكل ١٠-١). ويمكن أن نعتبر أن رغبة منتل فى وضع "خريطة" تفريع للمجالات التى تغطيها الجغرافيا تتضمن أن اهتمام النهضة الفرنسية "بالأسلوب" المنهجى حافظ على بعض التأثير على الممارسة التعليمية التنويرية[٣٣]. وربما كانت حقيقة أن الإيمان "بالأسلوب" - باعتباره الطريقة الوحيدة لتوصيل المعلومات غير المحدودة - قد تشكلت فى المعارك المبكرة بين التقليد الكاثوليكى والأرسطى والنقد البروتستانتى الصاعد، تتوافق مع مناهضة الكهنوت التى أصبحت واضحة الآن لدى منتل[٣٤]. وبناء على هذا، فإن تصنيفات المجالات الجغرافية التى نشرها منتل مرارا تعكس أيضا اهتماما شديدا فى القرن الثامن عشر بنظم التصنيف، والذى يتكشف بصورة واضحة فى "دائرة معارف ديديرو ودالمبرت" وفى نظم تصنيف كارولوس لينيوس Carolus Linnaeus وغيره من العلماء الطبيعيين.

واستمرت أنشطة منتل فى المدرسة العسكرية بصورة سلمية حتى ارتقاء لويس السادس عشر للعرش فى ١٧٧٤، حيث قام منتل بالتدريس للأخ الأصغر للملك، كونت دارتوا comte d'Artois، فى المدرسة العسكرية، وأصبح هذا الأرستقراطى الشاب المراوغ الراعى غير المتوقع نوعا ما للجغرافى الرصين. وبحلول ١٧٧٨، عُين منتل فى منصب مرموق تماما كجغرافى تاريخى رسمى لدى دارتوا[٣٥]. وفى ظل رعاية الكونت، تمكن منتل من الدخول إلى مجتمع البلاط، حيث قام بدور رائد فى التعليم الجغرافى للأسرة الملكية خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر، وذلك مع جان نيكولا بوشيه دى لا نوفيل، الذى عين مؤخرا جغرافيا لدى الملك. وكان دور منتل كمعلم جغرافيا لدى الأسرة الملكية مهما. وكان فيليب بوشيه، الجغرافى الذى عمل لفترة طويلة لدى الملك طوال العقود الوسطى من القرن الثامن عشر، وهو عم بوشيه دى نوفيل المذكور سلفا، قد وضع نظاما تربويا للأمراء الصغار بناء على أسس دقيقة فى الجغرافيا، فقد كان بوشيه يرى أن: "الجغرافيا فى الأساس عبارة عن الدراسة التى تحتوى على معظم الأفكار التى يستخدمها الملوك والأمراء العظام"[٣٦].

وكان الإسهام الأكثر استمرارا لمنتل فى التعليم الجغرافى للأسرة الملكية فى ثمانينيات القرن الثامن عشر يتمثل فى مجسم الكرة الأرضية الشهير الذى صممه لتعليم الابن البكر للملك فرنسا، لويس جوزيف، وهو بمثابة بعض الحقائق الجغرافية الأساسية. فبناء على اقتراح منتل، وجه الملك أوامره إلى المهندس جان توبى مركلين بإعداد مجسم جديد للكرة الأرضية فى مارس ١٧٨٦. وكان التصميم الأصلى الذى اقترحه منتل يتصور مجسما قطره ١,٥ متراً، به ثلاث طبقات مغلفة، حيث تتكون كل طبقة من أجزاء متداخلة قابلة للإزاحة مثل أحجية الصورة المقطعة. وكان الغلاف الخارجى يعرض ببساطة الملامح الطبيعية للأرض، ويمكن تفكيكه ليكشف الغلاف الثانى تحته موضحا الجغرافيا السياسية للعالم فى الحقبة الكلاسيكية، والذى يمكن إزالته بدوره ليكشف غلافا ثالثا يعرض الجغرافيا السياسية للعالم فى أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر. وكانت هذه النسخة المزخرفة بسخاء لهذا المجسم الذى قدم للملك فعليا فى ١٧٨٨ تمثل تعديلا لفكرة منتل الأصلية، وهى لا تزال موجودة فى متحف قلعة فرساى. ويرتكز مجسم منتل على قاعدة صلبة منقوشة بالذهب، ويدعمه أجسام ثلاثة دلافين مقوسة متجهة لأعلى. ويعمل عن طريق رفع النصف العلوى من المجسم الخارجى، والذى يصور الجغرافيا السياسية للعالم فى ثمانينيات القرن الثامن عشر، وهو يستند إلى أربعة قوائم حديدية، ما يكشف المجسم الداخلى، ويظهر الجغرافيا الطبيعية للأرض. وحصل مركلين فى مقابل هذا العمل على مبلغ سخى قدره ٨٠٠٠ جنيه إنجليزى، وهو أقل مما كان يدفع لمنتل بأربعة آلاف جنيه إنجليزى تقريبا. ولكن المؤسف أن الأمير الصغير مات بعد بضعة أشهر من وصول هذا الكنز الثمين، فى يونيو ١٧٨٩، فى عمر الثامنة[٣٧].

رغم معارضة منتل للكهنوت، فإنه يبدو أنه كان خادما مواليا للتاج، بالرغم من وجود إشارات إلى أن رؤاه السياسية كانت تتغير من خلال العلاقات الجديدة التى كان يقيمها مع المفكرين ذوى العقلية الإصلاحية فى السنوات الأخيرة للنظام القديم. وكان من أبرز رفاقه الجدد الملهمين الكونت دى ميرابو comte de Mirabeau، المعارض القوى للملكية الفرنسية غير الإصلاحية، والذى كان يدعو بقوة إلى نظام دستورى على النمط الإنجليزى فى الحقبة الثورية المبكرة[٣٨]. حيث التقى الرجلان فى منتصف ثمانينيات القرن الثامن عشر، وذلك قبل انطلاق ميرابو فى جولة فى بروسيا

فى ١٧٨٦ بقليل، وذلك كفرد عادى فى الظاهر، ولكنه فى الحقيقة ذهب بأوامر من السلطات فى فرساى من أجل التوصل إلى تحالف مع بروسيا لمواجهة التحالف النمساوى الروسى الجديد، وقد دفعت هذه الرحلة بمنتل إلى الجدل، ولكنها دفعته أيضا إلى دائرة المفكرين الراديكاليين المرتبطين بميرابو.

وقدر لمهمة ميرابو فى برلين – التى كان يجب أن تظل سرا على مضيفيه البروسيين – أن تقنع مستشارى بلاط فريديرك الكبير، الذى مات بعد وصوله بفترة قصيرة للأسف، ومستشارى خلفه فريديرك ويليام. وبينما كان ميرابو فى برلين، كتب ٦٦ تقريرا سريا، من يوليو ١٧٨٦ إلى يناير ١٧٨٨، وكان العديد منها يتناول فضائح ومؤامرات البلاط البروسى الذى وقع تحت تأثير مجموعة سرية من المتنورين المرتبطين بفريديرك ويليام ذى الطباع الساذجة(٣٩). واعتمد ميرابو على تجربته فى برلين لإنتاج تقرير من سبعة مجلدات عن الأوضاع الجغرافية والاقتصادية والسياسية فى بروسيا، وذلك بمساعدة منتل وجاكوب موفيلون، الاقتصادى الليبرالى والمختص الاستراتيجى العسكرى(٤٠). وكان هذا العمل مصحوبا بأطلس كبير الحجم، يحتوى على عشر خرائط مطوية، أعدها كلها منتل، وعشرات من الجداول الإحصائية والأشكال للقوات المسلحة البروسية، معظمها من عمل موفى Mauville. وساعد منتل ميرابو أيضا فى الوصف الجغرافى المطول للأقاليم البروسية فى وسط أوروبا والتى ظهرت فى المجلدين الأول والثانى من النص الرئيس(٤١).

وأضاف ارتباط منتل المهنى بميرابو الواسع الشهرة إلى تعزيز مكانة منتل، بالرغم من الجدل الذى اندلع لاحقا بعد كشف الغرض الحقيقى من بعثة ميرابو إلى برلين. فخلال حملته العاصفة فى ١٧٨٨ للعثور على طبقة اجتماعية يمكن انتخابه من خلالها فى المجلس العام للطبقات Estates General كممثل للنبلاء، منح ميرابو تصريحا لدار نشر فى لندن لإصدار التقارير غير المنقحة التى أرسلها من برلين إلى باريس. وأثار العمل الذى ظهر فى مجلدين – وصاحبه خطاب وقح جدا كتبه ميرابو إلى فريديرك ويليام فى يوم تتويجه – عاصفة من الجدل أثرت على العديد من المتعاونين معه ومنهم منتل(٤٢). وبالرغم من هذه الانتكاسة، فقد انتخب ميرابو فى ذلك المجلس،

بالرغم من أنه كان ممثلا للطبقة الثالثة(*) عن إمارة إكس إن بروفنس Aix-en Province، لا باعتباره نبيلا فى حد ذاته.

ودعمت أعمال منتل الخاصة ثقته السياسية الجديدة التى نتجت عن ارتباطه بميرابو. وفى عشية الثورة، أصبحت شقة منتل المتواضعة على طريق نهر السين - حيث كان يحتفظ بمكتبته ومجموعة خاصة كبيرة من الخرائط ومجسمات الكرة الأرضية - نقطة تجمع مهمة لجغرافيين باريزين آخرين، خاصة جان بابتست بورجويجنو دانفى، وبوش دى نيفى، بالإضافة إلى علماء باريزين مثل بيير سيمون لابلاس، وجوزيف لويس لاجانج، وأنتونى لوران دى لافوازييه، وجاسبارد مونج(٤٣). وربما كان جان بابتست بريسو دى وارفى، الصحفى الليبرالى الذى سبق ذكره، يمثل أهم زائر سياسى "للصالون الجغرافى" لمنتل، حيث كانت أحدث أنشطته تركز على الجمعية الفرنسية المناهضة للرق المعروفة باسم "جمعية أصدقاء السود Société des Amis des Noirs" التى أسسها فى فبراير ١٧٨٨. ولا يظهر اسم منتل مع أسماء كوندورسيه Condorcet، وميرابو، ودوق روشفوكو، و١٣٠ من الأعضاء الأصليين الآخرين فى جمعية أصدقاء السود، ولكن هناك دليلا واضحا على أن بريسو اعتمد على الخبرة الجغرافية فى إثارة القضية ضد تجارة الرقيق التى يسيطر عليها الفرنسيون(٤٤). ولذلك يبدو معقولا أن نفترض من هذا أن منتل كان يشترك على الأقل فى بعض الرؤى الليبرالية والجمهورية لدى بريسو،

(*) الطبقة الثالثة Third Estate (الطبقة العامة états généraux): جمعية تشريعية تضم ممثلين عن مختلف شرائح الجمهور العام الفرنسى أثناء حكم النظام السابق على الثورة الفرنسية. كان لكل طبقة من الطبقات الثلاث فى المجتمع الفرنسى (رجال الدين - النبلاء - الطبقة العامة) جمعية منفصلة تعقد وتُحل بواسطة الملك، لم يكن لها سلطة حقيقية قائمة بذاتها مثلما كان للبرلمان الإنجليزى، بل كانت هيئة استشارية للملك الفرنسى، مهمتها عرض الالتماسات من مختلف الفئات الاجتماعية وتقوم بالتشاور حول السياسة المالية. استمرت الطبقة العامة فى الاجتماع بشكل متقطع حتى عام ١٦١٤، ونادرًا ما اجتمعت مرة أخرى بعد ذلك، ولكن لم يتم حلها بشكل نهائى إلا بعد الثورة الفرنسية. وتتشابه الطبقة العامة إلى حد كبير مع مؤسسات أخرى فى أنحاء أوروبا مثل الطبقات العامة فى كل من هولندا، والبرلمان فى إنجلترا، وبرلمان الملكيات فى أسكتلندا، والكورتس فى إسبانيا، والدايت Diet فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدايت فى الملكيات التاريخية فى ألمانيا. (المترجم)

ومن المؤكد أن هذا الصحفى كان يقدر كثيرا مساعدات ونصائح ذلك الجغرافى. حيث تحدث بريسو بترحيب فى "مذكراته" عن مساعدات صديقه المعلم والباحث، بل إنه طلب من منتل أن يكون آبا روحيا لأحد أبنائه(٤٥).

الجغرافيا والثورة والإمبراطورية: إدمى منتل، ١٧٨٩-١٨١٥

اندلعت الثورة الفرنسية وسقط سجن الباستيل قبل عيد ميلاد منتل التاسع والخمسين ببضعة أشهر. واستمر منتل فى التدريس بكثافة كما كان قبل طوال الشهور الأولى غير المستقرة من الثورة، بينما كان أعضاء آخرون من أسرته الصغيرة، ومنهم ابنه، يفكرون فى الهجرة واستقروا على ما توصلوا إليه. وأجرى راعى منتل، كونت دارتوا، حسابات مماثلة لأسباب أكثر إلحاحا. ولم تكن لدى منتل نية لترك مدينته، نظرا لشعوره بالأمان لمعرفة أن صديقه ميرابو كان فى قلب صناعة القرار الوطنى. ولكن بحلول ربيع ١٧٩١، كان ميرابو قد مات، حيث قضى فى عسر مبكر فى الثانية والأربعين، إذ كان يعانى من اعتلال صحته بمرض مزمن ومن المناورات السياسية التى لا تنتهى، والتي ضمنت في الواقع رئاسته للجمعية الوطنية(٤٦). وعندما حرم منتل من حليفه داخل الحكومة، ولم يعد محميا براعٍ ملكى قوى، يبدو أنه قرر أن مصالحه كانت تقتضى استعراض أوراق اعتماده لدى الليبرالية الجمهورية علنا(٤٧).

وقد أخذ هذا شكل خطاب إلى سلطات مدينة باريس، نشر فى ١٧٩١ كمذكرة من سبع صفحات بعنوان "رسالة من مواطن وكاتب لبلدية باريس من أجل حرية الصحافة". وكانت رسالة منتل التى تحمل كل مؤثرات ميرابو بمثابة دعوة مصاغة بعناية إلى الاستمرار فى السياسة الليبرالية لحرية الصحافة، والمنصوص عليها فى المادة ١١ من "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، التى نادت بحرية التعبير الكاملة فى ١٧٨٩، ويبدو أن هذه المذكرة كانت مدفوعة بالقرار الذى صدر فى أواخر ١٧٩١ بإغلاق صحيفة جان بول مارات الراديكالية والتى كانت تحمل عنوان "صديق الشعب L'Ami du Peuple"، والمحاولات السيئة للحد من عدد "الباعة الجائلين" الذين يبيعون أشكال الأدب الأكثر شعبية فى شوارع المدينة(٤٨).

ولم تحقق رسالة منتل المهمة بالنسبة له شيئا ملموسا، ولكنها حققت هدفا أوسع يتمثل في إظهار التزام كاتبها بالمثل الثورية[٤٩]. وبحلول نهاية ١٧٩١، كان منتل مرتبطا جدا بمجموعة النواب والصحفيين والمفكرين الجمهوريين الراديكاليين الذين كتبوا لصحيفة بريسو، "الوطني الفرنسي Le Patriot Français"، وكانت هذه المجموعة التي كان يطلق عليها "البريسوتيون Brissotins" (احتقارا لا تعاطفا) تضم عمدة باريس المعين حديثا جيروم بيتيون Jerome Petion، والعالم والكاتب الليبرالي كوندورسيه Condorcet[٥٠]. حيث كان هؤلاء البريسوتيون يجتمعون بانتظام في صالون جان مارى رولان دى لا بلاتيير Jean-Marie Roland de la Platiere وزوجه الرائعة مانون جين فليبو Manon Jeane Phlipon، في شارع جينيجو Guenegaud، حيث حظى منتل هناك بترحيب حار؛ نتيجة صداقته مع القائد المختار للمجموعة[٥١].

وكانت أسرة رولان قد انتقلت حديثا من ليون إلى باريس على نفقة بريسو الذى كان متأثرا بالمقالات التى ظهرت باسم رولان فى صحيفة "كوريه ليون Courrier de Lyon". وكانت السيدة رولان تكتب معظم هذه الأعمال، وكان زوجها يوقعها فقط، حيث كان اقتصاديا ومفتشًا صناعيًا[٥٢].

وكان صالون رولان - الذى رحب مبدئيا بروبسبيير Robespierre الذى أصبح عدوا قاتلا للمجموعة لاحقا - يوفر منصة انطلاق لسعى رولان للسيطرة على وزارة الداخلية، التى كانت مفروضة فعلا على ملك محاصر ورافض فى مارس ١٧٩٢. وطوال السنة التالية، كان بريسو ورولان ومؤيدوهم فى الصحافة والمجلس التشريعى من أكثر الأنصار المتحمسين للهجوم الراديكالى على السلطات الملكية الباقية والسياسة العدوانية، وللتوسع الجمهورى فى الخارج، حيث تصاعد الجانب الأخير من تصميمهم مع إعلان فرنسا الحرب على النمسا فى ١٧٩٢.

ويصعب اعتبار منتل شخصية بارزة فى صفوف البريسوتيين، ولكنه كان وثيق الصلة بالمثل التى كانوا يعتنقونها، وتتضح هذه الحقيقة من علاقته القوية مع بريسو والسيدة رولان، حيث كان يتراسل معهما مباشرة[٥٣]. ومن المؤكد أن منتل استفاد من

كرم أسرة رولان. وبالرغم من أنه كان ولا يزال يعمل لدى المدرسة العسكرية رسميا، فالثورة أثارت شكوكا خطيرة حول مستقبل هذه الأكاديمية، إذ إن "المؤتمر الوطنى National Convention" (الذى تأسس فى ١٧٩٢ بعد الإطاحة بالملكية) أغلق هذه المؤسسة لاحقا. وأتاح رولان - الذى كان يسيطر على القصور الملكية السابقة بسلطته كوزير للداخلية - جناحا من عدة غرف فى اللوفر للسماح لمنتل لمواصلة دعوته، بالإضافة إلى فنانين وكتاب آخرين، باعتباره "أستاذا فى الجغرافيا"(٥٤). وفى المقابل، كان مطلوبا من منتل أن يدرس للكبار والصغار على السواء الجغرافيات الجمهورية الجديدة التى حاولت الثورة تكوينها باستخدام الخرائط والكتب والمعدات من مكاتبه فى المدرسة العسكرية، بالإضافة إلى المواد التى جمعت من القصور الملكية، بما فيها مجسم الكرة الأرضية الذى صمم من أجل الابن الأكبر لملك فرنسا قبل ذلك ببضع سنوات(٥٥).

ولا يمكن معرفة طبيعة الدروس التى ألقاها منتل من مكاتبه فى اللوفر، ولكن لا يحتمل أن يكون قد غير بصورة راديكالية الأساليب التى ساعدته كثيرا فى الماضى والتى استخدمها فى تعييناته اللاحقة. ولكن الظروف المتغيرة تطلبت شكلا جديدا من الكتابات الجغرافية، وكان منتل يميل إلى الالتزام بالكتابة بنفسه. وظهر أول عمل جغرافى جمهورى صريح له "كمواطن مؤلف" فى وقت مبكر فى ١٧٩١ بعنوان "طريقة مختصرة وسهلة لتعلم واستبقاء الجغرافيا الجديدة لفرنسا بدون صعوبات". وكان هذا العمل مصمما لتعليم الأطفال الأعلام و"المدن" والحدود فى "المناطق" الفرنسية المكونة حديثا. وظهر بعد ذلك كتابان فى ١٧٩٢، "عرض عام لجغرافية الجمهورية الفرنسية" و"عرض تحليلى للتقسيم الاقتصادى السياسى الجديد"، والذى كان يتناول أيضا التغيرات الحديثة فى الجغرافيا السياسية للبلاد، حيث كان الكتاب الأول يشجع القراء على رفض الحياة الريفية البسيطة التى كانت تميز الحقبة قبل الثورية، لصالح الأخوية الموحدة للعصر الجمهورى الجديد. وفى ذلك الكتاب يقول منتل:

"ألم يكن من السخف، ونحن على أعتاب دنكيرك Dunkerque، أن يسألونا عن أصولنا العرقية قائلين: هل أنتم فلامنك؟ لا سيدى: نحن والاون، وإذا كنت على أعتاب

دييب Dieppe أو كودوبك Caudebec يسألونك: هل أنتم نورمان حقيقيون؟ لا سيدى: نحن من الكوشوا Cauchois. واليوم فإن إجابتنا هى: نحن إخوة"(٥٦).

وفى أوائل ١٧٩٣، كان مسار منتل "كأستاذ للجغرافيا" مهددا بسبب الأزمات الكبيرة فى ذلك الوقت، والتى انزلق فيها كثيرا بسبب ولائه لأصدقائه وبسب ميوله السياسية. فمع بداية تلك السنة، شكل أنصار بريسو (الذين كانوا يعرفون باسم الجيروند Girondins اعترافا بانتمائهم المحلى الريفى) أغلبية فى "المؤتمر الوطنى"، ولكنهم أثبتوا عدم قدرتهم على إيقاف الانزلاق نحو الفوضى، خاصة خلال محاكمة الملك؛ إذ إنهم كانوا راديكاليين أثناء "المجلس التشريعى"، ولكنهم أصبحوا محافظين فى "المؤتمر الوطنى"، وكانوا يعارضون قتل الملك، ويحاولون بصفة عامة الحفاظ على النظام خلال الفوضى المتصاعدة. ونظرا لأن رولان كان محاطا بمعارضيه الجبليين Montagnrd، فقد استقال فى ٢٣ فبراير ١٧٩٣ بعد إعدام الملك بيومين. وأثارت استقالة رولان حملة من الإساءة اللاذعة من جانب الصحافة اليسارية الراديكالية، وكانت صحيفة مارات "صديق الشعب" - التى كان منتل يدافع عنها سابقا - هى التى تقود الهجوم. إذ كان محررو مارات يصرخون بأن الجيروند كانوا يدمرون الثورة ويشكلون ملكية فدرالية.

وبحلول صيف ١٧٩٣، تبددت قاعدة قوة الجيروند فى باريس، وتولى المونتارد(*) زمام المبادرة بقيادة روبسبيير. وتحت التهديد بالسجن، هرب رولان إلى الأمان النسبى فى بلدة روو Rouen، تاركا زوجته فى باريس نزولا على رغبتها. ووقع بريسو فى الأسر بينما كان يحاول مغادرة البلاد، كما ألقى القبض على السيدة رولان سيئة الحظ

(*) المونتانيار Montagnards مصطلح ظهر فى السياق التاريخى للثورة الفرنسية مشيرا إلى جماعة سياسية، يطلق على أعضائها اسم المونتاناراد نسبة إلى كلمة جبل Mountain، والذين اعتادوا أن يجلسوا فى أعلى المقاعد فى الجمعية التشريعية، واستخدم لأول مرة عام ١٧٩٣، ضمت الجماعة رجالا من مختلف الأطياف الفكرية القائمة على الممارسة الفعلية العنيدة، فى مقابل بقية أعضاء الجمعية الذين كانوا يستندون إلى فلسفات نظرية. وكان المونتاناراد أعلى أصواتًا فى الدفاع عن الطبقات الدُنيا، ويستندون إلى المزيد من الخطب الأخلاقية. (المترجم)

فى الأول من يونيو ١٧٩٣، وذلك قبل يومين من أخذ النواب الجيروند الباقين إلى الحبس. وحكم على قيادة الجيروند، بمن فيهم السيدة رولان، بتهمة الخيانة وأعدموا فى خريف ١٧٩٣، حيث خلد إعدام السيدة رولان فى ٨ نوفمبر فى أساطير الثورة بعبارتها الشهيرة التى وجهتها إلى تمثال لإلهة "الحرية" مقام بجوار المقصلة فى ميدان "الثورة": "كم من الجرائم يرتكبونها باسمك أيتها الحرية! O Liberte! Que de crimes on commet en ton nom!". وعندما سمع زوجها المخلص بخبر إعدامها، انتحر مثله مثل آخرين من الجيروند، حيث كانوا مدفوعين إلى هذا العمل بالكلمات المحرضة لبريسو وزملائه على درجات المقصلة: "الموت بدلا من العبودية! plutôt la mort que l'esclavage!"(٥٧).

وعندما كانت السيدة رولان محبوسة فى سجن كونسيرجيرى Conciergerie، كان يسمح لها بزيارات متقطعة ومراسلات محدودة. وكانت الرسائل الست الأخيرة التى كتبتها فى زنزانتها - التى كتبتها من أواخر سبتمبر إلى أواخر أكتوبر ١٧٩٣، بينما كانت تساور نفسها بما إذا كان يجب أن تضرب عن الطعام حتى الموت - من بين وثائق "الرعب" الأكثر إثارة للمشاعر، حيث كتبت هذه الرسائل إلى شخص مجهول يدعى جانى Jany، والذى كان يمثل "عزاءها الوحيد"، والذى توسلت إليه السيدة رولان ليجمع أوراقها لحفظها، بما فى ذلك الوثائق التى كتبتها فى السجن، ولنقل رسائلها إلى أصدقائها ومؤيديها الذين لا يزالون يتمتعون بالحرية. وكانت تخشى من أن زوجها قد قتل سلفا، وكانت رسائلها إلى "جانى" - وهو اسم حركى اختارته لتجنب تجريم مراسلها - تعبر عن الغضب والخوف والألم الجسدى الذى كانت تعانيه حيث كتبت فى رسالتها الرابعة فى ١٤ أكتوبر ١٧٩٣: الفقرة تبدأ بـ: بالنسبة إلى تعرف ذلك المرض الذى يسميه الإنجليز "انكسار القلب" (هكذا)؟ لقد أصابنى ذلك المرض وليس بيدى علاج، بل إنه ليست لدى أية رغبة فى تخفيف آثاره؛ تعرف أنه مع تطور المرض تبدأ الحمى، آمل ألا يستمر ذلك طويلا. بلى، لن أضحى بحريتى أبدا: ولتشهد السماء على أننى أخلصت لزوجى!"(٥٨).

وكما يقول كلود بيرو Claude Perroud، الذى حرر مراسلات السيدة رولان لنشرها منذ أكثر من قرن مضى، لم يكن "جانى" سوى منتل، الذى تأكد دوره فى هذا الشأن

فى رسالة بتاريخ مارس ١٨٠٠ أرسلها منتل إلى محرر أسرة رولان آنئذ بالإضافة إلى حزمة من الوثائق التى كان يحافظ عليها منذ إعدام السيدة رولان[٥٩]. حيث يتضح من المراسلات من جانب واحد - بين السيدة رولان و"جانى" - أن منتل زار رولان وقادة آخرين مسجونين من الجيروند، بمن فيهم بريسو؛ وكان يهرب الوثائق والمذكرات من زنازين السجون؛ وجمع أوراق السيدة رولان الأخرى، وحمل الرسائل إلى أنصار الجيروند[٦٠].

وكانت أعمال منتل نيابة عن الجيروند المحكوم عليهم بالإعدام فى أواخر ١٧٩٣ تتطلب شجاعة شخصية، ولكنه كان يحتاج سريعا إلى تعديل موقفه ثانية إذا كان يريد أن يتجنب مصيرهم. ففى الأول من أكتوبر ١٧٩٣، وبينما كان ولا يزال يتلقى الرسائل من السيدة رولان اليائسة، كتب إلى رئيس "لجنة التوجيه العام" فى "المؤتمر الوطنى" معلنا عزمه على تقديم منهج جديد للمحاضرات العامة فى صالونه فى اللوفر حول ما سماه "الجغرافيا المقارنة"، بناء جزئيا على كتابه السابق بهذا العنوان، والذى حدَّثه لمراعاة التغيرات الناتجة عن الثورة[٦١]. وطلب من اللجنة زيارة صالونه للموافقة على أساليبه، وزاره اثنان من أعضاء اللجنة وقدما تقريرا إيجابيا، واستحسنا مجسم الكرة الأرضية الذى كان منتل سيستخدمه لتوضيح شرحه، ولكن لم يسجل ما إذا كان هذان المفتشان قد أدركا أن هذا المجسم كان قد صمم من أجل تعليم الابن الأكبر للملك[٦٢]. فقد حاول منتل أن يبرز التزامه بالأشكال الأكثر راديكالية من التوجه الجمهورى الذى كان يتصاعد آنذاك بطرق مختلفة أيضا، وكان من أبرزها النسخة الموسيقية الفجة التى قدمها لـ"إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، الذى أهداه إلى "كل الجمهوريين الفرنسيين فى الجمهورية"[٦٣] وجاء فيه (على نحو ما يضم شكل شكل ١٠-٢) ما يلى:

"إعلان حقوق الإنسان والمواطن

مؤلف من ثلاثين مقطوعة، كى يغنيها الأحرار فى كافة البلاد.

كلمات من تأليف المواطن منتل، إلى اللجنة الثورية الباريسية

من ألحان المواطن لانجل، الأستاذ بالمدرسة الوطنية للغناء، التابع لقسم حماية الفرنسيين.

مهداة إلى كل اليساريين الثوريين فى الجمهورية"

DÉCLARATION

DES DROITS DE L'HOMME

ET DU CITOYEN,

Mise en trente Strophes, pour être chantée par les Hommes libres de tout Pays.

Paroles du Citoyen MENTELLE, de la Section du *Muséum*.

Musique du Citoyen LANGLÉ, Maître de l'Ecole Nationale du chant, de la Section des *Gardes Françaises*.

DÉDIÉE à tous les SANS-CULOTTES de la République.

Ils sont instament priés de rejetter les exemplaires qui n'auroient pas le paraphe suivant:

A PARIS,

De l'Imprimerie des SANS-CULOTTES, Maison ci-devant de l'Assomption, rue Saint-Honoré, n.° 20.

Se vend chez MARET, Libraire, Cour des Fontaines, Maison Egalité, n.° 1081.

Et chez la Veuve Lesclapart rue du Roule n.° 11 et 293.

شكل ١٠-٢: صفحة الغلاف "لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، ١٧٩٤".
أعيدت طباعته بتصريح من المكتبة البريطانية.
المصدر: Edme Mentelle, Declaration des droits de l'homme et du citoyen (Paris: Imprimerie des Sans-Culottes / Maret).

وأدى سقوط روبسبيير فى يوليو ١٧٩٤ إلى رد اعتبار "شهداء" الجيروند، وأزال أية وصمة دائمة تتعلق بمنتل نتيجة ارتباطه ببريسو وأسرة رولان. وفى خريف تلك السنة، حصل منتل على وظيفة دائمة فى معهد "الإيكول نورمال Ecole Normale" كأحد أستاذين للجغرافيا، مع بوش دى لا نويفى، حيث كان هذا المعهد قد تأسس حديثا لتدريب المواطنين الجمهوريين المجهزين علميا للحقبة الثورية الجديدة[٦٤]. وقدمت المحاضرات والندوات الثلاث عشرة فى الجغرافيا - والتى ألقاها منتل وبوش فيما بين ٢٢ يناير و١٢ مايو - رؤية رائعة إلى نظرية وتطبيق الجغرافيا خلال الثورة[٦٥]؛ حيث قسما الجغرافيا فى "البرنامج" الافتتاحى إلى ثلاثة فروع: الجغرافيا الرياضية أو الفلكية (التى تدرس حركات الأرض والكواكب)، والجغرافيا الطبيعية (التى تتناول شكل الأرض ومنتجاتها الطبيعية)، والجغرافيا السياسية (التى تتناول التقسيمات السياسية للأرض إلى دول والعلاقات بين هذه الدول). فقد أخذا "مذهب الحواس sensationalism" المتطور عن جون لوك Lockean نقلا عن كونديلاك Condillac، وروسو Rousseau، وأصرا على أن تعليم الجغرافيا يعتمد فى النهاية على المعلومات المكتسبة عن طريق الملكات الحسية، خاصة العين، إما من خلال مشاهدة البيئة ذاتها أو من خلال دراسة التمثيلات المعدة بصورة علمية مثل الخرائط. وأكدا أن "الجغرافيا عبارة عن علم لا يمكن تعلمه جيدا إلا بالعين"[٦٦]. وبهذا المعنى لم تكن الجغرافيا مجالا للنظريات أو المفاهيم أو معدة لتناول الغيبيات أو المجردات، بل كانت مجالا للملاحظة والحقائق ببساطة، وكانت مهمة معلم الجغرافيا تتمثل فى مجرد ترتيب وتصنيف الحقائق فى نظم حسية[٦٧].

وكما لاحظت جودلفسكا، فإن المحاضرات الجغرافية التى ألقاها منتل وبوش فى تلك المدرسة لم تحظ بالتقدير العام فى ذلك الوقت، حيث انتقد مراجع مجهول فى مجلة الأيديولوجيين الثوريين التى تحمل اسم "عقد فلسفى" هذا المنهج بأنه ممل ولا فائدة أو هدف من ورائه[٦٨]. ولكن عندما نراعى الظروف التى كان منتل وبوش يعملان فيها، بالإضافة إلى تجارب منتل الحديثة مع الاضطهاد الوحشى من جانب النظام لأعدائه، فإن القرار بالتركيز على الحقائق البسيطة التى لا يمكن رفضها بوضوح، مع التجنب

المدروس لأية جدالات مرتبطة بالتفسير المجرد أو النظرى، لا بد أن يبدو اختيارا معقولا للغاية، فمع غياب توجهات واضحة أو متسقة للسياسة المضطربة والمتقلبة، ومع مواجهة طلاب ذوى قدرات متباينة كثيرا، كان تركيز منتل على الحقائق غير المثيرة للجدل - حتى إذا كان ذلك غير محفز - يعتبر أمرا مفهوما تماما.

ومن الواضح أن هذا ما كانت تريده السلطات، فقد أصبح منتل فى الواقع بمثابة الجغرافى الرسمى للجمهورية خلال المرحلة الأخيرة من "المؤتمر الوطنى" ومرورا "بمجلس المديرين Directory" من أواخر ١٧٩٤ إلى ١٧٩٩، حيث تحمل مجموعة من المسئوليات الجديدة نتيجة لذلك، إذ كان يلقى دروسا فى الجغرافيا والتاريخ فى مدرسة "ليسيه" الجمهورية الجديدة فى باريس فى ١٧٩٦، وفى معاهد "الإيكول سنترال Écoles Centrales" فى كنيسة البانثيون Pantheon وكلية "أمم فرنسا الأربعة Quatre-Nations" من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٤، وانضم فعليا إلى "مجلس إدارة" المؤسسة الأخيرة، ودعى أيضا إلى لجان حكومية مختلفة تتعلق بالكتب المدرسية والآداب[٦٩]. وفى ١٧٩٥، اختير منتل بقرار من "المؤتمر الوطنى" واحدا من عدد قليل من العلماء الذين اعتبروا جديرين بالدعم المالى والتشجيع الرسمى، وفى نفس السنة أصبح يشارك فى مناقشات جادة - وإن كانت غير مثمرة فى النهاية - لتأسيس "متحف الجغرافيا، والطبوغرافيا العسكرية، والهيدرولوجيا" فى باريس، والذى كان سيجمع الموارد المتفرقة لكل من "مستودع الخرائط والخطط البحرية" و"مستودع الحرب"[٧٠].

والشىء الأهم أن منتل انتخب فى "لجنة العلوم الأخلاقية والسياسية" فى "المعهد الوطنى"، وهو المؤسسة الجمهورية الجديدة للتعليم العالى، والتى تأسست فى أكتوبر ١٧٩٥ طبقا لأحد القرارات الأخيرة "للمؤتمر الوطنى". وكان المقصود من هذا المعهد الوطنى أن يحل محل "الأكاديميات" المعطلة التى أغلقت قبل ذلك بسنتين[٧١]. وتم تقسيم هذه اللجنة مبدئيا إلى ستة أقسام مخصصة لدراسة وتدريس الأفكار، والأخلاقيات، والعلوم الاجتماعية، والتشريع. والاقتصاد السياسى، والتاريخ، والجغرافيا. وكان الأعضاء الرئيسون فى القسم السادس (الجغرافيا): منتل، وبوش، وكارل فريدريش إينهارد،

وتشارلز بيير ديفو كلاريه دى فلورو، وباسكال فرانسوا جوزيف جوزلين، ولويس أنطوان دى بوجانفى. وخلال السنوات السبع لوجود هذا القسم، قدم منتل ثلاث عشرة مذكرة مختلفة، أكثر من أى من الجغرافيين الآخرين ما عدا بوش. وفى الواقع، كان سبعة فقط من الأعضاء الآخرين فى المعهد الوطنى أكثر إنتاجا من منتل.

وسرعان ما أصبحت هذه "اللجنة" محور الاهتمام المؤسسى للأيديولوجيين، وهم مجموعة متنوعة من المفكرين المناهضين للدين، والذين كانوا يحاولون كشف المبادئ العلمية الكامنة وراء تكوين الأفكار وتطورها، وكان ذلك جزءًا من خطة طموحة لتكوين مجتمع جديد أكثر عقلانية[٧٢]. وكما رأينا، فقد كان منتل يشترك فى بعض هذه الرؤى، ولكن منهجه التجريبى الحازم لم يكن يعتنق هذا المجال الفلسفى الأكثر تجريدا. ومع ذلك، وطبقا لمارتن شتاوم Martin Staum، كان عمل قسم الجغرافيا يعكس ويشكل العديد من الحوارات الأكبر فى ذلك الوقت. وكانت الحوارات المستمرة حول روسو، خاصة مسألة "النبلاء" مقابل الوحشية "المنحطة"، والجدل حول طبيعة وإمكانات التقدم البشرى فى مختلف أجزاء العالم[٧٣]، ودور المناخ فى تكوين الثقافات المختلفة، والأهمية النسبية للبيئات الطبيعة والثقافية فى تحديد الخصائص السلالية، والمضامين التى تحملها هذه القضايا بالنسبة إلى مسألة الرق الملتهبة، تمثل كلها موضوعات اكتشفها شتاوم أثناء التعليم الجغرافى الذى تطور داخل "اللجنة". وعلى نفس القدر من الأهمية، يدعى شتاوم أن استخدام منتل للأساليب الإحصائية هو الذى دعم تمثيلاته الجغرافية[٧٤].

وحول منتل الكثير من مواد تدريسه الجديدة إلى مجموعة من الكتب الإضافية: إذ إن كتابه الذى نشر فى ١٧٩٥ بعنوان "تدريس الجغرافيا بطريقة جديدة: أو تطبيق النظرية على دراسة الجغرافيا" اعتمدته لجنة التعليم العام بصفة خاصة ككتاب جغرافيا للمدارس الابتدائية الجمهورية، وقد وصل إلى ست طبعات حتى ١٨١٣. فبعد الجزء التمهيدى الذى يقدم للقراء أساسيات قراءة الخرائط والاتجاه، يتناول الكتاب الجغرافيا التفصيلية لمدينة بورج Bourges فى وادى اللوار Loire. ثم يتقدم القارئ إلى تناول جغرافية منطقة شير Cher الجديدة التى كانت بورج عاصمتها،

وغيرها فى سلسلة من الدوائر المتوسعة المتحدة المركز، ثم ينتهى بتناول جغرافية فرنسا ككل(٧٥). وظهرت أعمال تاريخية إضافية أيضا، خاصة تاريخ اليهود منذ موسى حتى الرومان؛ وظهرت ترجمة مختصرة إلى الفرنسية أولا من عمل ويليام جوثرى William Guthrie "جغرافية العالم" الصادر بالإنجليزية؛ وظهر عمل آخر من ثلاثة مجلدات عن الكوزموجرافيا، والجغرافيا، والتسلسل الزمنى(٧٦).

وبحلول السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وصل نفوذ منتل إلى درجة أن نيكولاس بودان Nicholas Baudin أطلق اسم "رأس منتل" فى جنوب غرب أستراليا تكريما لمعلمه الجغرافى السابق خلال استكشافاته فى المحيط الهادى فى الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٠٤. وكان يمكن لمنتل - الذى كان فى ذلك الوقت فى سنواته الأولى من السبعينيات، ولكنه تزوج حديثا للمرة الثانية من ابنة الكونت دى لانو - أن ينتقل بسلاسة إلى التقاعد بسلام لولا أن دراما وصول نابليون إلى السلطة كان يمثل موضوعا لا يستطيع أن يقاوم استكشافه. وللأسف، كان أول منشور لمنتل عن الحقبة النابليونية أكثر منشوراته إثارة للجدل، فقد كان كتاب "مختصر تاريخ العالم" الذى ظهر فى ١٨٠١ يمثل مرحلة متقدمة فى كتابات منتل المناهضة للدين، حيث كانت هذه المراجعة الغريبة لأوروبا المسيحية المبكرة تصر على أن يسوع المسيح كان دجالا، وأن الكنيسة المبكرة قد عرقلت بشدة تطور التعايش السلمى بين الشعوب المختلفة، وكان يبدو أن هذه الآراء متطرفة، حتى فى ذروة الاتجاه المعادى للدين فى منتصف تسعينات القرن الثامن عشر. وبحلول ١٨٠١، كانت تتعارض بشدة مع المزاج العام الذى كان يتغير بسرعة، حيث وجه هذا الكتاب ضربة قوية إلى شهرة منتل التى بناها بحرص شديد.

وكان قرار نابليون بإعادة تنظيم المعهد الوطنى فى ١٨٠٣، وفصل الأكاديميين العاملين فى "فئة العلوم الأخلاقية والسياسية"، ومنهم الجغرافيون، بمثابة توجيه ضربة أخرى إلى منتل. فلم يكن لدى نابليون وقت للتنظير الأكاديمى المجرد الذى لدى معظم الأكاديميين فى هذا المعهد، وكان لا بد أن يكون هذا التقييم مزعجا جدا لمنتل الذى

كان يفخر بالطبيعة العملية والتعليمية لعمله، والذى كان يرى أنه بعيد عن الأفكار الغامضة للأيديولوجيين، ويمكن أن يفسر هذا لماذا حاول منتل بجد أن يقنع نظام نابليون الجديد بمساندته العملية؟

وعقب سلام أميان(*) Peace of Amiens فى ١٨٠٢، الذى فتح آفاق التسوية الدائمة للصراع الإنجليزى الفرنسى على الأقل، رأى منتل أن الوقت صار مناسبا لمراجعة عامة للجغرافيا السياسية للعالم فى ضوء العقود السابقة التى شهدت حروبا متصلة بصورة أو أخرى. وتوقع منتل خطأ أن ظهور نابليون سيضع حدا للتشكك الثورى فى فرنسا، ويكتب بالتالى نهاية للحرب فى أوروبا، ولذلك فكر فى إعداد عمل طموح يتكون من عدة مجلدات فى الجغرافيا السياسية للعالم. وبمساعدة زميل أصغر منه، كونراد مالتى برون Conrad Malte Brun، وهو لاجئ سياسى من الدنمرك استقر فى باريس الثورية خلال تسعينيات القرن الثامن عشر، وساعد لاحقا على تأسيس "الجمعية الجغرافية فى باريس" فى ١٨٢١، ألقى منتل بثقله فى هذا المشروع الجديد بطاقته المعتادة، ونشرت المجلدات القليلة الأولى من هذا العمل الذى أصبح يتكون من ستة عشر مجلدا بعنوان "عرض جغرافى وفلكى وطبيعى وسياسى لكل أجزاء العالم" فى ١٨٠٣، وظهر العمل كاملا فى نهاية ١٨٠٥.

وكان هذا الإنتاج مميزا؛ لأنه عمل استمد إلهامه من نفس الأسباب التى دفعت إشعيا بومان Isaiah Bowman بعد أكثر من قرن من صدور كتاب منتل لوضع كتابه "العالم الجديد New World" (١٩٢١) عند نهاية الحرب العالمية الأولى. فقد حاول منتل (وفعل بومان مثله) أن يصف العالم كما خرج من حقبة التوجس والحرب، على أمل، وتوقع أن الصورة التى ظهرت آنذاك ستظل قائمة فى المستقبل القريب. ولكن الأحداث

(*) معاهدة أميان Treaty of Amiens: هى المعاهدة التى أنهت مؤقتا العداوة بين الجمهورية الفرنسية والمملكة المتحدة خلال حروب الثورة الفرنسية، وقد وقعت فى مدينة أميان (شمال فرنسا) فى ٢٥ مارس ١٨٠٢ "معاهدة سلام نهائية". واستمر سلام أميان لسنة واحدة فقط (١٨ مايو ١٨٠٣)، ولم تنجح هذه المعاهدة سوى فى إقرار السلام خلال عام واحد فقط (١٧٩٣-١٨١٥). (المترجم)

تجاوزت عمل منتل بصورة أسرع مما حدث مع عمل بومان، وذلك بمجرد أن بدأت المغامرة الإمبراطورية النابليونية فى تغيير المشهد السياسى لأوروبا، ولكن عمل منتل ومالتى برون "الجغرافيا" كان منشورا ناجحا جدا فى عصره؛ لأن المؤلفين كانا قادرين على تحديث الأجزاء المناسبة بعد سقوط نابليون الأولّ فى ١٨١٣ فيما أصبح طبعة نشرت بعد الوفاة فى ١٨١٦ بعنوان "جغرافية العالم القديم والحديث".

وكانت هاتان الطبعتان من هذا العمل العظيم تمتدحان نابليون كثيرا، كما كانت الأعمال الأخرى التى كتبها منتل فى التاريخ والجغرافيا فى السنوات العشر الأخيرة من حياته، وخاصة فى كتابه الذى نشر فى ١٨٠٤ بعنوان "الجغرافيا الطبيعية والتاريخية والإحصائية والطبوغرافية للأقسام الإدارية الفرنسية المائة وثمانية"(٧٧). وكما يشير العنوان، فإن هذا المجلد كان مراجعة لجغرافيات منتل المدرسية السابقة للهيكل الإدارى لفرنسا الثورية، والذى تم تحديثه لمراعاة التوسع الإقليمى للبلاد فى الحقبة الإمبراطورية. وقد روجع هذا العمل لاحقا أيضا فى مجلد ما بعد وفاة نابليون الذى نشر فى ١٨٢١.

وظل منتل حتى شيخوخته مراسلا نشطا وعاطفيا جدا، خاصة مع النساء، حيث كان لدليله فى ١٨٠٩ إلى أساليب التعليم الأكثر ملاءمة للبنات تأثير غير عادى على أفكار روسو التعليمية التى يبدو أنها كانت مدفوعة بمراسلاته مع التربوية النسائية الرائدة ستيفانى دى جنلى Stephanie de Genlis، والتى كانت مفتشة مدارس خلال الإمبراطورية الأولى(٧٨). وراسل أيضا كونستانس دى سالم Constance de Salm الكاتب المسرحى البارز فى عدد من الموضوعات، حيث كانت رسائله مفعمة بعلامات الإخلاص والعاطفة. ورد سالم على مجاملات منتل بأسلوب مناسب، حيث كتب له سيرة ذاتية مختصرة بعد وفاته ببضع سنوات(٧٩).

وكانت الكتب التى كتبها منتل فى السنوات الأخيرة من حياته، وخاصة كتاب "تنقيب تأريخى" (١٨١٠)، من بين أنجح كتبه، حيث أعيد إصدارها مرات عديدة حتى ستينيات القرن التاسع عشر. ولكن بالرغم من المديح الذى أغدقه منتل على الإمبراطور،

فإن تكريمه الأخير فى ٢٨ ديسمبر ١٨١٥ - بحصوله على وسام جوقة الشرف - منح له قبل وفاته بشهور قليلة، ومن السخرية الكبيرة أن هذا التكريم لم يكن من نابليون، ولكنه كان من الملك العائد حديثا، لويس الثامن عشر، الأخ الأكبر لكونت أرتوا، راعى منتل قبل الثورة(٨٠).

الجغرافيا وسياسة البقاء على قيد الحياة فى فرنسا الثورية

كان إدمى منتل يمثل نوعا خاصا من الجغرافيين، فلم يكن مستكشفا كتب مغامراته، ولا عالما فى الطبيعة سجل تجاربه ومشاهداته، ولكنه كان تربويا صمم جغرافياته لتوصيل الكثير من الحقائق المفيدة عن العالم بالقدر الذى يمكن استيعابه، خاصة بالنسبة إلى الصغار. وكان يعتبر نفسه كاتبا وليس عالما، حيث تحققت إنجازاته وتأثيراته المستمرة فى عالم الأدب والسياسة، خاصة فى الشئون التعليمية، وليس فى عالم العلوم.

وكان منتل يعتقد أن الجغرافيا لها غرض تربوى محدد جدا ومحدود نوعا ما، ولكن آراءه فى هذا الموضوع كانت تتشكل بالملاءمة السياسية والقناعة الفكرية، فقد عاش فى حقبة اضطرابات سياسية استثنائية، ومع ذلك ظل ناجحا فى ظل الملكية، والنظم الثورية المختلفة، والدكتاتورية العسكرية الإمبراطورية. وقد حقق هذا جزئيا من خلال إعادة اكتشاف نفسه سياسيا وثقافيا، ولكنه حافظ أيضا على منظور محدد ومحافظ بطبيعته وغير جدلى فى كتاباته المهنية، حيث حاول - كما يقول مارتن شتاوم - أن "يثبت" الثورة فى صفحات كتبه على الأقل، حيث كانت الحيلة تتمثل دائما فى الاستباق وعدم الإفراط فى الالتزام؛ والقيام بما هو مطلوب وليس بما هو ممكن. ويمكن أن يحقق البحث عن تفسيرات أوسع وحقائق أكبر القناعة الفكرية، بل وحتى الشهرة الواسعة، ولكن الشهرة فى سياق الثورة الفرنسية كانت متقلبة وخطيرة فى نفس الوقت.

ويمكن تفسير التباين الذى حددناه فى بداية مناقشتنا - بين نصوص منتل المثقلة بالحقائق والمناهضة للنظريات، والتى كان المؤرخون اللاحقون يحتقرونها غالبا،

والسياق المشحون بالأيديولوجيات والذى كتبت فيه – من خلال رغبته المفهومة فى تجنب المناقشات النظرية الجدلية المحتملة فى عصر كانت التقلبات السياسية والفكرية فيه غير متوقعة، ومتكررة بصورة مذهلة، وتهدد الحياة أحيانا، فطوال فترات طويلة خلال تسعينيات القرن الثامن عشر، وخاصة خلال عصر "الرعب"، عندما أعدم العديد من أصدقاء منتل وحلفائه السياسيين، كانت الرؤية اليعقوبية(*) الرسمية للعلم والتعليم تتحدد بصورة نفعية صارمة، وكانت المناقشات النظرية المجردة تعد غير ضرورية، ونخبوية وموضع شك أيديولوجيا[٨١]. وبهذا المعنى، كانت جغرافيات منتل الشاحبة تعكس ما يحتاجه النظام ببساطة، وبالتالى أيدت الاعتقاد الذى تطور لدى مؤرخى العلوم الأخرى الذين أشاروا إلى النتائج الكارثية للمحاولة غير المسبوقة لتشكيل العملية العلمية والسيطرة عليها لتلبية احتياجات أيديولوجية خلال الثورة[٨٢].

وبهذه الطريقة، فإنه ليس مدهشا أن كتابات منتل الكثيرة لم تصمد أمام اختبار الزمن. ولكن انحناءات وتقلبات المسيرة الجغرافية المعقدة لمنتل – وطاقته غير المحدودة، وسعيه المستمر إلى النفوذ والمكانة، وتوافقاته وتحولاته المتكررة، وأفعاله الجريئة والبطولية أحيانا – تخبرنا بالكثير عن السياسة الشخصية جدا للكتابة الجغرافية فى لحظة محورية فى التاريخ الأوروبى.

(*) اليعقوب Jacobin: ذلك الشخص الذى يدعم النظام الجمهورى المركزى، بسُلطة مُمثلة فى المستوى الفيدرالى. بدأت اليعقوبية خلال الثورة الفرنسية، وكان المصطلح يشير على المستوى الشعبى إلى كل المؤيدين للآراء الثورية، وعلى وجه التحديد كان يطلق على أعضاء جمعية اليعاقبة، وهى حركة ثورية سياسية يسارية متطرفة أصبحت أكثر جمعية سياسية مشهورة خلال الثورة الفرنسية. سُميت تلك الجمعية بهذا الاسم نسبة إلى الدير الذى كانت الجمعية تلتقى فيه دوما فى باريس والواقع فى طريق القديس يعقوب Rue Saint-Jacques (Latin: Jacobus). (المترجم)

الهوامش

The epigraph to this chapter is taken from Claude Perroud's description of Edme Mentelle's actions on behalf of Jeanne-Marie Roland de la Platière (Mme Roland) during the latter's imprisonment prior to her execution, on trumped-up charges of harboring monarchist sympathies, in October 1793. See Claude Perroud, "Jany, le dernier correspondant de Madame Roland," *La Révolution Française* 30 (1896): 37. I wish to thank Roselyn du Perray of the Musée du Château de Versailles for her assistance with Mentelle's globe for the education of the dauphin; Professor Randolph Runyon of Miami University, Ohio, who is a descendant of Mentelle, for his most generous advice; and the editors of this volume for their remarkable patience.

1. Leslie R. Marchant, "Edmunde Mentelle, 1730–1815, and François-Simon Mentelle, 1731–1799," *Geographers: Biobibliographical Studies* 11 (1987): 93–103.

2. Anne Godlewska, *Geography Unbound: French Geographic Science from Cassini to Humboldt* (Chicago: University of Chicago Press, 1999).

3. Ibid., 57–66.

4. The main works by Robert Darnton are *Mesmerism and the End of the Enlightenment in France* (Cambridge: Harvard University Press, 1968); *The Business of Enlightenment: A Publishing History of the Encyclopédie, 1775–1800* (Cambridge: Harvard University Press, 1979); *The Literary Underworld of the Old Regime* (Cambridge: Harvard University Press, 1982); *The Great Cat Massacre and Other Episodes in French Cultural History* (Harmondsworth: Penguin, 1984); *The Forbidden Best-Sellers of Pre-Revolutionary France* (New York: Norton, 1995); and *The Corpus of Clandestine Literature in France, 1765–1789* (New York: Norton, 1995). See also Robert Darnton and Daniel Roche, eds., *Revolution in Print: The Press in France, 1775–1800* (Los Angeles and Berkeley: University of California Press, 1989).

5. Darnton, *Literary Underworld*, 1–40. See also Roger Chartier, *The Cultural Origins of the French Revolution* (Durham: Duke University Press, 1991).

6. Darnton, *Literary Underworld*, 1–40.

7. Jean-Baptiste Brissot de Warville, *Théorie des lois criminelles*, 2 vols. (1781; Paris: J.-P. Aillaud, 1836); and Darnton, *Literary Underworld*, 1–40; though see also Simon Burrows, "The Innocence of Jacques-Pierre Brissot," *Historical Journal* 46 (2003): 843–71.

8. The idea that biography, or "life paths," can be used to illuminate historical geographies of period and place is the starting point for Stephen Daniels, *Humphry Repton: Landscape Gardening and the Geography of Georgian England* (New Haven: Yale University Press, 1999), and is further explored in the essays coedited by Stephen Daniels and Catherine Nash, eds., *Lifepaths: Geography and Biography*, special issue of *Journal of Historical Geography* 30 (2004). The conventional biography has always been an important format for the history of geography, of course, but more complex forms of biographical investigation are also suggested by Felix Driver's work on Winwood Reade, a minor Victorian writer, Darwinist, and would-be explorer. Driver's analysis of Reade's life and works goes beyond the conventions of a normal biography to examine how Reade's struggles to reinvent himself as an explorer can illuminate Victorian attitudes to exploration. See Felix Driver, *Geography Militant: Cultures of Exploration and Empire* (Oxford: Blackwell, 2001), 96–116.

9. Godlewska, *Geography Unbound*, 18–86, esp. 57–86.

10. Josef Konvitz, *Cartography in France, 1660–1848: Science, Engineering, and Statecraft* (Chicago: University of Chicago Press, 1987); Numa Broc, *La géographie des philosophes: Géographes et voyageurs français au XVIIIe siècle* (Paris: Ophrys, 1974).

11. Frank A. Kafker and Serena L. Kafker, *The Encyclopedists as Individuals: A Biographical Dictionary of the Authors of the Encyclopédie*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1988), 330–33.

12. Godlewska, *Geography Unbound*, 191–303; on Volney, see Michael Heffernan, "Historical Geographies of the Future: Three Perspectives from France, 1750–1825," in *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers (Chicago: University of Chicago Press, 1999), 125–64, esp. 136–46.

13. Broc, *La géographie des philosophes*, 460; see also John Dunmore, *French Explorers in the Pacific*, 2 vols. (Oxford: Oxford University Press, 1965); Catherine Gaziello, *L'Expédition de Lapérouse, 1785–1788: Réplique française aux voyages de Cook* (Paris: C.T.H.S., 1984); and Hélène Richard, *Une grande expédition scientifique au temps de la Révolution française: Le voyage de d'Entrecasteaux à la recherche de Lapérouse* (Paris: C.T.H.S., 1986).

14. Broc, *La géographie des philosophes*, 460–74.

15. Martin Staum, *Minerva's Message: Stabilizing the French Revolution* (Montreal and Kingston: McGill–Queen's University Press, 1996), 159–60, 171.

16. Quoted in Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973), 151.

17. On the republican calendar, which replaced the Gregorian calendar with a new sequence of months and years commencing with the establishment of the Republic rather than the death of Christ, see Bronislaw Baczko, "Le calendrier républicain," in *Les lieux de mémoire*, vol. 1, *La République*, ed. Pierre Nora (Paris: Gallimard, 1984), 38–82. Popular conceptions of a speeded-up time have also been detected by some historians in autobiographical writings from the 1790s. See Lynn Hunt, "The World We Have Gained: The Future of the French Revolution," *American Historical Review* 108 (2003): 1–19; and Dorinda Outram, "Life Paths: Autobiography, Science and the French Revolution," in *Telling Lives in Science: Essays on Scientific Biography*, ed. Michael Shortland and Richard Yeo (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 85–102.

18. A concern with the spaces of the Revolution has emerged as a key characteristic of the so-called new cultural history, heralded in the late 1970s by François Furet's stridently anti-Marxist reading of the revolutionary period in *Penser la Révolution française* (Paris: Maspéro, 1978), and developed by such general works as Keith Baker, *Inventing the French Revolution: Essays on French Political Culture* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990); Chartier, *Cultural Origins*; Lynn Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1984); Lynn Hunt, *The Family Romance of the French Revolution* (London: Routledge, 1992); and Emmet Kennedy, *A Cultural History of the French Revolution* (New Haven: Yale University Press, 1989). Historical and cultural geographies of the Revolution can be uncovered from the work on cartographic and other representations of the Republic's national space by Josef Konvitz, *Cartography in France*, 32–55; Josef Konvitz, "The Nation-State, Paris and Cartography in Eighteenth- and Nineteenth-Century France," *Journal of Historical Geography* 16 (1990): 3–16; and Daniel Nordman, "La pédagogie du territoire, 1793–1814," in *Atlas de la Révolution française*, vol. 4, *Le territoire: Réalités et représentations*, ed. Daniel Nordman and Marie Vic-Ozouf Marignier (Paris: Gallimard, 1989), 62–64; on regional scale geographical tensions and representations by Ted Margadant, *Urban Rivalries in the French Revolution* (Princeton: Princeton University Press, 1992); Mona Ozouf, "La Révolution française et la perception de l'espace national: Fédérations, fédéralisme, et stéréotypes ré-

gionaux," in *L'Ecole de la France: Essais sur la Révolution, l'utopie et l'enseignement*, ed. Mona Ozouf (Paris: Gallimard, 1984), 27–54; Marie Vic-Ozouf Marignier, *La formation des départements et la répresentation du territoire français à la fin du XVIIIe. siècle* (Paris: Gallimard, 1989); and Michel Vovelle, *La découverte de la politique: Géopolitique de la Révolution française* (Paris: La Découverte, 1993); on the ideas behind local urban reconstruction by Richard A. Eltin, *Symbolic Space: French Enlightenment Architecture and its Legacy* (Chicago: University of Chicago Press, 1994), 30–47; and Benjamin Nathans, "Habermas's 'Public Sphere' in the Era of the French Revolution," *French Historical Studies* 16 (1990): 620–44; and on personal, corporeal spaces by Dorinda Outram, *The Body and the French Revolution: Sex, Class, and Political Culture* (New Haven: Yale University Press, 1989); and Richard Wrigley, *The Politics of Appearances: Representations of Dress in Revolutionary France* (Oxford: Berg, 2002). Mona Ozouf's work *Festivals and the French Revolution* (Cambridge: Harvard University Press) is a key statement on the spatial performance of the Revolution, and from the history of science, Emma Spary's *Utopia's Garden: French Natural History from Old Regime to Revolution* (Chicago: University of Chicago Press, 2000) reveals how a specific scientific site, the Muséum d'Histoire Naturelle, was implicated in the formation of revolutionary culture.

19. For a fascinating study of the constitutive power of space, in this case the "spaces of modernity" in eighteenth-century London, see Miles Ogborn, *Spaces of Modernity: London's Geographies, 1680—1780* (New York: Guilford, 1998).

20. Ozouf, *Festivals and the French Revolution*, 126.

21. Broc, *La géographie des philosophes;* Marchant, "Edmunde Mentelle," 93–4.

22. Edme Mentelle, *La mort de Polieucte* (Paris, 1751).

23. Edme Mentelle, *Lettre à un seigneur étranger sur les ouvrages périodiques de France, par M. l'abbé D. C. d'H**** (Paris, 1757).

24. Darnton, *Business of Enlightenment*, 9–14; Frank A. Kafker, *The Encyclopedists as a Group: A Collective Biography of the Authors of the Encyclopédie*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1996), 17–120.

25. Catherine M. Northeast, *The Parisian Jesuits and the Enlightenment, 1700–1762*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1991); and Dale van Kley, *The Jansenists and the Expulsion of the Jesuits from France, 1757–1765* (New Haven: Yale University Press, 1975).

26. Marcel Grandière, *L'idéal pédagogique en France au XVIIIe siècle*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1998); and Gilbert Py, *Rousseau et les éducateurs: Étude sur la fortune des idées pédagogiques de Jean-Jacques Rousseau en France et en Europe au XVIIIe siècle*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1997).

27. On the Jesuits and geography, see François de Dainville, *La géographie des humanistes* (Paris: Beauchesnes, 1940). It should be emphasized that Mentelle's textbook was remarkably similar to others produced around the same time. See Yves Saint-Hilaire, *Élémens de géographie; ou, Nouvelle méthode simple et abrégée, pour apprendre en peu de temps et sans peine la géographie* (Lyons, 1750); and M. de Leris, *La géographie rendue aisée; ou, Traité méthodique pour apprendre la géographie* (Paris, 1753). Bizarrely, Mentelle's *Élémens de géographie* was reissued in 1783 with no significant alteration, despite the new discoveries in the Pacific. See Edme Mentelle, *Élémens de géographie, contenant: 1er, Les principales divisions des quatre parties du monde; 2ème, Une description abrégée de la France, à l'usage des commerçans, avec des cartes* (Paris: By the author, 1783).

28. R. Laulan, "L'enseignement à l'École Royale Militaire de Paris de l'origine à la réforme du comte de Saint-Germain," *L'Information Historique* 19 (1957): 152–58.

29. There are some scattered documents on Mentelle's teaching at the École Royale Militaire in the Archives Nationales MM679, Mémoires, 1760–65, and O1 1605 Mémoire, 1764; cited in François Labourie and Daniel Nordman, "Leçons de géographie du Buache et Mentelle," introduction to *L'École Normale de l'An II: Léçons d'histoire, de géographie, d'economie politique; Édition annoté des cours de Volney, Buache de la Neuville, Mentelle, et Vandermonde avec introductions et notes*, ed. Daniel Nordman (Paris: Dunod), 142. See also Grandière, *L'idéal pédagogique*, 173–82.

30. Edme Mentelle, *Manuel géographique, chronologique et historique, par M***, professeur d'histoire et de géographie, dédié à Mlle. de Fitz-James* (Paris: Dufour, 1761).

31. Mentelle's major works in this period were *Éléments de l'histoire romaine, divisée en deux parties; avec des cartes et un table* (Paris: A. Delalain, 1766); *Géographie abrégée de la Grèce ancienne, par un professeur d'histoire et de géographie* (Paris: Barbou, 1772); *Géographie comparée; ou, Analyse de la géographie ancienne et moderne des peuples de tous les pays et de tous les âges; Accompagnée de tableaux analytiques et d'un grand nombre de cartes*, 7 vols. in 8 books, plus atlas (Paris: By the author, 1778–84); *Cosmographie élémentaire, divisée en parties astronomique et géographique: Ouvrage dans lequel on a tâché de mettre les vérités les plus intéressantes de la physique céleste à la portée de ceux même qui n'ont aucune notion de mathématiques* (Paris: By the author, 1781); *Choix de lectures géographiques et historiques, présentées dans l'ordre qui a paru le plus propre à faciliter l'étude de la géographie de l'Asie, de l'Afrique et de l'Amérique, précédé d'un abrégé de géographie, avec des cartes* (Paris: By the author, 1783); *Géographie; ou, Annonce de Quelques ouvrages relatifs à cette science, avec quelques vues sur la manière de l'enseigner* (Paris: P.-G. Simon et N.-H. Nyon, 1784); *Dictionnaire de géographie moderne*, 3 vols (Paris: Panckoucke, 1784–89); and *Encyclopédie méthodique: Géographie ancienne*, 3 vols. (Paris: Panckoucke, 1787–93).

32. On the *Encyclopédie méthodique*, see Darnton, *The Business of Enlightenment*, 460–519. Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 144, claim some Mentelle titles sold as many as four thousand copies.

33. Terence Cave, *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance* (Oxford: Clarendon, 1979); and Ann Moss, *Printed Commonplace Books and the Structure of Renaissance Thought* (Oxford: Clarendon, 1996).

34. As Robert Mayhew shows in his contribution to this volume (chapter 9), the Renaissance concern with "method" emerged from the critique of Aristotle developed in Paris by the Protestant convert Pierre de la Ramée (Petrus Ramus) in the early sixteenth century, and had important implications for the organization of seventeenth-century English geographies.

35. The comte d'Artois has been described as "the most dashing of the Versailles bloods: a notorious rakehell at the hunt and in the ballroom and bed" (Simon Schama, *Citizens: A Chronicle of the French Revolution* [London: Viking, 1989], 9). The comte became far more pious and serious-minded during his exile through the revolutionary period, after which he returned to France under the Restoration monarchy. He was eventually crowned King Charles X, in a quasi-medieval ceremony, in Rheims in 1824.

36. Ludovic Drapeyron, "L'éducation géographique de trois princes français au XVIIIe. siècle—le duc de Berry et les comtes de Provence et d'Artois [Louis XVI, Louis XVIII, Charles X]," *Revue de Géographie* 11 (1887): 244; quoted in Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 138.

37. Christian Baulez, "Notes sur quelques meubles et objets d'art des appartements intérieurs de Louis XVI and Marie-Antoinette," *Revue du Louvre* 5/6 (1978): 360–73, esp. 364–65. Mentelle's globe has had several homes since 1789. It was moved to the Tuileries with the royal household immediately after the Revolution, and was then used by Mentelle himself in classes he delivered from an apartment in the Louvre during the mid-1790s. Napoleon moved it again, together with a host of other educational equipment, to the Château Meudon, where he planned to create an imperial institute wherein his own son, the king of Rome, and other princes of the imperial dynasty might be educated together. The globe was apparently sold to a private citizen in 1826 and was later reacquired by the Bibliothèque Nationale in 1877, where it was displayed in the Salle des Cartes et Plans. In 1931, it was displayed in the entrance hall of the Exposition Coloniale in Vincennes, the building which today houses the Musée des Arts d'Afrique et d'Océanie. It was returned to Versailles in the 1960s.

38. Barbara Luttrell, *Mirabeau* (New York: Harvester-Wheatsheaf, 1990).

39. Fernando Salleo, "Mirabeau en Prussie, 1786–1787: Diplomat parallèle ou agent sècret?" *Revue d'Histoire Diplomatique* 3/4 (1977): 346–56; and Henri Welshinger, ed., *La mission secrète de Mirabeau à Berlin, 1786–1787; d'après les documents originaux des Archives des Affaires Étrangères* (Paris: Plon, Nourrit et Cie., 1900).

40. Mirabeau, comte de [Riquetti, H.-G], *De la monarchie prussienne sous Frédéric le Grand, avec un appendice contenant des recherches sur la situation actuelle des principales contrées de l'Allemagne*, 7 vols., plus atlas (London, 1788). Mirabeau dedicated this work to his formidable father, the marquis de Mirabeau, who was a noted writer on economics, in the hope of repairing their troubled relationship, one of the many casualties of Mirabeau's youthful ill-discipline, which had seen him imprisoned, pursued by creditors, and condemned to death for seducing and "abducting" the (by no means unwilling) wife of another man.

41. Ibid., 1:241–431; 2:1–47.

42. Mirabeau, comte de [Riquetti, H.-G], *Histoire secrète de la cour de Berlin; ou, Correspondence d'un voyageur françois, depuis le mois de juillet 1786 jusqu'au 19 janvier 1787; Ouvrage posthume avec une lettre remise au roi de prusse regnant, le jour de son avènement au trône*, 2 vols. (London: S. Bladon, 1789). See also M. de la Haye de Launay, *Justification du système d'économie politique et financière de Frédéric II, roi de Prusse, pour servir de réfutation à tout ce que le comte de Mirabeau a hazardé à ce sujet dans son ouvrage de la monarchie prussienne* (Paris, 1789).

43. Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 142.

44. The papers of Thomas Clarkson, the campaigning young member of the British Society for Effecting the Abolition of the Slave Trade, established a few months earlier than its French equivalent in April 1787, indicate that Mentelle's maps and other information were circulating among antislavery activists in both Paris and London. Clarkson's papers include thirteen letters in French addressed to Mirabeau in late 1789 and early 1790 designed to assist the French campaign. They deal with various aspects of the slave trade through the French-controlled West African enclaves of Gorée and St. Louis, based on maps and other statistics derived (either di-

rectly or indirectly) from Mentelle. See Thomas Clarkson Manuscripts, AMS, Lettres nouvelles sur le commerce de la Côte de Guinée, December 1789–January 1790, William L. Clements Library, University of Michigan. On Clarkson and French antislavery debates before and during the Revolution, see Robin Blackburn, *The Overthrow of Colonial Slavery, 1776–1848* (London: Verso), 138–40 and 161–264.

45. Jean-Baptiste Brissot, *Mémoires, 1754–1793*, [ed. C. Perroud], (Paris: Picard, [1912?]), 1:178; Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 142.

46. Mirabeau's funeral produced an outpouring of popular grief as his body was laid to rest in the newly established Panthéon, though this turned to bitter anger when documents were subsequently discovered proving his secret negotiations with the king to protect the monarchy in return for cash. See Luttrell, *Mirabeau*, 321–32.

47. It should be noted that Mentelle continued to style himself as historiographer of the comte d'Artois until his patron's exile in 1791.

48. Michael Heffernan, "Rogues, Rascals and Rude Books: Policing the Popular Book Trade in Early Nineteenth-Century France," *Journal of Historical Geography* 16 (1990): 90–107, esp. 93–98; and more generally, Jack R. Censer, *The Prelude to Power: The Parisian Radical Press, 1789–1791* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1976); Hugh Gough, *The Newspaper Press in the French Revolution* (Oxford: Oxford University Press, 1988); Jeremy D. Popkin, *The Right-Wing Press in France, 1792–1800* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1980); Jeremy D. Popkin, *Revolutionary News: The Press in France, 1789–1799* (Durham: Duke University Press, 1990).

49. For a brilliant analysis of the formation of a revolutionary identity, see Timothy Tallack, *Becoming a Revolutionary: The Deputies of the French Assembly and the Emergence of a Revolutionary Culture* (Princeton: Princeton University Press, 1996).

50. Keith M. Baker, *Condorcet: From Natural Philosophy to Social Mathematics* (Chicago: University of Chicago Press, 1975).

51. Claude Perroud, ed., *Lettres de Madame Roland (Jeanne-Marie Roland), 1788–1793* (Paris: Imprimérie Nationale, 1900–2), 2:767.

52. Simon Dalton, "Gender and the Shifting Ground of Revolutionary Politics: The Case of Madame Roland [Jeanne-Marie Roland]," *Canadian Journal of History* 36 (2001): 259–82; and Gita May, *Madame Roland and the Age of Revolution* (New York: Columbia University Press, 1970).

53. Perroud, *Lettres de Madame Roland*, 2:767–77.

54. Ibid., 769–70.

55. Baulez, "Notes sur quelques meubles," 364; Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 143.

56. Edme Mentelle, *Tableau élémentaire de la géographie de la République française, à l'usage des écoles du 1er et 2ème âge* (Paris: F. Hocquet, 1792), 13; also quoted in Ozouf, "La Révolution française," 33.

57. On the complex politics leading to the purge of the Girondins, see Morris Slavin, *The Making of an Insurrection: Parisian Sections and the Gironde* (Cambridge: Harvard University Press, 1986).

58. Claude Perroud, "Jany, le dernier correspondant de Madame Roland," *La Révolution Française* 30 (1896): 15.

59. In the intervening years, Mentelle apparently forgot the code name he had used seven years earlier, recalling this as "Betzy" rather than "Jany" in his 1800 letter. According to Perroud, this was either "une lamentable défaillance de mémoire" or "une énorme distraction de plume" ("Jany," 35).

60. Ibid.; Claude Perroud, "Un dernier mot sur Jany-Mentelle," *La Révolution Française* 30 (1896): 227–28.

61. See Mentelle, *Géographie comparée,* published in seven volumes between 1778 and 1784 (see note 31 above).

62. Mentelle's letter and the subsequent report can be found in James Guillaume, ed., *Procès-verbaux du Comité d'Instruction Publique de la Convention Nationale* (Paris: Ministère de l'Instruction Publique, 1893), 2:136, 526–27, and 599.

63. Emphasis in the original. See Edme Mentelle, *Déclaration des droits de l'homme et du citoyen, mise en trente strophes, pour être chantée par les hommes libres de tout pays* (Paris: Imprimérie des Sans-Culottes / Maret, 1794).

64. Robert R. Palmer, *The Improvement of Humanity: Education and the French Revolution* (Princeton: Princeton University Press, 1985).

65. Nordman, *L'École Normale de l'An II,* 163–336.

66. Quoted in Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 145; and in Nordman, *L'École Normale de l'An II,* 169.

67. Py, *Rousseau et les éducateurs,* 512–20.

68. Godlewska, *Geography Unbound,* 57–86. As we have noted, Godlewska is entirely in sympathy with the anonymous reviewer, but for more positive assessments of Mentelle's École Normale lectures, see Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," and Sergio Moravia, "Philosophie et géographie à la fin du XVIIIe. siècle," *Studies on Voltaire and the Eighteenth Century* 57 (1967): 937–1011, esp. 949–53.

69. Labourie and Nordman, "Leçons de géographie," 144; and Louis Trenard, "Manuels scolaires au XVIIIe. siècle et sous la Révolution," *Revue du Nord* 55 (1973): 99–111.

70. Numa Broc, "Une Musée de Géographie en 1795," *Revue d'Histoire des Sciences* 27 (1974): 37–43.

71. Maurice Crosland, *Science in France in the Revolutionary Era* (Cambridge: Harvard University Press, 1969); Roger Hahn, *The Anatomy of a Scientific Institution: The Paris Academy of Science, 1666–1803* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1971); Dorinda Outram, "The Ordeal of Vocation: The Paris Academy of Sciences and the Terror, 1793–95," *History of Science* 21 (1983): 257–73; Daniel Roche, *Le siècle des lumières en province: Académies et académiciens provincaux, 1680–1789* (Paris and the Hague: Mouton, 1978).

72. Cheryl B. Welch, *Liberty and Utility: The French Idéologues and the Transformation of, Liberalism* (New York: Columbia University Press, 1984).

73. Heffernan, "Historical Geographies of the Future."

74. Staum, *Minerva's Message,* 154–71. See also Martin Staum, "Human Geography in the French Institute: New Discipline or Missed Opportunity?" *Journal of the History of the Behavioural Sciences* 23 (1987): 332–40. According to Larry Wolff's analysis of French attitudes to eastern Europe in the eighteenth century, Mentelle's reliance on stereotypical views of Russia merely restated ideas previously expressed by Voltaire and other leading figures of the Enlightenment. See Larry Wolff, *Inventing Eastern Europe: The Map of Civilization on the Mind of the Enlightenment* (Stanford: Stanford University Press, 1994), 195–234.

75. Nordman, "La pèdagogie du territoire." According to Labourie and Nordman, "Leçons de géographie, 145–46, the local archives in Seine-et-Marne indicate that Mentelle's text was used in the many disputes between different towns hoping to be given *chef lieu* status.

76. Edme Mentelle, *Précis de l'histoire des Hébreux depuis Moyse jusqu'à la prise de Jérusalem par les Romains: Ouvrage dans lequel on a tâché de concilier l'exactitude des faits avec les sains lumières de la raison, à l'usage des écoles primaires et centrales de la République française* (Paris: By the author, 1797–98); *Abrégé de la Géographie universelle de William Guthrie* (Paris: Bernard, 1799); *Cours de cosmographie, de géographie, de chronologie et d'histoire ancienne et moderne, divisé en cent vingt-cinq leçons*, 3 vols. (Paris: Bernard, 1800–1801).

77. See also Edme Mentelle, *Abrégé élémentaire de géographie ancienne et moderne* (Paris: Bernard, 1804), and *Géographie classique et élémentaire*, 2 vols. (Paris: Germain-Mathiot, 1813).

78. Edme Mentelle, *Études convenables aux demoiselles, à l'usage des écoles et des pensions* (Paris: Bossange, 1809); and Jennifer Birkett, "Madame de Genlis: The New Man and the Old Eve," *French Studies* 42 (1988): 150–64; Penny Brown, "'La femme enseignante': Mme de Genlis and the Moral and Didactic Tale in France," *Bulletin of the John Rylands University Library* 76 (1994): 23–42; Marie-Emmanuelle Plagnol-Diéval, *Madame de Genlis et le Théâtre d'Éducation au XVIIIe. siècle*, Studies on Voltaire and the Eighteenth Century (Oxford: Voltaire Foundation, 1997); Judith Still, "Genlis's *Mademoiselle de Clermont:* A Textual and Intertextual Reading," *Australian Journal of French Studies* 37 (2000): 331–47.

79. See Elizabeth Colwill, "Epistolary Passions: Friendship and the Literary Public of Constance de Salm, 1767–1845," *Journal of Women's History* 12 (2000): 41; and Constance de Salm, *Notice sur la vie et les ouvrages de Mentelle* (Paris: F. Didot, 1839).

80. Commentaries on Mentelle's life soon after his death include Bon-Joseph Dacier, "Notice historique sur la vie et les ouvrages de M. Mentelle," *Histoire et Mémoires de l'Institut Royal de France: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 7 (1824): 212–222; and P.-J. Larche, "Notice sur Mentelle," *Magazin Encyclopédie* 1 (1816): 359–71.

81. Patrice Higonnet, *Goodness beyond Virtue: Jacobins during the French Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1998).

82. Crosland, *Science in France;* Nicole and Jean Dhombres, *Naissance du pouvoir: Sciences et savants en France, 1793–1824* (Paris: Payot, 1989); and Charles Coulson Gillispie, *Science and Polity in France at the End of the Old Regime* (Princeton: Princeton University Press, 1981).

الفصل الحادى عشر

الصعود إلى الإمبراطورية
الجغرافيات الأخلاقية للجمهورية الأمريكية

روبرت ديفيد ليفنجستون David N. Livingstone

نظراً لأن الولايات المتحدة "صعدت مؤخرا إلى مستوى الإمبراطورية"، فقد شعر رجل الدين يديدياه مورس Reverend Jedidiah Morse بالالتزام بضرورة إعطاء عناية لعلم الجغرافيا، إذ يقول: "كان الأوروبيون الكتاب الوحيدين للجغرافيا الأمريكية، وغالبا ما كانوا يعانون من صعوبات فى تحديد أماكن الحقائق". ويصر مورس الآن على أنه "نظرا لأن الولايات المتحدة أصبحت أمة مستقلة، فسيكون من التأنيب لهم أن يسمحوا بالاستمرار فى المعاناة من هذا الجهل"(١).

وتعلن مشاعر مورس – التى عبر عنها فيما يسميه كاتب سيرته الذاتية ريتشارد موس Richard Moss بالكتاب الذى جعله الجغرافى الأمريكى الرائد – عن العلاقة الوثيقة بين الكتابة الجغرافية ومسألة الهوية(٢). وقد بدأت هذه الفكرة تتعرض مؤخرا لتلقى اهتمام نقدى من مؤرخى الجغرافيا، بسبب قوة كل من الجغرافيا والتاريخ فى دعم ما يسميه ديفيد هوسون David Hooson "وعى الهوية"(٣). أما الآن، وبفضل الكثير من الدراسات المتخصصة، فقد بدأنا ندرك شيئا – فى عينة عشوائية – عن كيف كان الأداء الجغرافى – مثله مثل إجراء المسوح العامة والتمثيلات الترفيهية – جوهرياً فى تكوين "الصورة الذاتية" الوطنية فى بريطانيا فى منتصف القرن السابع عشر، والدور

الذى لعبه إعداد الخرائط فى صناعة الشعور بالهوية الوطنية فى مجموعة من السياقات الإقليمية، وكيف كانت جغرافيا المدارس فى أيرلندا "تدرس كنصوص وطنية"(٤). ولا شك فى أنه يمكن تفصيل هذه الحالات باستفاضة(٥).

وأنا أريد هنا أن أحول الاهتمام إلى إنتاج الجغرافيات فى فترة الثورة الأمريكية، والاعتماد على الأنواع العديدة المختلفة من النص الجغرافى، من أجل تأكيد كيف أنها كانت تحشد بطرق مختلفة لدعم مفاهيم الجمهورية الجديدة. وتأكيدا لذلك، فقد كان كل الكتاب متفقين فى الاعتقاد بأن حقائق الجغرافيا كانت تبرز الشرعية الأخلاقية والسياسية للثورة. ولكن بعد ذلك، كشفت هذه الأعمال الدراسية الجغرافية عن استراتيجيات مختلفة لتبرير كيفية تنظيم مجموعة جديدة من الترتيبات الحكومية، ولتحديد ما يجب تعلمه من الاقتصاد الأخلاقى للولايات المختلفة، ولمعرفة كيف تدعم الفضيلة العامة فى حقبة هُجر فيها التراث الموروث، والملكية، والهرمية الاجتماعية، والديانة المستقرة، كأسس للسلطة المدنية، ولزرع إحساس بالهوية الخاصة فى الأمة الجديدة. ويعنى كل هذا أن هذه النصوص يجب أن تقرأ بصورة مختلفة عما اعتاده مؤرخو الجغرافيا. فبالرغم من شعبية جغرافيات مورس فى الجمهورية المبكرة مثلا، فإن أهميته تراجعت إلى مجرد ذكره فى حاشية فى مسح برستون جيمس Preston James المختصر(٦). ووجه ويليام وارنتس William Warntz الاهتمام إلى "عدم الدقة نتيجة ندرة المعلومات أو القبول بلا تمحيص لمواد مرسلة إليه من مواقع مختلفة كان يصفها"، ولاحظ أن "كتبه كانت تعانى أيضا من التحيز لصالح نيوإنجلاند، والأصولية الدينية، والنمط المبالغ فيه من المحافظة على الأخلاق"(٧). ولاحظت مرجريت بوين Margarita Bowen أن "الشعبية الطويلة لعمل مورس تدل على عدم الدقة فى الجغرافيا الأمريكية فى ذلك الوقت"(٨). ويعتبر جون جرين John Greene جهود مورس قاصرة بسبب فشله فى "مسايرة البحوث الحديثة فى الجغرافيا الأمريكية والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى"، لدرجة أنه يرى أنه لو "قرأ جيفرسون تقرير الجغرافيا الأمريكية والتاريخ الطبيعى فى طبعة ١٨١٩ من كتاب مورس، فلا بد أنه كان سيتراجع بقوة وأن يشمئز قليلا"(٩). ويمكن أن تقترب أو تبتعد هذه التقييمات عن الدقة. ولكن اهتماماتى مختلفة ببساطة، فأنا أريد أن أقرأ نصوصا جغرافية من هذا النوع على أنها تدخلات سياسية فعالة فى

وقت كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية المولودة حديثا تصارع لتكوين نفسها؛ لأنه كما يقال مؤخرا، "[كانت] ثقافة الكتابات الجغرافية... تمثل جزءا أساسيا فى ثقافة الكتابات الجمهورية المبكرة فى الولايات المتحدة"(١٠).

وكان ما يؤيد الحاجة إلى التدقيق فى النصوص الجغرافية فى هذه الفترة على هذه الأسس يتمثل فى إدراك أنه خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر، كان الرسامون أمثال رالف إيرل Ralph Earl يصورون بانتظام موضوعات بشرية فى مناطق مختلفة - رئيسة ممرضات فى ماساشوستس، صاحب متجر فى كونكتيكت، وصاحب مطعم فى فرمونت - باستخدام "مواد جغرافية استطرادية". ويخبرنا مارتن بروكنر Martin Brueckner بأن هؤلاء المواطنين "كانوا يظهرون مع أدوات جغرافية غالبا" - مجسمات الكرة الأرضية، ولوحات، وأطالس، وغيرها - وبهذا كانوا يعتمدون بصورة أدبية على الخطاب الجغرافى "للتفاوض وتحويل تمثيل الاختلاف الشخصى والإقليمى والسياسى إلى شخصيات مادية تحظى بإجماع وطنى". وفى الواقع، يستطرد بروكنر ليقول إنه من خلال النصوص الجغرافية "اخترع الأمريكيون نمطهم فى القومية الحديثة"؛ لأنهم وجدوا فى هذه النصوص إمكانية التوفيق بين "التنوع الإقليمى والوحدة الجغرافية"، ما يؤدى إلى إظهار "الأمة فى شكل مادى قابل للقراءة بطبيعته"(١١). وإذا اقترب هذا التحليل من الدقة، فإن ظهور ثقافة الطباعة وإعداد الأعمال الجغرافية قدم "هيكلا أساسيا وشكلا تخيليا أعطى الأمريكيون لأنفسهم من خلاله الرخصة الرسمية للهوية الوطنية"(١٢)، حيث قدمت الكتابات الجغرافية الأساس الأيديولوجى الذى جمع بين مزارعى ماساشوستس ومحامى فرجينيا، وبين تجار كونكتيكت وملاك مزارع جورجيا، ومن خلال النصوص الجغرافية، وخاصة الكتب المدرسية، تحولت الشعوب والثقافات الإقليمية المختلفة إلى توليفات محلية من "الشعب الأمريكى" العام.

وفى نفس الوقت، بشرت هذه النصوص بتحقيق حلم نوح وبستر Noah Webster بأمة متعلمة جغرافيا يسكنها أطفال "يعرفون بلادهم جيدا" ويكونون "مرتبطين بها"، كما ذكر فى مقاله "عن تعليم الشباب" فى ١٧٨٨(١٣). وعلى أى حال، كان وبستر يخطط للتعاون مع مورس فى عمل جغرافى، وكما لاحظ روبرت لوسون بيبلز، فإن آمال مورس

"التى علقها على الجغرافيا الأمريكية كانت تتردد أصداؤها لدى وبستر فيما يتعلق باللغة الأمريكية"[١٤]، فقد كانت كتب الجغرافيا تتناول "المسار المادى الذى يمكن من خلاله تحقيق هذا الاندماج المتخيل بين الفرد العادى والشخصية المجردة للأمة"[١٥]. وكان كل هذا يتفق مع رؤية وبستر للمعايير الوطنية لنطق الكلمات من أجل تسهيل الاتصال بين الأقاليم والطبقات، وكما كتب بنفسه فى مقدمة عمله "التدريبات النحوية" فى ١٧٨٣ (والذى يعرف عادة بكتاب وبستر لتعليم الهجاء Webster Speller): "ودعم مجد وازدهار جمهوريات أمريكا الكونفدرالية؛ و[الإدلاء] بدلوه بسخاء فى الرصيد المشترك للجهود البطولية"[١٦]. ويتفق هذا بوضوح مع تعليق جون جاى John Jay فى مقاله "الفيدرالى الثانى Federalist No 2" على أن "العناية الإلهية" قدمت فضاء جغرافيا مشتركا لشعب فريد، حيث علق بقوله: "سعدت العناية الإلهية بتقديم هذا البلد المتصل لشعب موحد". وفى الواقع، كان مصدر سعادة كبيرة له أن يعتقد "أن أمريكا المستقلة لم تكن تتألف من مناطق منفصلة ومتباعدة، ولكنها كانت بلدا واحدا متصلا وخصبا وواسع الانتشار، وأنها كانت من نصيب أبناء الحرية الغربيين"[١٧]. وقد لعب أى نص يؤثر على الشعور المشترك لمواطنى الأمة الجديدة بالهوية الجغرافية دورا جوهريا فى تشكيل الوعى الذاتى الوطنى.

ولاية فرجينيا فى عهد توماس جيفرسون ومعركة أمريكا

يمثل عمل توماس جيفرسون "مذكرات عن ولاية فرجينيا" نقطة الانطلاق الطبيعية هنا؛ حيث كان هذا العمل الكلاسيكى الذى نشر بالإنجليزية عن القانون الأمريكى المبكر لأول مرة فى ١٧٨٧ يمثل حافزا لنمو التعليم العلمى فى الجمهورية مبكرا. ولكن اهتمامات جيفرسون العلمية العامة والدور الذى لعبه البحث العلمى فى فكره السياسى ليس وثيق الصلة بما أهدف إليه هنا[١٨]. وليس هناك أية حاجة إلى تناول التناقضات التى تكشف عنها حياة جيفرسون الشخصية - فهو أمريكى يكافح ضد فساد الفردية التجارية، ومع ذلك يتمتع بمباهج مزرعته فى مونتيسلو Monticello وما بها من ملذات، وهو مالك أرض ولديه رقيق ويدافع عن حقوق طبيعية لا يمكن التصرف فيها[١٩].

ويرجع الهدف من إشارتى إلى أشهر منشورات جيفرسون (إعلان الاستقلال)، كأعظم ما أبدع، إلى تقديم شىء عن السياق الذى يجب أن نوضح فيه الجغرافيات الأخلاقية التى سأنتقل إليها حاليا.

وكان عمل "مذكرات عن ولاية فرجينيا" الذى أعد استجابة للاستبيان الشامل عن الجغرافيا والمنتجات والمؤسسات والدين والتمويل فى فرجينيا، والذى قدمه فرانسوا ماربوا Francois Marbois – سكرتير المفوضية الفرنسية فى فيلادلفيا – إلى جيفرسون يمثل فى جوهره تقريرا إقليميا[٢٠]، حيث مسح كل شىء من حدود الولاية والأنهار والجبال والمناخ إلى الموانئ والسكان والقوانين والسلوك، وأشياء أخرى إضافية.

ولكنه كان يحوى تقريرا تخيليا عن فرجينيا المتوقعة. ولنأخذ مثلا تعليقه على الفضائل الأخلاقية للعمال الزراعيين فى السؤال ١٩ المتعلق "بالصناعيين" فى فرجينيا:

"هؤلاء الذين يعملون فى الأرض هم شعب الله المختار، إذا كان لديه شعب مختار، حيث جعل صدورهم منبعا خالصا للفضائل الأساسية والحقيقية. وهم المكان الذى يحتفظ فيه بالنار المقدسة حية، والتى كان يمكن أن تهرب من على وجه الأرض، إذ إن فساد الأخلاق بين جموع المزارعين يعتبر ظاهرة لا مثيل لها فى أى عصر أو أية أمة. وهذه هى العلامة الدالة على أولئك الذين لا يتطلعون إلى السماء، بل إلى أرضهم وصناعتهم، كما يفعل الفلاح؛ لأن حياتهم تعتمد على الظروف وأهواء العملاء.... ويضيف الغوغاء فى المدن الكبيرة الكثير إلى دعم الحكم البحت، كما تفعل القروح فى قوة جسم الإنسان، فالأخلاق وروح الشعب هى التى تحافظ على قوة الجمهورية. والانحلال هنا يعتبر قرحة تأكل قلب القوانين والدستور بسرعة"[٢١].

وبالطبع كان جيفرسون يمثل فرجينيا المتخيلة. وكان السرد الذى يبدو جافا عن الولاية "وثرواتها المعدنية والأرضية الأخرى؛ وأشجارها ونباتاتها، وثمارها،... إلخ" مصمما لمواجهة صورتها السابقة على أنها إما الجنة أو الجحيم. وعلى عكس هذه التشبيهات المتطرفة، كانت فرجينيا جيفرسون مكانا حقيقيا يمكن قياسه ويمكن فهمه، وبالتالى يمكن اعتباره موقعا لشكل جديد من الوجود السياسى. وتؤكد هذه الإعلانات

- كما يلاحظ روبرت داويدوف Robert Dawidoff - أن خيال جيفرسون كان يتصور الممكن والمرغوب والمأمول، متوقعا فى مستقبل شامل، ربما يكتسح الحاضر، ومن المؤكد أنه أثر على الماضى.... وتزخر هذه "المذكرات" بهذا النوع الخاص من تصور جيفرسون، الذى يمثل طريقته فى قراءة الأعمال العلمية وتصور المستقبل، حيث أصبحت فرجينيا فى الكتاب جنة جمهورية محددة علميا، ومكانا مناسبا للحكم الحر الذى يتصوره جيفرسون"(٢٢). وكذلك كان هذا التصور متفقا مع فهم جيفرسون للخيال كأداة للتحول الأخلاقى. وبناء على استخدامات الخيال، لاحظ هنا أن "مجال الخيال الواسع متاح لاستخدامنا، ويمكن الاستفادة من الدروس لتوضيح ونقل كل قواعد الحياة الأخلاقية إلى الأذهان"(٢٣).

وفى نفس الوقت، كانت "المذكرات" مصممة أيضا للدفاع عن موقف جيفرسون الخاص من الافتراءات التى تعرض لها من جانب الكتاب الأوروبيين، وخاصة عالم الطبيعة الفرنسى بافون Buffon، وهكذا كانت نصا مهما فى "صراع العالم الجديد"، بالرغم من أنها كانت مصممة طبقا لتقاليد الإقليمية الأوروبية المعروضة فى عمل روبرت بويلى Robert Boyle "الخطوط العامة للتاريخ الطبيعى لأمة" فى ١٦٩٢. ونظرا لأن بافون ركز على الحيوانات الصغيرة الحجم فى القارة الأمريكية، ركز جيفرسون بالتفصيل على الحجم الأكبر للحيوانات فى العالم الجديد، وكما يقول أنتونيللو Antonello بوضوح: "تنحى جيفرسون بحماس عند رؤية العديد من الحيوانات الكبيرة، الرنة والدببة والذئاب التى تفوق، أو على الأقل تساوى، الحيوانات الكبيرة الأوروبية فى الوزن؛ وكان مصمما على هزيمة خصومه تماما، ولذلك وضع الماموث الأمريكى العملاق فى المقاييس المجازية، ما جعل كفة الميزان تميل إلى العالم الجديد"(٢٤).

وفى نفس الوقت، كانت خطبة جيفرسون عن جغرافية الحيوان بمثابة دفاع أنثروبولوجى عن حالة الطبيعة "الإنسانية" فى العالم الجديد. وكان هدفه هنا يتمثل فى القس الفرنسى جويلومى توماس فرانسوا رينال Guillaume Thomas Francois Raynal الذى تولى إخبار القراء الأوروبيين بأن أمريكا كانت غير ناضجة وأن شعبها كان عاجزا. وعندما تبنى رينال القول بأن "أمريكا لم تخرج حتى الآن رجلا يتمتع

بالعبقرية فى أى فن أو فى أى علم، ارتفع جيفرسون إلى مستوى التحدى: ألم تنجب أمريكا واشنطون ("الذى ستظل ذكراه محبوبة ما دام للحرية أنصار")، وفرانكلين ("الذى لم يقدم أحد فى عصره اكتشافات مهمة أكثر منه")، ورتنهاوس Rittenhouse ("الذى لم يسبقه أى فلكى معاصر")(٢٥)؟ ويمكن اكتشاف إحساس جيفرسون بالفضيحة الأخلاقية لافتراء رينال من سخريته القادحة من حيث إنه حتى إذا استطاعت فرنسا تحقيق نسبة أعلى من العباقرة بين السكان مقارنة بنسبة أمريكا، فإن مجد بريطانيا كان "ينتشر بسرعة فى الآفاق". وأضاف أن "فلسفتها عبرت القنال الإنجليزى، وحريتها عبرت المحيط الأطلنطى، ويبدو أنها كانت تنتقل إلى انحلالها الرهيب، الذى لا يحظى موضوعه برؤية إنسانية يمكن رصدها"(٢٦) - هذا بالرغم من وضعه صور إسحاق نيوتن، وفرانسيس بيكون، وجون لوك على جدران معرض الخالدين فى مونتيسيلو. وفى الواقع، فقد امتدت قضية دفاع جيفرسون الأنثروبولوجى إلى السكان المحليين فى أمريكا، بالرغم من أنه كان يدعو - كما هو معروف - على أسس علمية مزعومة إلى أن البيض والسود يجب أن يظلوا منفصلين دائما(٢٧). ومع ذلك، كان يستخدم خطاب الزعيم لوجان Chief Logan الشهير فى ١٧٧٤ إلى حاكم فرجينيا اللورد دنمور Lord Dunmore، ليعارض ما وصفه بأنه "النظرية الحقيرة لبعض الكتاب الأوروبيين الذين منحت شهرتهم انتشارا ووزنا لآرائهم، التى تقول إن الآثار المجتمعة للتربة والمناخ فى بلادنا أدت إلى تدهور الطبيعة الحيوانية بصفة عامة، والصفات الأخلاقية للإنسان بصفة خاصة"(٢٨). حيث نجد هنا القوى الدافعة المجردة التى تكمن وراء كتابة جيفرسون "للمذكرات". فكما فسر فى رسالة إلى هنرى حاكم مريلاند فى ١٧٩٧، كانت رسالته "تضع فى ميزان الحقيقة والعقل" هذه "النظرية البغيضة التى لا أساس لها من الصحة والمهينة لثلث سكان العالم"، والتى "تفترض أن هناك شيئا فى التربة والمناخ والظروف الأخرى فى أمريكا ما يسبب تدهور الطبيعة الحيوانية، والذى لا يستثنى حتى الإنسان، سواء كان محليا أو متكيفا من الناحية الجسدية أو الأخلاقية"(٢٩). فقد كانت هذه "المذكرات" بمثابة تبرير جغرافى للتكامل الأخلاقى للطبيعة الأمريكية والطبيعة الإنسانية الأمريكية، فلم تكن أمريكا مكانا للشرور الأخلاقية؛ بل كانت جغرافيتها الطبيعية والبشرية والأخلاقية تناسب احتياجات جمهورية جديدة.

يديدياه مورس والطبوغرافيا الأخلاقية للجمهورية الجديدة

فى العقود الأولى من عمر الجمهورية الأمريكية، تعلم آلاف الأمريكيين شئون "أمتهم" من خلال كتابات رجل دين اشتهر باسم "المبجل يديدياه مورس" (١٧٦١-١٨٢٦)؛ إذ إن كتاباته الجغرافية المختلفة "كانت سائدة فى مدارس الأمة، وكانت أساسية فى مكتبات الأسر" لعقود[٣٠]. وفى الواقع، كانت هذه الأعمال مشهورة جدا لدرجة أنها كانت الأكثر مبيعا بعد كل من الإنجيل وكتب القواعد النحوية التى وضعها وبستر[٣١]. وحسب تقديرات مورس نفسه، فقد بيع ٢٠٦٠٠ نسخة من كتابه "جغرافية أمريكا" حتى ١٧٩٤[٣٢]. وكان لكتاباته تأثير كبير، فكما يقول ماديسون كوهن Madison Kuhn، "تعتبر ميتشجان مدينة جزئيا من حيث سرعة الاستيطان فيها للمبجل يديدياه مورس، فهو أبو الجغرافيا الأمريكية"[٣٣]. فطوال مساراته المتعددة، كوزير وجغرافى وداعية إلى الأصولية المذهبية، كان مورس يعتبر نفسه حارسا للأخلاقيات الجمهورية الجديدة. وهكذا كانت أعماله الجغرافية بمثابة تمارين فى الطبوغرافيا الأخلاقية أساسا، وكانت أيضا بمثابة مشروعات فى تبرير الثورة الأمريكية[٣٤]، حيث يتحدث لستر كوهين Lester Cohen، فى تحليله لطرق إضفاء المؤرخين للشرعية على الحرب الثورية، عن كيفية قيام "مؤرخى البطولات" بنشر أفكار القانون الطبيعى ورب الطبيعة لتبرير "انفصال أمريكا عن بريطانيا على أسس الضرورة التاريخية"[٣٥]. وفى الواقع، فقد اعتمد عمل مورس فى ١٨٢٤ والمعنون "حوليات الثورة الأمريكية" لإظهار كيف أن مسائل الانتهازية السياسية وما سماه مورس "الخطب الميتافيزيقية حول الحقوق المجردة" كانت تنتشر فى ترسانة التبرير التاريخى[٣٦]. ويمكن أن نضيف إلى هذا علاقة جغرافية، إذ إن مورس كان يصر أيضا فى كتاباته الجغرافية على أن:

"رب الطبيعة لم يقصد قط أن يفرض على جزء من أفضل أجزاء العالم أن يسكنه رعايا ملك يبعد عنهم بأربعة آلاف ميل. وربما يجب ألا نغامر بتوقع أنه – عندما تصبح حقوق الإنسان معروفة تماما، وعندما تتزايد معرفتها بسرعة فى كل من أوروبا وأمريكا – ستصبح سلطة حكام أوروبا قاصرة على أوروبا، وأن مناطق سيطرتهم الأمريكية الحالية ستصبح مثل الولايات المتحدة: إمبراطوريات حرة ومستقلة وذات سيادة"[٣٧].

وأود أن أبدأ ببعض الملاحظات على "جغرافية أمريكا"، الذى ظهر لأول مرة فى ١٧٨٩ - بينما كان يتم التصديق على الدستور - ثم ظهر بعد ذلك فى عدة طبعات وصياغات مختلفة[٣٨]، وكان يمثل "وصف الأمة الأكثر قراءة بعد إقرار الدستور"[٣٩]. وظهرت طبعة ثانية فى لندن من دار جون ستوكديل Stockdale فى ١٧٩٢، وظهرت طبعة أخرى جديدة بعد ذلك بسنتين مع ثلاث خرائط مطوية و٢٥ خريطة عادية، وتشمل خريطة لكنتاكى مرسومة بناء على الملاحظات الفعلية لجون فلسون John Filson". وظهرت طبعة أدنبره بسبع خرائط مطوية فى ١٧٩٥، وكذلك ظهرت طبعات أخرى تصحبها توليفات خرائط مختلفة، وذات ترقيمات مختلفة، وبعض التعديلات الأخرى. ويذكرنا كل هذا بتدفق النصوص التى ميزت الكتب فى تلك الفترة، ولذلك كان الجمهور المختلف يواجه أشكالا لهذا العمل[٤٠].

وكان الجزء الأول من هذا الكتاب يدور حول الأفكار الجغرافية التقليدية - المبادئ الفلكية (التى تشمل توضيح الكواكب، والمذنبات، والنجوم الثابتة)، وتوجيهات استخدام مجسم الكرة الأرضية، وطبيعة الدورات المناخية. وعادة ما كانت هذه الموضوعات تعرض فى إطار لاهوتى طبيعى، كان يفسر "قبة السماء الجميلة الغنية" بالنجوم مشيرة إلى "حكمة الخالق". وفى نفس الوقت، أشار مورس إلى احتمال تعدد العوالم بملاحظة أن هذه "النظم الكوكبية... مملوءة بسكان يناسبون المناخات السائدة فيها؛ وأن هناك العديد من المواقع التى يظهر عليها الخالق الكبير وحاكم العالم قدرته وحكمته وطيبته المطلقة (٣)". ولا شك فى أن هذا كان يتوافق تماما مع الأعمال الجغرافية السائدة آنذاك. وكما لاحظ إيليا باريش Elijah Parish - الذى تعاون معه لاحقا - فى طبعته الخاصة به فى ١٨١٠ بعنوان: "النظام الجديد للجغرافيا الحديثة" فإنه "بالرغم من أن الجغرافيا تعتبر تخصصا أرضيا، فإنها اعتبرت "دراسة سماوية"، فهى تشمل العديد من الموضوعات التى توسع الذهن، وتحسن القلب، مما يمنح رؤية عادلة للعناية الإلهية والطبيعة الإنسانية"[٤١].

وبعد ذلك بفترة قصيرة، تحول مورس إلى جغرافية أمريكا ليصف الملامح البارزة للقارة، ويسجل اكتشاف الأوروبيين لها واستيطانهم فيها، ويحدد الظروف الطبيعية

والثقافية للولايات المتحدة الجديدة، وبعد إعادة الطبع الكاملة للدستور الجديد المقترح ليحل محل "بنود الاتحاد"، اختتم بكلمات قصيرة تمجد بعض الشخصيات الرئيسة فى المشهد الحديث للجمهورية مثل: واشنطون، ومونتجمرى، وجرين Greene، ولافاييه Lafayette. ونظرا لأنه كان يكتب فى ذروة الحماس الجمهورى، كانت مشاعر مورس الموالية لفرنسا (بالرغم من أنه غيَّر أرضه لاحقا) ظاهرة بوضوح، وذلك مثلما كان إحباطه تجاه البريطانيين، فعلى عكس "حلفائنا وأصدقائنا الصالحين والمخلصين، الفرنسيين"، الذين كانت "حكومتهم الاتحادية المشكلة حديثا" تعتبر "ليبرالية" من حيث سياساتها التجارية تجاه الولايات المتحدة، حاول البريطانيون "أن يقيدوا تجارتنا بكل طريقة ممكنة" (٨٦، ٨٤). وفى الواقع، وفى خطب عديدة ألقيت خلال منتصف تسعينيات القرن الثامن عشر، كان مورس يمدح الطريقة التى قام بها الفرنسيون "بكسر سلاسل الطغيان المدنى والكهنوتى واعتناق قضية "الحرية"، والتى تعتبر حقا للإنسانية بالميلاد"[٤٢]. ومن المؤكد أنه فى هذا الصدد لم يكن وحده بين رجال الدين؛ إذ إن معلمه عزرا ستلس Ezra Stiles، رئيس جامعة ييل ذا الانتماء الدينى، كان مؤيدا بقوة للثورة الفرنسية[٤٣].

وبعد معالجة هذه الموضوعات التقليدية، تحول مورس إلى الصورة الإقليمية للولايات العديدة فى الاتحاد، وإلى ما كان فى الواقع بمثابة جغرافيا أخلاقية للاتحاد. ففى الأساس، كان هذا بمثابة تبرير لنيوإنجلاند باعتبارها البوتقة التى يجب أن تنصهر فيها كل ولاية أخرى فى الاتحاد. وكان سكان نيوإنجلاند "وجلهم من أصل إنجليزى" وبناء على حماسهم للتعليم "استمرت اللغة الإنجليزية بينهم نقية من الخلل". وكان هؤلاء السكان يتمتعون "بالطول والشجاعة وقوة البنية"، وكانوا يتميزون بالتفوق فى "روح الحرية" التى أظهرت نفسها فى "جوهر الحرية الحقيقية". وكانوا يتصفون أيضا "بالصناعة والاقتصاد" وما سماه مورس "تلك الوسطية السعيدة... التى تشجعهم على الاقتصاد والصناعة، وتبعدهم عن إغراءات الرفاهية، وتعودهم على عادات الاعتدال وضبط النفس" (١٤٥). وكانت النساء فى نيوإنجلاند جميلات، وكانت الرياضات فيها "صحية"، وكانت الألعاب "لا يمارسها إلا من لا يستطيع أو لا يجد عملا محترما" (١٤٨). وبالطبع، لم تكن الصورة خالية من العيوب تماما، فقد كان مورس يعتقد أن هؤلاء السكان

يميلون كثيرا إلى التقاضى، الذى كان "ثمرة حقيقية للجمهورية"، ولكنه كان فى نفس الوقت دليلا على "فساد الفضيلة" (١٤٦). وكانت نيوإنجلاند لا تزال مكانا للصناعة والاقتصاد والإحسان، حيث كان الناس يحصلون على "ممتلكاتهم بالعمل الشاق والدءوب، وبالتالى كانوا يعرفون قيمتها، وكانوا ينفقون باقتصاد، ومع ذلك، لم يكن الفقراء والمساكين فى أى بلد آخر أحسن حالا منهم" (١٤٧). إنها لم تكن المدينة الفاضلة تماما، ولكنها كانت قريبة منها. وهكذا كانت ماساشوستس - بقائمتها المؤثرة من الجمعيات والأكاديميات الخيرية - "تحظى بأهمية عسكرية وسياسية وأدبية... ولا تسبقها أية ولاية، وتتفوق على معظم الولايات فى الاتحاد" (١٩٣). وكانت رود أيلاند "صحية وممتعة للغاية"، وكانت "مشهورة بنسائها الجميلات"، ولذلك كانت تعرف لدى المسافرين "بجنة عدن أمريكا" (٢٠٢). والأعظم من هذا أن كونكتيكت - وهى ولاية مورس - كانت "الأفضل فى العالم" من الناحية الدينية بالنسبة إلى حكومة جمهورية، لدرجة أنه شعر بأن نمطها فى ممارسة الحكم والنظام الكنسى "يمكن أن يطلق عليه دين جمهورى" (٢١٩). وبالنسبة إلى الإنجازات الفكرية، "لا يوجد مكان فى العالم ينتظم فيه الناس من كل الطبقات ذى التعليم كما فى كونكتيكت" (٢٢٥)، ولذلك ليس مدهشا أن مورس اعتبرها "أثينا أمريكا" (٢١٤). وإجمالا، كانت كونكتيكت تتصف بميزة بسيطة حيث كان "رجالها المجتهدون الأذكياء" يديرون مزارع وفرت لهم "كل الضروريات، ومعظم الحاجيات، وبعض كماليات الحياة" (٢٤٠)، ولذلك فإنها ربما كانت "أكمل وأسعد جمهورية ظهرت إلى الوجود" (٢٤١).

وفى الأماكن الأخرى كانت الأوضاع أقل ازدهارا. ففى فرجينيا، كانت الصفات الحسنة قاصرة على "عدد قليل من الرجال البارزين" (٣٨٧). وبصفة عامة، واقتباسا من القس أندرو برنابى Rev. Andrew Burnaby، صوَّر مورس سكان فرجينيا على أنهم "كسالى" ويستسلمون للمتع البهيجة" ويحذرون من "تعريض أنفسهم للتعب"، وبالتالى فإنهم يظهرون "الإسراف، والتفاخر، وعدم الاهتمام بالاقتصاد"، وكثيرا ما كانوا "يبددون دخولهم ولا يبالون كثيرا بالأعمال (٣٨٨، ٣٨٩). وطبقا لرحالة مميز آخر، "كانوا مدمنين على اللعب، والشراب، والسب، وسباق الخيل، وصراع الديوك، ومعظم أشكال الإسراف" (٣٩٠).

ولم تكن الأحوال فى الأماكن الأخرى أحسن حالا. وعلى سبيل المثال، كانت مناقشات الحياة فى كارولينا الشمالية تدور حول "الزنوج، وأصبغة الأقمشة، والأرز، والتبغ،... إلخ". وكان هناك "ميل طفيف إلى العلوم والدين"، ما نتج عنه أن "الحوارات السياسية والمناقشات الفلسفية، كان لا يحضرها سوى عدد قليل من الرجال العباقرة والأذكياء، وكانت شاقة جدا على المتبلدين من العوام على نطاق واسع" (٤١٧). ومن الناحية الأخلاقية أيضا، كانت الأمور فى تراجع مستمر، إذ يقول مورس إن "الاعتدال والجد" لم يكونا من فضائل سكان كارولينا الشمالية، وكان الوقت الذى يبددونه فى الشراب والتسكع والقمار لا يترك لهم فرصة لتطوير مزارعهم أو عقولهم" (٤١٧). أما بالنسبة إلى كارولينا الجنوبية، فإن شرور الرق - "وارتياح أعداد كبيرة من الناس من الحاجة للعمل اعتمادا على الرقيق" - أدت إلى "الرفاهية والإسراف والبذخ"، وكانت هناك مجموعة من الظروف الاجتماعية السيئة التى تتفاقم بسبب "المناخ الذى يشجع على الكسل والتساهل والبحث عن المتع البهيجة" والتى جعلت سكان الولاية "بلا معرفة تكفى لمعالجة أمور الحياة العادية" (٤٢٣). ففى مثل هذه الظروف، لا غرابة فى أن كارولينا الجنوبية تراكمت عليها ديون كثيرة جدا. وفى جورجيا أيضا، تآمرت الظروف المناخية - بنمط أبقراطى جديد وجيد - لسحق الفضيلة، فقد كانت هذه الظروف غير "صحية"، وكانت "الاضطرابات" التى يسببها المناخ تشمل "الكسل" و"المرض"، وحب "الكميات الكبيرة من المشروبات الروحية" التى أظهرت "أشكالا من الإفراط الذى غالبا ما يثبت أنه يدمر بنية الجسم" (٤٤٥). وفى مثل هذه الظروف، لا غرابة فى أن الكثيرين كانوا يحصلون على "متعة خرافية على مائدة اللعب، والتى... غالبا ما تنتهى بتحطيم متعتهم وثروتهم وأجسادهم"، وأنه "بالنسبة إلى الدين والسياسة والأدب، كانت هذه الولاية لا تزال فى بدايتها" (٤٥١). وبصفة عامة، وكما يصف موس Moss بدقة، "كان مورس لا يحب أية ثقافة قريبة من الرق والطقس الحار"[٤٤].

ولسنا فى حاجة إلى شهادات أخرى لندرك إلى أى حد يمكننا أن نعتبر عمل مورس "جغرافية أمريكا" بمثابة "مناحة كبيرة ومعقدة"؛ حيث "رثى فيها خطايا الأمة ومدح فضائلها"[٤٥]. فقد كان لكل من الفضيلة والرذيلة توزيع متميز لدى مورس،

حيث كانت الفضيلة منتشرة فى نيوإنجلاند، بينما كانت الرذيلة منتشرة فى كل مكان آخر. ولكنه لم يقصد أن تكون مرثاته مروعة؛ بل كان هدفه يتمثل فى إثارة التوبة والتجديد بحيث تستطيع الأمة كلها أن تعود إلى "الاسم المشرف للأمريكيين" (٦٧). وفى نفس الوقت، كان مورس مضطرا إلى إتقان تقريره بطرق خيالية بدرجة أو أخرى. ونظرا لأنه عبر عن نفسه سلفا منتقدا "ظلم وإجحاف استرقاق الأفارقة" والتأثير "الضار" على كل من "السلوك والأخلاق" مؤملا أن "يتحرر الرقيق فى الولايات المتحدة يوما ما"، ومؤملا على قيم المجتمع فى " تحرير الرقيق" فى الولايات الشمالية (٦٥، ٦٧)، فمثلا، كانت هناك خدعة واضحة فى اعتبار جورج واشنطون - الذى كان لديه رقيق - بمثابة نموذجا "للبساطة الطاهرة" (١٣٠)، حيث سجل مورس أن واشنطون عندما كان يخرج "إلى مزارعه المختلفة"، كان يظل مع "عماله حتى بعد الساعة الثانية"؛ حيث تحول رقيق واشنطون إلى عمال على الورق، وليس فى الواقع"(١٣٣).

ولا تزال خيوط التجميع الأخلاقية للأمة الجديدة تتبع اتجاهات الاختلاف العرقى أساسا. ولنأخذ مسألة السكان المحليين فى أمريكا، حيث عرض مورس فى كل من "الجغرافيا الأمريكية" و"التاريخ المختصر" التناقض بين "عدالة تعاملات نيوإنجلاند مع الهنود، والظلم الواقع عليهم فى الولايات الغربية"[٤٦]. وقد سبقت هذه الأحكام العمل الذى أعده لاحقا بعنوان "تقرير إلى وزير الحربية فى الولايات المتحدة عن شئون الهنود"، وذلك فى أعقاب جولة قام بها خلال صيف ١٨٢٠. وتأكيدا لذلك، كان مورس يأمل فى أن يتحول الهنود إلى مزارعين مهرة يعملون بجد ويتحولون إلى المسيحية، وكان يرى أن الأفق الوحيد لاستمرارهم يتمثل فى التلاشى ثقافيا، فلو استطاع الأمريكيون المحليون تبنى نمط الحياة القروية السائد فى نيوإنجلاند، والذى يشيد به مورس فى أعماله الجغرافية، لاستطاعوا الخلاص فى هذا العالم وفى الآخرة. ومع ذلك، كان معجبا بطبيعة عدم التملك فى مجتمعهم، واستنكر استغلالهم على أيدى التجار، وكان يندب تدميرهم من خلال الرأسمالية المتحللة، وكان يتحدث عن "وضعهم المأساوى" الذى "تركوا فيه بائسين ليضلوا طريقهم لبضعة أجيال، حتى يتلاشوا إلى الأبد". وكانت لديه نظرة متفائلة إلى الزواج المختلط، مدعيا أن "العقبات الرئيسة سوف

تزول عندما يتعلمون ويعتنقون المسيحية". وعلى أى حال، فقد كان يصر مثل ستانهوب سميث Stanhope Smith على أن الهنود(*) كانوا "يحملون دما واحدا مثلنا"(٤٧). وهكذا كانت معاملة الهنود تمثل معلما فى المشهد الأخلاقى للجمهورية، بالرغم من أن خرائطه الأخلاقية كان يمكن أن ترتبك لو تسنى له قراءة ملاحظات إدوارد إيفريت Edward Everett - رئيس هارفارد، ووزير الخارجية، وحاكم ماساشوستس لاحقا - على "تقريره". لأن إيفريت كان يراقب بكل سعادة وبكل برود حتمية غزو البيض. فبالنسبة إليه، كان واضحا تماما أن الهنود "ليس لديهم قضية عادلة فى التذمر من تقدم البيض، الذين كان يمكن أن يصبحوا على حق تماما مثل الهنود أنفسهم، لو كانوا قد استخدموا السيف منذ بداية وصولهم لفرض أنفسهم والقضاء على دعاوى الهنود"(٤٨).

وبينما كان كتاب "الجغرافيا الأمريكية" يقرأ على نطاق واسع، وتوصى به بعض السلاسل مثل "تقويم المزارعين"، فإن تصوير مورس المثالى لرجال الدين فى كونكتيكت لم يكن مقبولا على نطاق واسع، إذ إن الشعبوى المستقل إلياس سميث - الذى كان وزيرا وطبيبا وطبيب أسنان وناشرا وتاجرا أحيانا - كان يسخر من رواية مورس الاتحادية، فى مؤلفه المكون من ثلاثة مجلدات "تاريخ المسيح الدجال"(٤٩). وكانت رؤية سميث الديمقراطية المناهضة للنخبوية متشبثة بالاعتقاد بأن مساواة جيفرسون الراديكالية كانت تتوافق تماما مع الدين المسيحى، وكان يستغل كل فرصة للهجوم على الطوائف التقليدية والسلطة الكهنوتية المستقرة. وكان سميث يرى أن رجال الدين أمثال مورس كانوا يؤيدون بشدة الوضع الراهن، حيث درسوا "اللاهوت البشرى" بصورة تكفى لتعلم عدة صلوات عن ظهر قلب، وتعلموا فى الجامعة، و"حافظوا على تفوق الأرستقراطية على الديمقراطية فى كونكتيكت". ولا غرابة فى أن مراتب الكهنوت فى كونكتيكت كانت متعددة جدا! إذ إن سميث لم ينمق كلماته حين قال: "ليس هناك طريقة أمام شاب مهذب يريد أن يمارس نشاطا "برأسمال صغير" أسهل من أن يصبح

(*) المقصود هنا سكان أمريكا الأصليون من الهنود المعروفين بـ"الحمر". (المترجم)

رجل دين – حلة سوداء، وبضع مذكرات، وممارسة قدر ما من الرياء – ؛ حيث يمكن أن يحصل على بيت كاهن وأرض، وعشرين حزمة من الخشب كل سنة، وعدة مئات من الدولارات لبداية حياته، وعدة مئات أخرى لمواصلتها، مع التزامه مدى الحياة بأنه إذا أرادت المدينة التخلص منه فإنه سيحصل على عدة مئات أخرى ليتركها. ولا غرابة فى أن رجال الدين كثيرون، فمن الذى لا يريد أن يكون "رجل دين"!. وكان سميث فى أعماق نفسه متأكدا من أن رجال الدين يمثلون "مجموعة خطيرة من الرجال؛ لأنهم يعارضون "الحكم الجمهورى للبلاد"(٥٠). وبالإضافة إلى شخصيات مثل لورنزو دو Lorenzo Dow ووليام ميلر William Miller، كان سميث واحدا من مجموعة ممن يصفهم ناتان هاتش Nathan Hatch بأنهم "المغرورون" الذين استبعدهم رجل دين تقليدى منزعج باعتبارهم "غوغاء بلا عقل"، إلا أنه "لم يستطع إبعاد الناس عن تأييد موقفهم"(٥١).

وكان تصوير سميث لرجال الدين فى كونكتيكت لا يبتعد عن الصورة العامة، على الأقل فيما يتعلق بمورس. وذلك لأن مورس كان متحمسا للحزب الاتحادى – وذلك نتيجة لصداقته الشخصية وولائه لجورج واشنطون جزئيا – وكان منزعجا جدا من الجمهوريين الديمقراطيين من أتباع جيفرسون، حيث كان لدى الاتحاديين – حتى انهيار الحزب فى أعقاب حرب ١٨١٢ – رؤية أكثر نخبوية للحكم وتفضيل للسلطة المركزية القوية. وكما يقول ريتشارد بويل Richard Buel، كانت هذه الرؤية من اختيار من كانوا يشعرون بعدم الأمان فى مواقعهم القيادية، بسبب التغيرات التى أحدثتها الثورة"(٥٢). وبالطبع لم يكن الجمهوريون الديمقراطيون والاتحاديون متناقضين تماما فى كل القضايا، نظرا لاقتناع كل منهما بصواب الثورة ذاتها على الأقل، وبالتالى، لا يمكن اعتبار تعاطف مورس مع الاتحاديين بمثابة رفضا لجيفرسون إجمالا، فقد كان كتاب مورس "الجغرافيا الأمريكية" يساند تماما مناهضة مذهب بافون Buffonianism لدى جيفرسون، بالرغم من أن مورس كان يرجع نظرية الدونية الأمريكية إلى "الحاجة إلى المعلومات" وليس إلى "التحيز" من جانب "بعض الكتاب الأوروبيين الطلقاء المهرة". وعلى أى حال، فقد كان سعيدا بأن "السيد جيفرسون قد دحض هذه النظرية؛

ومن خلال البراعة والقدرات التى أظهرها فى هذا الصدد، فقد قدم مثالا على زيفها" (٦٣).
ولكل هذا، فقد وجد مورس أن المناهج الديمقراطية على نمط جيفرسون تعتبر أقرب إلى العمل البغيض. فقد كان مورس فى الواقع "جمهوريا قلقا" يخشى الجمهورية الراديكالية والتعددية[٥٣]. وقد أزعجته الدعوة الجمهورية الديمقراطية القوية إلى "المساواة"؛ لأنه كان يعتقد أنها تؤدى إلى ظهور الفردية وتدهور السلطة الثقافية، ولهذا السبب تحديدا صور مورس رجال الدين فى كونكتيكت على أنهم حراس "التوازن الأرستقراطى فى الحكم الديمقراطى للولاية" وأنهم يراقبون "الروح المتعجرفة للجمهورية" (٢١٩).

وكان مورس يخشى من أن جمهورية جيفرسون سوف تطلق العنان للإلحاد والفردية والتساهل. وبالتالى فإنه - بعد أن ثار على الثورة الفرنسية - بدأ يشير إلى حزب جيفرسون بأنهم "اليعاقبة" الذين يجسدون اللادينية الفرنسية. ولكن رؤيته الخاصة كانت مختلفة، إذ إن أمريكا لا يمكن أن تزدهر إلا فى تربة البساطة والتضحية بالذات والفضيلة والنزعة المجتمعية. وكما قال عن سكان نيوإنجلاند، فإن الحرية دون فضيلة تعد "فجورا" (١٤٦). ويرى مورس أن الجمهوريين الحقيقيين يحتاجون إلى قوانين مقيدة للاستهلاك الترفى والإفراط فى الطعام والثياب أيضا[٥٤]. وكان يرى أن الأزرار باهظة الثمن، والقبعات المنتفخة، والوجبات التى تزيد عن نوعين من الطعام، تمثل بعض الأشياء التى كان يرى أنها يجب أن تحظر بالقانون[٥٥]. لأنه كما قال مونتسكيو سلفا، فإن السعى وراء الرفاهية هو الذى دمر الإمبراطوريتين الإغريقية والرومانية. وهكذا ثار مورس فى كتاب "جغرافية أمريكا" ضد "فساد استيراد واستهلاك الكميات الهائلة من المشروبات الروحية" التى "تدمر الممتلكات، وتهدد الأجسام، وتسبب تحطيم أخلاقيات الآلاف من مواطنى أمريكا" (٨٩)[٥٦]. وكانت هذه فكرة اتحادية عامة فى الواقع. وكما قال جون آدمز John Adams لاحقا لجيفرسون نفسه فى ١٨١٩، فإن المسألة كانت تتمثل فى "كيفية منع الثروة من إنتاج الرفاهية،... [و] كيفية منع الرفاهية من إفراز الخنوثة والسكر والتهور والرذيلة والحماقة"[٥٧].

وفى السنوات التى تلت أول ظهور لكتاب "جغرافية أمريكا"، شعر مورس بتزايد الفساد فى الشخصية الأمريكية. فعلى المستوى المحلى، كان يخشى من غزو القادمين الجدد لأبرشيته فى تشارلزتاون، مساتشوستس (حيث انتقل إليها فى ١٧٨٩)، وكان يدعو إلى سياسة حظر "استيطان الكسالى والمسرفين والهمج والفقراء بقدر الإمكان.... إن "الآباء" المدنيين المسئولين عن إدارة سياسة المدينة سيولون الاهتمام اللازم بهذا الشأن المهم من منطلق مراعاتهم للرفاهية الأخلاقية والدينية والزمنية"[٥٨]. وعلى المستوى العام، كان يعتقد أن "مؤامرة كبيرة وغادرة" مصدرها بعض فلاسفة التنوير الراديكاليين كانت تهدد صميم نسيج الجمهورية الجديدة. وهكذا فإنه خلال ١٧٩٨ و١٧٩٩، ألقى ثلاث مواعظ بهدف كشف ما اعتبره بمثابة "المتنورين Illuminati" البافاريين، ما قفز به إلى قمة الوطنية، حيث بنى تحليله هنا على كتاب جون روبيسون John Robison الذى نشر فى أدنبره فى ١٧٩٧ بعنوان "أدلة على التآمر ضد كل الأديان والحكومات فى أوروبا، والذى يتم فى اللقاءات السرية للماسونيين الأحرار والمتنورين وجمعيات القراءة"[٥٩]. ويرى مورس أن هذه التحليلات أظهرت للأمريكيين الحاجة إلى التمسك الشديد بتقاليدهم، والقيام بكل ما يستطيعون لمقاومة تراجع الوطنية والولاء، ورفض الاختلاط الجنسى والمتع الشهوانية، والتمسك الشديد بمناهج العناية الإلهية.

وعلى نطاق واسع، كان أوليفر وولكوت Oliver Wolcott يشجع مورس فى هذا المشروع، وهو شخصية وطنية فى الحركة الاتحادية، حيث كان يتحدث عن "وباء عقلى" ينتشر فى الأمة مثل النار، وقال إن سكان نيوإنجلاند هم فقط الذين يمتلكون القدرة على مقاومة هذا الغزو، وذلك خلال مراسلاته مع مورس فى منتصف تسعينيات القرن الثامن عشر. وبالطبع كان هناك العديد من العوامل المتضمنة فى هذا الجدل – مثل اتجاه مورس المحافظ، والاتجاه إلى مجاملة الشخصيات العامة، ومحاولة استعادة الشرعية التى كان يفقدها فى أبرشيته بسبب تفضيل الكتابة الجغرافية على أداء واجباته الكهنوتية،... إلخ[٦٠]. ولكن فى السياق الحالى، يؤكد هذا الأمر على الطبيعة الأخلاقية أساسا لأعماله، وعلى القلق بشأن الاتجاه الذى يبدو أن الجمهورية الجديدة تسلكه. ولكى يحقق هذا الغرض، أسس صحيفة اتحادية فى بوسطون فى ١٨٠٠،

اسمها "بلاديوم نيوإنجلاند"، وذلك بغرض فضح العاقبة تحديدا. وبنفس الطريقة ظهر دوره اللاحق فى تأسيس مجلة "الدرع الواقى" وسيلة أدبية لتأسيس وحماية المجتمع الدينى الأرثوذكسى ضد ما كان يعتبره الاتجاهات التحررية فى مساتشوستش، والتى تتمثل فى إحلال هنرى وير المعتنق للمذهب التوحيدى محل الراحل ديفيد تابان David Tappan فى هارفارد[٦١]. أما الذى أزعج مورس - كمتبع للمذهب الكالفينى - من حلفاء مثل تيموتى دوايت Timothy Dwight فى ييل، وأشبل جرين Ashbel Green فى برنستون، هو أنه كان يعتبر "المذهب التوحيدى بمثابة ديمقراطية المسيحية"، فهو يفكك كل عرى الاتحاد المسيحى ويحرم الدين من فعاليته وتأثيره على المجتمع، فالأمور الكنسية تسيطر بسرعة على الجانب الواعد والوضع المضطرب من شئوننا السياسية"[٦٢].

وبالطبع لم تكن جهود مورس فى تقديم وصف نصى للجمهورية الجديدة قاصرة على "الجغرافيا الأمريكية". فقد كانت هناك مجموعة لا تقل أهمية من كتب الجغرافيا التى أنتجها عبر السنوات فى طبعات أحدث دائما ليغرس فى أذهان المواطنين الجدد فى الجمهورية الإحساس بهويتهم الخاصة، ومن بينها "تبسيط الجغرافيا" فى ١٧٨٤، و"عناصر الجغرافيا" فى ١٧٩٥. وكانت الأساليب التى اتبعها من أجل نشر رؤيته متعددة. وعادة ما كان يقلب الترتيب العادى للأشياء؛ فمثلا، كان يعرض مقدمة جغرافية لأمريكا قبل أن يصور أوروبا وأفريقيا وآسيا. (ويجب أن نذكر سريعا أن كتاب "جغرافية أمريكا" لم يترك سوى خمسين صفحة فقط من صفحاته الأكثر من خمسمائة لبقية العالم). وكاستجابة أخيرة فى كتابه التعليمى المسيحى "عناصر الجغرافيا"، كان ينتظر من الطلاب هذه الإجابة، "أنا سعيد حقا، سيدى، بالتقرير الذى عرضته عن بلدى، وأنا متأكد من أننى سأحبها أكثر من ذى قبل"[٦٣]. وتعليقا على المضامين الأوسع لهذا العرض للسلطة الجغرافية، يلاحظ بروكنر أنه "فى نفس الوقت الذى كان فيه المجتمع الأمريكى يناقش قضايا الوطنية من خلال الوسيط الثقافى الاستراتيجى، بالتذبذب بين أشكال الشفاهة والكتابة أساسا، لجأ الأمريكيون إلى الأبجديات الجغرافية باعتبارها الوسيلة المرنة والمعروفة شفهيا والمحددة طبوغرافيا والحيوية اقتصاديا، والتى يمكن من خلالها وضع أيديولوجية الوطنية المجردة فى شكل مادى"[٦٤].

ويمكن أن نضيف إلى هذا كتابه "التاريخ المختصر لنيوإنجلاند" (١٨٠٤)، الذى ألفه مع إيليا باريش Elijah Parish؛ لأنه كما قال ويليام جريبين William Gribbin هنا أيضا، كان الهدف يتمثل فى "مواجهة سخرية ماضى وحاضر نيوإنجلاند، وبالتالى جعل القراء الشبان يتمسكون بتراثهم. لقد كان ذلك أمرا صريحا Filiopietism"[٦٥].

تيموتى دوايت، أسفار فى نيوإنجلاند، وفضائل النظام الرعوى

تمكن تيموتى دوايت (١٧٥٢-١٨١٧) - صديق مورس، ورجل دين الطائفة الجماعاتية Congregational، وعميد كلية ييل منذ ١٧٩٥ - بأن يؤسس فى نيوإنجلاند الاعتدال الثقافى، أو "الاعتدال Mediocrity" كما صاغه هو بنفسه، الذى يمثل أفضل تعبير عما تعنيه الهوية الأمريكية فى أحسن الأحوال؛ حيث كان دوايت يرى أن هذه الفضائل تتخذ شكلا ماديا فى المشهد الثقافى، بل إن كتابه الذى نشر بعد وفاته "أسفار فى نيوإنجلاند ونيويورك" (١٨٢١-١٨٢٢) أعطى دفعة لقراءته الجمهورية للعلاقات الاجتماعية والملامح المادية للمنطقة. وكان هذا العمل المكون من أربعة مجلدات يأخذ شكل مجموعة خيالية من الخطابات إلى "سيد إنجليزى"، تسجل تجارب أسفار دوايت التى بدأت فى سبتمبر ١٧٩٦. وكان هدفه المزدوج يتمثل فى عرض صورة لنيوإنجلاند التى تتغير بسرعة "بطريقة تشبه تصوير الرسام لسحابة"، ولتصحيح "سوء العرض الذى يتداوله الأجانب سواء سهوا أو عمدا"[٦٦].

وفى الحقبة التى كانت تتساءل عما إذا كانت الأمة الجديدة ستشكل نفسها على أساس البساطة الريفية لنيوإنجلاند، أو الطبقة العليا من أصحاب المزارع فى الجنوب، أو المساواة الديمقراطية الراديكالية فى فرنسا، قدمت "أسفار" دوايت تدخلا اتحاديا استراتيجيا فى الحوار. وتأكيدا لذلك، وكما أظهرت جين كامنسكى Jane Kamensky، كانت رؤية دوايت للمشهد حافلة بالمتناقضات[٦٧]. ففى بعض الأحيان كانت الأراضى البرية تصور على أنها بهيجة، وتظهر آثار نعمة الرب، وفى أحيان أخرى كانت تصور على أنها عقبة أمام التقدم الأخلاقى للحضارة. وكان دوايت يرى أحيانا فى المدن

الجديدة علامات الرفاهية الوطنية – المشروعات، والصناعة، والمدنية، وفى أحيان أخرى كانت تشير إلى الإلحاد والتدهور الأخلاقى. وأحيانا تعلن الغابات البكر عن وجود الرب؛ وأحيانا كان تحويلها إلى حدائق مثمرة يشير إلى أورشليم الجديدة التى بشرت بها الثورة الأمريكية(٦٨). وعلى أى حال، فقد كان المشهد المادى نصا يمكن فيه قراءة المعيار الأخلاقى لأقاليم الأمة الجديدة.

وبالرغم من كل هذا الذى يبدو غامضا، ظلت تفسيرات مشهد دوايت واضحة كالبلور. فقد كان المجتمع الذى يقدره دوايت باعتباره من أنصار الاتحادية يتمثل فى المجتمع الذى تحظى فيه التقاليد والاحترام بالأولوية على حداثة جيفرسون ومساواته، وهكذا كان يقدر تلك المشاهد التى كانت تتبلور فيها هذه الفضائل. وكانت بلدات نيوإنجلاند الرعوية تجسد نموذج دوايت؛ لأنها كانت مشهدا فاضلا يتألف من "مستوطنات مستقلة تتركز حول مراكز فريدة". وكان يؤكد صراحة أن "القرية أكثر فضيلة من المدينة" (١٧:٢). وكما تلاحظ كامنسكى، فإن "أقرب تجسيد أرضى لهذه الرؤية للكمال يمكن أن يوجد فى وادى نهر كونكتيكت، حيث كانت أسرة دوايت تزرع هناك لأجيال"(٦٩). وبناء على هذا السجل، فإن الأمور الاعتيادية فى مشهد مدن نيوإنجلاند الرعوية تشير إلى أحداث ذات أهمية عصرية، حيث كتب "من الآن فصاعدا، سنسجل من سهول كونكورد حدوث تغير فى الشئون الإنسانية؛ وتغير فى ميزان القوى البشرية؛ واتجاه جديد فى مسار تطور الإنسانية" (٣٨٧:٢). وكما لاحظ تيشى Tichi، لم يكن الأمر يتمثل فى أن الثورة الأمريكية كانت "مجرد "علامة" على بداية العصر الألفى للحرية، بل "كانت البداية ذاتها"(٧٠). وكانت خصائص نيوإنجلاند تظهر فى مشهدها. فكما وضح دوايت فى مقدمته العامة لهذا العمل: "تحولت الغابة فى فترة قصيرة إلى حقول مثمرة، تغطيها المساكن والمدارس والكنائس، وتعج بالسكان، ويتوافر فيها الضرورات والحاجات، بل وكماليات الحياة أيضا، وهى مكرسة لعبادة رب إسرائيل (يهوه Jehovah)، وعندما تنظر إليها من منظور النبوءة فقط، فإنها تسلب لب الجميع حتى إشعيا، وعندما تتحقق فإنها لا بد أن تسر لب المتأمل، وعلى الأقل فإنها يمكن أن تعوض الحاجة إلى القلاع القديمة والأديرة المحطمة والصور الجميلة" (٧٨:١). ويرى دوايت أن هذه

المشاهد كانت قيمة - كما يذكر جون سيرز John Sears - ليس بسبب "أثرها الرائع، ولكن لأنها تضيف رونقا جديدا إلى قرى نيوإنجلاند المزدهـــرة والمتعلمــة والمتدينة، والتى كانت تمثل حجر الزاوية فى رؤية دوايت لرفاهية أمريكا"(٧١).

وكان دوايت يعتز كثيرا بالجمع بين التجريبية الأمريكية والاستمرارية الأخلاقية، وكانت مكونات مشاهده تتشكل من التوتر بين الثبات والتغير(٧٢). وكانت هذه بمثابة مكونات بلا شك؛ لأن دوايت كان واعيا جدا بالحاجة إلى تنظيم رؤية المشهد وتعليم الإدراك من أجل "تثبيت" الصورة الذهنية وجعلها خاضعة "للعين المركبة". ولا شك فى أن هذا كان يعكس رؤيته القاصرة بصورة استثنائية، وقد ظهر مؤخرا أن هذه الحالة فرضت نفسها على صميم البناء الأخلاقى والإيقاع الخطابى لمواعظه التى لا تحصى(٧٣). ولكن ذلك كان ناتجا عن جمعه بين تجريبية لوك، وفلسفة الإدراك العام الإسكتلندية لدى رايد Reid، واللاهوت الكالفنى لدى جده جوناثان إدوارد Jonathan Edward. ففى استكشافه العلمى الذى يحمل عنوان "عن الضوء"، حصر التفسير فى التجربة والملاحظة، وهكذا فإنه لا غرابة فى أن عمليات الرؤية يجب أن تراعى بعناية شديدة(٧٤). فبالنسبة إليه، كانت "الملاحظة" تختلف عن مجرد "الرؤية"، لأنها - تمشيا مع وبستر - كانت تعنى (كما يقول تيموتى سبيرز Timothy Spears) "عملية تفكير تقود من الجوانب الخاصة المنظورة للمشهد إلى القوانين العامة الأوسع، بطريقة مطردة ومنهجية وحتى طقوسية"(٧٥).

ولننظر فى هذا الصدد إلى مداولاته عندما كان يزور الجبال البيضاء فى نصف الكرة الشمالى الجديد:

"يجد الذهن من النظرة الأولى إلى إقليم جديد - انطلاقا من الحاجة المطلقة إلى المعرفة المتعلقة بكل شىء فى متناوله - بعضاً من الصعوبة فى الاستقرار على نقاط رئيسة محددة كمحطات يمكن أن ينطلق منها إلى كل نواحى بحثه، والتى يمكن أن يرجع إليها كل شىء قليل الأهمية من أجل تحديد نسب وعلاقات الأجزاء التابعة، وبالتالى يعدل الوضع ككل بصورة صحيحة. وفى هذه الحالة، فإن الخيال يتأثر سلبا

مع الفكر، وحتى يتوصل إلى تحديد محطاته، ويحدد حدودها، ويربط صورها المتدنية بفكرته، فإنه سيجد أن كل جهوده التالية لتكوين صورة صحيحة يعمل عليها قد ضاعت سدى" (٢: ٩٣-٩٤).

ومن الواضح أن قراءة دوايت كانت تعترف تماما بموضعية عين المسافر؛ إذ إن ملاحظاته عن زيارته الأولى إلى إقليم بحيرة جورج فى ١٨٠٢ - وهو المكان الذى عاد إليه بعد تسع سنوات لاحقا - تقدم شهادة واضحة على ذلك، حيث فسر من البداية كيف أن ملامح معينة كانت تظهر فقط فى "أوقات معينة" ومن "مواقع معينة"، وكيف أن التأثير المتغير للضوء والظل على الماء كان يخضع "للتغير المستمر الذى يلاحظه المسافر الذى يداوم على الإبحار فى هذا النطاق" (٣:٢٤٧، ٢٥٠-٢٥١). ولكن حساسيات دوايت البصرية تأثرت بطريقتين أخريين - بالتوقعات الأخروية والذاكرة التاريخية؛ فعند التأمل فى مستقبل الألفية، كان دوايت يتطلع إلى الوقت الذى تقوم فيه "يد المزارع" المشغولة سلفا بنشاط التطهير بتزيين المشهد "بكل مباهج الزراعة" (٣:٢٥٢). وكانت كل هذه التحولات الريفية تبشر بعالم ما بعد الألفية الذى كان يتطلع إليه. وباسترجا ع الماضى، فإن حقيقة أنه فى نفس هذا المكان حدثت بعض أهم أحداث حرب الاستقلال - التى ركز عليها بالتفصيل فى خطابين آخرين - قد شكلت تفسيراته البصرية؛ ففى تيكونديروجا Ticonderoga، ساحة معركة ١٧٥٨، مثلا وجد دوايت نفسه فى مواجهة "آفاق تفوق كل ما تصوره من قبل" (٣:٢٥١). وكانت فرحة دوايت بالمشهد العظيم لبحيرة جورج ترجع إلى حد بعيد إلى أنه فى هذا المكان "وقعت أحداث عظيمة بشرت بمستقبل مجيد"، كما لاحظ جون ستلجو John Stilgoe. ويستطرد ستلجو قائلا: إن "وصفه يشع بطاقة تزاوج الدين بالبطولة". فهنا "ومن قلب الظلام، ومن غابة البرية والكفاح، ظهرت الجمهورية على الأرض الموعودة المستعدة للتطور، أى الأرض التى كانت مغمورة بنور البروتستانتية والحرية المنظمة والشمس"[٧٦].

وبينما كان مورس يتحاشى الصور الذهنية الشاملة، ويفضل أن يتحرك فى المنطقة، كما يقول تيشى، "مثل لولبية القياس على خريطة التضاريس"[٧٧]، كان دوايت يستمتع بالرؤية الواسعة. وهكذا، وكما يقول جلبنسكيو Gilpinesque، كان تصويره

لوادى نهر كونكتيكت مليئا بمفردات السمو: حيث كانت التلال "مهيبة"، وكانت القمم "رائعة الشكل"، وكانت السطوح "جميلة"، وكل ذلك محاط بجبال من "الغموض المهيب" (٢ ١٢٨). وهكذا قدم كتاب "أسفار فى نيوإنجلاند" قراءة للمشهد، وليس مجرد وصف إقليمى. ومع ذلك لم يغفل التسجيل التجريبى التفصيلى للبيانات الإحصائية التى دعمت سياسة دوايت الجمهورية. ومن خلال الاقتباس من دليل ظهر فى كتاب ويليام "تاريخ فرمونت"، قارن دوايت بين أوزان الحيوانات الأمريكية والأوروبية - الدببة، والذئاب، والغزلان، والثعالب، والقندس، وكلب الماء،... إلخ - ليدحض مجددا دعاوى بافون المتعلقة بالدونية الأمريكية. وهكذا فإنه بينما كان الدب الأوروبى يزن نحو ١٥٣ رطلا، كان نظيره فى فرمونت يزن ٤٥٦ رطلا تقريبا؛ وبالنسبة للذئب، كانت الأوزان ٦٩ و٩٢ على التوالى (٣٢:١)[٧٨]. وكذلك استخدم دوايت الإحصاءات الحيوية المتاحة لتأكيد التفوق السكانى لكونكتيكت على فرجينيا، وكارولينا، وجورجيا؛ ليؤكد الطبيعة الصحية للولاية.

ولم تكن أهمية المشهد فى "عقلية" دوايت قاصرة على عمله التقليدى الذى صدر بعد وفاته، بل على العكس، فكما كتبت كامنسكى Kamensky، "كان دوايت يضع المشهد فى صميم عمله دائما: المشهد التوراتى فى المواعظ والأشعار الملحمية المبكرة، والريفية المثالية فى الأعمال الشعرية المتأخرة، والمناطق المختلفة فى نيوإنجلاند فى روايات أسفاره"[٧٩]. ولنأخذ مثلا عمله الريفى الشعرى الذى يناهز فى حجمه كتاب "تل جرينفيلد Greenfield Hill"، (١٧٩٤) حيث مجد فيه مزايا القرية الريفية، وكُشفت فيه هذه القرية المثالية، التى يقع فيها كل منزل على أرضه الخاصة به، والنظام المغلق، والتطوير؛ والتى "تبارك" الوحدة المستمدة من التكامل المتنوع. فهنا لم يكن المشهد مهذبا ولا وحشيا، ولم يكن تجاريا ولا بدائيا، بل كان مشهد الاعتدال الذى يحمل المجتمع الأخلاقى. وكانت هناك طريقة بناء القدس الجديدة - أى المشهد الخالى من فساد وفسوق نظيرتها فى العهد القديم. وكما هو الحال بالنسبة إلى عمل بنيمان Penniman، "تل ميتنجهاوس Meetinghouse Hill"، فى روكسبورى فى ماساشوستس، كان "تل جرينفيلد" لدى دوايت "يطل على جنة عدن" كما يقول ستيلجو "ليوحد الاقتصاد الزراعى والمنزلى مع العبادة المنظمة للعلى القدير"[٨٠]. ففيما يسميه دوايت "القرية المزدهرة":

"ليس هناك مالك أرض مزعج يقرع الباب،

ليقتسم الثروة القليلة للرجل الفقير مقابل الريع.

وليس هناك مالك مشاكس يطرد الفلاحين

إلى بعض الأماكن البعيدة عن موقعه الرهيب؛

ولا يبدد الثروة التى يحتاجها آلاف المرتعشين

لشراء رداء فخر عقيم؛

ولا يحشر مائة سرير فى مبنى واحد؛

ولا تنوب ألف قطعة أرض فى ضيعة واحدة(٨١).

أو كما قال فى موعظة ١٧٩٥ "الوسائل الحقيقية لتحقيق سعادة الجميع"، "لا الفخامة ولا الرفاهية من ناحية، ولا المعاناة ولا البخل من ناحية أخرى يمكن أن يحقق نوع الفضيلة التى تحتاجها الأمة الجديدة"(٨٢). واقتباسا من كامنسكى ثانية، "فى كل مرة كان دوايت يصف فيها المشهد - سواء كان حقيقيا أم خياليا - كان يؤيد فكرة الاعتدال، وهى الفكرة القائمة على الوعى الواضح بالمحددات الطبيعية، وهى الفكرة التى تمثل الكثير بالنسبة إلى المستقبل الجمهورى، كما كانت بالنسبة إلى الماضى البيوريتانى، وتبحث عن أفضل ما يجب أن يقدمه كل منهما"(٨٣). وإجمالا، فقد كانت رؤية دوايت للجمهورية تتأثر بصورة الجمال الرعوى الذى يتجسد بشكل واضح فى المشهد المروض لمدينة نهر كونكتيكت، فهنا أخذت أمريكا ما بعد الثورة شكل "شواطئ كنعان الموعودة"، وبشرت بعصر ستصبح فيه الأرض "مجردة من الغابات... [و] ستتحول إلى مزارع، وستكون مفعمة بكل مظاهر جمال الزراعة" (٢:١٤٠).

وكانت كل تداعيات مشهد وايت تكمن فى الاقتصاد الأخلاقى للجمهورية المسيحية. ولكن سيكون من الخطأ أن نعتقد أن المشاهد البانورامية والأشعار الدينية كانت محور الاهتمام الوحيد، حتى فى كتاب "أسفار فى نيوإنجلاند ونيويورك"؛

ففى الرسالة ١٢ فى المجلد الأول، أعلن عن سجل أخلاقى، حوله لاحقا فى المجلد الرابع إلى عمل دفاعى يبلغ حجمه ٣٠٠ صفحة فردية، عن شخصية نيوإنجلاند. وكانت المشروعات والصناعة، وحب العلم والتعلم، والتطلع إلى الحرية، والأخلاقيات القويمة، والتقوى الشديدة، تمثل كلها نمط مواطن نيوإنجلاند الماهر. فقد كان إنشاء المدارس والكليات مبكرا، والمستوى المنخفض نسبيا لجرائم القتل، والكنائس العديدة التى كانت تنتشر فى المشهد، تشهد على تميز نيوإنجلاند. وبالنسبة للأيديولوجية السياسية، كان مواطنو نيوإنجلاند "الشعب الوحيد فى هذه القارة الذى يفهم فعلا، ولا يزال كذلك، العلاقة الوثيقة بين الحرية والنظام الصالح، أو الذى يعرف عمليا أن الحرية الحقيقية تتحقق بناء على السيادة الكاملة لقوانين المساواة" (١:١٢٣). وكان هذا بمثابة المصدر الذى يجب على الأمة أن تستمد هويتها السياسية منه. وقد حدد دوايت هذه المسارات فى الثلثين الأخيرين من المجلد الرابع من المشروع، بتفاصيل كاملة وبإفاضة كبيرة. ويجب أن يكفى مقتطف رمزى أو اثنان لتقديم صورة عن الكل.

ولنأخذ أولا موضوع اللغة. فعلى عكس الرأى السائد، يصر دوايت على أن اللغة الإنجليزية كانت تنطق بصورة صحيحة فى نيوإنجلاند أكثر منها فى معظم إنجلترا، مع اعتبار لغة "الناس الذين نشأوا نشأة حسنة فى لندن" كمعيار (٤:١٩٥). وفى الواقع، فإنه فى داخل لندن ذاتها، استطاع دوايت إعداد قائمة مطولة بأخطاء النطق التى كان يعتقد أنها كانت أكثر انتشارا من أى شىء يمكن مقارنته بنيوإنجلاند. وثانيا، كان انتشار التعلم والمعرفة العلمية من خلال "تعدد دور العلم التى تنتشر فى كل مكان على مسافات متقاربة" يكشف عن شعب كرس نفسه للتنوير الفكرى. وكانت المضامين السياسية لذلك هائلة. وكان دوايت يرى أنه "فى الجمهورية، حيث تتطلب الأمور المعقدة لإدارات التعليم والكنائس والمدن والمقاطعات قدرا كبيرا من الذكاء، ووجود عدد كبير من الأشخاص، حيث تعتبر "حوارات اجتماع مجلس المدينة" معقدة ومثقلة بالمشاكل، وحيث يشغل عدد كبير من المواطنين مناصب عامة كثيرة"، يصبح الحكم بلا تعليم مستحيلا (٤:٢١١-٢١٢). ففى نيوإنجلاند، كانت منافع انتشار المعرفة هائلة؛ فهنا "كانت المستجدات الدينية تعمل بجاذبية أقل، وكانت تلقى رفضا أكبر مما

تلقاه بين الجهلة"، وكانت المنطقة تتمتع "بشكل مرغوب بقدر كبير من الاستقرار الذى يتحقق فى كل مكان بالطاقة المبذولة فى الحكم" (٤:٢١). وثالثا، حشد دوايت كل قوى الجغرافيا الأخلاقية لرفض التهمة التى ظهرت فى عدد نوفمبر ١٨٠٩ من "المجلة الفصلية Quarterly Review" بأن "أثر الطبيعة الوحشية" الناتج عن "ظروف المجتمع والطبيعة الخارجية" كان واضحا فى المزاج الأمريكى (٤:٢٣٥). واعتراضا على هذا التوصيف، ذكر دوايت أنه فى نيوإنجلاند "كان ما بين نصف إلى ثلثى السكان ينامون طوال السنة بدون إغلاق أبوابهم (٤:٢٣٥)، لدرجة أن الانتخابات تمت بدون "مشاهد اضطراب أو شغب أو عنف" التى كانت شائعة فى إنجلترا (٤:٢٣٦)، وأن يوم السبت كان يراعى "بقدر أكبر من الرزانة والدقة مقارنة بأى مكان آخر فى العالم" (٤:٢٥٥)، وأن "الرياضة الهمجية والخليعة" التى انتشرت فى إنجلترا - مثل سباق الخيل وصراع الديوك - كانت غير معروفة فعلا (٤:٢٣٨).

ومع وجود هذه المشاعر، لا غرابة فى أن دوايت كان مثل مورس منزعجا من الفلسفة الإلحادية، وكان مقتنعا بأن اليعقوبية الجيفرسونية لا تملك وسائل "لمقاومة الشر أو لنشر الفضيلة"[٨٤]. وتأكيدا لذلك، كان دوايت مدافعا متحمسا عن الثورة، وكان حساسا لفكرة الأرستقراطية الوراثية، حيث كان يعتقد أن المناصب العليا يجب الحصول عيها بالعمل؛ وكان يصر على أن القيادة كان يمنحها المجتمع، وكان يشك فى التقاليد المجردة، وحذر فى عمله "واجب الأمريكيين Duty of Americans" رفاقه الريفيين من أن "أحد الأخطاء السياسية الأولى" كان يتمثل فى إبداء "الاحترام الشديد جدا لحالة المجتمع فى اليونان وروما"[٨٥]. ولكنه كان يشك أيضا فى قدرة الديمقراطية غير المحدودة على تحقيق نمط الجمع بين الاعتقاد الدينى والمعرفة، الذى كان أساسيا للفضيلة العامة، إذ إن الجمهور غير المتعلم لم يكن يمثل أساسا جيدا للحكم، فلم تستطع الجمهورية الجيفرسونية ببساطة تحقيق الاعتدال والالتزام المطلوب لمواجهة الإسراف، والنزعة الاستهلاكية، والانغماس فى الملذات، حيث تتطلب السلامة السياسية الخاصة بالأمة النظر إلى المشاهد الأخلاقية لنيوإنجلاند وتعويد نفسها على الفضائل الظاهرة هناك.

صمويل ستانهوب سميث، والبيئة، وأسس الفضيلة العامة

فيما بين أول ظهور لكتاب مورس "جغرافية أمريكا"، ونشر كتاب دوايت "الأسفار" بعد وفاته، أصبحت الطبعة الثانية والمزيدة كثيرا من عمل صمويل ستانهوب سميث "مقال عن أسباب تنوع البشرة والشكل فى النوع البشرى" متاحة فى ١٨١٠[٨٦]. وكان تقديمها أولا بحوالى ربع قرن فى ١٧٨٧ - كما يقول جون جرين - قد جعلها "أول مقالة أمريكية مخصصة لأسباب التنوع السلالى فى النوع البشرى، وضمن لمؤلفها حضورا مبكرا فى حوليات الأنثروبولوجيا الأمريكية[٨٧]. فعلى تلك الساحة، كان سميث أستاذا للفلسفة الأخلاقية فى كلية نيوجيرسى (برنستون) لحوالى ثمانى سنوات، وبعد ذلك فى ١٧٩٥ حل عميدا للكلية محل زوج أمه جون وزرسبون[٨٨]. وفى مثل هذه البيئة، لا غرابة تماما فى أنه غمر نفسه فى مدرسة الإدراك العام الفلسفية الإسكتلندية التى كان يتزعمها وزرسبون، والتى شكلت نظرته السياسية واللاهوتية والعلمية؛ لأنها كانت تسيطر على حياة هذه الكلية الأمريكية مبكرا بصفة عامة.

ونظرا لأن نص سميث تناول قضايا الاختلاف العرقى، فقد تعرض بصفة مستمرة للدراسة فى سياق التاريخ الإثنولوجى وحظى تفسيره المناخى لتباين السلالة البشرية بتقدير مناسب[٨٩]. وفى الواقع، ادعى مارفن هاريس أن "الضربة الأخيرة للحتمية البيئية" ظهرت فى رواية سميث المؤثرة[٩٠]. ومع ذلك، فإننى أريد هنا أن أستخدم تفسير سميث الجغرافى أساسا لأغراض مختلفة، إذ إن ما نواجهه هنا ليس صورة إقليمية لولاية معينة، كما كان الحال بالنسبة إلى جيفرسون، ولا معلومات جغرافية عن حالة الاتحاد، كما هو الحال مع مورس، ولا قراءة رحالة للمشهد كما هو حال دوايت، فبدلا من ذلك، نجد مقالة فى الفلسفة الطبيعية للنوع البشرى، حيث يتم الاعتماد على البيئة الطبيعية للقيام بعمل علمى وأيديولوجى أهم.

فمن الناحية العلمية، كان تدخل سميث يتمثل ببساطة فى التأكيد - فى مواجهة القائلين بالمتضادات المتعددة - على أن المناخ والهجرة والبيئة الاجتماعية كانت بمثابة آليات تفسير كافية لتفسير التباين البشرى. فمن خلال هذه العوامل الجغرافية،

كان سميث يعتقد أن الاختلافات المشاهدة فى السلالات يمكن تفسيرها، وأن هذا يتضمن أنه يجب مراعاة بعض أنواع التفسير التطورى لتاريخ السلالة، بما يتضمن آلية وراثة الصفات المكتسبة. وكان هناك مضمون آخر يتمثل فى الكونية البشرية، فمن الواضح أن الجنس البشرى كان قادرا على التأقلم مع النظم المناخية الجديدة، حيث اعتمد سميث على شهادة طبية من د. كارل شتراك Dr. Carl Strack، وهو طبيب ألمانى فى جامعة ماينتس Mainz، وعلى بيانات من تجارب على تأقلم الحيوان، لتأييد موقفه(٩١). إذ إن الشعر البشرى، والهيكل العظمى، وشكل الجبهة، والملامح والمورثات الطبيعية، وحتى القوى العقلية، كانت كلها ترتبط "بالمناخ... وبعض أوضاع المجتمع، وأنماط المعيشة"(٩٢). ومحليا، فإن الحتمية البيئية الميكانيكية لدى سميث - التى كانت تميز العلوم الداروينية بدقة آنذاك - كانت تبدو مؤكدة فيما أشار إليه ونتروب جوردان Winthrop Jordan بأنه "المعمل الإثنولوجى" لأمريكا ذاتها(٩٣).

ومع ذلك، كان ميل سميث إلى التركيز على الأوضاع البيئية كسبب للتباين السلالى يعتبر أقل أهمية مما كان يأمل فى أن تحققه هذه الآلية سياسيا. فبالتحول إلى العوامل الجغرافية، كان يعتقد أنه قد حافظ على حقيقة مكون بشرى فريد، يعتبر مرنا بصورة مؤكده، ولكنه شائع أيضا فى نفس الوقت، إذ كان سميث يشعر بأن هذا أمر جوهرى من الناحية السياسية فى الجمهورية الجديدة. ولكى نكتشف بعض الإحساس بأهميته، فإننا يجب أن نكون واضحين بشأن ما يتطلبه هذا المنهج، وما لا يتطلبه أيضا. إذ إن الأصل المشترك والطبيعة المشتركة مثلا لم يتضمنا التطابق العرقى أو الثقافى، فمن الواضح أن سميث كان يقبل النسبية الثقافية مثل مونتسكيو، وبالتالى كان يفسر "الحياة البدائية" فى ضوء التدهور. ومع ذلك، ظل مقتنعا بأن الاختلافات بين السلالات كانت بعمق البشرة فقط تحديدا. فقد كان متأكدا مثل مورس ودوايت مثلا من أنه "إذا وضع شخص أنجلوأمريكى وشخص هندى منذ الطفولة فى نفس الظروف المجتمعية، فى مثل هذا المناخ المشترك بينهما، فإن الاختلافات الرئيسة التى توجد الآن بين السلالتين سوف تختفى إلى حد كبير عندما يصلان إلى فترة البلوغ"(٩٤). وتأكيدا لذلك، فإن هذا لم يصل إلى المساواة الحديثة، ولكنه أكد وحدة السلالات البشرية،

فقد أعلن سميث منذ الصفحة الأولى للمقال أن: "وحدة الجنس البشرى، بالرغم من تنوع اللون والشكل الذى يظهر به فى مناطق مختلفة من العالم، تعتبر منهجا أكثر اتساقا مع مبادئ الفلسفة السليمة، مقارنة بأى من تلك الفرضيات العديدة التى أرجعت تبايناتها إلى التنوع الراديكالى والأصلى للسلالة، بصورة مستقلة عن سلطة الوحى الإلهى"(٩٥).

وكانت المضامين السياسية للجمهورية واضحة. إذ كانت الطبيعة البشرية المشتركة جوهرية للاستقرار السياسى؛ لأنه إذا كانت الطبيعة البشرية غير مستقرة بذاتها، وإذا كان هناك عدد من الدساتير المختلفة جوهريا، فإن المبادئ العامة للأخلاقيات والواجبات - ومن ثم تنظيم وممارسة سياسة الحكم - لن يمكن دعمها، وفى هذا يقول:

"يجب أن أكرر هنا ملاحظة ذكرتها فى بداية هذا المقال، والتى أثق أننى يحق لى الآن أن أبديها بقدر كبير من الثقة، وهى أن إنكار وحدة النوع البشرى يؤدى إلى إتلاف - إن لم يدمر تماما - أسس الواجبات والأخلاقيات، بل وكل علوم الطبيعة البشرية مرة واحدة. فلا يمكن اشتقاق مبادئ عامة للسلوك، أو الدين، أو حتى السياسة المدنية، من طبائع مختلفة عن بعضها بصورة جوهرية وأصيلة؛ وبعد ذلك، فى التغيرات المستمرة للعالم والتى تتداخل وتتعقد بصورة لا نهائية، إذ إن المبادئ والقواعد التى يمكن أن يشتقها الفيلسوف من دراسة طبيعته البشرية، لا يمكن تطبيقها بقدر من اليقين لتنظيم سلوك الأفراد الآخرين، والأمم الأخرى، حيث يمكن أن يكونوا من أنواع مختلفة تماما. فالمصطلحات التى يمكن أن يصيغها فرد للتعبير عن أفكار وعواطف عقليته هو يجب أن تنقل إلى الآخرين معنى مختلفا مثل تنظيم الطبيعة الخاصة بهم. ولكن عندما نعرف أن كل الجنس البشرى يتكون من نوع واحد فقط، سيزول هذا الارتباك وعدم اليقين، ويصبح علم الطبيعة الإنسانية بكل علاقاته خاضعا لنظام؛ إذ إن مبادئ الأخلاقيات تعتمد على أسس مؤكدة وغير قابلة للتغيير"(٩٦).

وإذا كان يجب تأكيد التأملات الحديثة - والبغيضة لدى سميث - بشأن المتضادات المتعددة التى تناولها الإسكتلندى لورد كيمس Lord Kames فى عمله "رسم تصويرى

لتاريخ الإنسان"، وكان الجنس البشرى يتكون فعلا من عدد من السلالات المتميزة، فقد كان سميث متأكدا - كما قال فى الطبعة الأولى من هذا العمل - من أن أى "علم للأخلاقيات سيكون غير مقبول؛ وأن قانون الطبيعة والأمم سيدمر"(٩٧). وهكذا كان الحفاظ على الطبيعة البشرية أكثر أهمية من أية مادية شكلية يمكن أن يتضمنها تأييده لمقولة مونتسكيو بأن "إمبراطورية المناخ تعتبر أولى الإمبراطوريات"؛ لأن هذه التهمة كانت أقل أهمية من أنثروبولوجيا كيمس. ولنتذكر - كما قال مارك نول Mark Noll - أن الجمهورية الجديدة كانت "ترفض بشدة الدعائم التى كانت الفضائل تعتمد عليها عادة: التقاليد ذاتها، والعناية الإلهية، والتاريخ، والهرم الاجتماعى، والحكم الموروث، وسلطة الطوائف الدينية"(٩٨). وفى مثل هذه الظروف، فإن الطبيعة البشرية المشتركة التى كانت جزءًا لا يتجزأ من الفلسفة الأخلاقية الإسكتلندية كانت تتناسب بدقة - كما يقول نورمان فيرنج Norman Fiering - "مع احتياجات عصر لا يزال ملتزما بقوة بالقيم الدينية التقليدية، ومع ذلك كان يبحث عن أنماط تبرير بديلة لهذه القيم"(٩٩). وكان المزاج البشرى الفريد، بالرغم من ظهوره بأشكال مختلفة بسبب قوة الجغرافيا، يوفر الأسس لاحتمالات ظهور الفضيلة العامة.

ويكشف ما يفسره سميث أيضا مدى أهمية الدور الذى لعبته الفلسفة الأخلاقية فى الفكر السياسى للجمهورية المبكرة؛ لأن الوحدة المزاجية للجنس البشرى ضمنت احتمال ظهور علم عقلى استقرائى. ونظرا لأنه "كان" هناك طبيعة بشرية مشتركة، فقد أصبح هناك موضوع للبحث التجريبى. وبهذه الطريقة استطاع الأخلاقيون المسيحيون التطلع إلى أسلوب علمى وجعل الأخلاق الإنسانية علما، حتى إذا ظلوا مقتنعين بأن نتائج هذا المشروع البيكونى Baconian الجديد ستؤكد الفضيلة المسيحية. وكما كان وزرسبون متأكدا، فإنه إذا كانت الجمهورية على صواب فى الانفصال عن كل من ماضيها الملكى ومؤسستها الدينية؛ وإذا كانت الجمهوريات التى تعتمد على ممارسة الفضيلة العامة تمثل الشىء الهش الذى كشفه مونتسكيو، فإنه لا يمكن الحفاظ على الأخلاقيات فى المجال العام إلا إذا أمكن الوصول إلى شعور أخلاقى عام من الطبيعة البشرية من خلال أساليب العلم الدنيوى. وقد ظل ستانهوب سميث ملتزما بهذا وجدانيا.

ولكنه لم يكن بمفرده فى هذا، فكما يذكرنا روجر سميث مؤخرا، كانت هذه اللغة جوهرية فى الفلسفة الأخلاقية فى القرن الثامن عشر، وكانت تحظى "بمكانة الأساس المشترك الذى أقام عليه الكتاب من مختلف المسارات المعايير الأخلاقية للمصداقية العامة"(١٠٠).

ولنأخذ جيمس ماديسون - الذى كان تلميذا لوزرسبون فى برنستون - مثالا؛ حيث كان مخلصا للأخلاقيين الإسكتلنديين، واستمد إلهامه من النظرية الاجتماعية لديفيد هيوم فى صياغاته السياسية المتعلقة بطبيعة الدستور"(١٠١). حيث قال ديفيد هيوم:

"هناك قدر كبير من التطابق فى أفعال البشر فى كل الأمم وكل العصور، ولا تزال الطبيعة البشرية كما هى، من حيث مبادئها وعملياتها، إذ إن نفس الدوافع تؤدى إلى نفس الأفعال؛ ونفس الأحداث تنتج عن نفس الأسباب.... فهل تعرف مشاعر وميول ومسار حياة الإغريق والرومان؟ وادرس جيدا طباع وأفعال الفرنسيين والإنجليز. فالبشر متشابهون كثيرا، فى جميع العصور والأماكن، لدرجة أن التاريخ لا يخبرنا بأى شيء غريب أو جديد فى هذا الخصوص، "إذ إن استخدامه الأساس يقتصر على اكتشاف المبادئ العامة الثابتة للطبيعة البشرية"، بإظهار البشر فى كل أنواع الظروف والمواقف، وتزويدنا بالمواد التى يمكن أن نشكل من خلالها ملاحظاتنا، ونصبح مدركين للقفزات المنتظمة فى الفعل والسلوك البشرى"(١٠٢).

ومع تردد أصداء هذه المشاعر الهيومية فى ذهنه، بالإضافة إلى اقتناع لوك بأن هناك قوانين عامة غير قابلة للتغيير للطبيعة البشرية، وأنه يجب اكتشافها، كتب ماديسون كتابه العاشر الشهير "الاتحادى Federalist". ونظرا لعدم قابلية الطبيعة البشرية للتغيير، كما لاحظ دوجلاس أدير Douglass Adair، فقد وضع عمدا تجربته الشخصية المحدودة فى سياق تجارب البشر فى عصور وأزمنة أخرى"(١٠٣). وعندما علق ماديسون بامتعاض على "ميل البشرية إلى الوقوع فى العداوات المتبادلة، وأنه عندما لا توجد فرصة كبيرة، فإن أبسط وأتفه الاختلافات كانت تكفى لإثارة المشاعر غير الودية،

وإثارة أكثر الصراعات عنفا، فإنه كان يكرر ملاحظة هيوم التى تقول إن "الناس لديهم الاستعداد للانقسام إلى مجموعات شخصية، وأن أبسط مظهر للاختلاف الحقيقى سيؤدى إلى ظهورها"(١٠٤). وبصفة عامة، فقد كان هذا الاعتقاد هو الذى شجع واضعى الدستور على البحث عن التجربة التاريخية من أجل تعلم الدروس المتعلقة بكيفية خلط أفكار الملكية والأرستقراطية والديمقراطية فى الجمهورية الأمريكية الجديدة(١٠٥). وهكذا لاحظ جون آدمز مثلا فى ١٧٨٦ أن: "تاريخ اليونان يجب أن يكون بالنسبة إلى مزارعينا بمثابة مرآة عاكسة"(١٠٦). وكان تأكيد أن الوضع البشرى لا يتغير عبر الزمن، هو الذى حافظ على استمرار هذا التحول إلى رصيد الخبرات التاريخية بحثا عن الإلهام والتعلم والتمسك بالتجربة السياسية التى تمثلت فى دستور الولايات المتحدة. وكان هذا هو الذى حاول ستانهوب سميث الحفاظ عليه فى تبنيه للأثر البيئى. ولنتذكر الجملة الأولى فى رسالته: "إن وحدة الجنس البشرى - بالرغم من تعدد اللون والشكل الذى يبدو به فى مناطق مختلفة من العالم - يمثل نهجا أكثر اتساقا مع مبادئ الفلسفة السليمة، مقارنة بأى من تلك الفروض العديدة التى أرجعت اختلافاته إلى تنوع هذا الجنس أصليا وراديكاليا"(١٠٧).

ومهما كانت خصوصيات كل من جيفرسون ومورس وسميث ودوايت، فقد كانوا جميعا يشاركون بشكل أو بآخر فى التبرير الجغرافى لسلامة الثورة، من أجل تكامل الجمهورية الجديدة، ومن أجل رفض تبرير ذلك الشاهد الفرنسى الذى يلاحقهم بشكل مزعج (بافون). فقد كان هدفهم المشترك يتمثل فى الدفاع عن أمريكا، كما حاول روبرت بيفرلى أن يفعل فى ١٧٠٥، عندما شكا فى مقدمة عمله "تاريخ وحاضر ولاية فرجينيا" من أنه: "لا توجد كتب مليئة بمثل هذه القصص الشعرية، مثل الرحلات؛ وكلما كانت البلاد التى يدعون أنهم يصفونها بعيدة، زادت الفرصة التى يتمتع بها هؤلاء الكتاب المتميزون لفرض رؤيتهم للعالم"(١٠٨). أما الآن فى أعقاب الثورة، فقد أصبحت الحاجة إلى الحديث عن أمريكا أكبر من ذى قبل، ولكن الدفاع عن أمريكا يتطلب أكثر من مجرد "الكتابة عن الأرض" بدقة.

وبالنسبة إلى هؤلاء الكتاب، فقد كانت قضايا الفضيلة المدنية والحساسية الأخلاقية فى صميم نصوصهم الجغرافية؛ لأنها كانت فى صميم الأيديولوجية الجمهورية. وتأكيدا لذلك، فقد كان للكتاب المختلفين رؤى مختلفة إلى دور الدين والتقاليد فى الجمهورية الجديدة، إذ إن البعض - مثل جون آدمز وواشنطون إلى حد ما - كانوا يبدون قلقهم على المؤسسة الدينية، بينما كان آخرون - مثل جيفرسون وماديسون - يميلون إلى الحد الأدنى من الدين الطبيعى وإلى الحرية المطلقة للإقناع الدينى بعيدا عن سلطة الدولة. ومع ذلك، كانوا جميعا يعرفون - كما أظهر بولييبوس Polybius ذلك قبل بضعة قرون - أن روما كانت مليئة بالفساد والانحطاط؛ وأن آدم فيرجسون أرجع انحلال الإمبراطورية الرومانية إلى تغلغل الفلسفة اليونانية البغيضة غير المحظوظة؛ وأن فرانسيس هتشسون Francis Hutcheson، الفيلسوف الأخلاقى التنويرى الإسكتلندى الأيرلندى الذائع الصيت، كان متأكدا من أن "إنكار الالتزام الأخلاقى، أو التزامات الفضائل الأخلاقية والاجتماعية كان يؤدى مباشرة إلى الإضرار بالدولة فى أهم مصالحها"(١٠٩). ومهما كانت مآخذهم المختلفة على الموضوع، كما يقول كولين كيد Collin Kidd، فإن "المعضلة الجوهرية لدى أنصار الحرية الدينية كانت تتمثل فى الحاجة المدركة إلى آلية للالتزام الأخلاقى تكون فعالة فى الحفاظ على الفضيلة". ويقول أيضا: "تعرضت الجمهورية الأمريكية الوليدة، وهو ما كان مستهدد، المضاربة مالية وجيوش متأهبة واستهلاك ترفى استهدف تقويض الدعائم الأخلاقية للمجتمع الجمهورى"(١١٠). ففى هذا السياق، لا غرابة فى حقيقة أن الجغرافيات الجديدة للجمهورية كانت جغرافيات "أخلاقية"؛ فقد كانت تقدم ما يجب أن تقدمه الجغرافيا تماما.

الهوامش

I am most grateful to David Lowenthal, Mark Noll, and Charles Withers for insightful comments on an earlier version of this paper.

1. Jedidiah Morse, *The American Geography; or, A View of the Present Situation of the United States of America*, 2nd ed. (London: John Stockdale, 1792), iii.

2. Richard J. Moss, *The Life of Jedidiah Morse: A Station of Peculiar Exposure* (Knoxville: University of Tennessee Press, 1995), 35. See also John Kirtland Wright, "Some British 'Grandfathers' of American Geography," in *Geographical Essays in Memory of Alan G. Ogilvie*, ed. R. Miller and J. Wreford Watson (London: Thomas Nelson, 1959), 144–65; William Buell Sprague, *The Life of Jedidiah Morse, D.D.* (New York: Anson D.F. Randolph, 1874); John Rennie Short, "A New Mode of Thinking: Creating a National Geography in the Early Republic," in *Surveying the Record: North American Scientific Exploration to 1930*, ed. Edward C. Carter II (Philadelphia: American Philosophical Society, 1999), 19–50.

3. David M. Hooson, introduction to *Geography and National Identity*, ed. David M. Hooson (Oxford: Blackwell, 1994), 2.

4. On national self-fashioning, see Charles W. J. Withers, "Geography, Royalty and Empire: Scotland and the Making of Great Britain, 1603–1661," *Scottish Geographical Magazine* 113 (1997): 22–32. On the role of mapping in national identity, see Josef W. Konvitz, *Cartography in France, 1660–1848: Science, Engineering, and Statecraft* (Chicago: University of Chicago Press, 1987); D. Graham Burnett, *Masters of All They Surveyed: Exploration, Geography, and a British El Dorado* (Chicago: University of Chicago Press, 2000); and Thongchai Winichakul, *Siam Mapped: A History of the Geo-body of a Nation* (Honolulu: University of Hawai'i Press, 1994). On school geography in Ireland, see Anne Buttimer and Gerard Fahy, "Imaging Ireland through Geography Texts," in *Text and Image: Social Construction of Regional Knowledges*, ed. Anne Buttimer, Stanley D. Brunn, and Ute Wardenga, special issue of *Beiträge zur Regionalen Geographie* (Leipzig), 49 (1999): 179–91. See also John A. Campbell, "Modernisation and the Beginnings of Geography in Ireland," in *Geography and Professional Practice*, ed. Vincent Berdoulay and H. van Ginkel (Utrecht: Nederlands Geographical Studies, 1996), 125–38.

5. The most sustained treatment of the theme is Charles W. J. Withers, *Geography, Science and National Identity: Scotland since 1520* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

6. Preston James, *All Possible Worlds: A History of Geographical Ideas* (Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1972), 193.

7. William Warntz, *Geography Then and Now*, American Geographical Society Research Series, no. 25 (New York: American Geographical Society, 1964), 136.

8. Margarita Bowen, *Empiricism and Geographical Thought* (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), 171.

9. John C. Greene, *American Science in the Age of Jefferson* (Ames: Iowa State University Press, 1984), 214–15.

10. Martin Brückner discusses Morse's influence on the early American novel in "Geography, Reading, and the World of Novels in the Early Republic," in *Early America Re-explored: New Readings in Colonial, Early National, and Antebellum Culture*, ed. Klaus H. Schmidt and Fritz Fleischmann (New York: Lang, 2000), 387.

11. Martin Brückner, "Lessons in Geography: Maps, Spellers, and Other Grammars of Nationalism in the Early Republic," *American Quarterly* 51 (1999): 311, 313–15.

12. Ibid., 316. This was not the only way in which a national culture was constructed. Important too was a common-sense republicanism informed by Christian faith and mediated in part via the Methodist connexional system. See Mark A. Noll, *America's God: From Jonathan Edwards to Abraham Lincoln* (New York: Oxford University Press, 2002).

13. Noah Webster, "On the Education of Youth in America" (1788), in *Essays on Education in the Early Republic*, ed. Frederick Rudolph (Cambridge: Harvard University Press, 1965), 65.

14. Robert Lawson-Peebles, *Landscape and Written Expression in Revolutionary America* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988), 74.

15. Brückner, "Lessons in Geography," 318.

16. Noah Webster, *A Grammatical Institute of the English Language: Part I* (1783; Menston: Scolar Press, 1968), 13.

17. John Jay, "Federalist Number II," in *The Federalist; or, The New Constitution*, 2nd ed., ed. Max Beloff (Oxford: Blackwell, 1987), 5–6.

18. On Jefferson's scientific accomplishments see Silvio A. Bedini, *Thomas Jefferson: Statesman of Science* (New York: Macmillan, 1990); and Greene, *American Science in the Age of Jefferson*. On the influence of science in Jefferson's political theory, see Garry Wills, *Inventing America: Jefferson's Declaration of Independence* (Garden City: Doubleday, 1978); the critique by Ronald Hamowy, "Jefferson and the Scottish Enlightenment: A Critique of Gary Wills' *Inventing America*," *William and Mary Quarterly* 36 (1979): 502–23; and I. Bernard Cohen, *Science and the Founding Fathers: Science in the Political Thought of Thomas Jefferson, Benjamin Franklin, John Adams and James Madison* (New York: Norton, 1995).

19. On this later topic, see especially Michael P. Zuckert, *The Natural Rights Republic: Studies in the Foundation of the American Political Tradition* (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1996); Michael P. Zuckert, "Founder of the Natural Rights Republic," in *Thomas Jefferson and the Politics of Nature*, ed. Thomas S. Engeman (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 2000), 11–58; Joseph J. Ellis, *American Sphinx: The Character of Thomas Jefferson* (New York: Knopf, 1997).

20. On Jefferson as a geographer, see George T. Surface, "Thomas Jefferson: A Pioneer Student of American Geography," *Bulletin of the American Geographical Society* 41 (1909): 743–50; A. W. Greely, "Jefferson as a Geographer," *National Geographic Magazine* 7 (1896): 269–71; Gary S. Dunbar, "Thomas Jefferson, Geographer," *Special Libraries Association, Geography and Map Division, Bulletin* 40 (April 1960): 11–16.

21. Thomas Jefferson, *Notes on the State of Virginia*, ed. William Peden (1784; Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1955), query 19, 165.

22. Robert Dawidoff, "Rhetoric of Democracy," in Engeman, *Thomas Jefferson and the Politics of Nature*, 109.

23. Cited in Lawson-Peebles, "Thomas Jefferson and the Spacious Field of Imagination," in *Landscape and Written Expression*, 175.

24. Antonello Gerbi, *The Dispute of the New World: The History of a Polemic, 1750–1900*, rev. ed., trans. Jeremy Moyle (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1973), 257.

25. Jefferson, *Notes on the State of Virginia*, 64.

26. Ibid., 65.

27. See the discussion in James W. Caeser, "Natural Rights and Scientific Racism," in Engeman, *Thomas Jefferson and the Politics of Nature*, 165–89.

28. Jefferson, *Notes on the State of Virginia*, app. 4, 227.

29. Ibid., 230.

30. Moss, *Life of Jedidiah Morse*, ix.

31. William J. Gilmore, *Reading Becomes a Necessity of Life: Material and Cultural Life in Rural New England, 1780–1835* (Knoxville: University of Tennessee Press, 1989), 64.

32. Cited in Moss, *Life of Jedidiah Morse*, 49.

33. Madison Kuhn, "Tiffin, Morse, and the Reluctant Pioneer," *Michigan History* 30 (1966): 126.

34. Wright makes the comment that Morse's works may be "deemed American with regard to their authorship, subject matter, and sources; as americanistic where they reflect an ardent and characteristically American patriotism in passages extolling our republican institutions and defending American against European disparagement; and as subamericanistic where they reveal strong sectional or denominational prejudices" (John Kirtland Wright, "What's 'American' about American Geography?" in *Human Nature in Geography: Fourteen Papers, 1925–1965* [Cambridge: Harvard University Press, 1966], 129).

35. Lester H. Cohen, *The Revolutionary Histories: Contemporary Narratives of the American Revolution* (Ithaca: Cornell University Press, 1980), 131.

36. Jedidiah Morse, *Annals of the American Revolution; or, A Record of the Causes and Events which Produced, and Terminated in the Establishment and Independence of the American Republic*... (Hartford, 1824), 109.

37. Morse, *American Geography*, 469. On the widespread use of providential language in support of the Revolution, see Catherine L. Albanese, *Sons of the Fathers: The Civil Religion of the American Revolution* (Philadelphia: Temple University Press, 1976); John F. Berens, *Providence and Patriotism in Early America, 1640–1815* (Charlottesville: University of Virginia Press, 1978).

38. Hereafter quotations from the *American Geography* are cited in the text by page number.

39. Moss, *Life of Jedidiah Morse*, 38.

40. Ralph Hall Brown, "The American Geographies of Jedidiah Morse," *Annals of the Association of American Geographers* 31 (1941): 145–217.

41. Elijah Parish, *A New System of Modern Geography*, 2nd ed. (Newburyport, MA: E. Little, 1812,), iii.

42. Quoted in K. Alan Snyder, "Foundations of Liberty: The Christian Republicanism of Timothy Dwight and Jedidiah Morse," *New England Quarterly* 61 (1983): 387.

43. For the attitude of Morse, Stiles, and others, see Gary B. Nash, "The American Clergy and the French Revolution," *William and Mary Quarterly* 22 (1965): 392–412.

44. Moss, *Life of Jedidiah Morse*, 41.

45. Ibid., 38.

46. William Gribbin, "A Mirror to New England: The *Compendious History* of Jedidiah Morse and Elijah Parish," *The New England Quarterly* 45 (1972): 349. See also Ralph Ketcham, *From Colony to Country: The Revolution in American Thought, 1750–1820* (New York: Macmillan, 1974), esp. chap. 16, "Indians, Blacks, Race, and Slavery."

47. Jedidiah Morse, *A Report to the Secretary of War of the U.S. on Indian Affairs, Comprising a Narrative of a Tour Performed, in the Summer of 1820, under a Commission from the President of the U.S., for the Purpose of Ascertaining, for the Use of the Government, the Actual State of the Indian Tribes, in Our Country* (Newhaven, 1822), 81.

48. Edward Everett, "On the State of the Indians" (1823), *North American Review* 258 (1973): 11.

49. Michael G. Kenny, *The Perfect Law of Liberty: Elias Smith and the Providential History of America* (Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1994).

50. Elias Smith, *The History of Anti-Christ: In Three Books, Written in Scripture Stile, in Chapters and Verses; For the Use of Schools* (Portland, 1811), 116–20; emphasis in original.

51. Nathan O. Hatch, *The Democratization of American Christianity* (New Haven: Yale University Press, 1989), 134–35.

52. Richard Buel, Jr., *Securing the Revolution* (Ithaca: Cornell University Press, 1972), 85.

53. Moss, *Life of Jedidiah Morse,* xi.

54. On such issues more generally, see Joseph J. Ellis, *After the Revolution: Profiles of Early American Culture* (New York: Norton, 1979), chap. 2, "Paradoxes: Culture and Capitalism."

55. See Richard J. Moss, "Republicanism, Liberalism, and Identity: The Case of Jedidiah Morse," *Essex Institute Historical Collections* 126 (1990): 209–36.

56. It should be noted that Morse added: "In a pint of beer, or half a pint of Malaga or Tenerife wine, there is more strength than in a quart of rum. The beer and the wine abound with nourishment, whereas the rum has no more nourishment in it than a pound of air." He then proceeded to harness this argument in the cause of American independence: "These considerations point out the utility, may I not add, the necessity of confining ourselves to the use of our own home made liquors, that it might encourage our own manufactures, promote industry, preserve the morals and lives of our citizens, and save our country from the enormous annual expence [*sic*] of four millions of dollars" (Morse, *American* Geography, 90).

57. Cited in Peter Marshall and Ian Walker, "The First New Nation," in *Introduction to American Studies,* ed. Malcolm Bradbury and Howard Temperley (London: Longman, 1981), 57.

58. From an untitled sermon quoted in Moss, *Life of Jedidiah Morse,* 71.

59. The standard account is Vernon Stauffer, *New England and the Bavarian Illuminati* (New York: Columbia University Press, 1918).

60. See Richard J. Moss, "Jedidiah Morse and the Illuminati Affair: A Re-Reading," *Historical Journal of Massachusetts* 16 (1988): 141–53. The quotations from the Morse-Wolcott correspondence are taken from this article. See also Conrad Wright, "The Controversial Career of Jedidiah Morse," *Harvard Library Bulletin* 31 (1983): 64–87.

61. See Elizabeth Barnes, "The 'Panoplist': Nineteenth-Century Religious Magazine," *Journalism Quarterly* 36 (1959): 321–25.

62. Letter to Joseph Lyman, June 15, 1805, in Moss, *Life of Jedidiah Morse,* 87.

63. Jedidiah Morse, *Elements of Geography* (Boston, 1795), 121.

64. Brückner, "Lessons in Geography," 334. See also note 10 above.

65. Gribbin, "A Mirror to New England," 342–43. Gribbin reviews some of the strategies employed in successive editions of the *Compendious History* to mobilize history for contemporary purposes.

66. Timothy Dwight, *Travels in New England and New York*, ed. Barbara Miller Solomon (1821–22; Cambridge: Harvard University Press, 1969), 1:1. We know from the final volume of the *Travels* that Dwight had figures like Volney, Weld, la Rochefoucauld, and John Lambert in mind. Hereafter, quotations from this edition of the *Travels* are cited in the text by volume and page number.

67. Jane Kamensky, "'In These Contrasted Climes, How Chang'd the Scene': Progress, Declension, and Balance in the Landscapes of Timothy Dwight," *American Quarterly* 43 (1990): 80–108.

68. See Cecilia Tichi, *New World, New Earth: Environmental Reform in American Literature from the Puritans through Whitman* (New Haven: Yale University Press, 1979).

69. Kamensky, "In These Contrasted Climes," 102.

70. Tichi, *New World, New Earth*, 70.

71. John F. Sears, "Timothy Dwight and the American Landscape: The Composing Eye in Dwight's *Travels in New England and New York*." *Early American Literature* 9 (1976–77): 317.

72. Dwight's compositional techniques are treated in Peter M. Briggs, "Timothy Dwight 'Composes' a Landscape for New England," *American Quarterly* 40 (1988): 359–77.

73. See John R. Fitzmier, *New England's Moral Legislator: Timothy Dwight, 1752–1817* (Bloomington: Indiana University Press, 1998), 81ff. This work is now the standard biography.

74. Dwight's scientific contributions more generally are the subject of Kathryn and Philip Whitford, "Timothy Dwight's Place in Eighteenth-Century American Science," *Proceedings of the American Philosophical Society* 114 (1970): 60–71.

75. Timothy B. Spears, "Common Observations: Timothy Dwight's *Travels in New England and New York*," *American Studies* 30 (1989): 39.

76. John R. Stilgoe, "Smiling Scenes," in *Views and Visions: American Landscapes before 1830*, ed. Edward J. Nygren (Washington, DC: Corcoran Gallery of Art, 1986), 214.

77. Tichi, *New World, New Earth*, 112.

78. Dwight also rejected Buffon's claims about the inherent intellectual inferiority of the American Indian urging that Indian "degradation" was attributable to social conditions. As Spears puts it: "Not through violence or genocide, but through education and conversion, Dwight . . . proposed to regenerate the Indian, and swell the ranks of useful citizenry" (Sears, "Dwight and the American Landscape," 46).

79. Kamensky, "In These Contrasted Climes," 86.

80. Stilgoe, "Smiling Scenes." 222.

81. Timothy Dwight, *Greenfield Hill*, lines 81–88, in *The Major Poems*, ed. William J. McTaggart and William K. Bottorff (Gainesville: Scholars' Facsimiles and Reprints, 1969).

82. Timothy Dwight, *The True Means of Establishing Public Happiness* (New Haven: T. S. Green, 1795), 36.

83. Kamensky, "In These Contrasted Climes," 106.

84. Timothy Dwight, "The Nature and Danger of Infidel Philosophy," in *Sermons* (New Haven, 1828), 1:340.

85. Timothy Dwight, *The Duty of Americans* (New Haven: Greens, 1789), 16

86. I have discussed Smith elsewhere and what follows draws on material published in David N. Livingstone, "Geographical Inquiry, Rational Religion and Moral Philosophy: Enlight-

enment Discourses on the Human Condition," in *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers (Chicago: University of Chicago Press, 1999), 93–119.

87. Greene, *American Science in the Age of Jefferson*, 323.

88. See Mark A. Noll, *Princeton and the Republic, 1768–1822: The Search for a Christian E. lightenment in the Era of Samuel Stanhope Smith* (Princeton: Princeton University Press, 1989

89. So, for instance, Thomas F. Gossett, *Race: The History of an Idea in America* (Dallas: Southern Methodist University Press, 1963); William Stanton, *The Leopard's Spots: Scientific Attitudes toward Race in America, 1815–59* (Chicago: University of Chicago Press, 1960).

90. Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture* (New York: Thomas Y. Crowell, 1968), 86.

91. See Samuel Stanhope Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Fig ure in the Human Species* (Philadelphia: Robert Aitkin, 1787), 34, 48. For a general analysis, s David N. Livingstone, "Human Acclimatization: Perspectives on a Contested Field of Inquiry i Science, Medicine and Geography," *History of Science* 25 (1987): 359–94.

92. Samuel Stanhope Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Figure i the Human Species* (1810; reprint ed., Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1965,), 78.

93. Winthrop Jordan, introduction to Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complex ion and Figure* ([1810] 1965 ed.), xxviii.

94. Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Figure* ([1810] 1965 ed.), 1c

95. Ibid., 7.

96. Ibid., 149.

97. Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Fiqure* (1787 ed.), 48. On Kames, see Ian Simpson Ross, *Lord Kames and the Scotland of His Day* (Oxford: Clarendon, 1972); and William C. Lehmann, *Henry Home, Lord Kames, and the Scottish Enlightenment: A Study in National Character and in the History of Ideas* (The Hague: Martinus Nijhoff 1971). Paul Wood comments, however, that Kames's contemporaries among the Scottish men of letters rejected his polygenetic inclinations "as subverting the foundations of religion and morality" (Paul B. Wood, "The Science of Man," in *Culture of Natural History*, ed. Nicholas Jardine, James A. Secord, and Emma C. Spary [Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 204).

98. Mark A. Noll, "The Rise and Long Life of the Protestant Enlightenment in America," in *Knowledge and Belief in America: Enlightenment Traditions and Modern Religious Thought*, ed. William M. Shea and Peter A. Huff (New York: Cambridge University Press, 1995), 100.

99. Norman Fiering, *Moral Philosophy at Seventeenth-Century Harvard: A Discipline in Tra sition* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1981), 300.

100. Roger Smith, "The Language of Human Nature," in *Inventing Human Science: Eighteenth-Century Domains*, ed. Christopher Fox, Roy Porter, and Robert Wokler (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1996), 101.

101. See, for example, Roy Branson, "James Madison and the Scottish Enlightenment," *Jou nal of the History of Ideas* 40 (1979): 235–50.

102. David Hume, *Enquiry Concerning Human Understanding* (London, 1748), sec. 8, "Of Liberty and Necessity."

103. Douglass Adair, "'That Politics May Be Reduced to a Science': David Hume, James Madison, and the Tenth Federalist," in *Fame and the Founding Fathers: Essays by Douglass Adair*, ed. Trevor Colbourn (Toronto: Norton, 1974), 97.

104. Quoted in ibid., 103.

105. Douglass Adair, "'Experience Must be Our Only Guide': History, Democratic Theory, and the United States Constitution," in Colbourn, *Fame and the Founding Fathers*, 107–23.

106. John Adams, *A Defence of the Constitution of the United States of America*, in *The Works of John Adams, Second President of the United States*, ed. Charles Francis Adams (Boston, 1850–1856), 4:469.

107. Smith, *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Figure* ([1810] 1965 ed.), 7.

108. Robert Beverley, preface to *The History and Present State of Virginia, in Four Parts* (London, 1705).

109. Francis Hutcheson, *A System of Moral Philosophy* (London, 1755), 2:310.

110. Colin Kidd, "Civil Theology and Church Establishment in Revolutionary America," *Historical Journal* 42 (1999): 1016, 1018.

الفصل الثانى عشر

ألكسندر فون همبولت والثورة
جغرافية استقبال مراسلات فارناجن فون إنسى

نيقولاس ربكى Nicolaas Rupke

ليس من المألوف اعتبار ألكسندر فون همبولت (١٧٦٩-١٨٥٩) ثوريا، على الأقل فى الكتابات الأنجلوأمريكية. وقد يعتبر بعض كتاب سيرته الذاتية إسهاماته فى جغرافية النبات أو علم المناخ ذات أهمية ثورية[1]. ولكن همبولت لا يعتبر سياسيا ثوريا مثل معاصره الأصغر منه كارل ماركس مثلا. ومع ذلك، ظهرت هذه الرؤية إلى همبولت باعتباره مؤيدا - أو حتى محفزا - للثورات السياسية فى ألمانيا الشرقية السابقة، حيث وضع تقرير حياة همبولت وأعماله فى مكانه المنطقى فى الجغرافيا التاريخية الماركسية. وهناك ظهرت روايات لسيرته الذاتية تبرز صداقاته مع ثوريين، ما جعله ثوريا بالتبعية. وكانت إحدى هذه الصداقات مع "الديمقراطى الثورى" جورج فوستر، "المناصر الكبير للأفكار الثورية فى ١٧٨٩" والذى ساند بقوة اليعاقبة فى فرنسا، وكان أحد الذين أسسوا فىماينتس فى ١٧٩٣ "أول جمهورية ديمقراطية على الأراضى الألمانية". فقد مارس فوستر تأثيرا قويا على همبولت. ونتيجة لذلك، تطورت أفكار همبولت على أسس اشتراكية، كانت تسبق أفكار فريدريش إنجلز وتقترب من أفكار ماركس، بالدعوة إلى الدولة البروليتارية ومن خلال المساندة القوية لمناهضة الاستعمار

ومناهضة الرق. وهناك صداقة أخرى ذات مضمون ثورى مع سيمون بوليفار، حيث أثر عليه همبولت فى السنوات التى أدت إلى حروب التحرير التى قادها بوليفار فى أمريكا اللاتينية. وكان مانفرد كوسوك Manfred Kossok، خبير مدرسة لايبتزج Leipzeg فى شئون أمريكا اللاتينية، من أبرز المؤرخين الماركسيين لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، حيث رأى كوسوك أن همبولت هو الأب الفكرى لحروب الاستقلال، وأنه بفضل كتاباته عن كوبا والمكسيك، احتل مكانة مرموقة فى ثورات الفترة ١٨١٠-١٨٢٦ عندما تمت الإطاحة بنير الحكم الاستعمارى الإسبانى، وظهرت مختلف جمهوريات أمريكا اللاتينية إلى الوجود.

ولم تكن علاقة همبولت بالقضايا الثورية جديدة؛ إذ إنها ظهرت لدى كتاب السيرة الذاتية لهمبولت مبكرا فى العالم الناطق بالألمانية، وهم مؤلفو المجموعة الأولى المتميزة من السير الذاتية لهمبولت، والتى نشرت فى الفترة من ثورة ١٨٤٨ حتى الوحدة الألمانية فى ظل بسمارك فى ١٨٧١. وقد فشلت ثورة ١٨٤٨ بصورة ما، وظهرت التقارير عن حياة همبولت وأعماله فى سياق حماسة ثورية محبطة أعيد توجيهها، وكان همبولت يصور على أنه ديمقراطى ليبرالى كانت كتاباته بمثابة قوة دافعة إلى التحرر الاجتماعى والوحدة السياسية للشعب الألمانى. وكان الكتاب المبكرون لسيرة همبولت - نحو ٤٨ غالبا - يعارضون السلطة المطلقة للكنيسة والدولة، وكانت ولاءاتهم ذات الميول اليسارية تأخذ مجموعة من الأشكال المختلفة: فكان بعض أنصار همبولت يشاركون فى معارك متاريس برلين Berlin Batties of Barricades، وكان بعضهم مرشحا للجمعية الوطنية فى فرانكفورت وشتوتجارت، ومع ذلك كان بعضهم يدعو إلى آراء جمهورية راديكالية مناهضة للملكية[٢].

وكان التحرير الانتقائى لمراسلات همبولت يمثل استراتيجية فعالة بصورة خاصة فى تبنى موقفه بالنسبة إلى القضية الثورية. ففى الحقيقة، بعد أن مات همبولت مباشرة، تبنى الفصيل الثورى فى برلين اسمه من خلال تحرير خطاباته إلى الديمقراطى الشهير كارل أوجوست فون إنسى (١٧٨٥-١٨٥٨). وكان ظهور هذا المجلد بمثابة قنبلة، فلم يقتصر تأثيره على برلين والعالم الأوسع الناطق بالألمانية فحسب،

ولكنه امتد إلى أنحاء أوروبا. ومن الناحية العلنية، لم يتخذ همبولت موقفا سياسيا واضحا، وكانت له مراسلات ودية مع ممثلى عدد كبير من الأطراف السياسية التى شملت المستبدين والرجعيين بالإضافة إلى الليبراليين والراديكاليين. وبصراحة، فقد كان همبولت معروفا لفترة طويلة بأنه يدعم القضايا الليبرالية، ويشعر أنصار همبولت الألمان المعاصرون بمبرر ادعاء أنه كان من دعاة التخلص من "حماية مصالح مجموعة" الإقطاعيين، وتشجيع الحرية السياسية والوحدة الوطنية لألمانيا. ومع ذلك، يبدو همبولت للكثير من الأجانب وثيق الصلة أيضا بالبروسيين وغيرهم من المحافظين الملكيين الأوروبيين، وعند وفاته لم يكن واضحا أن اسمه العظيم يجب أن يغتصب هكذا مباشرة لصالح الديمقراطية الثورية. ومن دراسة مراسلات همبولت مع إنسى وكيفية تفسير المعاصرين لهذه المراسلات، آمل أن أوضح كيف أن همبولت الجغرافى أصبح له بعد وفاته بطريقة ما "حياة أخرى" جديدة عالميا باعتباره همبولت الثورى.

مراسلات همبولت وطبعة فارناجن فون إنسى

مات ألكسندر فون همبولت فى ٦ مايو ١٨٥٩. وبعد ذلك بأقل من شهرين، فى ٢٩ يونيو ١٨٥٩، وبينما كانت تقارير سجلات الوفيات لا تزال تظهر فى الصحافة الدورية، كانت هناك خطط تنفذ لنشر مراسلات همبولت مع فارناجن فون إنسى[٣]. وخلال فبراير ١٨٦٠، ظهر كتاب "رسائل ألكسندر فون همبولت إلى فارناجن فون إنسى من سنة ١٨٢٧ حتى ١٨٥٨"، حيث نشرته دار نشر بروكوهوس Brockhaus فى لايبتزج.

وكان همبولت مذهلا ككاتب رسائل. ففى قمة شهرته، كان يكتب ما لا يقل عن ألفى رسالة فى السنة، بمعدل خمس أو ست رسائل يوميا، وخلال الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨٥٩، كتب نحو خمسين ألف رسالة، وقد تم جمع نحو ثلاثة عشر ألفا من هذه الرسائل فى "مركز بحوث ألكسندر فون همبولت" فى برلين. ويحتمل أن يكون قد ضاع نحو خمسة وثلاثين ألف رسالة منها، ويمكن أن يكون عدد الرسائل التى وصلت إلى همبولت قد وصل إلى مائة ألف، ومع ذلك لم يتبق سوى ٤٪ فقط منها؛ لأنه كان يتخلص من مراسلاته عادة. ومع زيادة شهرته، تزايد تدفق الرسائل، وخلال العقود

الأخيرة من حياته ربما كان عدد الرسائل الذى يوجه إليه يصل إلى ثلاثة آلاف سنويا. وتعتبر أسماء أكثر من ألفين وخمسمائة من مراسلى همبولت معروفة، ومع ذلك، لم يتم حتى الآن تحديد نحو سبعمائة وخمسين من مستقبلى رسائله[٤].

وتقدم هذه المراسلات الضخمة صورة واضحة عن شبكة اتصالات همبولت. حيث صنف بييرمان Biermann هؤلاء المراسلين فى عشر فئات، تتراوح ممن استقبلوا من ١٠ إلى ٢٤ رسالة من همبولت، إلى من تلقوا ٣٥٠ رسالة أو أكثر. وكذلك صنف بييرمان مراسلى همبولت حسب المهنة والمستوى العلمى،... إلخ. وكان من بين ملاحظاته الختامية أن تبادل الرسائل مع الفلكيين كان أكثر تكرارا منه مع الجغرافيين، ما يمكن أن يرجع إلى أن همبولت كان أقل ألفة بالفلك منه بالجغرافيا، ولذلك كان فى حاجة ماسة إلى مشورة الفلكيين[٥].

وفى هذا الفصل، تعتبر السمة الأساسية لمراسلات همبولت أقل أهمية من السمة الثانوية لطبعات هذه الرسائل بعد وفاته، ومسألة لماذا اختير جزء دون الآخر من هذه الرسائل الكثيرة للنشر ليست أيضا بإشكالية مركزية هنا. وغالبا ما تعتبر مجلدات هذه الرسائل "مصادر أولية" محايدة، إذ إن هذه المراسلات عبارة عن مجرد سجل للتوثيق. وفى حالات عديدة، فإنها تساعد على إثبات - أو يمكن جعلها تساعد على إثبات - موقف أيديولوجى حزبى، فمثلا، إذا أراد فرد تحرير رسائل همبولت مع اليهود رجالا ونساء من بين اتصالاته العديدة، فإن هذا يمكن أن يقوى الاعتقاد بأنه كان محبا للسامية. وفى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر مثلا، كان يمكن استغلال مثل هذا العمل لخدمة قضية تحرير اليهود؛ ففى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان بوسع هذا الموقف تدعيم سياسات إصلاح ما بعد النازية. وإذا أراد المرء تحرير مراسلات همبولت مع النساء العديدات اللائى تبادلن معه الرسائل، فإن ذلك يمكن أن يدعم قضية الحركة النسائية، وخاصة المساواة فى المشاركة فى العلوم. وفى الواقع، فإن العمل على مراسلات همبولت مع هيلين ماريا ويليامز، وكارولين هيرشل، ومارى سومرفى، وغيرهن، لا يزال جاريا - فهن اللائى ساهمن كثيرا فى ترجمة بعض كتب همبولت إلى الإنجليزية[٦].

وهكذا يمكن أن تكون طبعات الرسائل موضع خلاف كبير، كما كان الحال مع أول طبعة لهذه الرسائل، وهى مراسلات فارناجن فون إنسى. فقد كان إنسى دبلوماسيا وكاتبا فى الشئون العامة، وقام بترتيب الأحداث فى عصره فى يوميات وأصبح مشهورا بكتابات السير الشخصية والذاتية. وكان موقفه السياسى المناهض للمؤسسية، ومراسلاته مع مختلف الشخصيات الليبرالية، مصدر إلهام لعدد من الدراسات اللاحقة عنه(٧). وكانت طبعات أخرى من الرسائل من أوراقه - مثل مراسلاته مع توماس كارليل، وريتشارد مونكتون كلنس، وأول بارون لهوتون، والاشتراكى الأمريكى ألبرت بريسبين، وغيرهم، موضوعا للدراسة(٨). وقام فارناجن - صديق همبولت المقرب وموضع ثقته - بحفظ الرسائل التى تلقاها من همبولت بعناية، وسجل أيضا بإخلاص فى يومياته كل ما قاله صديقه العالم الكبير خلال زياراته الخاصة التى كان يقوم بها بانتظام. وكذلك، قدم همبولت إلى فارناجن مجموعة من الرسائل التى تلقاها من مراسلين بارزين من أنحاء أوروبا، لتضاف إلى مجموعة فارناجن الكبيرة والمنظمة من الأوراق المعاصرة.

ويحتوى المجلد المنشور على ٢٢٥ رسالة من الأوراق الخاصة بفارناجن، والتى كتب همبولت معظمها إليه. وكان يشمل أيضا رسائل عديدة موجهة إلى همبولت من شخصيات مشهورة، كان من بينهم الملك كريستيان الثالث ملك الدنمرك، والأمير مترنيخ Metternich، ورئيس الوزراء البريطانى ذو التوجه المحافظ روبرت بيل، والأمير ألبرت زوج الملكة فيكتوريا، وشخصيات أخرى شهيرة مثل: دومنيك فرانسوا جين أراجو، وفريدريش فلهلم بيسيل، وجون فريدريك ويليام هيرشيل، وهونور دى بالزاك، وفيكتور هوجو. وبصفة عامة، كان همبولت يكتب الرسائل إلى العلماء أكثر مما يكتبه إلى شخصيات الحياة العامة، ولكن الفئة الأخيرة سيطرت على هذه الطبعة(٩). حيث أضيفت مقتبسات من يوميات فارناجن.

ومن الواضح أن فارناجن خطط لنشر هذه الرسائل بعد وفاة همبولت. ولكن بالرغم من أنه كان أصغر منه سنا، فإنه توفى قبل همبولت، تاركا أوراقه ومجموعاته لبنت أخيه روزا لودميلا آسنج، وكانت هى التى عملت على نشر هذه المراسلات بعد وفاة همبولت. وكان الاهتمام العام بها هائلا. ففى ١٨٦٠ فقط، ظهر ما لا يقل عن

خمس طبعات ألمانية فى لايبتزج، بالإضافة إلى طبعة أخرى فى نيويورك، وظهرت ترجمتان باللغة الإنجليزية، نشرت الأولى فى لندن والثانية فى نيويورك، وظهرت ثلاث ترجمات فرنسية، إحداها فى بروكسل واثنتان مختلفتان فى جنيف، وكان هناك أيضا ترجمة دنمركية.

الاستقبال المعاصر: فضيحة

دعونا ننظر الآن إلى جوانب جغرافية استقبال هذا المجلد من المراسلات، والمنشور على نطاق واسع فى العوالم الناطقة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية. فخلال ١٨٦٠ وحدها، ظهر فى الصحف اليومية والدورية الأوروبية أكثر من مائتى مقال حول هذا المجلد(١٠). وكان من بينها مقالات طويلة وعاطفية فى دوريات رائدة كتبها بعض أصحاب أشهر الأسماء فى الصحافة: ففى بريطانيا العظمى، ظهرت مقالات جوهرية فى المجلات التالية: أثينايوم Athenaeum، وأدنبرة، وفريزر. ومن بين الدوريات الفرنسية، كان هناك مجلة عالمى الشرق والغرب، والمجلة المعاصرة، والمجلة الألمانية، حيث نشرت كلها مراجعات كبيرة لمجلد المراسلات. وفى العالم الناطق بالألمانية، طبعت مناقشات تفصيلية فى دوريات مختلفة مثل: أصوات معاصرة من الكنيسة البروتستانتية فى سويسرا، مجلة فولفجانج منتسل الأدبية. وقد ذكر هيرمان نارجراف، محرر مجلة "أوراق أدبية"، التى تملكها دار بروكهاوس، فى عدد ٩ أغسطس ١٨٦٠ - بعد ستة أشهر من ظهور المجلد - أن نشر مراسلات همبولت لا يزال يمثل "الحدث الحقيقى" فى الأدب فى تلك السنة، وأنه حتى لو كانت هناك كتابات تفوق هوميروس وشكسبير، فإنها لم تكن لتنافس هذا المجلد:

"لا يزال "الحدث الأوروبى" الحقيقى فى عالم الأدب يتمثل فى نشر رسائل ألكسندر فون همبولت إلى فارناجن، واتصالاته الشفهية الواردة فى صفحات مذكرات فارناجن. ولا تستطيع أية ملحمة، حتى إذا كانت أكثر أهمية من ملحمة هوميروس؛ ولا أية دراما، حتى ولو كانت أقوى من دراما شكسبير، أن تتنافس حاليا مع منشور كهذا"(١١).

ويتمثل أحد أسباب الضجة التى أحدثتها هذه الطبعة من مراسلات همبولت فى أنها احتوت على "أجزاء مثيرة من الفضائح" كما يقول أحد المعاصرين[١٢]. فقد كانت الرسائل تحتوى تعليقات غير متوقعة وغير محترمة وساخرة ساقها همبولت بحق العديد من الأشخاص البارزين. وكان هناك انتشار جغرافى قومى واضح خضعت أمثلته لنقاش عميق على نطاق واسع، وكانت كل قراءة وطنية أكثر اهتماما بتعليقات همبولت على الأشخاص المشاهير الذين يعرفونهم بصورة خاصة. وكان جانب الإشاعات فى المجلد واضحا فى مقال مجلة أدنبرة، الذى كتبه أبراهام هايوارد، وهو كاتب أسهم كثيرا فى المجلات الفصلية، ومترجم فاوست لجوته (١٨٣٣)، حيث انتقد هايوارد همبولت على ملاحظاته الساخرة على راعيه الملكى الملك فريدريش فيلهلم الرابع ملك بروسيا، وغيره فى بلاط برلين:

"لا نريد أن نقلل من قيمة هذا الكتاب كإسهام فى تاريخ العلم أو الأدب أو النقد أو المجتمع فى برلين، ولكن أهميته فى هذا الصدد لن تنخفض، بل لن يمسها شىء لو تم حذف معظم الفقرات التى تواجه اعتراضات عليها، ويتمثل الاقتراح الذى نختلف عليه بصورة خاصة فى أن اسم وذكرى همبولت سيستمدان بريقا شديدا منه طوال وجوده. ونحن نعرف سلفا أنه كان موهوبا بالكثير من الهبات العبقرية العظيمة، وأن طاقته لم تكن تستنفد، وأن معارفه كانت واسعة ومتنوعة، وأن فكره كان منظما وشاملا، وكان تخيله خصبا، وكان خياله واسعا وحيا، وكان إدراكه سريعا بصورة فريدة. ولكننا لم نعرف، مهما كان شكنا، أنه أصبح حاسدا وعائبا، وأنه كان يفتقد إلى الإحسان والإخلاص، وأنه غير مخلص حتى مع صديقه الملكى الذى شاركه الطعام، وأنه كان مغتابا ومتملقا. واختصارا، فقد ظهرت صفاته السيئة بصورة واضحة. نظرا للتعمية المؤقتة على الخير (كما نأمل)". (٢١٧-٢١٨)

وقد أفلتت أمثلة عديدة على "التعليقات غير المحترمة" لهمبولت من المراجعة (٢١٥). وكان أحدها يتعلق ببيل Peel الذى كان همبولت يكرهه. وفى يناير ١٨٤٢، زار فريدريش فيلهلم إنجلترا لحضور تعميد أمير ويلز، وقد رافقه همبولت بالرغم من أنه كان يعترض

على الزيارة، لأنه كان يرى فيها تآمرا من كريستيان كارل يوشيا Christian Karl Josiah، وبارون فون بونسن Freiherr von Bunsen، السفير البروسي إلى لندن، تأييدا للكنيسة الإنجيلية وحزب المحافظين. وقد سجل فارناجن ما يلي:

"قدم همبولت لي تقريرا مواتيا جدا عن إنجلترا. وفي البلاط، كانت هناك روعة كبيرة، ولكن نمط الحياة الخاصة طبيعي وبسيط؛ وكان الحوار سلسا ووديا، وكان طبيعة نبرته جيدة، حتى بين أعضاء الفصائل السياسية المتنافسة. وهو لا يحب بيل، ولم يحبَّه من قبل، ويقول إنه مثل الألمان، وهو فاشل وغير طموح، ورؤاه ضيقة". (٢٣٠-٢٣١)

وكان هناك "غمز مؤذ" موجه ضد دوروتيا كريستوفورانا Dorothea Christophorana، أميرة ليفن Lieven، المشهورة بصالوناتها في لندن وباريس، والتي كان زوجها يعمل سفيرا روسيا في لندن (٢١٥)، حيث وصفها همبولت بلا احترام بأنها "السيدة دي كويتزوف Madame de Quitzow" حيث كانت أسرة كويتزوف أسرة سيئة السمعة من البارونات اللصوص في العصور الوسطى في براندنبرج:

"تريد السيدة دي كويتزوف - التي لم تكتب لي طوال السنوات الخمس والعشرين الماضية - أن تعرف مني ما إذا كان الإمبراطور بول - خلال حقبة جنونه السياسي - قد تسبب في اقتراح كوتزبو Kotzebue بأنه يجب على وزراء الخارجية الدخول في قتال فردي بدلا من الجيوش. ولكنني كنت في ذلك الوقت (١٧٩٩ و١٨٠٠) أعبر دلتا أمريكا الجنوبية، ولم يكن لدي معرفة بتلك القصة التي كانت الأميرة الروسية تريد أن تتأكد من صحتها (حيث كان لديها كما اتضح لي الآن ميل قوي نحو الأفكار والميول الغربية). وطبقا للتقارير التي جمعتها، وهي غير جديرة بالثقة نوعا ما، فقد كان الاقتراح يقضي بأن الملوك أنفسهم - وليس وزراء الخارجية - هم الذين يجب أن يدخلوا قوائم المبارزة". (٢٣٢-٢٣٣)

وقد دافع هايوارد عن الأميرة ضد هذا التقرير المهين، وأشار إلى أن خطابها كان بناء على طلب همبولت، وأن "فكرة القتال بين الملوك كانت شائعة جدا بحيث لا تلصق

بخيال القيصر" (٢٣٣). وعلى أى حال، "فإن أى قدر من الاحترام، أو أى مستوى من الشهرة، لن يكفى لحماية مراسلات همبولت من أذاه، إذا كانت هناك عبارة غامضة أو سيئة يمكن الاستناد إليها" (٢٣٢). وكان هذا ينطبق حتى على الرسائل التى تلقاها من الروائى والشاعر الإيطالى ألكساندرو مانزونى، أو من رجل الدولة مترنيخ. وكان هايوارد متوترا بصفة خاصة من الملاحظات المفرطة فى النقد بشأن رسالة كتبها الأمير ألبرت؛ حيث يتعلق "أذى" همبولت باستعارة استخدمها زوج الملكة فى خطاب شكر على تلقى نسخة من كتاب همبولت "كوزموس Cosmos"، حيث ختم الخطاب كما يلى: "نتطلع إلى السماء - التى منحتنا هذا الوصف النبيل من "مطالع نجومها وبحار ضوئها الغامر" - أن تحفظكم لسنوات مديدة للبلاد، والعالم، و"الكون" ذاته، فى سلام دائم فى الجسد والعقل" (٢٣١). وكانت هذه الرسالة مصحوبة بإهداء كتاب "نظرات إلى الآثار فى أمريكا الوسطى، إقليمى شياباس ويوكاتان" (١٨٤٤) الذى كتبه فريدريك كاتروود Frederick Catherwood. وفى إحدى رسائله إلى فارناجن، انتقد همبولت ألبرت الذى كان أصغر أبناء دوق ساكس كوبورج جوتا Duke Saxe-Coburg-Gotha، على قلة أدبه. وانتظر زوج الملكة طويلا جدا قبل شكر همبولت على إهداء نسخة "الكون". واستطاع همبولت أن يضيف إلى السطور القليلة القادمة الملاحظات المهينة التالية:

"إنه يجعلنى أتحدث عن "مطالع نجوم السماء وبحار ضوئها الغامر"؛ وهذه قراءة كوبورج Coburg لنصى، بالإنجليزية، من وندسور Windsor، حيث كل شىء ملىء بالمطالع. وقد ظهر تعبير "بساط النجوم Star-carpet" فى كتاب "الكون" مرة واحدة، وذلك لتفسير البقع الخالية من النجوم "بفتحات" فى قبة السماء. أما كتاب آثار المكسيك، الذى "قدمه هدية لى"، فقد اشتريته منذ سنتين. وكان بوسع طبعة موضحة جيدة من أعمال لورد بيرون أن تكون هدية أفضل. ومن الغريب أيضا أنه لم يذكر الملكة فيكتوريا، التى ربما لا تجد كتابى عن "الطبيعة" مسيحيا بصورة كافية. وكما ترى، فإننى أحكم بقسوة على كتابة الأمراء"(٢٣١).

وبالتركيز على "الفضائح الطريفة الصغيرة" وتصوير همبولت على أنه مغتاب، انصرف الاهتمام عن الرسالة السياسية اليسارية لطبعة لهمبولت وفارناجن فون إنسى. وبالتالى، أبرز المراجعون المحافظون جانب فضائح إشاعات المشاهير فى هذه المراسلات، بينما ركز الليبراليون على المحتوى والمضمون السياسى لتعليقات وانتقادات همبولت. وهناك مقال طويل فى مجلة "أثينايوم" فى ذلك الوقت حرره المؤرخ والرحالة ويليام هبوورث ديكسون William Hepworth Dixon، وهو يعتبر بمثابة لسان حال الإصلاح الديمقراطى، حيث رأى فى هذه الرسائل وثيقة خطيرة للسياسة المناهضة للمؤسسية. وقد حول المراجع اهتمامه فى النهاية فقط إلى السطور التى يفترض أنها فاضحة عن الأمير ألبرت، حيث دافع عن زوج الملكة ضد انتقاد همبولت، ولكنه خفف من لهجة لومه لهمبولت بقوله إنه كتب هذه الرسالة بينما "ربما لم يكن فى أفضل حالاته"[١٣].

وفى الواقع، كشفت الرسائل صورة مختلفة تماما لهمبولت عن تلك التى يعتقد الكثير من الناس أنهم يعرفونها: فلم يكن ملكيا مخلصا ولا مؤيدا للمؤسسية، وربما كانت طبيعته ذات مسحة هدامة، وكان أكثر ارتباطا بالسياسات الثورية فى عصره بدرجة أكبر مما يحبها المعجبون به. ويدعو النقاد قراءهم إلى تذكر أن همبولت كان لسنوات عديدة أحد رجال الحاشية، وبأنه كان زائرا يوميا لقصر ملك بروسيا، وكان ضيفا دائما على المائدة الملكية. وهكذا كان يمكن أن نتوقع أنه كان على توافق عام مع سياسة فريدريش فيلهلم الرابع ووزرائه. ومع ذلك، ظهرت رسائل فارناجن الآن لتكشف العكس، وتظهر أن همبولت كان مؤيدا لليبرالية ومعارضا للأتقياء المحافظين الذين أحاط الملك نفسه بهم. وكذلك، يبدو أن همبولت كان يعتقد أنه حتى الأشكال المتطرفة من الجمهورية كانت تفوق كثيرا الاستبداد المستنير الذى كان يحكم فى برلين وباريس وأماكن أخرى من العالم. وقد أبرزت أثينايوم رسالة تظهر أن عداء همبولت للبلاط وصل إلى درجة "أنه كان أحيانا يندفع إلى الجمهورية المباشرة"[١٤]. وكان الإعلان فى طبعة لندن يقرر أن:

"هذه الرسائل كونت إحساسا حيا قويا فى كل أنحاء ألمانيا، إذ إنه فى خلال أسابيع قليلة من نشرها لأول مرة، كانت طبعة خامسة قد نشرت بالفعل. وفى ضوء الحالة الفعلية الحالية للأمور، كانت تعتبر دليلا حيا ومذهلا على حقيقة أن المبادئ الليبرالية والشعور القوى بالقومية والوحدة الألمانية كانت تكتسب أرضا باستمرار منذ زمن طويل، حتى بين الطبقات العليا فى المجتمع البروسى"[١٥].

وكانت هذه الصلة مع اليسار السياسى واضحة بعدد من الطرق؛ إذ إن حقيقة أن همبولت كان يجب أن يكون قريبا جدا من فارناجن، الذى كان ديمقراطيا ليبراليا صريحا، تبدو أنها تشير إلى ميول همبولت السياسية الخاصة[١٦]. ويجب ألا نتغاضى عن أهمية الشخص الذى حرر الرسائل، لوميلا آسنج، التى عملت فى بيت عمها مضيفة صالون، وتواصل ما كانت عمتها "راهيل ليفين" تفعله قبل وفاتها المبكرة فى ١٨٣٣. فقد كانت – مثل ليفين اليهودية – راديكالية ملتزمة متعاطفة مع المثل الراديكالية لثورة ١٨٤٨. ويبدو أن اختيارها لرسائل همبولت من بين السجلات الخاصة الكبيرة لدى فارناجن كان يخدم هدفا عائليا يتمثل فى نشر الديمقراطية الليبرالية فى العالم الناطق بالألمانية. وعندما واصلت عملها التحريرى ونشرت عدة مجلدات من "يوميات Tagebücher" فارناجن، صادرت شرطة برلين هذه المجلدات وهددتها بمحاكمة سياسية، وحكم عليها غيابيا فى ١٨٦٢ بالسجن لمدة ثمانية أشهر، وفى ١٨٦٤ حكم عليها بسنتين أخريين[١٧]. وهربت آسنج إلى إيطاليا حيث ارتبطت فى فلورنسا بالديمقراطيين والثوريين والفوضويين الإيطاليين والمبعدين[١٨].

ودعونا نكرر هذه النقطة ثانية؛ حيث استنكرت الدوريات المحافظة هذا النشر، بينما مدحته الدوريات الأكثر ليبرالية، حيث هاجم رودولف هايم Rudolf Haym آسنج فى "الحوليات البروسية Preussische Jahrbuecher"، وهى مجلة شهرية محافظة للرأسماليين والملاك الألمان كانت تنشر فى برلين من ١٨٥٨ إلى ١٩٣٥. فقد كان الكتاب بمثابة تجسيدا للمعصية بالنسبة إلى همبولت، حيث لطخ اسمه، وبالتالى شرف الأمة ومجد العلوم الألمانية. وأضاف هايم: "من المعروف أن مفاهيم المجد والشرف بعيدة عن مجال مفاهيم المرأة [مقارنة بالرجل][١٩]. وكذلك فإن كاتب ومحرر "مجلة

شتوتجارت الأدبية". فولفجانج منتسل - الذى غير موقفه السياسى من الليبرالية المعتدلة إلى المحافظة الرجعية - أدان همبولت وآسنج، واتهم آسنج بالوضاعة والدوافع المالية وبيع خطايا همبولت وفارناجن لباعة الكتب"[٢٠]. وكذلك حكم منتسل على الكتاب بأنه فارغ وعديم القيمة، ويظهر الكراهية البغيضة ضد المسيحية وضد الدوافع النبيلة للملك البروسى[٢١]. وكذلك فإن المحافظ المتشدد رينيه جاسبارد إيرنست تيلاندير - الذى كان يكتب فى "مجلة عالمى الشرق والغرب" التى كان يسهم فيها مستشرقو "كوليج دو فرانس" - اتهم همبولت بالازدواجية واعتبر هذه المراسلات ضارة ببرلين وبروسيا، وأدان بشدة آسنج ودوافعها، واتهمها بالغرور النسائى وانتهاك خصوصية الرسائل[٢٢]. وكذلك أدان هايوارد هذا المجلد، بالرغم من أن انتماءه المحافظ كان إصلاحيا، وكتب فى ذلك مقالا فى "مجلة أدنبره" اليمينية، ولام هايوارد آسنج على نشر الفضائح والأذى على الجمهور:

"لا يمكن أن يكون هناك شك فى أنها كانت تتمتع بثقة واحترام هذين الرجلين البارزين اللذين كانا مرتبطين ببعضهما بقوة فى كتابها. ونحن نرى أن هذا يضاعف من ذنبها: لأنها عرضتهما على العامة بهذا الشكل: ونحن نأمل فى أن اللوم الذى تستحقه الذى طالها بسبب تهورها سيكون له تأثير على منع الاعتداءات التى من هذا النوع مستقبلا" (٢٣٦).

وكان ريتشارد مونكتون ميلنس - الذى كان بارونا على منطقة هوفتون - يأمل أيضا فى منع "الانتهاكات التى من هذا النوع مستقبلا". فقد كان لديه سبب وجيه للقلق، إذ كان مثل فارناجن متعاطفا مع القضايا الليبرالية، وكانت له مراسلات صريحة معه. وحتى عام ١٩٢٢ لم تكن هذه الرسائل - التى تغطى العقد الحساس سياسيا من ١٨٤٤ إلى ١٨٥٤ - قد نشرت[٢٣]. وانتقدت مجلة فريزر - التى كان ميلنس يسهم فيها - نشر رسائل همبولت الخاصة بشدة، واتهمت الشخص الذى نشرها "بالخيانة"[٢٤]. وكان أشد ما أزعج ميلنس هو أن هوية همبولت كعالم كونى - استطاع أن يلعب دورا فى الإصلاح العلمى البريطانى - تغيرت إلى هوية قومية ألمانية بارتباطه بسياسات برلين القذرة، وبالتالى، قام ميلنس بمحاولة باسلة لاستعادة صورة بطله كعبقرى كونى فى العلوم يسمو على السياسات القومية:

"لقد كانت طبيعة ألكسندر فون همبولت نبيلة حقا، لدرجة أنها حافظت على رقى فكره وسلامة قلبه، فى ظل عبء الرعاية طوال حياته تقريبا؛ إذ إن همته التى لا تفتر لم تتأثر بالقيام بالواجبات الصغيرة باستمرار، ولا بالتسليات المملة، ولم يقلل التأمين المفرط لمنصبه الرسمى من اهتمامه الشديد باكتساب الجديد فى كل العلوم، وبالتطورات الحديثة فى الأدب. وهكذا كان سعيد الحظ لأنه كان يحتفظ بالمخزون الرائع للمعرفة التى تراكمت عبر السنين، وكذلك بالقدرة على إعادة إنتاجها ونشرها من أجل سعادة الإنسانية وتنويرها"(٢٥).

وعلى العكس، فقد كانت مجلة أثينايوم تعتبر هذا المجلد تعليقا مهما على "الحزب الرجعى فى بروسيا"(٢٦)، بحيث يسبب حزنا للأرستقراطيين وفرحا للديمقراطيين:

"هذا كتاب للعجائب. فقد كان همبولت ديمقراطيا وأديبا ساخرا - وكان فيلسوف برلين يسخر ويمرح فى زى مهرج! ويبدو هذا غير معقول؛ ومع ذلك، كان يبدو حقيقيا جدا. فماذا ستقول الجليسات اللامعات لهذا البروسى؟ ألم يكن نصف أمراء أوروبا يرسلون اشتراكاتهم المالية إلى بروسيا باسم همبولت؟ ألم يقم زوج مليكتنا، والأمير فريدريك ويليام، والإمبراطوران فرانسيس جوزيف ولويس نابليون، بمنح المال والوقت والنفوذ والشرف لذكرى فيلسوف كان يعتقد أيضا أنه أحد رجال الحاشية الملكية، وكان يظهر يوميا فى القصور الملكية، وكان يجلس على الموائد الملكية على يمين الملوك؟ ومع ذلك، يوجد دليل على أنه بينما كان ينحنى ويبتسم فى القصر، كان تشامبرلين همبولت بعيدا عن كل ذلك، لقد كان ينظر إلى موكب البلاط على أنه مسرحية، وإلى الأمراء والملوك على أنهم مجرد ممثلين، وأنه فيما بين أبهة القديس سوسى أو تشارلوتنبورج، كان يسخر ويبشر بالحرية الجمهورية الأكثر ملاءمة للمناخ السياسى فى نيويورك، وهذا اكتشاف مذهل!"(٢٧).

وجمع نقاد أثينايوم المثال تلو المثال على رؤى همبولت المناهضة للرجعية؛ حيث ندد بالملك إرنست أغسطس ملك هانوفر - الذى كان أيضا دوق كمبرلاند؛ لأنه الابن الخامس لجورج الثالث ملك إنجلترا - على سوء معاملته لسبعة من "أساتذة جامعة جوتنجن Göttingen"، حيث كان تاج هانوفر ينتقل عبر الذكور فقط، وعند تولى ابنة أخ

الملكة فيكتوريا فى ١٨٣٧، أصبح إرنست أغسطس - الذى كان مرتبطا بالمحافظين الرجعيين والمحافظين المتشددين - ملكا على هانوفر وألغى الدستور الليبرالى لسنة ١٨٣٣. وعندما اعترض سبعة من أساتذة جامعة جوتنجن، طردوا بلا محاكمة. وعلق همبولت قائلا: "يا له من عار يحمله هذا الرجل كأمير ألمانى!"[٢٨]. وهناك أمثلة أخرى على انتقاد همبولت للملك البروسى وحاشيته الرجعية ومستشاريه الورعين. وهناك فقرة من يوميات فارناجن فى ١٨ مارس ١٨٤٣ تسجل أن همبولت علق قائلا:

"إن الملك يفعل تماما ما يسره، مهما ترتب على أفكاره الثابتة المبكرة، وليس هناك جدوى من أية نصيحة له، حتى إذا استمع إليها.... إن الملك لم يترك أيا من خططه السابقة؛ ويمكن أن يحاول تنفيذها فى أية لحظة، مثل الخطط المتعلقة باليهود، ومراعاة يوم الأحد، وتكريس الأساقفة على النمط الإنجليزى، والتنظيمات الجديدة المتعلقة بالنبالة،... إلخ"[٢٩].

وهناك مثال آخر على سخط همبولت على ملكه، يتعلق بمصادرة لويس نابليون ممتلكات أورليانز بالقوة المفرطة خلال انقلاب ١٨٥١: حيث وافق الملك، ولكن همبولت كان فزعا.

وقد رحب نقاد ليبراليون آخرون بنشر هذا الكتاب: حيث ظهر مقال كبير كتبه رجل الدين البروتستانتى الليبرالى هاينريش لانج فى مجلة زيورخ "أصوات معاصرة من الكنيسة البروتستانتية فى سويسرا"، حيث مدح لانج هذا المجلد كإسهام فى تقديم صورة حقيقية وأمينة لهمبولت:

"لقد كانت شخصية همبولت بسيطة وحقيقية مثل أى شىء حقيقى وعظيم، وتسطع من بين هذه الرسائل الحرة السلسة"[٣٠]. وقد مجد لانج همبولت فى سلسلة من ثلاث مقالات متتالية لطبيعته الليبرالية، ودافع عنه ضد اتهامات عدم التدين. وقارن أوجست نفتزر Auguste Nefftzer - وهو صحفى فرنسى فى الصحافة الليبرالية، ومحرر مشارك فى "المجلة الألمانية" - بين مراسلات همبولت ومراسلات فولتير، ووجد فى

المراسلات أسبابا لمدح همبولت على كونه غير قومى وأنه أقرب إلى الفرنسيين من الألمان فى الأمور الدينية(٣١). وكذلك فإن إدوارد سيمون - وهو يهودى ألمانى يحب الفرنسيين، دافع فى عدد "المجلة المعاصرة" الثورية الفاشلة فى فبراير ١٨٦٠ عن صديقه الثورى الراديكالى والمادى كارل فوجت Carl Vogt - مدح رسائل همبولت إلى فارناجن فى عدد يونيو باعتبارها سجلا لليبرالية الجديدة بالإعجاب. وكان مقاله المطول دليلا للأدلة المتعلقة برؤى همبولت الليبرالية فى السياسة والدين، فى البلاط البروسى، وبالنسبة إلى الأحداث الوطنية والدولية، ومن بينها قضية أساتذة جوتنجن سيئة السمعة. بل إنه دافع عن همبولت على انتقاده الشديد للأمير ألبرت، قائلا إن هذا صدر عن "مشاعر نبيلة"، من حيث إن كره همبولت لزوج الملكة كان نابعا من ملاحظات الرسالة السلبية تجاه الشعبين الأيرلندى والبولندى(٣٢).

همبولت والجغرافيا الثورة

كان همبولت واحدا من أعظم الجغرافيين فى عصره. ومع ذلك، لا تتحدد "الجغرافيا" فى المثال الحالى بإنجازاته فى الجغرافيا، ولكنها تتحدد بمشهد متعلقات همبولت، التى تأثرت بردود الأفعال العديدة والمختلفة على مراسلاته مع فارناجن. ويشبه هذا المنهج منهج دراسة سابقة لجغرافية استقبال العمل المكسيكى لهمبولت(٣٣). واعتبر نيكولاوس جاتر Nikolaus Gatter استجابات الصحافة الدورية على نشر آسنج لمجلد همبولت بمثابة اجتماعيات الفضائح(٣٤). وقال جاتر أيضا إن الموافقة أو الإدانة من النقاد وصلت إلى حد الاعتداء على سمعة همبولت لأسباب اجتماعية سياسية.

لقد طور ونقح هذا الفصل النقطة الأخيرة بصفة خاصة، بإظهار أن جمع رسائل همبولت إلى فارناجن كان يقع فى إطار الأيديولوجية الاجتماعية السياسية التى استجابت لأيديولوجية ثورة ١٨٤٨. ففى القارة الأوروبية، كان الذين تعاطفوا مع الاضطرابات أو مع أهدافها يوافقون على هذا المجلد، ولكن الرجعيين المحافظين رفضوه.

وكان الموقف فى بريطانيا مختلفا؛ إذ إن الصحافة الدورية الإصلاحية الليبرالية - هناك فى ١٨٤٨ - لم تلوح براية الثورة أساسا، فعقب ظهور هذا المجلد، كان حكم الصحافة هناك بالإدانة، مع استثناءات قليلة. وهكذا يمكن التوصل إلى نقطتين من هذا الاستكشاف للمعانى المعاصرة لنشر أول مجموعة من مراسلات همبولت الخاصة، ومن دراسة ردود الأفعال على هذه المراسلات، حيث تتعلق النقطة الأولى بالأدلة الواردة فى المراسلات ذاتها وفى ردود الأفعال عليها، وهى الأدلة التى تكشف تحولا فى سمعة همبولت نحو اعتباره ثوريا، وتتعلق الثانية بوجود جغرافيا ملموسة فى قراءات همبولت الثورى، كما كان الحال مع استقبال أعمال همبولت خلال حياته.

الهوامش

1. On Humboldt and plant geography, see Malcolm Nicolson, "Alexander von Humboldt, Humboldtian Science and the Origins of the Study of Vegetation," *History of Science* 25 (1987): 167-94; Malcolm Nicolson, "Humboldtian Plant Geography after Humboldt: The Link to Ecology," *British Journal for the History of Science* 29 (1996): 289-310; Malcolm Nicolson, "Alexander von Humboldt and the Geography of Vegetation," in *Romanticism and the Sciences*, ed. Nicholas Jardine and Andrew Cunningham (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 169-88. For Humboldt and meteorology, see Michael Dettelbach, "Global Physics and Aesthetic Empire: Humboldt's Physical Portrait of the Tropics," in *Visions of Empire: Voyages, Botany and Representations of Nature*, ed. David Philip Miller and Peter Hanns Reill (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 258-92.

2. These paragraphs are based on my *Alexander von Humboldt: A Metabiography* (Bern: Peter Lang, in press).

3. Nikolaus Gatter, *"Gift, geradezu Gift für das unwissende Publicum": Der Diaristische Nachlaß von Karl August Varnhagen von Ense und die Polemik gegen Ludmilla Assings Editionen, 1860-1880* (Bielefeld: Aisthesis Verlag, 1996), 73.

4. Kurt-R. Biermann, "Wer Waren die wichtigsten Briefpartner Alexander von Humboldts?" *NTM Schriftenr. Gesch. Naturwiss., Technik, Med.* 18 (1981): 34; Christian Suckow, "Die Alexander-von-Humboldt-Edition: Ein Projekt der Berlin-Brandenburgischen Akademie der Wissenschaften," *Jahrbuch der historischen Forschung in der Bundesrepublick Deutschland*, Berichtsjahr 1995, 16-21; Christian Suckow and Ingo Schwartz, "Zur Problematik einer auswählenden Briefedition, Beispiel: Die Briefe Alexander von Humboldts," in *Wissenschaftliche Briefeditionen und ihre Probleme*, ed. Hans-Gert Roloff (Berlin: Weidler Buchverlag, 1998), 119-22.

5. Biermann "Wer Waren die wichtigsten Briefpartner," 36-38.

6. Petra Werner, *Casanova ohne Frauen? Bemerkungen zu Alexander von Humboldts Korrespondenzpartnerinnen* (Berlin: Alexander-von-Humboldt-Forschungsstelle, 2000).

7. Walther Fischer, *Die Persönlichen Beziehungen Richard Monckton Milnes', ersten Barons Houghton, zu Deutschland, unter besonderer Berücksichtigung seiner Freundschaft mit Varnhagen von Ense* (Wurzburg: Buchdruckerei Konrad Triltsch, 1918); Carl Misch, *Varnhagen von Ense in Beruf und Politick* (Gotha and Stuttgart: Perthes Verlag, 1925); Konrad Feilchenfeldt, *Varnhagen von Ense als Historiker* (Amsterdam: Verlag der Erasmus Buchhandlung, 1970); Terry H. Picket, *The Unseasonable Democrat: Karl August Varnhagen von Ense, 1785-1858* (Bonn: Bouvier Verlag, 1985); Werner Greiling, *Varnhagen von Ense—Lebensweg eines Liberalen: Politisches Wirken zwischen Diplomatie und Revolution* (Cologne: Böhlau, 1993); Gatter *"Gift, geradezu Gift für das unwissende Publicum."*

8. Richard Preuss, ed., *Briefe Thomas Carlyle's an Varnhagen von Ense: Aus den Jahren 1837–1857* (Berlin: Paetel, 1892); Walther Fischer, ed., *Die Briefe Richard Monckton Milnes', ersten Barons Houghton, an Varnhagen von Ense, 1844–1854* (Heidelberg: Carl Winters Universitätsbuchhandlung, 1922); Terry H. Pickett, *Letters of the American Socialist Albert Brisbane to K. A. Varnhagen von Ense* (Heidelberg: Winter, 1986).

9. Biermann "Wer Waren die wichtigsten Briefpartner," 36–37.

10. Gatter *"Gift, geradezu Gift für das unwissende Publicum."* (397–409.

11. Hermann Marggraff, "Stimmen des Auslandes über Alexander von Humboldt's Briefe," *Blätter für Literarische Unterhaltung*, 9 August 1860, 590. See also Hermann Marggraff, "Die Englische Übersetzung der Briefe Alexander von Humboldt's," *Blätter für Literarische Unterhaltung*, 14 June 1860, 443; and Hermann Marggraff, "Alexander von Humboldt's 718–19.

12. Abraham Hayward, "Correspondence of Humboldt," *Edinburgh Review* 112 (1860): 217–18. Subsequent quotations from this article are cited by page number in the text.

13. "Literature: Letters from Alexander von Humboldt to Varnhagen von Ense," *Athenaeum*, 17 March 1860, 366.

14. Ibid., 366.

15. Ludmilla Assing, ed., *Letters of Alexander von Humboldt, Written between the Years 1827 and 1858, to Varnhagen von Ense: Together with Extracts from Varnhagen's Diaries, and Letters from Varnhagen and Others to Humboldt* (London: Trübner, 1860), vii.

16. Misch, *Varnhagen von Ense in Beruf und Politick;* Feilchenfeldt, *Varnhagen von Ense als Historiker;* Pickett, *Unseasonable Democrat.*

17. Gatter *"Gift, geradezu Gift für das unwissende Publicum,"* 356–62.

18. Ludmilla Assing, *Piero Cironi: Ein Beitrag zur Geschichte der Revolution in Italien* (Leipzig: Matthes, 1867).

19. Rudolf Haym, "Notizen," *Preussische Jahrbücher* 5 (1860): 415.

20. Wolfgang Menzel, "Zeitgeschichte: Briefe von Alexander von Humboldt an Varnhagen von Ense," *Wolfgang Menzels Literaturblatt*, 4 April 1860, 105.

21. Menzel, "Zeitgeschichte," 105, 109.

22. René-Gaspard Ernest (Saint-René) Taillandier, "Lettres Intimes et Entretiens Familiers de M. A. de Humboldt," *Revue des Deux Mondes* 28 (1860): 66, 67, 88, 89.

23. Fischer, *Die Briefe Richard Monckton Milnes';* Fischer, *Die Persönlichen Beziehungen;* Philip Glander, *The Letters of Varnhagen von Ense to Richard Mockton Milnes* (Heidelberg: Carl Winter, 1965).

24. "The Publication-of-Letters Nuissance," *Fraser's Magazine* 61 (1860): 563.

25. Richard Monckton Milnes, "Alexander von Humboldt at the Court of Berlin," *Fraser's Magazine* 62 (1860): 597.

26. "Our Weekly Gossip," *Athenauem*, 10 March 1860, 343.

27. "Literature: Letters from Alexander von Humboldt," 365.

28. Ibid., 365.

29. Ibid., 366.

30. Heinrich Lang, "Humboldt und Unsere Zeit," *Zeitstimmin aus der Reformierten Kirche der Schweiz* 2 (1860): 233.

31. Auguste Nefftzer, "Correspondence d'Alexandre de Humboldt," *Revue Germanique* 9 (1860): 687.

32. Eduard Simon, "La correspondence d'Alexandre de Humboldt avec Varnhagen de Ense, 1827 à 1858," *Revue Contemporaine* 25 (1860): 148.

33. Nicolaas Rupke, "A Geography of Enlightenment: The Critical Reception of Alexander von Humboldt's Mexico Work," in *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers (Chicago: University of Chicago Press, 1999), 319–39.

34. Gatter *"Gift, geradezu Gift für das unwissende Publicum,"* 232.

الخـــاتمـــة

الثورات وجغرافياتها

بيتر بروكى Peter Burke

أود أن أركز على تنوع كل من الثورات وجغرافياتها فى هذه الخاتمة الموجزة التى تكتب من وجهة نظر مؤرخ ثقافى، والتى تثير عددا من التساؤلات أكثر مما تقدم من الإجابات (كما سيتضح من انتشار علامات الاستفهام).

وكما يشير المحرران فى فصلهما التمهيدى، فإن مصطلح "الثورة" تغير معناه بصورة جوهرية أثناء مسيرة تاريخه الطويل(١)، حيث يعنى أصل كلمة ثورة Revolution "دوران revolving" كدوران العجلة، كما فى حالة الكواكب. فنظرا لأنه كان هناك اعتقاد بأن الكواكب تمارس "تأثيرا" على شئون البشر، توسع مصطلح "دوران" ليشمل الاضطرابات السياسية، أى "زلازل الدولة" كما وصفها كاتب إيطالى فى القرن السابع عشر. واعتنق كتاب آخرون ما قرره توماس هوبس صراحة، من إنه بعد توقف الزلزال أو دوران العجلة سيعود الهيكل السياسى إلى حالته السابقة.

وقد شهدت السنوات التى تلت ١٧٨٩ ثورة فى مفهوم الثورة، والتى تجسدت فى تبنى تقويم جديد، مع اعتبار "السنة الأولى" إعلانا عن نية جعل كل الأشياء جديدة، وإلغاء ما كان يعرف بالنظام القديم، واتباع طريق التقدم. وأصبحت "الثورة" الآن تشير إلى التغيير غير القابل للرجعة. وبعبارة أخرى، فقد عكس المفهوم معناه الأصلى فى

مسار إدماجه فى رؤية خطية وليست دورية للتاريخ، ولكن لا يزال هناك اعتقاد لدى "المناهضين للثورات" - كما أصبحوا يعرفون - باحتمال استعادة النظم القديمة.

وانتشر المفهوم الجديد للثورة من السياسة إلى المجالات الأخرى، كما فى الحالة الشهيرة لفكرة "الثورة الصناعية" فى القرن التاسع عشر. ومؤخرا - وخاصة بعد نشر كتاب توماس كون "بنية الثورات العلمية" (١٩٦٢) - تعود المؤرخون وغيرهم على التعامل مع فكرة الثورات الفكرية، بما فى ذلك الثورات فى تخصصات معينة: كالكيمياء، أو الأنثروبولوجيا، أو التاريخ ذاته. وكما لاحظ بيتر دير مؤخرا، فقد "حدثت كل الثورات ضد شيء ما"[٢]. وبعبارة أخرى، فإن المفهوم يتضمن نقيضه المكمل له، أى فكرة وجود نظام قديم، أو باستخدام لغة كون، "العلم العادى". وفى فرنسا بصفة خاصة، كان لفكرة "النظام" جاذبية كبيرة، بداية من "نظم الحقيقة" لدى ميشيل فوكو، إلى مناقشة فرانسوا هارتوج الحديثة "لنظم النزعة التاريخية"[٣]. وعلى العكس، يبدو أن الدارسين فى العالم الناطق بالإنجليزية كانوا أكثر ارتياحا لمفهوم كون فى "النموذج المعرفى (البارادايم Paradigm)".

وأود أن أقدم فيما يلى: أولا، ما تم اكتشافه سلفا حول جغرافيات الثورات، وثانيا: حول ما يمكن أن نفعله الآن، والاتجاه الذى يمكن أن يسلكه البحث مستقبلا، والأفكار التى تربط هذه المصطلحات.

الثورات السياسية والاقتصادية والعلمية

يتمثل افتراضى العملى الخاص كمؤرخ فى أنه يستحيل تفسير أية تغيرات فى الشئون الإنسانية، بما فيها الثورات، بدون النظر إلى ثلاثة أبعاد لهذه التغيرات: البعد الزمنى، والمكانى، والاجتماعى، حيث يشكل البعد الأول جزءًا من الممارسة التاريخية منذ زمن طويل، بينما أصبح البعد الثالث مهما بصورة متزايدة فى السنوات الخمسين الأخيرة، مع ظهور التاريخ الاجتماعى واستقرار العلاقات الوثيقة مع علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

ولم يتعرض البعد الجغرافى الثانى للإهمال تماما. فعندما كنت أدرس التاريخ فى أكسفورد فى أواخر الخمسينيات، كانت الجغرافيا التاريخية مادة إجبارية فى السنة الأولى، ولا أزال أتذكر قراءة أعمال جوردون إيست W. Gordon East فى الموضوع. وكان الارتباط بين دراسة التاريخ ودراسة الجغرافيا أكثر قوة فى فرنسا منذ أواخر القرن التاسع عشر فصاعدا، حيث أسهم هذا الارتباط فى ظهور ما يسمى مدرسة الحوليات Annales School. وكان لوسيان فيفر Lucien Febvre أحد رواد هذه المدرسة أو الحركة، وكان معجبا بفيدال دى لا بلاش، وكان هو ذاته مؤلف كتاب فى الجغرافيا التاريخية "الأرض وتطور الإنسان La terre et l'evolution humaine" (١٩٢٢). ومع ذلك، يمكن أن يقال إن المؤرخين تعودوا على تعريف البعد الجغرافى بصورة ضيقة جدا. ولكن "التحول المكانى" الذى ناقشناه فى مقدمة الكتاب الذى بين أيدينا أصبح يظهر فى الدراسات التاريخية مؤخرا فقط، بالرغم من أن الأمر قد يكون أقل ظهورا فى حالة تاريخ العلم. وقد بدأ المؤرخون الحضريون مثلا - مثل زملائهم فى تاريخ العمل - فى كتابة تاريخ المجاورات والميادين وحتى ترتيب المناطق الداخلية المحلية، وتحليل ما يسمونه "سياسة المكان" بالإضافة إلى الجوانب الاجتماعية لذلك، وهناك أمثلة إيطالية عديدة وعلى فترات مختلفة[٤].

ويوجد لدى الدراسات التاريخية للثورات - سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية - ما تقوله عن جغرافيتها. ولننظر مثلا إلى مثال الثورة الإنجليزية، التى درسها هنا روبرت مايهيو فى الفصل التاسع، حيث كانت الحروب الأهلية عادة بمثابة حروب بين الأقاليم، بالإضافة إلى أشياء أخرى - وتعتبر الحرب الأهلية الإسبانية مثالا واضحا - ولا تعتبر الثورة الإنجليزية استثناء من هذه القاعدة. فكما أشار كريستوفر هيل منذ أكثر من ستين سنة، كانت الحرب الأهلية صراعا "بين الشمال والغرب ضد الجنوب والشرق". وفسر هيل هذا التقسيم الجغرافى من الناحية الاقتصادية، وذكر أن "المناطق المتخلفة اقتصاديا" كانت تساند الملك، بينما كانت "المناطق المتأثرة بطلبات سوق لندن" تفضل البرلمان[٥]. ومؤخرا، درس ديفيد أندرداون "التوزيع الجغرافى للولاء" فى الحرب الأهلية بتفصيل كبير، وعرض الحرب على أنها صدام بين الثقافات

الإقليمية التى تتمتع بخصائص إيكولوجية معينة، حيث قارن بين المناطق الزراعية والمناطق الرعوية، مثل "ريف الجبن" فى ولتشاير[٦]. ومع ذلك، وكما يقول مايهيو هنا، فإن هذه الاعتبارات الإقليمية وحدها تطرح صعوبات دون الإشارة إلى الاعتبارات الدينية وغيرها.

ويمكن إثارة نقاط مماثلة حول الثورة الفرنسية، التى ناقشها ميشيل هفرنان فى الفصل العاشر؛ حيث تعتبر بريطانيا مثالا واضحا على ما يسميه هيل المنطقة "المتخلفة" أو الهامشية، إذ كان القرويون يعارضون الثورة بصفة عامة[٧]. وعلى المستوى الجزئى، وطوال أكثر من سبعين سنة مضت، درس جورج لوفيفر Georges Lefebvre جغرافية الإشاعة خلال الثورة، خاصة عمله الشهير "الخوف الكبير" فى ١٧٨٩[٨]. وتناولت دراسات أخرى أيضا تأثير الثورة، وخاصة الإرهاب على أقاليم معينة، مثل وادى اللوار، حيث منعت "الحقائق الجغرافية البسيطة" - مثل التناقض بين الجبال والسهول - "المناطق المجاورة من الاستجابة بصورة مماثلة على نفس الدوافع"[٩]. وتعتبر الثورة الفرنسية ثورة مثيرة جدا للجغرافيين لدراستها، بمعنى أنها شملت محاولة توحيد فرنسا بصورة أوثق (عن طريق التغيير فى جغرافيتها الإدارية على الأقل) - وهى المحاولة التى أدت إلى - وشجعها فى نفس الوقت - الوعى المتزايد بالفوارق الثقافية بين مختلف أجزاء البلاد[١٠].

وفى نفس الوقت، فإنه من الطريف أن التحليلات العامة - مثل دراسة الدراسة الشهيرة التى قارنت فيها تيدا سكوكبول Theda Skocpol بين الثورات الفرنسية والروسية والصينية - لا تقول الكثير عن التباينات المحلية فى الاستجابة للرسائل الثورية، بالرغم من أن مقاومة القوزاق للبلاشفة معروفة، وكذلك الإسهام الكبير لمقاطعة هونان Hunan فى الحركة التى قادها ماوتسى تونج[١١]. وفى حالة الثورة المكسيكية، تطورت الأمور بطريقة أفضل قليلا، ربما من حيث الحساسية للتباين الجغرافى، حيث ركز إيريك وولف مثلا على إسهام منطقتين ريفيتين، هما شيواوا Chihuahua فى الشمال، ومورلوس Morelos فى الجنوب. وقد قدم ألان نايت Alan Knight فى دراسته العامة التقليدية عددا من الإشارات إلى الصراعات المحلية، واقترح أن الثورة المكسيكية وفرت فرصة لمعالجة العديد من المظالم المحلية، ولكنه لم يقدم أى تحليل منهجى لنمط

الاستجابات الإقليمية[١٢]. وتتمثل رؤيتى الخاصة فى أن العامل المهم فى هذه الاستجابات يتمثل فى النظام المحلى لحيازة الأرض. ففى حالة وادى اللوار فى أواخر القرن الثامن عشر، كان التناقض بين المرتفعات والسهول يمثل تناقضا أيضا بين الممتلكات الصغيرة والممتلكات الكبيرة. وفى حالة إسبانيا والبرتغال أيضا، كانت العلاقة بين الأرض والثورة واضحة جدا، ففى جنوب هاتين الدولتين، حيث كان "الإقطاع" سائدا، كان العمال الزراعيون يؤيدون الثورة، وفى الحالة الإسبانية، تحول عدد منهم إلى الفوضوية. وعلى العكس، كان الشمال الريفى فى كل من البلدين تسود فيه الممتلكات الصغيرة، وكان محافظا اجتماعيا.

وفى حالة الثورات الاقتصادية، التجارية، "التصنيعية industrious"، الصناعية industrial، كانت أهمية أقاليم مثل يوركشاير أو فريسلاند مشهورة منذ زمن. ومع ذلك، ففى الجيل السابق، وتحت تأثير الحوارات المعاصرة فى اقتصاديات التنمية، أصبحت المفاهيم المكانية للمركز والهامش مهمة بصورة متزايدة – ولا نقول جوهرية – فى التحليلات التاريخية. ويتمثل أحد أشهر الأمثلة على هذا الاتجاه فى عمل إيمانويل فالرشتاين عالم الاجتماع الأفريقى الذى تحول إلى مؤرخ اقتصادى، حيث فسر فى دراسته "نظم العالم" ظهور الرأسمالية فى العصور الحديثة المبكرة فى ضوء العلاقة المتغيرة بين مركز ما وهوامشه "وأشباه الهوامش". وبعبارة أخرى، فقد ربط ظهور الرأسمالية بظهور الرق فى شرق أوروبا، بالإضافة إلى استيراد الرقيق من العالم الجديد، وركز على التقسيم القارى للعمل حيث كان الهامش ينتج المواد الخام، بما يسمح للمركز بالتخصص فى التجارة والصناعة[١٣].

وقام برونو لاتور بمد مفاهيم المركز والهامش إلى العلم، وإلى فهم تاريخه؛ حيث أشار إلى أن البيانات الخام تؤخذ من أماكن مختلفة، ثم تتحول إلى معرفة فيما يسميه مراكز الحساب[١٤]. وتعتبر مسائل الجغرافيا – التى يعبر عنها بطرق مختلفة مثل "المركز والهامش"، أو "مراكز الحساب"، أو "الأنماط الوطنية"، أو كمواقع وشبكات محلية تربط بينها – أمرا جوهريا فى حالة الثورة العلمية، كما يوضح عدد من الفصول فى الكتاب الذى بين أيدينا. ومع ذلك، فإن ما يستحق الذكر أيضا هنا هو المضامين

الجغرافية للحوارات حول مدى توافق العلم مع الاتجاهات الدينية المختلفة، حتى إذا لم تكن مضامين مثل هذه الأمور صريحة دائما.

وقبل جيل من إبداء ماكس فيبر ملاحظاته الشهيرة على علم اجتماع الرأسمالية، كان مؤرخ العلوم الفرنسى ألفونس كوندول Alphonse Candolle قد لفت الانتباه إلى حقيقة أن البروتستانت الفرنسيين كانوا أفضل أداء من نظرائهم الكاثوليك فى المجال العلمى. وفى ضوء الإلهام الذى أثارته مناقشة فيفر الشهيرة لعدم ظهور الرأسمالية فى الصين، حلل جوزيف نيدهام Joseph Needham وغيره ما وصفه بأنه بالفشل الصينى فى تحقيق "انطلاقة" إلى العلم الحديث. وبعد جعل الجانب الجغرافى المتضمن فى دراسة كوندول أكثر صراحة (لأن البروتستانت كانوا يوجدون أساسا فى أقاليم فرنسية معينة) لاحظ المؤرخون لاحقا الأداء غير المتكافئ لمختلف الدول الأوروبية فى الثورة العلمية؛ مثل الإسهام الكبير للهولنديين، والأهمية النسبية لما قدمه الإسبان. وغالبا ما كانت هذه الاختلافات - فيما أصبح يسمى "الطبوغرافيا الثقافية" أو "جيوبولوتيكا" العلم - تفسر من الناحية الدينية، وكان جاليليو الكاثوليكى يمثل الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، نظرا لصراعه مع الكنيسة(١٥).

وكان مؤرخو العلم مؤخرا (مثل جون هنرى هنا فى الفصل الثالث مثلا) يضيفون مبررات للمقارنات البسيطة: بين الكاثوليك والبروتستانت، والشرق والغرب، دون التخلى عن البحث عن جغرافية الثورة العلمية. وقارن جيوفرى لويد مثلا بين المنظمات الاجتماعية التى تثير الفضول حول عالم الطبيعة فى اليونان والصين فى العصور القديمة، وقارن بين الفردية التنافسية فى إحدى الثقافتين ومساندة الدولة فى الثقافة الأخرى. وكما أظهر ديفيد جودمان، لم تعد إسبانيا الحديثة المبكرة - مثل الصين - ينظر إليها من منظور العجز العلمى فقط(١٦). وبالتالى قد يكون من المفيد أن نفكر فى الأمر من خلال أنماط البحث البديلة، أو "أنماط التفكير العلمى"، كما يسميها أليستير كرومبى Alistair Crombie، بدلا من التفكير فى إما وجود العلم أو غيابه(١٧). وأحيانا تكون أنماط التفكير هذه وطنية - ولكن ذلك كان قبل ما يمكن أن يسمى "تأميم الثقافة" فى القرن التاسع عشر - أى مرتبطة بظهور دول أكثر مركزية، ولكن الأكثر احتمالا أنها كانت إما إقليمية أو دينية.

الثورات فى الفن والجغرافيا

وعندما نتحرك من الحاضر إلى المستقبل، وننتقل من القضايا المستكشفة فى هذا المجلد، أود أن أقترح اتجاهين محتملين لمزيد من العمل على الصلات بين الجغرافيا والثورة، وهو العمل الذى يمكن أن يشارك فيه المؤرخون والجغرافيون وغيرهم، حيث يتمثل الاتجاه الأول فى جغرافية الثورات الفنية، بينما يتمثل الثانى فى مكان الثورات فى الجغرافيا ذاتها.

وقد سبقت الإشارة هنا، بالإضافة إلى إشارة هنرى فى الفصل الثالث، إلى فكرة كرومبى فى "أنماط" التفكير العلمى؛ إذ يمكن أن تكشف دراسة تاريخ الفن أيضا عن بعض الأمثلة المدهشة لجغرافية الأنماط، بما فى ذلك ثورات الأنماط. وكما فى حالة علماء السياسة، فإن مؤرخى الفن مستعدون للاعتراف بأهمية التباينات الجغرافية المحلية، ولكنهم نادرا ما يحاولون الكتابة بصورة منهجية عن الأقاليم الفنية، مع وجود استثناءين مشهورين[١٨]. فمن بين المحاولات القليلة للقيام بذلك، هناك عمل لم يقم به لا مؤرخ أدبى ولا جغرافى، ولكنه عمل مؤرخ عام هو فيكتور تابى Victor Tapie، ففى أوروبا فى القرن السابع عشر، كانت النزعة الكلاسيكية والنمط الباروكى يمثلان نمطين عالميين متنافسين، حيث اقترح تابى أن هذين النمطين لهما جغرافياتهما الخاصة منذ فترة طويلة، والتى غالبا ما تتناسب مع جغرافية الدين والعلم، إذ إن سكان الأقاليم الكاثوليكية (إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، وسط أوروبا) اختاروا النمط الباروكى بصفة عامة، بينما اختارت الأقاليم البروتستانتية (بريطانيا، وجمهورية هولندا، وشمال ألمانيا، وإسكندنافيا) النمط الكلاسيكى بصفة عامة. وكانت فرنسا أكثر تعقيدا، فقد كانت دولة كاثوليكية أساسا، ولكن كان فيها تردد طويل بين النمطين المتنافسين، والذى حسم لصالح الكلاسيكية بعد ١٦٥٠[١٩].

فكيف يمكن أن يفسر المرء هذا التناقض؟ فقد كان النمطان الكلاسيكى والباروكى يعرفان على أنهما نمطان متعارضان ومتنافسان، وذلك من حيث الانتظام مقابل عدم الانتظام، والبساطة مقابل التعقيد، والمحدودية مقابل الوفرة، والوضوح مقابل الصعوبة،

والسكون مقابل الحركة، والعقل مقابل اللاعقل، وهكذا. وفى حالة بعض هذه التناقضات على الأقل، يمكن أن نتحدث عن الصلات بين الكلاسيكية والبروتستانتية (وخاصة الكالفنية)، وبين الباروكية والكاثوليكية (خاصة الكالفنية المناهضة للإصلاح). وهناك عدد قليل من المؤرخين الجسورين استمروا فى هذا الاتجاه، حيث فسر المؤرخ التشيكى جوزيف بوليزينسكى Josef Polisensky حرب الثلاثين عاما بأنها صدام بين الأقاليم، كما كانت أيضا صداما بين حضارتين أو نموذجين ثقافيين، الإسبانى والهولندى، حيث كانت إسبانيا تمثل النظام القديم، بينما جسد الهولنديون طريقة حياة جديدة[٢٠].

ومع ذلك، سننتقل الآن من الثورات الفنية إلى الثورات فى تخصص الجغرافيا ذاتها؛ حيث تعتبر فكرة كتابة كون أو ميشيل فوكو لتاريخ الجغرافيا، والتركيز على تغيرات النموذج أو "الانطلاقات" المعرفية فكرة جذابة. وعلى حسب علمى، لا يوجد مثل هذا التاريخ العام، بالرغم من وجود دراسات مهمة لدول وقرون معينة، وربما تتمثل الدراسة الأكثر تأثرا بفوكو صراحة فى دراسة آن جودليفسكا Anne Godlewska للجغرافيا الفرنسية[٢١]. ومع ذلك، فإنه عندما يكتب مثل هذا التاريخ العام، فمن المؤكد أن الأمر يحتاج إلى مراعاة عدد من المقترحات الواردة فى الفصول التى تكون الكتاب الذى بين أيدينا. ولنفترض الآن أننا نتناول الفترة الممتدة من بطليموس وسترابو إلى إحياء عصر النهضة للاهتمام بهذين الدارسين كنظام قديم دام طويلا (بما لا يتضمن أن دراسة الجغرافيا كانت ساكنة، ولكنه يتضمن أنه لم يكن هناك تغير بنيوى، ولم يكن هناك توقف كبير أو مفاجئ فى الاستمرارية). وهنا يمكننا أن نتساءل متى، وأين، ولماذا حدثت ثورات ضد هذا النظام؟

لقد ناقشنا هنا إحدى الثورات فى الجغرافيا؛ إذ يقول تشارلز وزرز فى الفصل الرابع إن "الجغرافيا كانت جزءاً مما أصبح يسمى "الثورة العلمية" - مع ارتباطها بالفلك والرياضيات - ولكن لم يكن هناك اعتراف بهذه المكانة لأسباب مختلفة دائما. ولكن كم عدد الثورات الأخرى أو تغيرات النماذج التى مرت بها الجغرافيا؟ يمكن أن تشمل قائمة مختصرة تجمع من الفصول الأخرى خمس حالات أخرى على الأقل.

وحسب الترتيب الزمنى، فإنها تشمل طباعة الخرائط، التى ناقشها جيرى بروتون فى الفصل السادس؛ وثورة داروين التى عرضها جيمس مور فى الفصل الخامس؛ و"الثورة البصرية" التى ترتبط بظهور التصوير، كما ناقشها جيمس ريان فى الفصل الثامن؛ وحتى الثورة الكمية الخاصة بالجغرافيا فى منتصف القرن العشرين، والتى ذكرت باختصار فى الفصل الأول.

ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة ثورة سادسة، وهذه هى "الثورة الثقافية" فى الجغرافيا، والتى يقدمها العديد من المساهمين أنفسهم. ويظهر هذا التحول الثقافى - الموازى لتحول تخصص التاريخ المجاور - فى عدد من المفردات، والتى تشمل مصطلحات منها: "الثقافة الجغرافية"، "التعليم الجغرافى الأساسى Geoliteracy"، أو "ثقافات الاستكشاف"، حيث ظهر الاتجاه الثقافى من الاتجاه الاجتماعى فى الجغرافيا والتاريخ على السواء، ففى بريطانيا، أضافت "جمعية دراسات الجغرافيا الاجتماعية" كلمة "الثقافية" إلى عنوانها فى ١٩٨٨، بينما قامت جمعية التاريخ الاجتماعى بحركة مماثلة بعد ذلك بعقد[٢٢].

ومع ذلك، تثير كل هذه الثورات الست المفترضة مشكلة معايير وصفها بأنها ثورية. ففى بعض الحالات، يبدو أن المعيار الرئيس يتمثل فى التغير فى الأسلوب: إما التحول إلى العمل الميدانى المنهجى وإعداد الخرائط للإحصاءات والاقتصاد السياسى مثلا، أو إجراء المسوح من أى نوع[٢٣]. وفى حالات أخرى، يتمثل المعيار فى ظهور مفاهيم جديدة مثل التطور، وفى حالات أخرى يتمثل المعيار فى التحول المؤسسى للمجال فى المدارس والجامعات. فهل من المقبول فكريا أن ننتقل من معيار لآخر بهذه الطريقة؟ فقد يكون من الأفضل أن ندعى من المنظور المنهجى أنه كان هناك ثورتان، وأنه من منظور المفاهيم كان هناك ثلاث ثورات، وهكذا. أم أن هذه الاختلافات يمكن أن تميع فكرة الثورة كثيرا حتى تشوهها؟ وكذلك فإن مشكلة الاستمرارية تتطلب مناقشتها هنا. ففى حالة المسار التاريخى، أود أن أناقش حتما أن ما يسمى فيه بثورات رانك Rankean، وبوركهارت Burckhardtian، و بروديليه Braudelian، أو غيرها، ومهما كانت أهميتها، لم تقم بإزالة تقاليد المهنة، ولكنها أكملتها، فهل يمكن أن ينطبق هذا على الجغرافيا أيضا؟

هناك على الأقل سؤال آخر يمكن طرحه حول الثورات الجغرافية - أم أنها جغرافية الفكر الثورى؟ - وهذا يتعلق بجغرافياتها الخاصة. وهذا يعنى القول: هل هناك أنماط قومية للجغرافيا، كما فى العلوم (كما يقول جون هنرى فى الفصل الثالث)؟ ففى لحظة معينة، عام ١٩٠٠ تقريباً، كانت الاختلافات بين الثورتين الألمانية والفرنسية (أى بين فريدريش راتزل وفيدال لدى لا بلاش) تبدو واضحة جدا. فهل هذه القضايا لا تزال موجودة؟ أم أن الجغرافيا فى معظم البيئات الأكاديمية التى تمارس فيها أصبحت تتحدث بلكنة أمريكية على نحو ما يحدث للتاريخ الآن؟ ففى حالة الجغرافيا الثقافية وجغرافيات العلوم المتمثلة فى الكتاب الذى بين أيدينا، يبدو أن هناك شبكات دولية تربط جامعات كورنيل وسيراكوز فى نيويورك مع جامعات أدنبرة، ولندن، وأكسفورد، وبريستول، وبلفاست. ولكن هل هناك دلالة فى أن مساهما واحدا فقط للكتاب الذى بين أيدينا، وهو نيقولاس ربكى فى الفصل الثانى عشر عن حالة ألمانيا، جاء من خارج المنطقة الثقافية الأنجلوفونية؟

قضايا تثير النقاش

وعلى نحو ما يشير عدد من الأمثلة المطروحة فى كتابنا هذا، يمكن تقسيم اتجاهات جغرافية الثورات أو الجغرافيا فى الثورات إلى نوعين. فمن ناحية، هناك جغرافيات كلية تقارن مثلا بين شمال أوروبا وجنوبها، أو بين أوروبا ككل والصين. ومن ناحية أخرى، هناك جغرافيات جزئية تتبع متطلبات طبوغرافية جيمس ريان من الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن فى القرن التاسع عشر، أو قيام ديفيد أندرداون بإعداد خرائط للثقافات الإقليمية فى إنجلترا الحديثة المبكرة.

وعلى أساس مماثل، يمكن توضيح اتجاه "الثورات فى التقويم" - الذى اتبعه بول جلينى ونيجل ترفت فى الفصل السابع سابقا - والتوسع فيه عن طريق الأمثلة الكلية والجزئية. فعلى المستوى الكلى، هناك معايرة وتغريب للتقويم فى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر، حيث اتبعت اليابان التقويم الجريجورى فى ١٨٧٣ مثلا، وفعلت تركيا

نفس الشيء بعد مصطفى كمال أتاتورك فى ١٩٢٥. وبعد مؤتمر واشنطون للتقويم المعيارى للعالم فى ١٨٨٤، كانت دولة تلو أخرى تتبنى توقيت جرينتش. وفى نفس الوقت تقريبا، كانت تبتكر نظماً إليكترونية للتنسيق بين الساعات المختلفة فى نفس المدينة فى لايبتزج، وبيرن، وباريس، وأماكن أخرى[٢٤]. وعلى المستوى الجزئى، يمكن أن نذكر مثلا وصف توماس هاردى الدقيق لتنوع التوقيتات المحلية فى إجدون هيث Egdon Heath فى منتصف القرن التاسع عشر، وفى ذلك يقول توماس هاردى:

"لم تكن هناك ساعة توقيت موحدة لليوم فى إجـــدون. فقد كـان التوقيت هنـاك فى أية لحظة عبارة عن مجموعة من التوقيتات المختلفة التى تتبناها القرى المختلفة، وكان بعضها قد تطور عن نفس الأصل أساسا، ثم أصبح ينقسم بالتتابع، ولكن بعضـها كان غريبا من البداية، فكان غرب إجدون يؤمن بتوقيت بلومز إيند Blooms-End، بينما كان شرق إجدون يتبنى توقيت كوايت وومان إن Quiet Woman Inn. وقد جذبت ساعة جراندفر كانتل Grandfer Cantle عددا من الأتبـاع فى السنوات الماضية، ولكن تراجع عدد هؤلاء الأتباع مع كبر سنه وشيخوخته"[٢٥].

وتثير دراسات هذين المستويين مشكلة العلاقة بين المحلى والعالمى، وهى المشكلة التى لا تزال بعيدة عن الحل، كما يتضح من الجدل المستمر حول قيمة الدراسات الجزئية. فلا يزال بعض المؤرخين يستبعدون التاريخ الجزئى لتفاهته. ويدعى آخرون أن التحليل من المنظور التاريخى يتطلب من الدارسين مراجعة رؤيتهم للتفسير المقبول بالكشف عن الطرق التى يجد من خلالها الأفراد أو المجموعات الصغيرة مجالا للمناورة أو التهرب من ضغوط المؤسسات الكبيرة مثل الدول والكنائس، فهنا أيضا يقال إن الدراسات الجزئية عبارة عن "استراتيجية معرفة" تتمتع بميزة الاقتراب من تجارب العملاء، ومن ناحية أخرى، فإن تركيز النظر على النطاق الجزئى يعنى عدم رؤية الصورة كاملة[٢٦].

فما الذى يجب أن نفعله؟ هناك اتفاق عام على أن الجمع بين الكلى والجزئى أمر مرغوب. ولكن المشكلة تتمثل فى كيفية تحقيق هذا الهدف، أو على الأقل تسهيل تحقيقه، بالنسبة إلى كل من النطاقات الجغرافية والتاريخية على السواء. فكما لاحظ العديد من المساهمين هنا، ركز مؤرخو العلوم وغيرهم على هذه المشكلة فى السنوات الأخيرة، حيث ناقشوا

العملية التى تستطيع من خلالها المواقع المحلية للبحوث والتجارب المحلية تكوين المعرفة العامة[٢٧]. وهناك حواران آخران ظهرا فى تخصصين آخرين - الفلكلور والأنثروبولوجيا - يتعلقان بما يجرى هنا كثيرا حيث يتعلق أحدهما "بالأنماط البيئية ecotypes"، بينما يتعلق الثانى بالوسطاء؛ حيث استعار عالم الفلكلور السويدى "كارل فون سيدو" المصطلح الأول من علم النبات منذ فترة طويلة، إذ كان مهتما بكيفية تطور الأشكال المحلية من القصص الشعبية المشهورة فى أنحاء أوروبا أو حتى خارجها، وهى الأشكال التى كان يعتبرها بمثابة تكيفات مع البيئات المحلية[٢٨]. وبطريقة مماثلة، وبالعودة للحظة إلى تعليقاتى السابقة على الفن الأوروبى فى القرن السابع عشر، يمكن أن نعتبر المعمار الباروكى التشيكى نمطا بيئيا من حركة عالمية، وأنه كان بمثابة صراع بين قوى الطرد والجذب. وهناك مثال آخر يتمثل فى أن الاختلاف بين أشكال المعمار القوطى فى فرنسا وإيطاليا وإسكندنافيا يعتبر أكثر وضوحا.

وعندما واجه الأنثروبولوجيون تأثير العولمة على الثقافات الصغيرة النطاق التى يدرسونها عادة، توصلوا إلى بعض أهم الإسهامات فى الحوار حول الكلى والجزئى، وكان من بينهم إيريك وولف، وفريدريك بارث، ومارشال ساهلنز، وأولف هانرتس. فقد لاحظ إيريك وولف منذ نصف قرن، أثناء العمل الميدانى فى المكسيك، أهمية الوسطاء - أى "الوسطاء السياسيين" كما سماهم - بين المجتمعات المحلية والعالم الأوسع. ويقول إنه كما يجب على الأنثروبولوجيين ألا ينسوا الدولة عند دراسة القرى، فإن علماء السياسة يجب ألا يتغاضوا عن المجتمعات المحلية عند دراسة الأمة، وتعتبر نصيحته ملائمة بصورة واضحة للمؤرخين والجغرافيين[٢٩].

وتعتبر الاهتمامات المتشابهة بين المؤرخين والجغرافيين، خاصة المؤرخين الثقافيين والجغرافيين الثقافيين، بالإضافة إلى مؤرخى العلوم المهتمين بموضوعات الاختلاف الجغرافى، واضحة جدا فى هذه الصفحات. ونحن نأمل أن تلتقى التخصصات المختلفة ذاتها، بالإضافة إلى التقاء بعض ممارسيها كثيرا فى المستقبل، وألا يسيروا فى خطوط متوازية لا تلتقى.

الهوامش

1. See also Karl Griewank, *Der Neuzeitliche Revolutionsbegriff* (Weimar: H Böhlaus Nachfolger, 1955); Karl-Heinz Bender, *Revolutionen: Die Entstehung des Politischen Revolutionsbegriffes in Frankreich zwischen Mittelalter und Aufklärung* (Munich: Wilhelm Fink, 1977).

2. Peter Dear, *Revolutionizing the Sciences: European Knowledge and Its Ambitions, 1500–1700* (Princeton: Princeton University Press, 2001), 3.

3. Michel Foucault, *Les mots et les choses* (Paris: Gallimard, 1968); François Hartog, *Régimes d'historicité* (Paris: La Découverte, 2003).

4. Dale V. Kent and F. William, *Neighbours and Neighbourhood in Renaissance Florence* (New York: Academic Press, 1982); Richard Krautheimer, *The Rome of Alexander VII* (Princeton: Princeton University Press, 1985); Joseph Connors, "Alliance and Enmity in Roman Baroque Urbanism," *Römisches Jahrbuch der Bibliotheca Hertziana* 25 (1989): 207–94; Edward Muir and Ronald Weissman, "Social and Symbolic Places in Renaissance Venice and Florence," in *The Power of Place: Bringing Together Geographical and Sociological Imaginations*, ed. John A. Agnew and James S. Duncan (Boston: Unwin Hyman, 1989), 81–103; Patricia Waddy, *Seventeenth-Century Roman Palaces* (New York: Architectural History Foundation and MIT Press, 1990); Laurie Nussdorfer, "The Politics of Space in Early Modern Rome," *Memoirs of the American Academy in Rome* 42 (1999): 161–86.

5. Christopher Hill, quoted in *Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth-Century History Presented to Christopher Hill*, ed. Donald Pennington and Keith Thomas (Oxford: Clarendon, 1978), 153–96.

6. David Underdown, "The Chalk and the Cheese," *Past and Present* 85 (1979): 25–48; David Underdown, *Revel, Riot and Rebellion: Popular Politics and Culture in England, 1603–1660* (Oxford: Oxford University Press, 1985).

7. Donald Sutherland, *The Chouans: The Social Origins of Popular Counter-Revolution in Upper Brittany, 1770–1796* (Oxford: Clarendon, 1982).

8. Georges Lefebvre, *La grande peur de 1789* (Paris: A. Colin, 1988).

9. Colin Lucas, *The Structure of the Terror: The Example of Javogues and the Loire* (Oxford: Oxford University Press, 1973).

10. Jacques Revel, "La région," in *Histoire de la France*, ed. Jacques Revel (Paris: Seuil, 1992), 1:851–83; Jacques Revel, "Knowledge of the Territory," *Science in Context* 4 (1991): 133–61; Daniel R. Headrick, *When Information Came of Age: Technologies of Knowledge in the Age of Reason and Revolution, 1700–1850* (Oxford: Oxford University Press, 2000).

11. Theda Skocpol, *States and Social Revolutions: A Comprehensive Analysis of France, Russia and China* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979).

12. Eric Wolf, *Peasant Wars of the Twentieth Century* (New York: Harper and Row, 1969); Alan Knight, *The Mexican Revolution* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), 1:219–23.

13. Immanuel Wallerstein, *The Modern World System*, vol. 1, *Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century* (New York: Academic Press, 1974).

14. Bruno Latour, *Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society* (Milton Keynes: Open University Press, 1987). But see also Christian Jacob, *L'empire des cartes* (Paris: Gallimard, 1992); and Peter Burke, *A Social History of Knowledge from Gutenberg to Diderot* (Cambridge: Polity, 2000).

15. Alphonse de Candolle, *Histoire des sciences et des savants despuis deux siècles* (Geneva: H. Georg, 1873); Reijer Hooykaas, *Religion and the Rise of Modern Science* (Edinburgh: Scottish Academic Press, 1972), 98, 101; Roy Porter and Mikuláš Teich, eds., *The Scientific Revolution in National Context* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), 2. On China, see Joseph Needham, "Poverties and Triumphs of the Chinese Scientific Tradition," in *Scientific Change: Historical Studies in the Intellectual, Social and Technical Conditions for Scientific Discovery*, ed. Alistair Crombie (London: Routledge and Kegan Paul, 1963), 117–49.

16. Geoffrey Lloyd, *The Ambitions of Curiosity* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002); David Goodman, "The Scientific Revolution in Spain and Portugal," in Porter and Teich, *Scientific Revolution*, 158–77.

17. Alistair Crombie, *Styles of National Thinking in the European Tradition*, 3 vols. (London: Duckworth, 1994).

18. Jan Białostocki, "The Baltic Area as an Artistic Region in the Sixteenth Century," *Hafnia* 6 (1976): 11–24; Thomas DaCosta Kaufmann, *Toward a Geography of Art* (Chicago: University of Chicago Press, 2004).

19. Victor-L. Tapié, *Baroque et classicisme* (Paris: A. Colin, 1957).

20. Josef Polišenský, *The Thirty Years War* (London: New English Library, 1974).

21. Anne Godlewska, *Geography Unbound: French Geographic Science from Cassini to Humboldt* (Chicago: University of Chicago Press, 1999). For other, less explicitly paradigmatic or Foucauldian studies of geography's history, see Robert J. Mayhew, *Enlightenment Geography: The Political Languages of British Geography, c. 1650–1850* (London: Macmillan, 2000); Charles W. J. Withers, *Geography, Science and National Identity: Scotland since 1520* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

22. Christopher Philo, ed., *New Words, New Worlds: Reconceptualizing Social and Cultural Geography* (Lampeter: St. David's University College, 1991); Ian Cook et. al., eds., *Cultural Turn/Geographical Turn: Perspectives on Cultural Geography* (Harlow: Prentice Hall, 2000).

23. On which, see respectively, Matthew H. Edney, *Mapping an Empire: The Geographical Construction of British India, 1765–1843* (Chicago: University of Chicago Press, 1997); Mayhew, *Enlightenment Geography*, 207–28; Withers, *Geography, Science and National Identity*, 210–24.

24. Peter Galison, *Einstein's Clocks, Poincaré's Maps: Empires of Time* (London: Sceptre, 2003), 13–47, 144–59.

25. Thomas Hardy, *The Return of the Native* (London: Macmillan, 1878), 137.

26. Giovanni Levi, "On Micro-History," in *New Perspectives on Historical Writing*, 2nd ed., ed. Peter Burke (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 97–119; James S. Amelang, "Micro-History and its Discontents: The View from Spain," in *Historia: A Debate*, ed. Carlos Barros (Santiago: Cosmos, 1995), 307–24; Jacques Revel, ed., *Jeux d'Échelle: La microanalyse à l'experience* (Paris: Gallimard, 1996).

27. See, for example, Crosbie Smith and Jon Agar, eds., *Making Space for Science: Territorial Themes in the Shaping of Knowledge* (London: Macmillan, 1998); Jan Golinski, *Making Natural Knowledge: Constructivism and the History of Science* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), esp. 79–102; David N. Livingstone, *Putting Science in Its Place* (Chicago: University of Chicago Press, 2003).

28. Carl von Sydow, *Selected Papers on Folklore* (Copenhagen: Rosenkilde and Bagger, 1948).

29. Eric Wolf, "Aspects of Group Relations in a Complex Society: Mexico," in *Peasants and Peasant Societies*, ed. Theodor Shanin (Harmondsworth: Penguin, 1975), 50–66; see also and compare the work of Fredrik Barth, *Process and Form in Social Life: Selected Essays of Fredrik Barth* (London: Routledge and Kegan Paul, 1981); Ulf Hannerz, "Theory in Anthropology: Small is Beautiful," *Comparative Studies in Society and History* 28 (1986): 362–67; Marshall Sahlins, "Cosmologies of Capitalism: The Trans-Pacific Sector of the 'World System,'" *Proceedings of the British Academy* 74 (1988): 1–52.

البيليوجرافيا

Abbot, George. 1604. *The Reasons which Doctour Hill hath Brought, for the Upholding of Papistry, which is Falselie termed the Catholicke Religion: Unmasked.* Oxford: Oxford University Press.

———. 1605. *A Briefe Description of the Whole Worlde.* London: John Browne.

———. 1620. *A Briefe Description of the Whole Worlde.* 5th ed. London: J. Marriott.

Aberdare, Lord. 1882. "The Annual Address on the Progress of Geography," *Proceedings of the Royal Geographical Society* 4:329–39.

Abney, William de W. 1871. *Instruction in Photography: for use at the S.M.E. Chatham.* Chatham: SME, Printed for Private Circulation.

Adair, Douglass. 1974. "'Experience Must be Our Only Guide': History, Democratic Theory, and the United States Constitution" In *Fame and the Founding Fathers: Essays by Douglass Adair,* ed. Trevor Colbourn, 107–23. Toronto: Norton.

———. 1974. "'That Politics May Be Reduced to a Science': David Hume, James Madison, and the Tenth Federalist." In *Fame and the Founding Fathers: Essays by Douglass Adair,* ed. Trevor Colbourn, 93–106. Toronto: Norton.

Adams, John. 1850–56. *A Defence of the Constitution of the United States of America.* In *The Works of John Adams, Second President of the United States,* vol. 4, ed. Charles Francis Adams. Boston.

Adams, Simon. 1983. "Spain or the Netherlands? The Dilemmas of Early Stuart Foreign Policy." In *Before the Civil War: Essays on Early Stuart Politics and Government,* ed. Howard Tomlinson, 79–101. London: Macmillan.

Albanese, Catherine L. 1976. *Sons of the Fathers: The Civil Religion of the American Revolution.* Philadelphia: Temple University Press.

Alder, Ken. 1995. "A Revolution to Measure: The Political Economy of the Metric System in France." In *The Values of Precision,* ed. M. Norton Wise, 39–71. Princeton: Princeton University Press.

Alfrey, Nicholas, and Stephen Daniels, eds. 1990. *Mapping the Landscape: Essays on Art and Cartography.* Nottingham: Nottingham University Art Gallery and Castle Museum.

Allen, William. 1840. *Picturesque Views on the River Niger, Sketched during Lander's Last Visit in 1832–33.* London: John Murray.

Alpert, Peter, Elizabeth Bone, and Claus Holzapfel. 2000. "Invasiveness, Invasibility and the Role of Environmental Stress in the Spread of Non-native Plants." *Perspectives in Plant Ecology, Evolution and Systematics* 3:52–56.

Amelang, James S. 1995. "Micro-history and its Discontents: The View from Spain." In *Historia: A Debate,* ed. Carlos Barros, 2:307–24. Santiago: Cosmos.

Anderson, Benedict. [1983] 1991. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* London: Verso.

Andrews, Kenneth. 1984. *Trade, Plunder and Settlement: Maritime Enterprise and the Genesis of the British Empire, 1480–1630.* Cambridge: Cambridge University Press.

Anstey, Peter. 2000. "The Christian Virtuoso and the Reformers: Are there Reformation Roots to Boyle's Natural Philosophy?" *Lucas: An Evangelical History Review* 27/28:5–40.

Applebaum, Wilbur, ed. 2000. *Encyclopaedia of the Scientific Revolution, from Copernicus to Newton.* New York: Garland.

"The Application of the Talbotype." 1846. *Art Union* 8:195.

Argles, Martin. 1990. "The Bark's Worse than the Bite," *Guardian* (London), 14 December, 31.

Armitage, Geoff. 1997. *The Shadow of the Moon: British Solar Eclipse Mapping in the Eighteenth Century.* Tring: Map Collector Publications.

Armstrong, Isobel. 2002. "The Microscope: Mediations of the Sub-Visible World." In *Transactions and Encounters: Science and Culture in the Nineteenth Century,* ed. Roger Luckhurst and Josephine McDonagh, 30–54. Manchester: Manchester University Press,

Armstrong, Patrick. 1992. "The Metaphors of Struggle, Conflict, Invasion and Explosion in Biogeography." *Ekológia* 11:437–45.

Aspinall, Arthur. 1949. *Politics and the Press c. 1780–1850.* London: Home and Van Thal.

Assing, Ludmilla. ed. 1860. *Letters of Alexander von Humboldt, Written between the Years 1827 and 1858, to Varnhagen von Ense; Together with Extracts from Varnhagen's Diaries, and Letters from Varnhagen and Others to Humboldt.* London: Trübner. Translation of *Briefe von Alexander von Humboldt an Varnhagen von Ense aus den Jahren 1827 bis 1858; Nebst Auszügen aus Varnhagen's Tagebüchern, und Briefen von Varnhagen und Andern an Humboldt* (Leipzig: Brockhaus, 1860).

———. 1867. *Piero Cironi: Ein Beitrag zur Geschichte der Revolution in Italien.* Leipzig: Matthes.

Ault, Warren O. 1972. *Open-Field Farming in Medieval England: A Study of Village Bye-Laws.* London: Allen and Unwin.

Axelson, Eric, ed. 1988. *Dias and His Successors.* Cape Town: Saayman and Weber.

Babington, Churchill, ed. 1865–86. *Polychronicon Ranulphi Higden Monachi Cestrensis; together with the English Translations of John Trevisa and of an Unknown Fifteenth Century Writer.* 9 Vols. London: Longmans.

Back, Vice-Admiral Sir George, Rear-Admiral Collinson, and Francis Galton. 1865. "Hints to Travellers." *Journal of the Royal Geographical Society* 34:272–308.

Bacon, Francis. 1857–61. *Works*. Ed. J. Spedding, R. L. Ellis, and D. D. Heath. 7 vols. London: Longmans.

Baillie, Granville H. 1951. *Clocks and Watches: An Historical Bibliography*. Vol. 1. London: N.A.G. Press.

Baines, Thomas, and William Barry Lord. 1871. *Shifts and Expedients of Camp Life, Travel and Exploration*. London: Horace Cox.

Baker, Keith Michael. 1975. *Condorcet: From Natural Philosophy to Social Mathematics*. Chicago: University of Chicago Press.

———. 1990. *Inventing the French Revolution: Essays on French Political Culture*. Cambridge: Cambridge University Press.

Barber, Richard, ed. 1982. *John Aubrey's Brief Lives*. Woodbridge: Boydell.

Barlow, Roger. [1541] 1932. *A Briefe Summe of Geography*. Ed. Eva G. R. Taylor, London: Hakluyt Society.

Barlow, Thomas. 1693. *The Genuine Remains of that Learned Prelate Dr. Thomas Barlow, Late Lord Bishop of Lincoln*. London: Printed for John Dunton.

Barnes, Elizabeth. 1959. "The 'Panoplist': Nineteenth-Century Religious Magazine." *Journalism Quarterly* 36:321–25.

Barrett, Paul H., ed. 1977. *The Collected Papers of Charles Darwin*. 2 vols. Chicago: University of Chicago Press.

Barrett, Paul H., Peter Gautrey, Sandra Herbert, David Kohn, and Sydney Smith, eds. 1987. *Charles Darwin's Notebooks, 1836–1844: Geology, Transmutation of Species, Metaphysical Enquiries*. London: British Museum (Natural History) / Cambridge University Press.

Barringer, Tim. 1996. "Fabricating Africa: Livingstone and the Visual Image, 1850–1874." In *David Livingstone and the Victorian Encounter with Africa*, ed. John M. MacKenzie, 169–200. London: National Portrait Gallery.

Barrotta, Pierluigi. 2000. "Scientific Dialectics in Action: The Case of Joseph Priestley." In *Scientific Controversies: Philosophical and Historical Perspectives*, ed. Peter Machamer, Marcello Pera, and Aristedes Baltas, 153–76. New York: Oxford University Press.

Barth, Fredrik. 1981. *Process and Form in Social Life: Selected Essays of Fredrik Barth*. London: Routledge and Kegan Paul.

Bataille, Georges. *Visions of Excess: Selected Writings, 1927–1939*. Trans. Allan Stoekl. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Baulez, Christian. 1978. "Notes sur quelques meubles et objets d'art des appartements intérieurs de Louis XVI and Marie-Antoinette." *Revue du Louvre* 5/6:360–73.

Baxter, Stephen. 2004. *Revolutions in the Earth: James Hutton and the True Age of the World*. London: Phoenix.

Bechler, Zev, ed. 1982. *Contemporary Newtonian Research*. Dordrecht: Reidel.

Beddall, Barbara G. 1988. "Darwin and Divergence: The Wallace Connection." *Journal of the History of Biology* 21:1–68.

———. 1988. "Wallace's Annotated Copy of Darwin's 'Origin of Species.'" *Journal of the History of Biology* 21:265–89.

Bedini, Silvio A. 1990. *Thomas Jefferson: Statesman of Science*. New York: Macmillan.

Beer, Gillian. 1983. *Darwin's Plots: Evolutionary Narrative in Darwin, George Eliot and Nineteenth-Century Fiction*. London: Routledge and Kegan Paul.

Bell, Morag, and Cheryl McEwan. 1996. "The Admission of Women Fellows to the Royal Geographical Society, 1892–1914: The Controversy and the Outcome." *Geographical Journal* 162:295–312.

Bender, Karl-Heinz. 1977. *Revolutionen: Die Entstehung des Politischen Revolutionsbegriffes in Frankreich zwischen Mittelalter und Aufklärung.* Munich: Wilhelm Fink.

Benjamin, Walter. [1936] 1999. "The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction." In *Visual Culture: The Reader*, ed. Jessica Evans and Stuart Hall, 72–79. London: Sage.

Bennett, Jim. 1991. "The Challenge of Practical Mathematics." In *Science, Culture and Popular Belief in Renaissance Europe*, ed. Stephen Pumfrey, Paolo L. Rossi, and Maurice Slawinski, 176–90. Manchester: Manchester University Press.

———. 1998. "Practical Geometry and Operative Knowledge." *Configurations* 6:195–222.

———. 1998. "Projection and the Ubiquitous Virtue of Geometry in the Renaissance." In *Making Space for Science: Territorial Themes in the Shaping of Knowledge*, ed. Crosbie Smith and Jon Agar, 27–38. Basingstoke: Macmillan.

———. 2002. "The Travels and Trials of Mr Harrison's Timekeeper." In *Instruments, Travel and Science: Itineraries of Precision from the Seventeenth to the Twentieth Century*, ed. Marie-Nöelle Bourguet, Christian Licoppe, and H. Otto Sibum, 75–96. London: Routledge.

Berens, John F. 1978. *Providence and Patriotism in Early America, 1640–1815.* Charlottesville: University of Virginia Press.

Berg, Maxine, and Kristine Bruland, eds. 1998. *Technological Revolutions in Europe: Historical Perspectives.* Cheltenham: Edward Elgar.

Berggren, J. Lennart, and Alexander Jones, eds. 2000. *Ptolemy's Geography: An Annotated Translation of the Theoretical Chapters.* Princeton: Princeton University Press.

Berry, Andrew. 2002. *Infinite Tropics: An Alfred Russel Wallace Anthology.* London: Verso.

Bertius, Petrus. 1616. *Tabularium Geographicam.* Amsterdam: J. Hondius.

Bettey, J. H., ed. 1981. *The Casebook of Sir Francis Ashley JP, Recorder of Dorchester, 1614–35.* Dorset Record Society Publications 7. Dorchester.

Beverley, Robert. 1705. *The History and Present State of Virginia, in Four Parts.* London.

Biagioli, Mario, and Steven J. Harris, eds. 1998. *The Scientific Revolution as Narrative.* Special issue of *Configurations* 6.

Bialostocki, Jan. 1976. "The Baltic Area as an Artistic Region in the Sixteenth Century." *Hafnia* 6:11–24.

Bibliotheca Symsoniana. 1712. *A Catalogue of the Vast Collection of Books, in the Library of the Late Reverend Learned Mr Andrew Symson.* Edinburgh.

Biermann, Kurt-R. 1981. "Wer Waren die Wichtigsten Briefpartner Alexander von Humboldts?" *NTM-Schriftenr. Gesch. Naturwiss., Technik, Med.* 18:34–43.

Billinge, Mark D., Derek J. Gregory, and Ronald J. Martin, eds. 1984. *Recollections of a Revolution: Geography as Spatial Science.* London: Macmillan.

Binggeli, Pierre. 1994. "Misuse of Terminology and Anthropomorphic Concepts in the Description of Introduced Species." *Bulletin [of the British Ecological Society]* 25:10–13.

Birkett, Jennifer. 1988. "Madame de Genlis: The New Man and the Old Eve." *French Studies* 42:150–64.

Birrell, Andrew J. 1996. "The North American Boundary Commission: Three Photographic Expeditions, 1872–74." *History of Photography* 20:113–21.

Blackburn, Robin. 1988. *The Overthrow of Colonial Slavery, 1776–1848*. London: Verso.

Blum, Ann Shelby. 1993. *Picturing Nature: American Nineteenth-Century Zoological Illustration*. Princeton: Princeton University Press.

Blunt, Alison, and Jane Wills. 2000. *Dissident Geographies: An Introduction to Radical Ideas and Practice*. Harlow: Prentice Hall.

Botero, Giovanni. 1630. *Relations of the Most Famous Kingdomes and Common-wealths thorowout the World*. 3rd ed. Trans. Robert Johnson. London: John Haviland.

Bourdieu, Pierre. 2000. *Pascalian Meditations*. Cambridge: Polity.

Bourguet, Marie-Noëlle, Christian Licoppe, and H. Otto Sibum, eds. 2002. *Instruments, Travel and Science: Itineraries of Precision from the Seventeenth to the Twentieth Century*. London: Routledge.

Bourne, Samuel. 1866–67. "Narrative of a Photographic Trip to Kashmir (Cashmere) and Adjacent Districts." *British Journal of Photography* 13:474–75, 498–99, 524–25, 559–60, 583–84, 617–19; 14:4–5, 38–39, 63–64.

Bouwsma, William. 2000. *The Waning of the Renaissance, 1550–1640*. New Haven: Yale University Press.

Bowen, Margarita. 1981. *Empiricism and Geographical Thought: From Francis Bacon to Alexander von Humboldt*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bowker, Geoffrey C., and Susan L. Star. 1999. *Sorting Things Out*. Cambridge: MIT Press.

Bowler, Peter J. 1988. *The Non-Darwinian Revolution: Reinterpreting a Historical Myth*. Baltimore: John Hopkins University Press.

Bowman, Isaiah. 1921. *The New World: Problems of Political Geography*. Yonkers-on-Hudson: World Books.

Boxer, Charles R. 1969. *The Portuguese Seaborne Empire*. New York: Knopf.

Boyle, Robert. 1661. *Hydrostatical Paradoxes*. Oxford: Printed for W. Hall by R. Davis.

Brackman, Arnold C. 1980. *A Delicate Arrangement: The Strange Case of Charles Darwin and Alfred Russel Wallace*. New York: Times Books.

Bradshaw, Brendan, and John Morrill, eds. 1996. *The British Problem, c. 1534–1707: State Formation in the Atlantic Archipelago*. London: Macmillan.

Braive, Michel F. 1966. *The Photograph: A Social History*, trans. David Britt, London: Thames and Hudson.

Brand, Paul 2001. "Lawyers' Time in England in the Later Middle Ages." In *Time in the Medieval World*, ed. Chris Humphrey and W. M. Ormrod, 73–104. York: York Medieval Press.

Branson, Roy. 1979. "James Madison and the Scottish Enlightenment." *Journal of the History of Ideas* 40: 235–50.

Brayshay, Mark. 1991. "Royal Post-Horse Routes in England and Wales: The Evolution of the Network in the Late-Sixteenth and Early-Seventeenth Century." *Journal of Historical Geography* 17:373–89.

Brayshay, Mark, Philip Harrison, and Brian Chalkley. 1998. "Knowledge, Nationhood and Governance: The Speed of the Royal Post in Early-Modern England." *Journal of Historical Geography* 24:265–88.

Brewster, David. 1856. *The Stereoscope: Its History, Theory, Construction, and Application to the Arts and to Education.* London: John Murray.

Briggs, Peter M. 1988. "Timothy Dwight 'Composes' a Landscape for New England." *American Quarterly* 40:359–77.

Bright, Chris. 1998. *Life Out of Bounds: Bioinvasion in a Borderless World.* New York: Norton.

Brissot, J.-P. [1781] 1836. *Théorie des lois criminelles.* 2 vols. Paris: J.-P. Aillaud.

———. 1912. *Mémoires, 1754–1793,* [ed. C. Perroud]. 2 vols. Paris: Picard.

Broc, Numa. 1974. *La géographie des philosophes: Géographes et voyageurs française au XVIIIe siècle.* Paris: Ophrys.

———. 1974. "Une Musée de Géographie en 1795." *Revue d'Histoire des Sciences* 27:37–43.

Brockway, Lucile H. 1979. *Science and Colonial Expansion: The Role of the British Royal Botanic Gardens.* New York: Academic Press.

Brotton, Jerry. 1997. *Trading Territories: Mapping the Early Modern World.* London: Reaktion.

———. 2000. "Printing the World." In *Books and the Sciences in History,* ed. Marina Frasca-Spada and Nicholas Jardine, 35–48. Cambridge: Cambridge University Press.

Brown, Penny. 1994. "'La femme enseignante': Mme de Genlis and the Moral and Didactic Tale in France." *Bulletin of the John Rylands University Library* 76:23–42

Brown, Ralph Hall. 1941. "The American Geographies of Jedidiah Morse." *Annals of the Association of American Geographers* 31:145–217.

Browne, Janet. 1980. "Darwin's Botanical Arithmetic and the Principle of Divergence, 1854–1858." *Journal of the History of Biology* 13:53–89.

———. 1983. *The Secular Ark: Studies in the History of Biogeography.* New Haven: Yale University Press.

———. 1996. "Biogeography and Empire." In *Cultures of Natural History,* ed. Nicholas Jardine, James A. Secord, and Emma C. Spary, 305–21. Cambridge: Cambridge University Press.

Brückner, Martin. 1999. "Lessons in Geography: Maps, Spellers, and Other Grammars of Nationalism in the Early Republic." *American Quarterly* 51:311–43.

———. 2000. "Geography, Reading, and the World of Novels in the Early Republic." In *Early America Re-explored: New Readings in Colonial, Early National, and Antebellum Culture,* ed. Klaus H. Schmidt and Fritz Fleischmann, 385–410. New York: Lang.

Bryden, David J. 1972. *Scottish Scientific Instrument-Makers 1600–1900.* Edinburgh: Royal Scottish Museum.

Buel, Richard Jr. 1972. *Securing the Revolution.* Ithaca: Cornell University Press.

Buisseret, David. 2003. *The Mapmakers' Quest: Depicting New Worlds in Renaissance Europe.* Oxford: Oxford University Press.

Bullough, Geoffrey. 1963. *Luis de Camões: The Lusiads.* Trans. Richard Fanshawe. London: Penguin.

Burckhardt, Jacob. 1945. *The Civilization of the Renaissance in Italy.* London: Phaidon.

Burke, Peter. 2000. *A Social History of Knowledge from Gutenberg to Diderot.* Cambridge: Polity.

———, ed. 2001. *New Perspectives on Historical Writing.* 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Burkhardt, Frederick, Sydney Smith, D. M. Porter et al., eds. 1985–. *The Correspondence of Charles Darwin.* Cambridge: Cambridge University Press.

Burnell, A. C., and P. A. Thiele, eds. 1885. *The Voyage of John Huyghen van Linschoten to the East Indies.* 2 vols. London: Hakluyt Society.

Burnett, D. Graham. 2000. *Masters of All They Surveyed: Exploration, Geography, and a British El Dorado.* Chicago: University of Chicago Press.

Burrows, Simon. 2003. "The Innocence of Jacques-Pierre Brissot." *Historical Journal* 46: 843–71.

Butterfield, Herbert. 1949. *The Origins of Modern Science 1300–1800.* London: G. Bell.

———. 1957. *The Origins of Modern Science, 1300–1800* Rev. ed. New York: Free Press.

Buttimer, Anne, and Gerard Fahy. 1999. "Imaging Ireland through Geography Texts." In *Text and Image: Social Construction of Regional Knowledges,* ed. Anne Buttimer, Stanley D. Brunn, and Ute Wardenga, special issue of *Beiträge zur Regionalen Geographie* (Leipzig) 49:79–191.

Büttner, Manfred. 1978. "Bartolomaus Keckermann, 1572–1609." *Geographers: Biobibliographical Studies* 2:73–79.

Caeser, James W. 2000. "Natural Rights and Scientific Racism." In *Thomas Jefferson and the Politics of Nature,* ed. Thomas S. Engeman, 165–89. Notre Dame: University of Notre Dame Press.

Cain, P. J., and A. G. Hopkins. 1993. *British Imperialism: Innovation and Expansion, 1688–1914.* London: Longman.

Callon, Michel. 1986. "Some Elements of a Sociology of Translation: Domestication of the Scallops and the Fishermen of St. Brieux Bay." In *Power, Action and Belief: A New Sociology of Knowledge?* ed. John Law, 196–229. London: Routledge and Kegan Paul.

Camerini, Jane R. 1994. "Evolution, Biogeography, and Maps: An Early History of Wallace's Line." In *Darwin's Laboratory: Evolutionary Theory and Natural History in the Pacific,* ed. Roy MacLeod and Philip F. Rehbock, 70–109. Honolulu: University of Hawai'i Press.

———. 1996. "Wallace in the Field." *Osiris,* 2nd ser., 11:44–65.

———. 1997. "Remains of the Day: Early Victorians in the Field." In *Victorian Science in Context,* ed. Bernard Lightman, 354–77. Chicago: University of Chicago Press.

———, ed. 2002. *The Alfred Russel Wallace Reader: A Selection of Writings from the Field.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Campanella. Tomassso. 1659. *Thomas Campanella: An Italian Friar and Second Machiavel; His Advice to the King of Spain for Attaining the Universal Monarchy of the World.* Trans. Edmund Chilmead. London: Philemon Stephens.

Campbell, John A. 1996. "Modernisation and the Beginnings of Geography in Ireland." In *Geography and Professional Practice,* ed. Vincent Berdoulay and H. van Ginkel, 125–38. Utrecht: Nederlands Geographical Studies.

Campbell, Lorne. 1990. *Renaissance Portraits: European Painting in the Fourteenth, Fifteenth and Sixteenth Centuries.* New Haven: Yale University Press.

Campbell, Tony. 1987. *The Earliest Printed Maps, 1472–1500.* London: British Library.

Candolle, Alphonse de. 1873. *Histoire des sciences et des savants depuis deux siècles.* Geneva: H. Georg.

Cannon, Susan Faye. 1978. "Humboldtian Science." In *Science in Culture: The Early Victorian Period,* ed. Susan Faye Cannon, 73–110. New York: Science History Publications.

Carpenter, Christine, ed. 1996. *Kingsford's Stonor Letters and Papers, 1290–1483.* Cambridge: Cambridge University Press.

Carpenter, Nathanael. 1625. *Geography Delineated Forth in Two Books.* 2 vols. in 1. Oxford: Oxford University Press.

———. 1633. *Achitophel; or, The Picture of a Wicked Politician.* London: J. Okes.

Carruthers, Jane, and Arnold, Marion. 1995. *The Life and Works of Thomas Baines.* Cape Town: Fernwood.

Carter, Paul. 1992. *On Living in a New Country: History, Travelling and Language.* London: Faber and Faber.

Castells, Manuel. 1996. *The Rise of the Network Society.* Oxford: Blackwell.

———. 2001. *The Internet Galaxy: Reflections on the Internet, Business and Society.* Oxford: Oxford University Press.

Cavallo, Guglielmo, and Roger Chartier, eds. 1999. *A History of Reading in the West.* Trans. Lydia G. Cochrane. Cambridge: Polity.

Cave, Terence. 1979. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance.* Oxford: Clarendon.

Censer, Jack R. 1976. *The Prelude to Power: The Parisian Radical Press, 1789–1791.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Chapman, Allan. 1994. *Dividing the Circle: A History of Critical Angular Measurement in Astronomy, 1500–1850.* London: Wiley.

Chapman, James. 1860. "Notes on South Africa." *Journal of the Royal Geographical Society* 30:17–18.

———. 1971. *Travels in the Interior of South Africa, 1849–1863.* Ed. Edward C. Tabler. 2 vols. Cape Town: A. A. Balkema.

Charles I. [1642] 1999. "His Majesties Answer." In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts,* ed. Joyce Lee Malcolm, 1:154–78. Indianapolis: Liberty Fund.

Chartier, Roger. 1991. *The Cultural Origins of the French Revolution.* Durham: Duke University Press.

Chew, Matthew K., and Manfred D. Laubichler. 2003. "Natural Enemies—Metaphor or Misconception?" *Science* 301 (4 July): 52–53.

Cipolla, Carlo M. 1973. *The Fontana Economic History of Europe.* 6 vols. London: Fontana.

Clark, William, Jan Golinski, and Simon Schaffer, eds. 1999. *The Sciences in Enlightened Europe.* Chicago: University of Chicago Press.

Clanchy, M. T. 1993. *From Memory to Written Record: England, 1066–1307.* Oxford: Blackwell.

Clapperton, Jane Hume. 1885. *Scientific Meliorism and the Evolution of Happiness.* London: Kegan Paul, Trenchand Co.

Clark, Andy. 2001. *Mindware.* New York: Oxford University Press.

Claxton, Guy. 1997. *Hare Brain, Tortoise Mind: Why Intelligence Increases When You Think Less.* London: Fourth Estate.

———. 1999. *Wise Up: The Challenge of Lifelong Learning.* London: Bloomsbury.

Clendennen, Gary W. 1978. "Charles Livingstone: A Biographical Study with Emphasis on His Accomplishments on the Zambesi Expedition, 1858–1863." PhD diss., University of Edinburgh.

Clifford, D. J. H. 1990. *The Diaries of Lady Anne Clifford.* Stroud: Alan Sutton.

Clow, Archibald. 1952. *The Chemical Revolution: A Contribution to Social Technology.* London: Batchworth.

Coetzee, J. M. 1988. *White Writing: On the Culture of Letters in South Africa.* New Haven: Yale University Press.

Cogswell, Thomas. 1989. "England and the Spanish Match." In *Conflict in Early Stuart England: Studies in Religion and Politics, 1602–1642,* ed. Richard Cust and Ann Hughes, 107–33. London: Longmans.

Cogswell, Thomas, Richard Cust, and Peter Lake, eds. 2002. *Politics, Religion and Popularity in Early Stuart England: Essays in Honour of Conrad Russell.* Cambridge: Cambridge University Press.

Cohen, H. Floris. 1994. *The Scientific Revolution: An Historiographical Inquiry.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1999. "The Scientific Revolution: Has There Been a British View?—a Personal Assessment," *History of Science* 37:107–12.

Cohen, I. Bernard. 1980. *The Newtonian Revolution, with Illustrations of the Transformation of Scientific Ideas.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1982. "The *Principia,* Universal Gravitation, and the 'Newtonian Style,' in Relation to the Newtonian Revolution in Science: Notes on the Occasion of the 250th Anniversary of Newton's Death." In *Contemporary Newtonian Research,* ed. Zev Bechler, 21–108. Dordrecht: Reidel.

———. 1985. *Revolution in Science.* Cambridge: Harvard University Press.

———. 1995. *Science and the Founding Fathers: Science in the Political Thoughts of Thomas Jefferson, Benjamin Franklin, John Adams and James Madison.* New York: Norton.

Cohen, Lester H. 1980. *The Revolutionary Histories: Contemporary Narratives of the American Revolution.* Ithaca: Cornell University Press.

Coleman, William. 2001. "The Strange 'Laissez Faire' of Alfred Russel Wallace: The Connection between Natural Selection and Political Economy Reconsidered." In *Darwinism and Evolutionary Economics,* ed. John Laurent and John Nightingale, 36–48. Cheltenham: Edward Elgar.

Collinson, Patrick. 1982. *The Religion of Protestants: The Church in English Society, 1559–1625.* Oxford: Oxford University Press.

Colp, Ralph Jr. 1978. "Charles Darwin: Slavery and the American Civil War." *Harvard Library Bulletin* 26:471–89.

Colwill, Elizabeth. 2000. "Epistolary Passions: Friendship and the Literary Public of Constance de Salm, 1767–1845." *Journal of Women's History* 12:39–68.

Connors, Joseph. 1989. "Alliance and Enmity in Roman Baroque Urbanism." *Römisches Jahrbuch der Bibliotheca Hertziana* 25:207–94.

Cook, Ian, et al., eds. 2000. *Cultural Turn / Geographical Turn: Perspectives on Cultural Geography.* Harlow: Prentice Hall.

Corbin, Henry. 1993. *A History of Islamic Philosophy.* London: Kegan Paul International.

Cormack, Lesley. 1991. "'Good Fences Make Good Neighbours': Geography as Self-Definition in Early Modern England." *Isis* 82:639–61.

———. 1997. *Charting an Empire: Geography at the English Universities, 1580–1620*. Chicago: University of Chicago Press.

Cosgrove, Denis. 1984: *Social Formation and Symbolic Landscape*. London: Croom Helm.

———. 1994. "Contested Global Visions: One-World, Whole-Earth, and the Apollo Space Photographs," *Annals of the Association of American Geographers* 84:270–94.

———. 2001. *Apollo's Eye: A Cartographic Genealogy of the Earth in the Western Imagination*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.

———, ed. 1999. *Mappings*. London: Reaktion.

Cosgrove, Denis, and Luciana L. Martins, 2000: "Millennial Geographics." *Annals of the Association of American Geographers* 90:97–103.

Cosgrove, Denis, and Stephen Daniels, eds. 1988. *The Iconography of Landscape: Essays on the Symbolic Representation, Design and Use of Past Environments*. Cambridge: Cambridge University Press.

Cottingham, John, ed. 1987. *Cambridge Companion to Descartes*. Cambridge: Cambridge University Press.

Coupland, Reginald. 1928. *Kirk on the Zambesi: A Chapter of African History*. Oxford: Clarendon.

Crandell, Gina. 1993. *Nature Pictorialized: "The View" in Landscape History*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Crary, Jonathan. 1990. *Techniques of the Observer: On Vision and Modernity in the Nineteenth Century*. Cambridge: MIT Press.

Crawford, Elisabeth, Terry Shinn, and Sverker Sörlin, eds. 1993. *Denationalizing Science: The Contexts of International Scientific Practice*. Dordrecht: Kluwer.

Crombie, Alistair. 1994. *Styles of Scientific Thinking in the European Tradition*. 3 vols. London: Duckworth.

———, ed. 1963. *Historical Studies in the Intellectual, Social and Technical Conditions for Scientific Discovery*. London: Routledge and Kegan Paul.

Crosby, Alfred W. 1986. *Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe, 900–1900*. Cambridge: Cambridge University Press.

Crosland, Maurice. 1967. *The Society of Arcueil: A View of French Science at the Time of Napoleon I*. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1969. *Science in France in the Revolutionary Era*. Cambridge: Harvard University Press.

———. 2000. "Styles of Science: National, Regional and Local." In *Encyclopaedia of the Scientific Revolution, from Copernicus to Newton*, ed. Wilbur Applebaum, 622. New York: Garland.

———, ed. 1975. *The Emergence of Science in Western Europe*. Basingstoke: Macmillan.

Cunningham, Andrew and Perry Williams. 1993. "De-Centering the 'Big Picture': The *Origins of Modern Science* and the Modern Origins of Science." *British Journal for the History of Science* 26:407–32.

Cust, Richard. 1986. "News and Politics in Early-Seventeenth Century England." *Past and Present* 112:60–90.

Cust, Richard, and Ann Hughes, eds. 1989. *Conflict in Early Stuart England: Studies in Religion and Politics, 1602–1642*. London: Longmans.

Dacier, Bon-Joseph. 1824. "Notice historique sur la vie et les ouvrages de M. Mentelle." *Histoire et Mémoires de l'Institut Royal de France: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 7:212–22.

Dainville, François de. 1940. *La géographie des humanistes*. Paris: Beauchesnes.

Dalton, Simon. 2001. "Gender and the Shifting Ground of Revolutionary Politics: The Case of Madame Roland (Jeanne-Marie Roland)." *Canadian Journal of History* 36:259–82.

Daniels, Stephen. 1993. *Fields of Vision: Landscape Imagery and National Identity in England and the United States*. Cambridge: Polity.

———. 1999. *Humphry Repton: Landscape Gardening and the Geography of Georgian England*. New Haven: Yale University Press.

Daniels, Stephen, and Catherine Nash, eds. 2004. *Lifepaths: Geography and Biography*. Special issue of *Journal of Historical Geography* 30.

Darby, H. C. 1962. "The Problem of Geographical Description." *Transactions of the Institute of British Geographers* 30:1–14.

Darnton, Robert. 1968. *Mesmerism and the End of the Enlightenment in France*. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1979. *The Business of Enlightenment: A Publishing History of the "Encyclopédie," 1775–1800*. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1982. *The Literary Underworld of the Old Regime*. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1984. *The Great Cat Massacre and Other Episodes in French Cultural History*. Harmondsworth: Penguin.

———. 1995. *The Corpus of Clandestine Literature in France, 1765–1789*. New York: Norton.

———. 1995. *The Forbidden Best-Sellers of Pre-Revolutionary France*. New York: Norton.

Darnton, Robert, and Daniel Roche, eds. 1989. *Revolution in Print: The Press in France, 1775–1800*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Darwin, Charles. 1839. *Journal of Researches into the Geology and Natural History of the Various Countries Visited by H.M.S. "Beagle" under the Command of Captain FitzRoy, R.N., from 1832 to 1836*. London: Henry Colburn.

———. 1859. *On the Origin of Species by Means of Natural Selection; or, The Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life*. London: John Murray.

———. 1871. *The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex*. 1st ed. 2 vols. London: John Murray.

———. 1874. *The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex*. 2nd ed. 1 vol. London: John Murray.

Darwin, Charles, and Alfred Russel Wallace. 1958. *Evolution by Natural Selection*. Ed. Gavin de Beer. Cambridge: At the University Press.

Darwin, Francis, ed. 1887. *The Life and Letters of Charles Darwin, Including an Autobiographical Chapter*. 3 vols. London: John Murray.

Daston, Lorraine, and Michael Otte, eds. 1991. *Style in Science*. Special issue of *Science in Context* 4:221–47.

Daston, Lorraine, and Peter Galison. 1992. "The Image of Objectivity." *Representations* 40:81–128.

Davies, James. 1962. "Towards a Theory of Revolution." *American Sociological Review* 27:5–18.

Dawidoff, Robert. 2000. "Rhetoric of Democracy." In *Thomas Jefferson and the Politics of Nature*, ed. Thomas S. Engeman, 99–122. Notre Dame: University of Notre Dame Press.

Dear, Peter. 1985. "Totius in Verba: Rhetoric and Authority in the Early Royal Society." *Isis* 76:145–61.

———. 1990. "Miracles, Experiments and the Ordinary Course of Nature." *Isis* 81:663–83.

———. 1991. "The Church and the New Philosophy." In *Science, Culture and Popular Belief in Renaissance Europe*, ed. Stephen Pumfrey, Paolo L. Rossi, and Maurice Slawinski, 119–39. Manchester: Manchester University Press.

———. 1995. *Discipline and Experience: The Mathematical Way in the Scientific Revolution.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1998. "The Mathematical Principles of Natural Philosophy: Toward a Heuristic Narrative for the Scientific Revolution." *Configurations* 6:173–94.

———. 2001. *Revolutionizing the Sciences: European Knowledge and Its Ambitions, 1500–1700.* Princeton: Princeton University Press.

———, ed. 1997. *The Scientific Enterprise in Early Modern Europe: Readings from "Isis."* Chicago: University of Chicago Press.

Debus, Allen G., ed. 1972. *Science, Medicine and Society in the Renaissance.* 2 vols. New York: Science History Publications.

"A Declaration of the Parliament of England." [1649] 1999. In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts*, ed. Joyce Lee Malcolm, 1:372–90. Indianapolis: Liberty Fund.

Dekker, Elly. 1996. *Globes at Greenwich.* Oxford: Oxford University Press and the National Maritime Museum.

Dennett, Daniel. 1995. *Darwin's Dangerous Idea.* New York: Simon and Schuster.

Des Chene, Dennis. 1996. *Physiologia: Natural Philosophy in Late Aristotelian and Cartesian Thought.* Ithaca: Cornell University Press.

Descartes, René. [1644] 1983. *Principles of Philosophy.* Trans. V. R. and R. P. Miller. Dordrecht: D. Reidel.

Dettelbach, Michael. 1996. "Global Physics and Aesthetic Empire: Humboldt's Physical Portrait of the Tropics." In *Visions of Empire: Voyages, Botany and Representations of Nature*, ed. David P. Miller and Peter Hanns Reill, 258–92. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1996. "Humboldtian Science." In *Cultures of Natural History*, ed. Nicholas Jardine, James A. Secord, and Emma C. Spary, 287–304. New York: Cambridge University Press.

Dhombres, N. and J. 1989. *Naissance du pouvoir: Sciences et savants en France, 1793–1824.* Paris: Payot.

Diamond, Jared. 1997. *Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies.* New York: Norton.

Diffie, Bailey, and George Winius. 1977. *Foundations of the Portuguese Empire, 1415–1580.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Dobbs, Betty Jo Teeter. 1991. *The Janus Faces of Genius: The Role of Alchemy in Newton's Thought.* Cambridge: Cambridge University Press.

Dohrn-van Rossum, Gerhard. 1996. *History of the Hour: Clocks and Modern Temporal Orders* Chicago: University of Chicago Press.

Donnelly, Michael. 2000. "National Styles of Reasoning." In *Reader's Guide to the History of Science,* ed. Arne Hessenbruch, 500–501. London: Fitzroy Dearborn.

Douglas, Mary. 1991. *Purity and Danger: An Analysis of Pollution and Taboo.* London: Routledge.

Downing, Brian M. 1992. *The Military Revolution and Political Change.* Princeton: Princeton University Press.

Downs, Anthony. 1957. *An Economic Theory of Democracy.* New York: Harper and Row.

Drapeyron, Ludovic. 1887. "L'éducation géographique de trois princes français au XVIIIe. siècle—le duc de Berry et les comtes de Provence et d'Artois (Louis XVI, Louis XVIII, Charles X)." *Revue de Géographie* 11: 241–56.

Drayton, Richard. 2000. *Nature's Government: Science, Imperial Britain, and the "Improvement" of the World.* New Haven: Yale University Press.

Driver, Felix. 1995. "Visualizing Geography: A Journey to the Heart of the Discipline." *Progress in Human Geography* 19: 123–34.

———. 2001. *Geography Militant: Cultures of Exploration and Empire.* Oxford: Blackwell.

Drummond, Gavin. 1708. *A Short Treatise of Geography, General and Special.* Edinburgh: Andrew Symson.

———. 1708. *Bibliotheca Sibbaldiana.* Edinburgh:.

Duhem, Pierre. 1954. *The Aim and Structure of Physical Theory.* Princeton: Princeton University Press.

Dunbar, Gary S. 1960. "Thomas Jefferson, Geographer." *Special Libraries Association, Geogra phy and Map Division, Bulletin* 40 (April): 11–16.

———. 1978. *Elisée Reclus: Historian of Nature.* Hamden, CT: Archon.

Dunmore, John. 1965. *French Explorers in the Pacific.* 2 vols. Oxford: Oxford University Press

Dwight, Timothy. 1789. *The Duty of Americans.* New Haven: Greens.

———. 1794. *Greenfield Hill: A Poem in Seven Parts.* New York: Childs and Swaine.

———. 1795. *The True Means of Establishing Public Happiness.* New Haven: T. S. Green.

———. [1821–22] 1969. *Travels in New England and New York,* ed. Barbara Miller Solomon. 4 vols. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1828. *Sermons.* New Haven. 2 vols.

Dzelzainis, Martin, ed. 1991. *John Milton: Political Writings.* Cambridge: Cambridge University Press.

Earle, Thomas F., and Stephen Parkinson, eds. 1992. *Studies in the Portuguese Discoveries I.* Warminster: Aris.

Edelen, Georges, ed. 1968. *William Harrison's "The Description of England," 1577.* Ithaca: Cornell University Press.

Edney, Matthew H. 1997. *Mapping an Empire: The Geographical Construction of British India 1765–1843.* Chicago: University of Chicago Press.

Edwards, Elizabeth. 1990. "Photographic 'Types': The Pursuit of Method." *Visual Anthropology* 3: 235–58.

———. 1999. "Photographs as Objects of Memory." In *Material Memories: Design and Evocation*, ed. Marius Kwint, Christopher Breward, and Jeremy Aynsley, 221–36. Oxford: Berg.

———. 2001. *Raw Histories: Photographs, Anthropology and Museums*. Oxford: Berg.

———, ed. 1992. *Anthropology and Photography, 1860–1920*. London: Yale University Press.

Eisenstein, Elizabeth L. 1979. *The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early Modern Europe*. 2 vols. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1983. *The Printing Revolution in Early Modern Europe*. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1986. "On Revolution and the Printed Word." In *Revolution in History*, ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 186–205. Cambridge: Cambridge University Press.

Elias, Norbert. 1976. *The Civilizing Process: State Formation and Civilization*. Oxford: Blackwell.

———. 1992. *Time: An Essay*. Oxford, Blackwell.

Elliott, John H. 1968. *Europe Divided, 1559–1598*. London: Fontana.

———. 1973. "England and Europe: A Common Malady?" In *The Origins of the English Civil War*, ed. Conrad Russell, 246–57. London: Macmillan.

———. 1992. "A Europe of Composite Monarchies." *Past and Present* 137:48–71.

Ellis, Joseph J. 1979. *After the Revolution: Profiles of Early American Culture*. New York: Norton.

———. 1997. *American Sphinx: The Character of Thomas Jefferson*. New York: Knopf.

Elphick, Richard. 1977. *Kraal and Castle: Khoisan and the Founding of White South Africa*. New Haven: University of Yale Press.

Emerson, Roger. 1992. *Professors, Patronage and Politics: The Aberdeen Universities in the Eighteenth Century*. Aberdeen: Aberdeen University Press.

Emerson, Roger, and Paul Wood. 2002. "Science and Enlightenment in Glasgow, 1690–1802." In *Science and Medicine in the Scottish Enlightenment*, ed. Charles W. J. Withers and Paul Wood, 79–142. East Linton: Tuckwell.

Emmison, Frederick G. 1994. *Essex Wills: The Commissary Court, 1560–1574*. Chelmsford: Essex Record Office Publications.

Engels, Frederick. 1941. *Dialectics of Nature*. Ed. Clemens Dutt. London: Lawrence and Wishart.

Etlin, Richard A. 1994. *Symbolic Space: French Enlightenment Architecture and Its Legacy*. Chicago: University of Chicago Press.

Everett, Edward. [1823] 1973. "On the State of the Indians." *North American Review* 258: 10–14.

Fakhry, Majid. 1970. *A History of Islamic Philosophy*. New York: Columbia University Press.

Farini, G. A. 1886. "A Recent Journey in the Kalahari." *Journal of the Royal Geographical Society*, n.s., 8:437–53.

———. 1886. *Through the Kalahari Desert: A Narrative of a Journey with Gun, Camera, and Note-Book to Lake N'gami and Back*. London: Sampson Low, Marston, Searle, and Rivington.

Farrar, Steve. 2003. "Academic Blacklisted over Threat of Invasion." *Times Higher Education Supplement*, 26 September, 1–3.

Febvre, Lucien, and Henri-Jean Martin, eds. 1976. *The Coming of the Book: The Impact of Printing, 1450–1800*. Trans. David Gerard. London: New Left Books.

Feilchenfeldt, Konrad. 1970. *Varnhagen von Ense als Historiker*. Amsterdam: Verlag der Erasmus Buchhandlung.

Feingold, Mordechai. 1984. *The Mathematician's Apprenticeship: Science, Universities and Society in England, 1560–1640*. Cambridge: Cambridge University Press.

Fenton, Edward, ed. 1998. *The Diaries of John Dee*. Charlbury: Day Books.

Ferne, Henry. [1642] 1999. "The Resolving of Conscience." In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts*, ed. Joyce Lee Malcolm, 1:182–221. Indianapolis: Liberty Fund.

Festinger, Leon. 1967. *The Theory of Cognitive Dissonance*. Stanford: Stanford University Press.

Feyerabend, Paul. 1975. *Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of Knowledge*. Atlantic Highlands: Humanities Press.

Fichman, Martin. 1981. *Alfred Russel Wallace*. Boston: Twayne.

———. 2004. *An Elusive Victorian: The Evolution of Alfred Russel Wallace*. Chicago: University of Chicago Press.

Fiering, Norman. 1981. *Moral Philosophy at Seventeenth-Century Harvard: A Discipline in Transition*. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Fincham, Kenneth. 1988. "Prelacy and Politics: Archbishop Abbot's Defence of Protestant Orthodoxy." *Historical Research* 61:36–64.

Fine, Gary Alan, and Lazaros Christoforides. 1991. "Dirty Birds, Filthy Immigrants, and the English Sparrow War: Metaphorical Linkage in Constructing Social Problems." *Symbolic Interaction* 14:375–93.

Finkelstein, David, and Alistair McCleery, eds. 2002. *The Book History Reader*. London: Routledge.

Fischer, Walther. 1918. *Die Persönlichen Beziehungen Richard Monckton Milnes', ersten Barons Houghton, zu Deutschland, unter besonderer Berücksichtigung seiner Freundschaft mit Varnhagen von Ense*. Würzburg: Buchdruckerei Konrad Triltsch.

———, ed. 1922. *Die Briefe Richard Monckton Milnes', ersten Barons Houghton, an Varnhagen von Ense, 1844–1854*. Heidelberg: Carl Winters Universitätsbuchhandlung.

Fissell, Mary, and Roger Cooter. 2003. "Exploring Natural Knowledge: Science and the Popular." In *The Cambridge History of Science*, vol. 4, *Eighteenth-Century Science*, ed. Roy Porter, 129–58. Cambridge: Cambridge University Press.

Fitzmier, John R. 1998. *New England's Moral Legislator: Timothy Dwight, 1752–1817*. Bloomington: Indiana University Press.

Flaherty, Michael G. 1999. *A Watched Pot: How We Experience Time*. New York: New York University Press.

Foran, John, ed. 1997. *Theorizing Revolutions*. London: Routledge.

Forbes, Eric, ed. 1978. *Human Implications of Scientific Advance*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Forman, Paul. 1971. "Weimar Culture, Causality and Quantum Theory, 1918–1927: Adapta-

tion of German Physicists and Mathematicians to a Hostile Environment." *Historical Studies in the Physical Sciences* 3:1–115.

Foster, William, ed. 1940. *The Voyages of Sir James Lancaster, 1591–1603*. London: Hakluyt Society.

Foucault, Michel. 1968. *Les mots et les choses*. Paris: Gallimard.

Frasca-Spada, Marina, and Nicholas Jardine, eds. 2000. *Books and the Sciences in History*. Cambridge: Cambridge University Press.

Freeman, Chris. 2002. *As Time Goes By: From the Industrial Revolutions to the Information Revolution*. Oxford: Oxford University Press.

Freeman, Richard B. 1977. *The Works of Charles Darwin: An Annotated Bibliographical Handlist*. London: Dawson.

Freudenthal, Gideon. 1986. *Atom and Individual in the Age of Newton: On the Genesis of the Mechanistic World View*. Dordrecht: D. Reidel.

———. 2000. "A Rational Controversy over Compounding Forces." In *Scientific Controversies: Philosophical and Historical Perspectives*, ed. Peter Machamer, Marcello Pera, and Aristides Baltas, 125–42. Oxford: Oxford University Press.

Furet, François. 1978. *Penser la Révolution française*. Paris: Maspéro.

Gabbey, Alan. 1980. "Force and Inertia in the Seventeenth Century: Descartes and Newton." In *Descartes: Philosophy, Mathematics and Physics*, ed. Stephen Gaukroger, 230–320. Hassocks: Harvester.

Gal, Ofer. 2002. *Meanest Foundations and Nobler Superstructures: Hooke, Newton and the "Compounding of the Celestial Motions of the Planetts."* Dordrecht: Kluwer.

Galassi, Peter. 1981. *Before Photography: Painting and the Invention of Photography*. New York: Museum of Modern Art.

Galison, Peter. 2003. *Einstein's Clocks, Poincaré's Maps: Empires of Time*. London: Sceptre.

Galton, Francis. 1854. "Hints to Travellers." *Journal of the Royal Geographical Society* 24:345–58.

———. 1865. "On Stereoscopic Maps, Taken from Models of Mountainous Countries." *Journal of the Royal Geographical Society* 35:99–104.

———, ed. 1878. *Hints to Travellers*. London: Royal Geographical Society.

Gamble, Susan. 2002. "An Appealing Case of Spectra: Photographs on Display at the Royal Society, London 1891." *Nuncius* 17:635–51.

Garber, Daniel, and Michael Ayers, eds. 1998. *The Cambridge History of Seventeenth-Century Philosophy*. Cambridge: Cambridge University Press.

Gascoigne, John. 1998. *Science in the Service of Empire: Joseph Banks, the British State and the Uses of Science in the Age of Revolution*. Cambridge: Cambridge University Press.

Gatter, Nikolaus. 1996. *"Gift, Geradezu Gift für das Uunwissende Publicum": Der Diaristische Nachlaß von Karl August Varnhagen von Ense und die Polemik gegen Ludmilla Assings Editionen, 1860–1880*. Bielefeld: Aisthesis Verlag.

Gaukroger, Stephen, ed. 1980. *Descartes: Philosophy, Mathematics and Physics*. Hassocks: Harvester.

Gavroglu, Kostas. 2000. "Controversies and the Becoming of Physical Chemistry." In *Scientific Controversies: Philosophical and Historical*, ed. Peter Machamer et al., 177–98. Oxford: Oxford University Press.

Gay, Hannah. 2003. "Clock Synchrony, Time Distribution and Electrical Timekeeping in Britain, 1880–1925." *Past and Present* 181 : 107–40.

Gaziello, Catherine. 1984. *L'éxpédition de Lapérouse, 1785–1788: Réplique française aux voyages de Cook*. Paris: C.T.H.S.

Geison, Gerald. 1995. *The Private Science of Louis Pasteur*. Princeton: Princeton University Press.

George, H. B. 1866. *The Oberland and Its Glaciers: Explored and Illustrated with Ice Axe and Camera*. London: Alfred W. Bennett.

———. 1878. "Photography." In *Hints to Travellers*, ed. Francis Galton, 47–53. London: Royal Geographical Society.

Gerbi, Antonello. 1973. *The Dispute of the New World: The History of a Polemic, 1750–1900*. Rev. ed. Trans. Jeremy Moyle. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press.

Gigerenzer, Gerd. 2000. *Adaptive Thinking*. New York: Oxford University Press.

Gigerenzer, Gerd, and Peter M. Todd. 1999. *Simple Heuristics that Make Us Smart*. Oxford: Oxford University Press.

Gigerenzer, Gerd, and Reinhard Selten, eds. 2001. *Bounded Rationality: The Adaptive Toolbox*. Cambridge: MIT Press.

Gilbert, Felix. 1973. "Revolution." In *Dictionary of the History of Ideas*, ed. Philip P. Wiener, 4 : 152–67. New York: Scribner's.

Gilbert, Neil. 1965. *Renaissance Concepts of Method*. New York: Columbia University Press.

Gillespie, Neal C. 1979. *Charles Darwin and the Problem of Creation*. Chicago: University of Chicago Press.

Gillies, John. 1993. *Shakespeare and the Geography of Difference* Cambridge: Cambridge University Press.

Gillispie, Charles Coulston. [1980] 1981. *Science and Polity in France at the end of the Old Régime*. Princeton: Princeton University Press.

Gilmore, William J. 1989. *Reading Becomes a Necessity of Life: Material and Cultural Life in Rural New England, 1780–1835*. Knoxville: University of Tennessee Press.

Gilson, Étienne. 1930. *Études sur le role de la pensée médiévale dans la formation du système cartésien*. Paris: J. Vrin.

Ginzburg, Carlo. [1976] 1980. *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller*. Trans. John and Anne Tedeschi. Harmondsworth: Penguin.

Glacken, Clarence J. 1967. *Traces on the Rhodian Shore: Nature and Culture in Western Thought from Ancient Times to the End of the Eighteenth Century*. Berkeley: University of California Press.

Glander, Philip. 1965. *The Letters of Varnhagen von Ense to Richard Monckton Milnes*. Heidelberg: Carl Winter.

Glennie, Paul D., and Thrift, Nigel J. 1996. "Consumers, Identities, and Consumption Spaces in Early-Modern England." *Environment and Planning A* 25 : 25–45.

———. 2002. "The Spaces of Clock Times." In *The Social in Question: New Bearings in History and the Social Sciences*, ed. Patrick Joyce, 151–74. London: Routledge.

———. 2005. *The Measured Heart: Histories of Clock Times in England*. Oxford: Oxford University Press.

Godlewska, Anne. 1999. *Geography Unbound: French Geographic Science from Cassini to Humboldt.* Chicago: University of Chicago Press.

Goldberg, Peter J. P. 1992. *Women, Work and Life-Cycle in a Medieval Economy.* Oxford: Clarendon.

———. 1995. *Women in England, 1275–1525.* Manchester: Manchester University Press.

Golinski, Jan. 1998. *Making Natural Knowledge: Constructivism and the History of Science.* Cambridge: Cambridge University Press.

Goodman, David. 1992. "The Scientific Revolution in Spain and Portugal." In *The Scientific Revolution in National Context,* ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 158–77. Cambridge: Cambridge University Press.

Gordon, Patrick. 1693. *Geography Anatomiz'd; or, A Compleat Geographical Grammar.* London: Printed by Robert Morden and Thomas Cockerid.

Gossett, Thomas F. 1963. *Race: The History of an Idea in America.* Dallas: Southern Methodist University Press.

Gough, Hugh. 1988. *The Newspaper Press in the French Revolution.* London: Routledge.

Gould, Stephen Jay. 1990. *Wonderful Life.* London: Hutchinson.

———. 1996. *Full House.* New York: Harmony.

Grabiner, Judith V. 2002. "Maclaurin and Newton: The Newtonian Style and the Authority of Mathematics." In *Science and Medicine in the Scottish Enlightenment,* ed. Charles W. J. Withers and Paul Wood, 143–71. East Linton: Tuckwell Press.

Grafton, Anthony. 1993. *Joseph Scaliger: A Study in the History of Classical Scholarship.* Vol. 2, *Historical Chronology.* Oxford: Warburg Institute.

Grafton, Anthony, and Lisa Jardine. 1990. "'Studied for Action': How Gabriel Harvey Read His Livy." *Past and Present* 129:30–78.

Grafton, Anthony, and Nancy Siraisi, eds. 2000. *Natural Particulars: Nature and the Disciplines in Renaissance Europe.* Cambridge: MIT Press.

Graham, G., et al. 1737. "Observations of the Late Total Eclipse of the Sun." *Philosophical Transactions of the Royal Society* 63:175–201.

Grandière, Marcel. 1998. *L'idéal pédagogique en France au XVIIIe siècle.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Grant, Edward. 1996. *The Foundations of Modern Science in the Middle Ages: Their Religious, Institutional and Intellectual Contexts.* Cambridge: Cambridge University Press.

Greely, A. W. 1896. "Jefferson as a Geographer." *National Geographic Magazine* 7:269–71.

Greenberg, John L. 1995. *The Problem of the Earth's Shape from Newton to Clairaut: The Rise of Mathematical Science in Eighteenth-Century Paris and the Fall of "Normal" Science.* Cambridge: Cambridge University Press.

Greenblatt, Stephen. 1980. *Renaissance Self-Fashioning from More to Shakespeare.* Chicago: University of Chicago Press.

Greene, John C. 1984. *American Science in the Age of Jefferson.* Ames: Iowa State University Press.

Greenough, George Bellas. 1841. "Anniversary Meeting Presidential Address." *Journal of the Royal Geographical Society* 11:xxxix–lxxvii.

Gregory, Derek. 1993. *Geographical Imaginations.* Oxford: Blackwell.

Gregory, Stan. 1983. "Quantitative Geography: The British Experience and the Role of the Institute." *Transactions of the Institute of British Geographers* 8:80–89.

Greiling, Werner. 1993. *Varnhagen von Ense—Lebensweg eines Liberalen: Politisches Wirken zwischen Diplomatie und Revolution.* Cologne: Böhlau.

Gribbin, William. 1972. "A Mirror to New England: The *Compendious History* of Jedidiah Morse and Elijah Parish." *New England Quarterly* 45:340–54.

Griewank, Karl. 1955. *Der Neuzeitliche Revolutionsbegriff.* Weimar: H. Böhlaus Nachfolger.

Groening, Gert, and Joachim Wolschke-Bulmahn. 1992. "Some Notes on the Mania for Native Plants in Germany." *Landscape Journal* 11:116–26.

Grove, Richard H. 1995. *Green Imperialism: Colonial Expansion, Tropical Island Edens and the Origins of Environmentalism, 1600–1860.* Cambridge: Cambridge University Press.

Guillaume, James, ed. 1893. *Procès-verbaux du Comité d'Instruction Publique de la Convention Nationale.* Vol. 2. Paris: Ministère de l'Instruction Publique.

Gurr, Ted Robert. 1971. *Why Men Rebel.* Princeton: Princeton University Press.

Hahn, Roger. 1971. *The Anatomy of a Scientific Institution: The Paris Academy of Sciences, 1666–1803.* Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Hale, John R. 1993. *The Civilization of Europe in the Renaissance.* London: Harper Collins.

Hall, A. Rupert. 1954. *The Scientific Revolution, 1500–1800.* London: Longman.

———. 1983. *The Revolution in Science, 1500–1750.* London: Longman.

———. 1993. "Retrospection on the Scientific Revolution." Afterword to *Renaissance and Revolution: Humanists, Scholars, Craftsmen and Natural Philosophers in Early Modern Europe,* ed. J. V. Field and Frank A. L. James, 239–49. Cambridge: Cambridge University Press.

Halley, Edmund. 1715. "Observations of the Late Total Eclipse of the Sun on the Second of April." *Philosophical Transactions of the Royal Society* 29, no. 343: 245–62; no. 345: 314–16.

Hamowy, Ronald. 1979. "Jefferson and the Scottish Enlightenment: A Critique of Gary Wills' *Inventing America.*" *William and Mary Quarterly* 36:502–23.

Hankins, Thomas L. 1965. "Eighteenth-Century Attempts to Solve the *Vis Viva* Controversy." *Isis* 56:281–97.

Hannerz, Ulf. 1986. "Theory in Anthropology: Small is Beautiful." *Comparative Studies in Society and History* 28:362–67.

Hardy, Thomas. 1878. *The Return of the Native.* London: Macmillan.

Harley, J. Brian. 1988. "Maps, Knowledge, and Power." In *The Iconography of Landscape: Essays on the Symbolic Representation, Design and Use of Past Environment,* ed. Denis Cosgrove and Stephen Daniels, 277–312. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1992. "Deconstructing the Map." In *Writing Worlds: Discourse, Text and Metaphor in the Representation of Landscape,* ed. Trevor J. Barnes and James S. Duncan, 231–47. London: Routledge.

Harris, Marvin. 1968. *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture.* New York: Thomas Y. Crowell.

Harris, Steven J. 1998. "Thinking Locally, Acting Globally." Introduction to *The Scientific*

Revolution as Narrative, ed. Mario Biagioli and Steven J. Harris. Special issue of *Configurations* 6:131–39.

———. 1998. "Long-Distance Corporations, Big Sciences, and the Geography of Knowledge." In *The Scientific Revolution as Narrative*, ed. Mario Biagioli and Steven J. Harris. Special issue of *Configurations* 6:269–303.

Harris, Tim, ed. 1995. *Popular Culture in England, c. 1500–1850*. Basingstoke: Macmillan.

Harrison, Peter. 1998. *The Bible, Protestantism and the Rise of Natural Science*. Cambridge: Cambridge University Press.

Harrison, William. [1578] 1994. *The Description of England*. Ed. Georges Edelen. New York: Dover.

Hart, Henry. 1952. *Sea-Road to the Indies*. London: Hodge.

Hartog, François. 2003. *Régimes d'historicité*. Paris: La Découverte.

Harwood, Jonathan. 1987. "National Styles in Science: Genetics in Germany and the United States between the Wars." *Isis* 78:390–414.

———. 1993. *Styles of Scientific Thought: The German Genetics Community, 1900–1933*. Chicago: University of Chicago Press.

Hatch, Nathan O. 1989. *The Democratization of American Christianity*. New Haven: Yale University Press.

Hatto, Arthur. 1949. "'Revolution': An Enquiry into the Usefulness of an Historical Term." *Mind* 58:495–516.

Haye de Launay, M. de la. [1789]. *Justification du système d'économie politique et financière de Frédéric II, roi de Prusse, pour servir de réfutation à tout ce que le comte de Mirabeau a hazardé à ce sujet dans son ouvrage de la monarchie prussienne*. Paris.

Haym, Rudolf. 1860. "Notizen." *Preussische Jahrbücher* 5:414–16.

Hayward, Abraham. 1860. "Correspondence of Humboldt." *Edinburgh Review* 112:213–36.

Headrick, Daniel R. 2000. *When Information Came of Age: Technologies of Knowledge in the Age of Reason and Revolution, 1700–1850*. Oxford: Oxford University Press.

Heffernan, Michael. 1990. "Rogues, Rascals and Rude Books: Policing the Popular Book Trade in Early Nineteenth-Century France." *Journal of Historical Geography* 16:90–107.

———. 1999. "Historical Geographies of the Future: Three Perspectives from France, 1750–1825." In *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers. 125–64. Chicago: University of Chicago Press.

Helgerson, Richard. 1992. *Forms of Nationhood: The Elizabethan Writing of England*. Chicago: University of Chicago Press.

Henry, John. 1986. "England." In *The Scientific Revolution in National Context*, ed. Roy Porter and Mikuláš Teich. 178–210. Cambridge University Press, Cambridge.

———. 1986. "Occult Qualities and the Experimental Philosophy: Active Principles in Pre-Newtonian Matter Theory." *History of Science* 24:335–81.

———. 1997. *The Scientific Revolution and the Origins of Modern Science*. Basingstoke: Macmillan.

———. 2004. "Metaphysics and the Origins of Modern Science: Descartes and the Importance of Laws of Nature." *Early Science and Medicine* 9:73–114.

[Herle, Charles]. [1642] 1999. "A Fuller Answer to a Treatise Written by Doctor Ferne." In

The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts, ed. Joyce Lee Malcolm, 1:226–60. Indianapolis: Liberty Fund.

Hermet, Guy. 1996. *Histoire des nations et du nationalisme en Europe.* Paris: Seuil.

Herschel, Sir John F. W. 1861. *Physical Geography: From the Encyclopaedia Britannica.* Edinburgh: Adam and Charles Black.

Hesse, Mary B. 1966. *Models and Analogies in Science.* Notre Dame: University of Notre Dame Press.

———. 1974. *The Structure of Scientific Inference.* London: Macmillan.

———. 1980. *Revolutions and Reconstructions in the Philosophy of Science.* Brighton: Harvester.

Hessenbruch, Arne, ed. 2000. *Reader's Guide to the History of Science.* London: Fitzroy Dearborn.

Hettinger, Ned. 2001. "Exotic Species, Naturalisation, and Biological Nativism." *Environmental Values* 10:193–224.

Heylyn, Peter. 1621. *Microcosmus; or, A Little Description of the Great World: A Treatise Historicall, Geographicall, Politicall, Theologicall.* Oxford: Oxford University Press.

———. 1625. *Microcosmus; or, A Little Description of the Great World: A Treatise Historicall, Geographicall, Politicall, Theologicall.* Rev. ed. Oxford: John Lichfield and William Turner.

———. 1657. *Cosmographie in Four Bookes.* 2nd ed. London: Henry Seile.

Higonnet, Patrice L. R. 1998. *Goodness beyond Virtue: Jacobins during the French Revolution.* Cambridge: Harvard University Press.

Hill, Christopher. 1965. *Intellectual Origins of the English Revolution.* Oxford: Clarendon.

———. 1997. *The Intellectual Origins of the English Revolution Revisited.* 2nd ed. Oxford: Clarendon.

Himmelfarb, Gertrude. 1959. *Darwin and the Darwinian Revolution.* London: Chatto and Windus.

Hindle, Brooke, and Steven Lubar. 1986. *Engines of Change: The American Industrial Revolution, 1790–1860.* Washington: Smithsonian Institution Press.

Hirst, Derek. 1996. "The English Republic and the Meaning of Britain." In *The British Problem, c. 1534–1707: State Formation in the Atlantic Archipelago,* ed. Brendan Bradshaw and John Morrill, 192–219. London: Macmillan.

Hobbes, Thomas. 1843. *English Works.* Ed. William Molesworth. 8 vols. London: John Bohn.

———. 1990. *Behemoth; or, The Long Parliament.* Ed. Ferdinand Tönnies. Chicago: University of Chicago Press.

Hobsbawm, Eric J. 1986. "Revolution." In *Revolution in History,* ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 5–46. Cambridge: Cambridge University Press.

Hodge, M. J. S. 1983. "Darwin and the Laws of the Animate Part of the Terrestrial System, 1835–1837: On the Lyellian Origins of his Zoonomical Explanatory Program." *Studies in the History of Biology* 6:1–106.

———. 1991. *Origins and Species: A Study of the Historical Sources of Darwinism and the Context of Some Other Accounts of Organic Diversity from Plato to Aristotle On.* New York: Garland.

Hodge, M. J. S., and David Kohn. 1985. "The Immediate Origins of Natural Selection." In *The Darwinian Heritage*, ed. David Kohn, 185–206. Princeton: Princeton University Press.
Hoffman, Theodore. 1892. "Exploration in Sikkim: To the North-East of Kanchinjinga." *Proceedings of the Royal Geographical Society* 14:613–18.
Holland, Susan. 1994. "Archbishop Abbot and the Problem of 'Puritanism.'" *Historical Journal* 37:23–43.
Holmes, Clive 1980. "The County Community in Stuart Historiography." *Journal of British Studies* 19:54–73.
Hooke, Robert. 1665. *Micrographia*. London: Printed by J. Martin and J. Allestry.
Hooson, David M., ed. 1994. *Geography and National Identity*. Oxford: Blackwell.
Hooykaas, Reijer J. 1987. "The Rise of Modern Science: When and Why." *British Journal for the History of Science* 20:453–73.
———. 1972. *Religion and the Rise of Modern Science*. Edinburgh: Scottish Academic Press.
Hotson, Howard. 2000. *Johann Heinrich Alsted: Between Renaissance, Reformation and Universal Reform*. Oxford: Clarendon.
Houtman, Cornelis de. 1598. *The Description of a Voyage Made by Certaine Ships of Holland into the East Indies*. Trans. William Philip. London: John Wolfe.
Howell, Wilbur. 1956. *Logic and Rhetoric in England, 1500–1700*. Princeton: Princeton University Press.
Hudson, Patricia. 1989. *Regions and Industries: A Perspective on the Industrial Revolution in Britain*. Cambridge: Cambridge University Press.
Hughes, Ann. 1985. "King, Parliament and the Localities during the English Civil War." *Journal of British Studies* 24:236–63.
———. 1989. "Local History and the Origins of the Civil War." In *Conflict in Early Stuart England: Studies in Religion and Politics, 1602–1642*, ed. Richard Cust and Ann Hughes, 224–53. London: Longmans.
Hume, David. 1748. *Enquiry Concerning Human Understanding*. London.
Humphrey, Chris. 2001. "Time and Urban Culture in Late-Medieval England." In *Time in the Medieval World*, ed. Chris Humphrey and W. M. Ormrod, 105–18. York: York Medieval Press.
Hunt, Lynn. 1984. *Politics, Culture, and Class in the French Revolution*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
———. 1992. *The Family Romance of the French Revolution*. London: Routledge.
———. 2003. "The World We Have Gained: The Future of the French Revolution." *American Historical Review* 108:1–19.
———, ed. 1989. *The New Cultural History*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
Hunter, Michael. 1981. *Science and Society in Restoration England*. Cambridge: Cambridge University Press.
———. 2001. *The Occult Laboratory: Magic, Science and Second Sight in Late Seventeenth-Century Scotland*. Woodbridge: Boydell and Brewer.
———, ed. 1989. *Establishing the New Science: The Experience of the Early Royal Society*. Woodbridge: Boydell.

Hunter, Michael, and Annabel Gregory, eds. 1988. *An Astrological Diary of the Seventeenth Century: Samuel Jeake of Rye, 1652–1699.* Oxford: Clarendon.

Huntington, Samuel P. 1968. *Political Order in Changing Societies.* New Haven: Yale University Press.

Hutcheson, Francis. 1755. *A System of Moral Philosophy.* 2 vols. London.

Hutchins, Edwin. 1995. *Cognition in the Wild.* Cambridge: MIT Press.

Iliffe, Rob. 1993. "'Aplattisseur du Monde et de Cassini': Maupertuis, Precision Measurement, and the Shape of the Earth in the 1730s." *History of Science* 31:335–75.

———. 2003. "Science and Voyages of Discovery." In *The Cambridge History of Science,* vol. 4, *Eighteenth-Century Science,* ed. Roy Porter, 618–45. Cambridge: Cambridge University Press.

Iltis, Carolyn. 1973. "The Leibnizian-Newtonian Debates: Natural Philosophy and Social Psychology." *British Journal for the History of Science* 6:343–77.

Ingold, Tim. 2001. *The Perception of the Environment* London: Routledge.

"Instruction for Intending Travellers." 1905. *Journal of the Royal Geographical Society* 26:viii.

Ivins, William Mills. 1928. "Photography and the Modern Point of View: A Speculation in the History of Taste." *Metropolitan Museum* 1:16–24.

———. 1938. *On the Rationalisation of Sight.* New York: Metropolitan Museum of Art.

———. [1953] 1980. *Prints and Visual Communication.* Cambridge: MIT Press.

Jackson, Clare. 2003. *Restoration Scotland, 1660–1690: Royalist Politics, Religion and Ideas.* Woodbridge: Boydell and Brewer.

Jackson, Lowis d'A. 1889. *Aid to Survey-Practice: for Reference in Surveying, Levelling, and Setting-out; and in Route-surveys of Travellers by Land and Sea.* London: Crosby Lockwood.

Jacob, Christian. 1992. *L'empire des cartes.* Paris: Gallimard.

James, Henry, and R. I. Murchison. 1859. *Ordnance Survey: Report of the Committee on the Reduction of the Ordnance Plans by Photography.* London: Ordnance Survey.

James, Lawrence. 1994. *The Rise and Fall of the British Empire.* London: Little, Brown.

James, Preston. 1972. *All Possible Worlds: A History of Geographical Ideas.* Indianalopis: Bobbs-Merrill.

Jay, John. 1987. "Federalist Number II." In *The Federalist; or, The New Constitution,* ed. Max Beloff. Oxford: Blackwell.

Jeal, Tim. 1973. *Livingstone.* London: Heinemann.

Jefferson, Thomas. [1784] 1955. *Notes on the State of Virginia.* Ed. William Peden. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Johns, Adrian. 1998. *The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making.* Chicago: University of Chicago Press.

Johnson, Chalmers. 1983. *Revolutionary Change.* London: Longman.

Jolley, Nicholas. 1987. "The Reception of Descartes' Philosophy." In *Cambridge Companion to Descartes,* ed. John Cottingham, 393–423. Cambridge: Cambridge University Press.

Jones, Eric L. 1981. *The European Miracle: Environments, Economies and Geopolitics in the History of Europe and Asia.* Cambridge: Cambridge University Press.

Jones, Greta. 2002. "Alfred Russel Wallace, Robert Owen and the Theory of Natural Selection." *British Journal for the History of Science* 35:73–96.

Joy, Lynn Sumida. 1987. *Gassendi the Atomist: Advocate of History in an Age of Science.* Cambridge: Cambridge University Press.

Jussim, Estelle, and Elizabeth Lindquist-Cock. 1985. *Landscape as Photograph.* New Haven: Yale University Press.

Kaelble, Hartmut. 1986. *Industrialization and Social Inequality in Nineteenth-Century Europe.* New York: St. Martin's.

Kafker, Frank A. 1996. *The Encyclopedists as a Group: A Collective Biography of the Authors of the Encyclopédie.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Kafker, Frank A., and Serena L. Kafker. 1988. *The Encyclopedists as Individuals: A Biographical Dictionary of the Authors of the Encyclopédie.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Kamensky, Jane. 1990. "'In These Contrasted Climes, How Chang'd the Scene': Progress, Declension, and Balance in the Landscapes of Timothy Dwight" *American Quarterly* 43:80–108.

Kaufmann, Thomas DaCosta. 2004. *Toward a Geography of Art.* Chicago: University of Chicago Press.

Kearney, Hugh. 1971. *Science and Change.* London: Weidenfeld and Nicolson.

Keckermann, Bartholomew. 1612. *Systema Geographicum Duobus Libris.* Hanover: Petrus Janichius.

Kennedy, Emmet. 1989. *A Cultural History of the French Revolution.* New Haven: Yale University Press.

Kenney, Padraic. 2002. *A Carnival of Revolution: Central Europe 1989.* Princeton: Princeton University Press.

Kenny, Michael G. 1994. *The Perfect Law of Liberty: Elias Smith and the Providential History of America.* Washington: Smithsonian Institution Press.

Kenny, Neil. 1994. *The Palace of Secrets: Béroalde de Veville and Renaissance Conceptions of Knowledge.* Oxford: Clarendon.

Kent, Dale V., and F. William. 1982. *Neighbours and Neighbourhood in Renaissance Florence.* New York: Academic Press.

Kern, Stephen. 1983. *The Culture of Time and Space, 1880–1913.* Cambridge: Harvard University Press.

Ketcham, Ralph. 1974. *From Colony to Country: The Revolution in American Thought, 1750–1820.* New York: Macmillan.

Keynes, Richard Darwin, ed. 1988. *Charles Darwin's "Beagle" Diary.* Cambridge: Cambridge University Press.

Kidd, Colin. 1999. "Civil Theology and Church Establishment in Revolutionary America." *The Historical Journal* 42:1007–26.

Kimmerl, Michael S. 1990. *Revolution: A Sociological Interpretation.* Oxford: Polity.

Kirk, John. 1865. "Extracts from a Letter from J. Kirk." *Journal of the Royal Geographical Society* 34:290–92.

Kley, Dale van. 1975. *The Jansenists and the Expulsion of the Jesuits from France, 1757–1765.* New Haven: Yale University Press.

Knight, Alan. 1986. *The Mexican Revolution.* 2 vols. Cambridge: Cambridge University Press.

Knorr, Klaus E. 1944. *British Colonial Theories, 1570–1850.* Toronto: University of Toronto Press.

Kock, Victor de. 1953. *By Strength of Heart.* Cape Town: Timmins.

Koerner, Lisbet. 1996. "Purposes of Linnaean Travel: A Preliminary Research Report." In *Visions of Empire: Voyages, Botany, and Representations of Nature,* ed. David Philip Miller and Peter Hanns Reill, 117–52. New York: Cambridge University Press.

———. 1999. *Linnaeus: Nature and Nation.* Cambridge: Harvard University Press.

Kohn, David. 1981. "On the Origin of the Principle of Diversity." *Science* 213:1105–8.

———, ed. 1985. *The Darwinian Heritage.* Princeton: Princeton University Press.

Konvitz, Josef W. 1987. *Cartography in France, 1660–1848: Science, Engineering, and Statecraft.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1990. "The Nation-State, Paris and Cartography in Eighteenth- and Nineteenth-Century France." *Journal of Historical Geography* 16:3–16.

Krasner, James. 1992. *The Entangled Eye: Visual Perception and the Representation of Nature in Post-Darwinian Narrative.* Oxford: Oxford University Press.

Krauss, Rosalind. 1982. "Photography's Discursive Spaces: Landscape/View." *Art Journal* 42:311–20.

Krautheimer. Richard. 1985. *The Rome of Alexander VII.* Princeton: Princeton University Press

Krise, Raymond, and Bill Squires. 1982. *Fast Tracks: The History of Distance Running.* Lexington, MA: Stephen Greene.

Kristeva, Julia. 1982. *Powers of Horror: An Essay on Abjection.* Trans. Leon Roudiez. New York: Columbia University Press.

Kronenberg, Maria E., ed. 1927. *De Novo Mondo: Antwerp, Jan Van Doesborch; A Facsimile of an Unique Broadsheet Containing an Early Account of the Inhabitants of South America, together with a Short Version of Heinrich Sprenger's Voyage to the Indies.* The Hague: Martinus Nijhoff.

Kropotkin, Pyotr. 1885. "What Geography Ought To Be." *Nineteenth Century* 18:940–56.

———. [1889] 1962. *Memoirs of a Revolutionist.* London: Cresset Library.

Kuhn, Madison. 1966. "Tiffin, Morse, and the Reluctant Pioneer." *Michigan History* 30: 111–38.

Kuhn, Thomas S. 1962. *The Structure of Scientific Revolutions.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1970. *The Structure of Scientific Revolutions.* 2nd ed. Chicago: University of Chicago Press.

LaCapra, Dominick. 1989. *Soundings in Critical Theory.* Ithaca: Cornell University Press.

Lakatos, Imre, and Alan Musgrave, eds. 1970. *Criticism and the Growth of Knowledge.* Cambridge: Cambridge University Press.

Landes, David S. 1983. *Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World.* Cambridge: Harvard University Press.

———. 2003. "Clocks and the Wealth of Nations." *Daedalus* 132, no. 2: 20–26.

Lang, Heinrich. 1860. "Humboldt und unsere Zeit." *Zeitstimmen aus der Reformierten Kirche der Schweiz* 2:230–40, 261–72, 277–86.

Langton, John, and R. J. Morris, eds. 1986. *Atlas of Industrializing Britain, 1780–1914.* London: Methuen.

Larche, P.-J. 1816. "Notice sur Mentelle." *Magazin Encyclopédie* 1:359–71.

Lasky, Melvin J. 1970. "The Birth of a Metaphor: On the Origins of Utopia and Revolution." *Encounter* 48 (February): 30–42; (March): 35–45.

Latham, Robert, and William Matthews, eds. 1970–83. *The Diary of Samuel Pepys: A New and Complete Transcription.* 10 vols. London: Bell.

Latour, Bruno. 1987. *Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society.* Cambridge: Harvard University Press.

———. 1988. *The Pasteurization of France.* Trans. Alan Sheridan and John Law. Cambridge: Harvard University Press.

———. 1993. *We Have Never Been Modern.* Hassocks: Harvester Wheatsheaf.

———. 1997. "Trains of Thought: Piaget, Formalism and the Fifth Dimension." *Common Knowledge* 6:170–91.

Laulan, R. 1957. "l'enseignement à l'École Royale Militaire de Paris de l'origine à la réforme du comte de Saint-Germain." *L'Information Historique* 19:152–58.

Laurence, Anne. 1996. *Women in England, 1500–1760.* London: Phoenix.

Laurence, John, and John Nightingale, eds. 2001. *Darwinism and Evolutionary Economics.* Cheltenham: Edward Elgar.

Law, John. 1986. "On the Methods of Long Distance Control: Vessels, Navigation and the Portuguese Route to India." In *Power, Action and Belief: A New Sociology of Knowledge?* ed. John Law, 234–63. London: Routledge and Kegan Paul.

Lawrence, Christopher, and Steven Shapin, eds. 1998. *Science Incarnate: Historical Embodiments of Natural Science.* Chicago: University of Chicago Press.

Lawrence, Susan C. 1988. "Entrepreneurs and Private Enterprise: The Development of Medical Lecturing in London, 1775–1820." *Bulletin of the History of Medicine* 62: 171–92.

Lawson-Peebles, Robert. 1988. *Landscape and Written Expression in Revolutionary America.* Cambridge: Cambridge University Press.

Lefebvre, Georges. 1988. *La grande peur de 1789.* Paris: A Colin.

Lehmann, William C. 1971. *Henry Home, Lord Kames, and the Scottish Enlightenment: A Study in National Character and in the History of Ideas.* The Hague: Martinus Nijhoff.

Lemagny, Jean-Claude, and André Rouillé, eds. 1987. *A History of Photography: Social and Cultural Perspectives.* Trans. Janet Lloyd. Cambridge: Cambridge University Press.

Leris, M. de. 1753. *La géographie rendue aisée; ou, Traité méthodique pour apprendre la géographie.* Paris.

Levi, Giovanni. 2001. "On Micro-History." In *New Perspectives on Historical Writing,* 2nd ed., ed. Peter Burke, 97–119. Cambridge: Cambridge University Press.

Lightman, Bernard, ed. 1997. *Victorian Science in Context.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 2000. "The Visual Theology of Victorian Popularizers of Science: From Reverent Eye to Chemical Retina." *Isis* 91:651–80.

Lilley, Samuel. 1973. "Technological Progress and the Industrial Revolution." In *The Fontana Economic History of Europe,* ed. C. M. Cipolla, 3:187–254. London: Fontana.

Lindberg, David C., and Robert S. Westman, eds. 1990. *Reappraisals of the Scientific Revolution.* Cambridge: Cambridge University Press.

Linschoten, Jan Huygen van. 1598. *John Huighen van Linschoten: His Discours of Voyages into ye East and West Indies.* Trans. William Philip. London.

Lipset, Seymour Martin. 1969. *Revolution and Counter-Revolution: Change and Persistence in Social Structure.* London: Heinemann.

"Literature: Letters from Alexander von Humboldt to Varnhagen von Ense." 1860. *Athenaeum*, 17 March, 365–66.

Livingstone, David. 1857. *Missionary Travels and Researches in South Africa.* London: John Murray.

———. 1861. "Extracts from the Despatches of Dr David Livingstone to the Right Honourable Lord Malmesbury." *Journal of the Royal Geographical Society* 31:256–96.

Livingstone, David, and Charles Livingstone. 1865. *Narrative of an Expedition to the Zambesi and Its Tributaries and of the Discovery of the Lakes Shirwa and Nyassa, 1858–1864.* London: John Murray.

Livingstone, David N. 1987. "Human Acclimatization: Perspectives on a Contested Field of Inquiry in Science, Medicine and Geography." *History of Science* 25:359–94.

———. 1988. "Science, Magic and Religion: A Contextual Assessment of Geography in the Sixteenth and Seventeenth Centuries." *History of Science* 26:269–294.

———. 1990. "Geography, Tradition and the Scientific Revolution." *Transactions of the Institute of British Geographers* 15:359–73.

———. 1992. *The Geographical Tradition: Episodes in the History of a Contested Enterprise.* Oxford: Blackwell.

———. 1994. "Science and Religion: Foreword to the Historical Geography of an Encounter." *Journal of Historical Geography* 20:367–83.

———. 1995. "The Spaces of Knowledge: Contributions Towards an Historical Geography of Science." *Environment and Planning D: Society and Space* 13:5–34.

———. 1999. "Geographical Inquiry, Rational Religion and Moral Philosophy: Enlightenment Discourses on the Human Condition." In *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers, 93–119. Chicago: University of Chicago Press.

———. 2003. *Putting Science in Its Place: Geographies of Scientific Knowledge.* Chicago: University of Chicago Press.

Lloyd, Geoffrey. 2002. *The Ambitions of Curiosity.* Cambridge: Cambridge University Press.

Lloyd, Trevor O. 1996. *The British Empire, 1558–1995.* Oxford: Oxford University Press.

Loomes, Brian. 1997. *The Clockmakers of Northern England.* Ashbourne: Mayfield.

———. 1998. *Brass Dial Clocks.* Woodbridge: Antiques Collectors Club.

Lozovsky, Natalia. 2000. *"The Earth is Our Book: Geographical Knowledge in the Latin West, c. 400–1000.* Ann Arbor: University of Michigan Press.

Lucas, Colin. 1973. *The Structure of the Terror: The Example of Javogues and the Loire.* Oxford: Oxford University Press.

Luttrell, Barbara. 1990. *Mirabeau.* New York: Harvester-Wheatsheaf.

Lux, David S., and Harold J. Cook. 1998. "Closed Circles or Open Networks? Communicating at a Distance during the Scientific Revolution." *History of Science* 36:179–211.

Lyell, Charles. [1830–32] 1990. *Principles of Geology.* Repr. of 1st ed. 3 vols. Chicago: University of Chicago Press.

Lynch, Michael. 1991. "Science in the Age of Mechanical Reproduction: Moral and Epistemic Relations between Diagram and Photographs." *Biol. Philos.* 6:205–26

M[ay], T[homas]. 1631. *The Mirrour of Mindes: or, Barclay's Icon Animorum Englished.* London: Thomas Walkley.

Machamer, Peter, Marcello Pera, and Aristedes Baltas, eds. 2000. *Scientific Controversies: Philosophical and Historical Perspectives.* New York: Oxford University Press.

MacKenzie, John M., ed. 1996. *David Livingstone and the Victorian Encounter with Africa.* London: National Portrait Gallery.

Mackinder, John Halford. 1900. "A Journey to the Summit of Mount Kenya, British East Africa." *Journal of the Royal Geographical Society* 15:453–86.

———. 1911. "The Teaching of Geography from an Imperial Point of View, and the Use which Could and Should be Made of Visual Instruction." *Geographical Teacher* 6:79–86.

MacLachlan, Alastair. 1996. *The Rise and Fall of Revolutionary England: An Essay on the Fabrication of Seventeenth-Century England.* London: Macmillan.

Maddrell, Avril M. C. 1996. "Empire, Emigration and School Geography: Changing Discourses of Imperial Citizenship, 1880–1925." *Journal of Historical Geography* 22:373–87.

Maienschein, Jane. 1991. "Epistemic Styles in German and American Embryology." *Science in Context* 4:407–27.

Malcolm, Joyce Lee, ed. 1999. *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts.* 2 vols. Indianapolis: Liberty Fund.

Marchant, James. 1916. *Alfred Russel Wallace: Letters and Reminiscences.* 2 vols. London: Cassell.

Marchant, Leslie R. 1987. "Edmunde Mentelle, 1730–1815, and François-Simon Mentelle, 1731–1799." *Geographers Biobibliographical Studies* 11:93–103.

Margadant, Ted. 1992. *Urban Rivalries in the French Revolution.* Princeton: Princeton University Press.

Marggraff, Hermann. 1860. "Die Englische Übersetzung der Briefe Alexander von Humboldt's." *Blätter für Literarische Unterhaltung,* 14 June, 443.

———. 1860. "Stimmen des Auslandes über Alexander von Humboldt's Briefe." *Blätter für Literarische Unterhaltung,* 9 August, 590–93.

———. 1860. "Alexander von Humboldt's Briefe in England und Frankreich." *Blätter für Literarische Unterhaltung,* 27 September, 718–19.

Marshall, Peter, and Ian Walker. 1981. "The First New Nation." In *Introduction to American Studies,* ed. Malcolm Bradbury and Howard Temperley, 45–62. London: Longman.

Martins, Luciana L. 2000. "A Naturalist's Vision of the Tropics: Charles Darwin and the Brazilian Landscape." *Singapore Journal of Tropical Geography* 21:19–33.

Marx, Karl, and Frederick Engels. 1943. *Selected Correspondence, 1846–1895.* Vol. 9. London: Lawrence and Wishart.

Mason, Haydn T., ed. 1988. *The Darnton Debate: Books and Revolution in the Eighteenth Century.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Matless, David. 1998. *Landscape and Englishness.* London: Reaktion.

May, Gita. 1970. *Madame Roland and the Age of Revolution.* New York: Columbia University Press.

Mayhew, Robert J. 1998. "The Character of English Geography, c. 1660–1800: A Textual Approach." *Journal of Historical Geography* 24:385–412.

———. 1998. "Geography in Eighteenth-Century British Education." *Paedagogica Historica* 34:731–69.

———. 1999. "William Guthrie's *Geographical Grammar*, the Scottish Enlightenment and the Politics of British Geography." *Scottish Geographical Journal* 115:19–34.

———. 2000. *Enlightenment Geography: The Political Language of British Geography, c. 1650–1850*. London: Macmillan.

———. 2001. "Geography, Print Culture and the Renaissance: 'The Road Less Travelled By.'" *History of European Ideas* 27:349–69.

———. 2004. "Geography Books and the Character of Georgian Politics." In *Georgian Geographies: Essays on Space, Place and Landscape in the Eighteenth Century*, ed. Miles Ogborn and Charles W. J. Withers, 192–211. Manchester: Manchester University Press, 2004.

Mayr, Ernst. 1994. "The Advance of Science and Scientific Revolutions." *Journal for the History of the Behavioral Sciences* 30:328–47.

McAdoo, H. R. 1965. *The Spirit of Anglicanism: A Survey of Anglican Theological Method in the Seventeenth Century*. London: A. and C. Black.

McCann, Justin. 1976. *The Rule of St Benedict*. London: Sheed and Ward.

McClintock, Anne. 1995. *Imperial Leather: Race, Gender and Sexuality in the Colonial Contest*. Routledge: London.

McLuhan, Marshall. 1962. *The Gutenberg Galaxy*. London: Routledge.

Medawar, Peter. 1986. *Memoir of a Thinking Radish: An Autobiography*. Oxford: Oxford University Press.

Mentelle, Edme. 1751. *La mort de Polieucte*. Paris.

———. 1757. *Lettre à un seigneur étranger sur les ouvrages périodiques de France, par M. l'abbé D. C. d'H****. Paris.

———. 1758. *L'amour libérateur*. Amsterdam and Paris: E. Mentelle et Desessarts.

———. [1758] 1783. *Élemens de Géographie, contenant: 1er, les principales divisions des quatre parties du monde; 2ème, une description abrégée de la France, à l'usage des commerçans, avec des cartes*. Paris: By the author.

———. 1761. *Manuel géographique, chronologique et historique, par M. ***, professeur d'histoire et de géographie, dédiée à Mlle. de Fitz-James*. Paris: Dufour.

———. 1766. *Éléments de l'histoire romaine, divisée en deux partie; avec des cartes et un table*. Paris: A. Delalain.

———. [1767] 1769. *Le porte-feuille du R. F. Gillet, ci devant soi-disant jésuite, ou, Petit dictionnaire, dans laquelle on n'a mis que des choses essentielles, pour servir de supplément aux gros dictionnaires, qui renferment tant d'inutilités; Second édition augmentée, dans laquelle on a ajouté l'entrée triomphante du P.G. aux enfers, suivie de son retour sur la terre*. Madrid.

———. 1772. *Géographie abrégée de la Grèce ancienne, par un professeur d'histoire et de géographie*. Paris: Barbou.

———. 1778–84. *Géographie comparée; ou, Analyse de la géographie ancienne et moderne*

des peuples de tous les pays et de tous les âges; Accompanée de tableaux analytiques et d'un grand nombre de cartes*. 7 vols. in 8 books, plus atlas. Paris: By the author.

———. 1781. *Cosmographie élémentaire, divisée en parties astronomique et géographique: Ouvrage dans lequel on a tâché de mettre les vérités les plus intéressantes de la physique céleste à la portée de ceux même qui n'ont aucune notion de mathématiques.* Paris: By the author.

———. 1783. *Choix de lectures géographiques et historiques, présentées dans l'ordre qui a paru le plus propre à faciliter l'étude de la géographie de l'Asie, de l'Afrique et de l'Amérique, précédé d'un abrégé de géographie, avec des cartes.* Paris: By the author.

———. 1784. *Géographie; ou, Annonce de quelques ouvrages relatifs à cette science, avec quelques vues sur la manière de l'enseigner.* Paris: P.-G. Simon et N.-H. Nyon.

———. 1784–89. *Dictionnaire de géographie moderne.* 3 vols. Paris: Panckoucke.

———. 1787–93. *Encyclopédie méthodique: Géographie ancienne.* 3 vols. Paris: Panckoucke.

———. 1791. *Lettre d'un auteur citoyen à la commune de Paris, en faveur de la liberté de la presse et de la publication des ouvrages imprimés.* Paris: L. Jorry.

———. 1791. *Méthode courte et facile pour apprendre aisément et retenir sans peine la nouvelle géographie de la France.* Paris: Blachon.

———. 1792. *Tableau élémentaire de la géographie de la République française, à l'usage des écoles du 1er et 2ème âge.* Paris: F. Hocquet.

———. 1792. *Tableau raisonné de la nouvelle division économico-politique, d'après les bases physiques sur lesquelles cette division est établie.* Paris: By the author.

———. 1794. *Déclaration des droits de l'homme et du citoyen, mise en trente strophes, pour être chantée par les hommes libres de tout pays.* Paris: Imprimérie des Sans-Culottes/Maret.

———. 1795. *Géographie enseignée par une méthode nouvelle; ou, Application de la synthèse à l'étude de la géographie.* Paris: By the author.

———. 1797–98. *Précis de l'histoire des Hébreux depuis Moyse jusqu'à la prise de Jérusalem par les Romains: Ouvrage dans lequel on a tâché de concilier l'exactitude des faits avec les sains lumières de la raison, à l'usage des écoles primaires et centrales de la République française.* Paris: By the author.

———. 1799. *Abrégé de la Géographie universelle de William Guthrie.* Paris: Bernard.

———. 1800–1801. *Cours de cosmographie, de géographie, de chronologie et d'histoire ancienne et moderne, divisé en cent vingt-cinq leçons.* 3 vols. Paris: Bernard.

———. 1801. *Cours d'histoire.* Paris: By the author.

———. 1801. *Précis de l'histoire universelle, pendant les premiers siècles de l'ère vulgaire; ou, Introduction a l'histoire moderne des différents états de l'Europe.* Paris: By the author.

———. 1804. *Abrégé élémentaire de géographie ancienne et moderne.* Paris: Bernard.

———. 1804. *Géographie physique, historique, statistique et topographique de la France en cent huit départements, et de ses colonies.* Paris: Bernard.

———. 1809. *Études convenables aux demoiselles, à l'usage des écoles et des pensions.* Paris: Bossange.

———. 1810. *Exercices chronologiques et historiques.* Paris: Bossange.

———. 1813. *Géographie classique et élémentaire.* 2 vols. Paris: Germain-Mathiot.

Mentelle, Edme. and Conrad Malte Brun. 1803–5. *Géographie mathématique, physique et politique de toutes les partie du monde.* 16 vols., plus atlas. Paris: H. Tardieu.

———. 1816. *Géographie universelle ancienne et moderne, mathématique, statistique, politique et historiquedes cinq parties du monde.* 16 vols., plus atlas. Paris: H. Tardieu.

Mentelle, Edme, and G. Mailhol. [1752] 1773. *Anecdotes orientales.* Paris: P. Vincent.

Menzel, Wolfgang. 1860. "Zeitgeschichte: Briefe von Alexander von Humboldt an Varnhagen von Ense." *Wolfgang Menzels Literaturblatt,* 4 April, 105–8; 7 April, 1860,109–10.

Merchant, Carolyn. 1980. *The Death of Nature: Women, Ecology and the Scientific Revolution.* New York, Harper and Row.

Mertz, J. T. 1896–1914. *A History of European Thought in the Nineteenth Century.* 4 vols. Edinburgh: Blackwood.

Mill, Hugh Robert. 1930. *The Record of the Royal Geographical Society, 1830–1930.* London: Royal Geographical Society.

———. 1951. *An Autobiography.* London: Longmans, Green.

Miller David Philip, and Peter Hanns Reill, eds. 1996. *Visions of Empire: Voyages, Botany, and Representations of Nature.* Cambridge: Cambridge University Press.

Miller, Rory. 1993. *Britain and Latin America in the Nineteenth and Twentieth Centuries.* London: Longman.

Milnes, Richard Monckton. 1860. "Alexander von Humboldt at the Court of Berlin." *Fraser's Magazine* 62:592–98.

Milton, Anthony. 1995. *Catholic and Reformed: The Roman and Protestant Churches in English Protestant Thought, 1600–1640.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 2002. "The Creation of Laudianism: A New Approach." In *Politics, Religion and Popularity in Early Stuart England: Essays in Honour of Conrad Russell,* ed. Thomas Cogswell, Richard Cust, and Peter Lake, 162–84. Cambridge: Cambridge University Press.

Milton, John. 1953–82. "Commonplace Book." In *The Complete Prose Works of John Milton,* ed. Don Wolfe, 1:362–513. New York: Columbia University Press.

———. [1650] 1991. "The Tenure of Kings and Magistrates." In *John Milton: Political Writings,* ed. Martin Dzelzainis, 3–48. Cambridge: Cambridge University Press.

———. [1658] 1991. "A Defence of the English People." In *John Milton: Political Writings,* ed. Martin Dzelzainis, 51–254. Cambridge: Cambridge University Press.

———. [1660] 1999. "The Readie and Easie Way to Establish a Free Commonwealth." In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts,* ed. Joyce Lee Malcolm, 1:508–25. Indianapolis: Liberty Fund.

Milton, John R. 1981. "The Origin and Development of the Concept of the Laws of Nature." *Archives Européene de Sociologie* 22:173–95.

———. 1998. "Laws of Nature." In *The Cambridge History of Seventeenth-Century Philosophy,* ed. Daniel Garber and M. Ayers, 680–701. Cambridge: Cambridge University Press.

Mirabeau, comte de [Riquetti, H. G]. 1788. *De la monarchie prussienne sous Frédéric le Grand, avec un appendice contenant des recherches sur la situation actuelle des principales contrées de l'Allemagne.* 7 vols., plus atlas. London.

———. 1789. *Histoire secrète de la cour de Berlin; ou, Correspondence d'un voyageur françois, depuis le mois de juillet 1786 jusqu'au 19 janvier 1787: Ouvrage posthume avec une*

lettre remise au roi de Prusse regnant, le jour de son avénement au trône. 2 vols. London: S. Bladon.

Misch, Carl. 1925. *Varnhagen von Ense in Beruf und Politik.* Gotha and Stuttgart: Perthes Verlag.

Mitchell, Timothy. 1989. "The World-as-Exhibition." *Comparative Studies of Society and History* 31:217–36.

Moore, James. 1997. "Wallace's Malthusian Moment: The Common Context Revisited." In *Victorian Science in Context*, ed. Bernard Lightman, 290–311. Chicago: University of Chicago Press.

Moravia. Sergio. 1967. "Philosophie et géographie à la fin du XVIIIe. siècle." *Studies on Voltaire and the Eighteenth Century* 57:937–1011.

Morrill, John. 1987. "The Ecology of Allegiance in the English Civil War." *Journal of British Studies* 26:451–67.

———. 1999. *Revolt in the Provinces: The People of England and the Tragedies of War, 1630–1648.* 2nd ed. London: Longmans.

Morris, Joseph. 1909. "Belfield, East Calder: The Country Mansion of the Lanton Oliphants." *Proceedings of the Society of Antiquaries of Scotland,* 4th ser., 43:324–29.

Morrison-Low, Alison. 2002. "'Feasting My Eyes with the View of Fine Instruments': Scientific Instruments in Enlightenment Scotland, 1680–1820." In *Science and Medicine in the Scottish Enlightenment*, ed. Charles W. J. Withers and Paul Wood, 17–53. East Linton: Tuckwell.

Morse, Jedidiah. 1792. *The American Geography; or, A View of the Present Situation of the United States of America.* 2nd ed. London: John Stockdale.

———. 1795. *Elements of Geography.* Boston.

———. 1822. *A Report to the Secretary of War of the U.S. on Indian Affairs, Comprising a Narrative of a Tour Performed, in the Summer of 1820, under a Commission from the President of the U.S., for the Purpose of Ascertaining, for the Use of the Government, the Actual State of the Indian Tribes, in Our Country.* Newhaven.

———. 1824. *Annals of the American Revolution; or, A record of the Causes and Events which Produced, and Terminated in the Establishment and Independence of the American Republic. . . .* Hartford.

Moss, Ann. 1996. *Printed Commonplace Books and the Structuring of Renaissance Thought.* Oxford: Clarendon.

Moss, Richard J. 1988. "Jedidiah Morse and the Illuminati Affair: A Re-Reading." *Historical Journal of Massachusetts* 16:141–53.

———. 1990. "Republicanism, Liberalism, and Identity: The Case of Jedidiah Morse." *Essex Institute Historical Collections* 126:209–36.

———. 1995. *The Life of Jedidiah Morse: A Station of Peculiar Exposure.* Knoxville: University of Tennessee Press.

Muir, Edward, and Ronald Weissman. 1989. "Social and Symbolic Places in Renaissance Venice and Florence." In *The Power of Place: Bringing Together Geographical and Sociological Imaginations*, ed. John A. Agnew and James S. Duncan, 81–103. Boston: Unwin Hyman.

Mulligan, Lotte. 1984. "'Reason,' 'Right Reason,' and 'Revelation' in Mid-Seventeenth-

Century England." In *Occult and Scientific Mentalities in the Renaissance*, ed. Brian Vickers, 375–401. Cambridge: Cambridge University Press.

Murchison, Roderick. 1858. "Presidential Address." *Journal of the Royal Geographical Society* 28:155.

———. 1859. "Presidential Address," *Journal of the Royal Geographical Society* 29:152.

Musson, Albert E. and Eric Robinson. 1969. *Science and Technology in the Industrial Revolution*. Manchester: Manchester University Press.

Nardi, Bonnie A., and Vicki L. O'Day. 1999. *Information Ecologies: Using Technology with Heart*. Cambridge: MIT Press.

Nash, Gary B. 1965. "The American Clergy and the French Revolution." *William and Mary Quarterly* 22:392–412.

Nasr, Seyyed Hossein, and Oliver Leaman, eds. 1996. *History of Islamic Philosophy*. London: Routledge.

Nathans, Benjamin. 1990. "Habermas's 'Public Sphere' in the Era of the French Revolution." *French Historical Studies* 16:620–44.

Naylor, Simon. 2002. "The Field, the Museum and the Lecture Hall: The Spaces of Natural History in Victorian Cornwall." *Transactions of the Institute of British Geographers* 27:494–513.

Needham, Joseph. 1963. "Poverties and Triumphs of the Chinese Scientific Tradition." In *Scientific Change: Historical Studies in the Intellectual, Social and Technical Conditions for Scientific Discovery*, ed. Alistair C. Crombie, 117–49. London: Routledge and Kegan Paul.

———. 1979. *The Grand Titration*. London: Allen and Unwin.

Nefftzer, Auguste. 1860. "Correspondence d'Alexandre de Humboldt." *Revue Germanique* 9:656–87.

Nelson, Gareth. 1978. "From Candolle to Croizat: Comments on the History of Biogeography." *Journal of the History of Biology* 11:269–305.

Newitt, Malynn. 1992. "Mixed Race Groups in the Early History of Portuguese Expansion." In *Studies in the Portuguese Discoveries*, 1:35–52. Warminster: Aris.

Newton, Isaac. [1730] 1952. *Opticks; or, a Treatise of the Reflections, Refractions, Inflections and Colours of Light, Based on the Fourth Edition, London, 1730*. New York: Dover.

Nicol, Donald M. 1979. *Church and Society in the Last Centuries of Byzantium*. Cambridge: Cambridge University Press.

Nicolson, Malcolm. 1987. "Alexander von Humboldt, Humboldtian Science and the Origins of the Study of Vegetation." *History of Science* 25:167–94.

———. 1990. "Alexander von Humboldt and the Geography of Vegetation." In *Romanticism and the Sciences*, ed. Nicholas Jardine and Andrew Cunningham, 169–88. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1996. "Humboldtian Plant Geography after Humboldt: The Links to Ecology." *British Journal for the History of Science* 29:289–310.

Nisbett, Richard E. 2003. *The Geography of Thought: How Asians and Westerners Think Differently . . . and Why*. New York: Free Press.

Noll, Mark A. 1989. *Princeton and the Republic, 1768–1822: The Search for a Christian Enlightenment in the Era of Samuel Stanhope Smith*. Princeton: Princeton University Press.

———. 1995. "The Rise and Long Life of the Protestant Enlightenment in America." In

Knowledge and Belief in America: Enlightenment Traditions and Modern Religious Thought, ed. William M. Shea and Peter A. Huff, 88–124. New York: Cambridge University Press.

———. 2002. *America's God: From Jonathan Edwards to Abraham Lincoln*. New York: Oxford University Press.

Nordman, Daniel. 1989. "La pédagogie du territoire, 1793–1814." In *Atlas de la Révolution française*, vol. 4, *Le Territoire: Réalités et représentations*, ed. Daniel Nordman and Marie Vic-Ozouf Marignier, 62–64. Paris.

———, ed. 1994. *L'École Normale de l'an II: Leçons d'Histoire, de Géographie, d'Économie Politique; Édition annoté des cours de Volney, Buache de la Neuville, Mentelle et Vandermonde avec introductions et notes*. Paris: Dunod.

Northeast, Catherine M. 1991. *The Parisian Jesuits and the Enlightenment, 1700–1762*. Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation, 1991.

Norwich, Oscar. 1983. *Maps of Africa: An Illustrated and Annotated Carto-Bibliography*. Johannesburg: Donker.

Nowotny, Helga. 1994. *Time: The Modern and Postmodern Experience*. Cambridge: Polity.

Numbers, Ronald L., and John Stenhouse, ed. 1999. *Disseminating Darwinism: The Role of Place, Race, Religion, and Gender*. Cambridge: Cambridge University Press.

Nussdorfer, Laurie. 1999. "The Politics of Space in Early Modern Rome." *Memoirs of the American Academy in Rome* 42:161–86.

O'Brien, Patrick, ed. 1994. *The Industrial Revolution in Britain*. 2 vols. Oxford: Blackwell.

O'Kane, Rosemary H. T. ed. 2000. *Revolution: Critical Concepts in Political Science*. 4 volumes. London: Routledge.

Ogborn, Miles. 1998. *Spaces of Modernity: London's Geographies 1680–1780*. New York: Guilford.

Ogborn, Miles, and Charles W. J. Withers, eds. 2004. *Georgian Geographies: Essays on Space, Place and Landscape in the Eighteenth Century*. Manchester: Manchester University Press.

Olby, Roger C., Geoffrey N. Cantor, John R. R. Christie, and M. J. S. Hodge, eds. 1996. *Companion to the History of Modern Science*. London: Routledge.

Oldenburg, Henry. 1966–73. *Correspondence*. Ed. A. R. and M. B. Hall. 9 vols. Madison: University of Wisconsin Press.

Ong, Walter. 1954. *Ramus, Method and the Decay of Dialogue: From the Art of Discourse to the Art of Reason*. Cambridge: Harvard University Press.

Ophir, Adir, and Steven Shapin. 1991. "The Place of Knowledge: A Methodological Survey." *Science in Context* 4:3–21.

Orme, Nicholas. 1989. *Education and Society in Medieval and Renaissance England*. London: Hambledon.

Osler, Margaret J., ed. 2000. *Rethinking the Scientific Revolution*. Cambridge: Cambridge University Press.

Ospovat, Dov. 1977. "Lyell's Theory of Climate." *Journal of the History of Biology* 10:317–39.

———. 1978. "Perfect Adaptation and Teleological Explanation: Approaches to the Problem of the History of Life in the Mid-nineteenth Century." *Studies in History of Biology* 2:33–56.

———. 1981. *The Development of Darwin's Theory: Natural History, Natural Theology and Natural Selection, 1838–1859.* Cambridge: Cambridge University Press.

"Our Weekly Gossip." 1860. *Athenaeum,* 10 March, 343–44.

Outram, Dorinda. 1983. "The Ordeal of Vocation: The Paris Academy of Sciences and the Terror, 1793–95." *History of Science* 21:257–73.

———. 1989. *The Body and the French Revolution: Sex, Class, and Political Culture.* New Haven: Yale University Press.

———. 1996. "Life Paths: Autobiography, Science and the French Revolution." In *Telling Lives in Science: Essays on Scientific Biography,* ed. Michael Shortland and Richard Yeo, 85–102. Cambridge: Cambridge University Press.

Overton, Mark. 1996. *Agricultural Revolution in England: The Transformation of the Agrarian Economy, 1500–1850.* Cambridge: Cambridge University Press.

Ozouf, Mona. 1984. "La Révolution française et la perception de l'espace national: Fédérations, fédéralisme, et stéréotypes régionaux." In *L'École de la France: Essais sur la Révolution, l'utopie et l'enseignement,* 27–54. Paris: Gallimard.

———. 1988. *Festivals and the French Revolution.* Cambridge: Harvard University Press.

Pagitt, Ephraim. 1640. *Christianography; or, The Description of the Multitude and Sundry Sorts of Christians in the World, Not Subject to the Pope.* 3rd ed. London: J. Okes.

Paine, Thomas. 1776. *Common Sense.* Philadelphia: J. Humphreys.

———. [1791] 1971. *The Rights of Man.* London: Pelican.

Palmer, Robert R. 1985. *The Improvement of Humanity: Education and the French Revolution.* Princeton: Princeton University Press.

Pang, Alex Soojung-Kim. 1995. "Victorian Observing Practices, Printing Technology, and Representations of the Solar Corona," part 2, "The Age of Photochemical Reproduction." *Journal for the History of Astronomy* 26:63–75.

———. 1997. "Visual Representation and Post-Constructivist History of Science." *Historical Studies in the Physical and Biological Sciences* 28:139–71.

———. 2002. *Empire and the Sun: Victorian Solar Eclipse Expeditions.* Stanford: Stanford University Press.

Papineau, David. 1981. "The Vis Viva Controversy." In *Leibniz: Metaphysics and Philosophy of Science,* ed. Roger S. Woolhouse, 139–56. Oxford: Oxford University Press.

Parish, Elijah. 1812. *A New System of Modern Geography.* 2nd ed. Newburyport, MA: E. Little.

Parker, Geoffrey. 1988. *The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West, 1500–1800.* Cambridge: Cambridge University Press.

Parker, Henry. [1640] 1999. "The Case of Shipmony Briefly Discoursed." In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts,* ed. Joyce Lee Malcolm, 1:96–125. Indianapolis: Liberty Fund.

Parker, Kenneth. 1995. "Telling Tales: Early Modern English Voyagers and the Cape of Good Hope." *The Seventeenth Century* 10:121–49.

———. 1996. "Fertile Land, Romantic Spaces, Uncivilized Peoples: English Travel-Writing about the Cape of Good Hope, 1800–50." In *The Expansion of England: Race, Ethnicity and Cultural History,* ed. Bill Schwarz, 198–23. London: Routledge.

Parshall, Karen Hunger. 1982. "Varieties as Incipient Species: Darwin's Numerical Analysis." *Journal of the History of Biology* 15:191–214.

Paterson, James. 1681. *A Geographical Description of Scotland*. Edinburgh.

Paulinyi, Akos. 1986. "Revolution and Technology." In *Revolution in History*, ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 261–89. Cambridge: Cambridge University Press.

Pauly, Philip J. 1996. "The Beauty and Menace of the Japanese Cherry Trees: Conflicting Visions of American Ecological Independence." *Isis* 87:51–73.

———. 2000. *Biologists and the Promise of American Life: From Meriwether Lewis to Alfred Kinsey*. Princeton: Princeton University Press.

Pearson, Michael N. 1987. *The Portuguese in India*. Cambridge: Cambridge University Press.

Pemble, William. 1675. *A Briefe Introduction to Geography; Containing a Description of the Grounds and General Part Thereof*. 5th ed. Oxford: Oxford University Press.

Penn, Simon Andrew Christopher. 1989. "Social and Economic Aspects of Fourteenth-Century Bristol." PhD diss., Birmingham University.

Pennington, Donald, and Keith Thomas, eds. 1978. *Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth Century History Presented to Christopher Hill*. Oxford: Clarendon.

"The People's Right Briefly Asserted." [1649] 1999. In *The Struggle for Sovereignty: Seventeenth-Century English Political Tracts*, ed. Joyce Lee Malcolm, 1:362–68. Indianapolis: Liberty Fund.

Pereira, Duarte Pacheco. 1937. *Esmeraldo de Situ Orbis* Trans. G. H. Kimble. London: Hakluyt Society.

Peretti, Jonah H. 1998. "Nativism and Nature: Rethinking Biological Invasion." *Environmental Values* 7:183–92.

Perez, Carlotta. 2003. *Technological Revolutions and Financial Capital*. Cheltenham: Edward Elgar.

Perrin, Carleton E. 1996. "The Chemical Revolution." In *Companion to the History of Modern Science*, ed. Roger C. Olby, Geoffrey N. Cantor, John R. R. Christie, and M. J. S. Hodge, 264–77. London: Routledge.

Perroud, C. 1896. "Jany, le dernier correspondant de Madame Roland." *La Révolution Française* 30:1–36.

———. 1896. "Un dernier mot sur Jany-Mentelle." *La Révolution Française* 30:227–28.

———, ed. 1900–1902. *Lettres de Madame Roland (Jeanne-Marie Roland)*. Vol. 1, *1780–1787*. Vol. 2, *1788–1793*. Paris: Imprimérie Nationale.

Petitot, Jean, Francisco J. Varela, Bernard Pachoud, and J Jean-Michel Roy, eds. 1999. *Naturalizing Phenomenology: Issues in Contemporary Phenomenology and Cognitive Science*. Stanford: Stanford University Press.

Philo, Christopher, ed. 1991. *New Words, New Worlds: Reconceptualizing Social and Cultural Geography*. Lampeter: St. David's University College.

Picket, Terry H. 1985. *The Unseasonable Democrat: Karl August Varnhagen von Ense, 1785–1858*. Bonn: Bouvier Verlag.

———. 1986. *Letters of the American Socialist Albert Brisbane to K. A. Varnhagen von Ense*. Heidelberg: Winter.

Pinney, Christopher. 1997. *Camera Indica: The Social Life of Indian Photographs*. London: Reaktion.

Plagnol-Diéval, Marie-Emmanuelle. 1997. *Madame de Genlis et la Théâtre d'Éducation au XVIIIe. siècle.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Pocock, Douglas C. D. 1981. "Sight and Knowledge." *Transactions of the Institute of British Geographers* 6:385-93.

Pole, 1865. "Photography for Travellers and Tourists." *Journal of the Royal Geographical Society* 34:295.

Polišenský, Josef V. 1974. *The Thirty Years War.* London: New English Library.

Popkin, Jeremy D. 1980. *The Right-Wing Press in France, 1792–1800.* Chapel Hill: University of North Carolina Press.

———. 1990. *Revolutionary News: The Press in France, 1789–1799.* Durham: Duke University Press.

Popper, Karl. 1959. *The Logic of Scientific Discovery.* London: Hutchinson.

Porter, Roy. 1986. "The Scientific Revolution: A Spoke in the Wheel?" In *Revolution in History*, ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 290–316. Cambridge: Cambridge University Press.

———, ed. 2003. *The Cambridge History of Science.* Vol. 4, *Eighteenth-Century Science.* Cambridge: Cambridge University Press.

Porter, Roy, and Mikuláš Teich, eds. 1986. *Revolution in History.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1992. *The Scientific Revolution in National Context.* Cambridge: Cambridge University Press.

Pratt, Mary-Louise. 1992. *Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation.* London: Routledge.

Preuss, Richard, ed. 1892. *Briefe Thomas Carlyle's an Varnhagen von Ense: Aus den Jahren 1837–1857.* Berlin: Paetel.

Price, [William] Lake. [1858] 1973. *A Manual of Photographic Manipulation, Treating of the Practice of the Art; and Its Various Applications to Nature.* 2nd ed. New York: Arno.

"The Publication-of-Letters Nuissance." 1860. *Fraser's Magazine* 61:561–63.

Pumfrey, Stephen, Paolo L. Rossi, and Maurice Slawinski, eds. 1991. *Science, Culture and Popular Belief in Renaissance Europe.* Manchester: Manchester University Press.

Purchas, Samuel. 1905–8. *Hakluytus Posthumus; or, Purchas His Pilgrimes, Contayning a History of the World in Sea Voyages and Lande Travells.* 20 vols. Glasgow: James MacLehose.

Py, Gilbert. 1997. *Rousseau et les éducateurs: Étude sur la fortune des idées pédagogiques de Jean-Jacques Rousseau en France et en Europe au XVIIIe siècle.* Studies on Voltaire and the Eighteenth Century. Oxford: Voltaire Foundation.

Pyenson, Lewis. 2002. "An End to National Science: The Meaning and Extension of Local Knowledge." *History of Science* 40:251–90.

Quint, David. 1993. *Epic and Empire: Politics and Generic Form from Virgil to Milton.* New Jersey: Princeton University Press.

Raby, Peter. 2001. *Alfred Russel Wallace: A Life.* London: Chatto and Windus.

Raj, Kapil. 2000. "Histoire d'un inventaire oublié." *La Recherche* 333 (July/August): 78–83

———. 2005. "Surgeons, Fakirs, Merchants, and Craftspeople: Making L'Empereur's *Jardin* in Early Modern South Asia." In *Colonial Botany: Science, Commerce, Politics*, ed. Claudia Swan and Londa Schiebinger, 252–69. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Ransford, Oliver, 1978. *David Livingstone: The Dark Interior.* London: John Murray.

Rappaport, Rhoda. 2003. "The Earth Sciences." In *The Cambridge History of Science,* vol. 4, *Eighteenth-Century Science,* ed. Roy Porter, 417–35. Cambridge: Cambridge University Press.

Rashed, Roshdi, ed. 1996. *Encyclopaedia of the History of Arabic Science.* 3 vols. London: Routledge.

Raven-Hart, R. 1967. *Before Van Riebeeck: Callers at South Africa from 1488 to 1652.* Cape Town: Struick.

Ravenstein, E. G. 1893. "Correspondence on 'The Determination of Longitudes by Photography.'" *Geographical Journal* 2:557–58.

Rée, Jonathan. 1999. *I See A Voice: Deafness, Language and the Senses—a Philosophical History.* London: Flamingo.

Reingold, Nathan. 1978. "National Styles in the Sciences: The United States Case." In *Human Implications of Scientific Advance,* ed. Eric G. Forbes, 163–73. Edinburgh: Edinburgh University Press.

———. 1991. "The Peculiarities of the Americans; or, Are There National Styles in the Sciences?" *Science in Context* 4:347–66.

Revel, Jacques. 1991. "Knowledge of the Territory." *Science in Context* 4:133–61.

———. 1992. "La région." In *Histoire de la France,* ed. Jacques Revel, 851–83. Paris: Seuil.

———, ed. 1996. *Jeux d'Échelle: La microanalyse à L'expérience.* Paris: Gallimard.

Reynolds, Robert L. 1961. *Europe Emerges: Transition towards an Industrial World-Wide Society, 600–1750.* Madison: University of Wisconsin Press.

Richard, Hélène. 1986. *Une grande expédition scientifique au temps de la Révolution française: Le voyage de d'Entrecasteaux à la recherche de Lapérouse.* Paris: C.T.H.S.

Richardson, David M., Petr Pyšek, Marcel Rejmánek, Michael G. Barbour, F. Dane Panetta, and Carol J. West. 2000. "Naturalization and Invasion of Alien Plants: Concepts and Definitions." *Diversity and Distributions* 6:93–107.

Richardson, Ralph C. 1998. *The Debate on the English Revolution.* 3rd ed. Manchester: Manchester University Press.

———, ed. 1992. *Town and Country in the English Civil War.* Manchester: Manchester University Press.

Roche, Daniel. 1978. *Le siècle des lumières en Province: Académies et académiciens provinciaux, 1680–1789.* Paris: Mouton.

Roloff, Hans-Gert, ed. 1998. *Wissenschaftliche Briefeditionen und ihre Probleme.* Berlin: Weidler Buchverlag.

Rose, Gillian. 1992. "Geography as a Science of Observation: The Landscape, the Gaze and Masculinity." In *Nature and Science: Essays in the History of Geographical Knowledge,* ed. Felix Driver and Gillian Rose, 8–18. Cheltenham: Historical Geography Research Series.

Ross, Ian Simpson. 1972. *Lord Kames and the Scotland of His Day.* Oxford: Clarendon.

Roy, William. 1785. "An Account of the Measurement of a Base Line on Hounslow Heath." *Philosophical Transactions of the Royal Society of London* 75:385–478.

R.P 1659. *A Geographicall Description of the World.* London: John Streater.

Rubiés, Joan-Pau. 2000. *Travel and Ethnology in the Renaissance: South India through European Eyes, 1250–1650.* Cambridge: Cambridge University Press.

Rudwick, Martin J. S. 1979. "Transposed Concepts from the Human Sciences in the Early Work of Charles Lyell." In *Images of the Earth: Essays in the History of the Environmental Sciences*, ed. L. J. Jordanova and Roy S. Porter, 67–83. Chalfont St. Giles: British Society for the History of Science.

———. 1985. *The Great Devonian Controversy: The Shaping of Scientific Knowledge among Gentlemanly Specialists.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1976. "The Emergence of a Visual Language for Geological Science, 1760–1840." *History of Science* 14 : 149–95.

———. 1990. Introduction to *Principles of Geology*, by Charles Lyell, 1 : [vii–lviii]. Chicago: University of Chicago Press

———. 1992. *Scenes from Deep Time: Early Pictorial Representations of the Prehistoric World.* Chicago: University of Chicago Press.

Rupke, Nicolaas. 1999. "A Geography of Enlightenment: The Critical Reception of Alexander von Humboldt's Mexico Work." In *Geography and Enlightenment*, ed. David N. Livingstone and Charles W. J. Withers, 319–39. Chicago: University of Chicago Press.

———. 2000. "Translation Studies in the History of Science: The Example of *Vestiges*." *British Journal for the History of Science* 33 : 209–22.

———. In press. *Alexander von Humboldt: A Metabiography.* Bern: Peter Lang.

Ruse, Michael. 1979. *The Darwinian Revolution.* Chicago: University of Chicago Press.

Russell, Bertrand. 1927. *An Outline of Philosophy.* London: Allen and Unwin.

Russell, Conrad. 1990. *The Causes of the English Civil War.* Oxford: Clarendon.

———, ed. 1973. *The Origins of the English Civil War.* London: Macmillan.

Russell, John L. 1974. "Cosmological Teaching in the Seventeenth-Century Scottish Universities." *Journal of the History of Astronomy* 5 : 122–32 (part 1) and 145–54 (part 2).

Ryan, James R. 1997. *Picturing Empire: Photography and the Visualization of the British Empire.* London: Reaktion; Chicago: University of Chicago Press.

Sabra, A. I. 1996. "Situating Arabic Science: Locality versus Essence." *Isis* 87 : 654–70.

Sahlins, Marshall. 1988. "Cosmologies of Capitalism: The Trans-Pacific Sector of the 'World System.'" *Proceedings of the British Academy* 74 : 1–52.

Saint Hilaire, Y. 1750. *Élémens de géographie; ou, Nouvelle méthode simple et abrégée, pour apprendre en peu de temps et sans peine la géographie.* Lyon.

Salert, Barbara. 1976. *Revolutions and Revolutionaries: Four Theories.* New York: Elsevier.

Salleo, Fernando. 1977. "Mirabeau en Prussie, 1786–1787: Diplomat parallèle ou agent secret?" *Revue d'Histoire Diplomatique* 3/4 : 346–56.

Salm, Constance de. 1839. *Notice sur la vie et les ouvrages de Mentelle.* Paris: F. Didot.

Sandys, Edwin. 1629. *Europae Speculum; or, A View or Survey of the State of Religion in the Westerne Parts of the World.* The Hague: M. Sparke.

Schabas, Margaret. 1990. "Ricardo Naturalized: Lyell and Darwin on the Economy of Nature." In *Perspectives on the History of Economic Thought*, vol. 3, *Classicals, Marxians and Neo-Classicals: Selected Papers from the History of Economics Society Conference, 1988*, ed. D. E. Moggridge, 40–49. London: Edward Elgar for the History of Economics Society.

Schaffer, Simon. 1991. "The History and Geography of the Intellectual World: Whewell's Pol

itics of Language." In *William Whewell: A Composite Portrait,* ed. Menachem Fisch and Simon Schaffer, 201–31. Oxford: Clarendon.

Schama, Simon. 1989. *Citizens: A Chronicle of the French Revolution.* London: Viking Penguin.

Schatzki, Theodore R. 2001. *Social Practices.* Cambridge: Cambridge University Press.

Schilder, Günter. 1976. "Organization and Evolution of the Dutch East India Company's Hydrographic Office in the Seventeenth Century." *Imago Mundi* 28:61–78.

———. 1979. "Willem Jansz: Blaeu's Wall Map of the World, on Mercator's Projection, 1606–07, and Its Influence." *Imago Mundi* 31:36–50.

Schlichter, H. 1892. "Celestial Photography as a Handmaid to Geography." *Proceedings of the Royal Geographical Society* 14:714–15.

———. 1893. "The Determination of Geographical Longitudes by Photography." *Geographical Journal* 2:423–29.

Schmidt, Benjamin. 2002. "Inventing Exoticism: The Project of Dutch Geography and the Marketing of the World, circa 1700." In *Merchants and Marvels: Commerce, Science, and Art in Early Modern Europe,* ed. Pamela H. Smith and Paula Findlen, 347–69. New York: Routledge.

Schuster, John A. 1990. "The Scientific Revolution." In *Companion to the History of Modern Science,* ed. Roger C. Olby, Geoffrey N. Cantor, John R. R. Christie, and M. J. S. Hodge, 217–42. London: Routledge.

Schwartz, Joan M. 1996. "The Geography Lesson: Photographs and the Construction of Imaginative Geographies." *Journal of Historical Geography* 22:16–45.

———. 1998. "Agent of Sight, Site of Agency: The Photography in the Geographical Imagination." PhD diss., Queen's University, Kingston, Canada.

Schwartz, Joan M., and James R. Ryan, eds. 2003. *Picturing Place: Photography and the Geographical Imagination.* London: I. B. Taurus.

Schwarz, Bill, ed. 1996. *The Expansion of England: Race, Ethnicity and Cultural History.* London: Routledge.

Scott, Jonathan. 2000. *England's Troubles: Seventeenth-Century English Political Instability in European Context.* Cambridge: Cambridge University Press.

Sears, John F. 1976–77. "Timothy Dwight and the American Landscape: The Composing Eye in Dwight's *Travels in New England and New York.*" *Early American Literature* 9:311–21.

Secord, Anne. 2002. "Botany on a Plate: Pleasure and the Power of Pictures in Promoting Early Nineteenth-Century Scientific Knowledge." *Isis* 93:28–57.

Secord, James A. 1982. "King of Siluria: Roderick Murchison and the Imperial Theme in Nineteenth-Century British Geology." *Victorian Studies* 25:413–42.

———. 2000. *Victorian Sensation: The Extraordinary Publication, Reception, and Secret Authorship of "Vestiges of the Natural History of Creation."* Chicago: University of Chicago Press.

Segovia, Fernando F., and Mary Ann Tolbert, eds. 1995. *Reading from This Place.* Vol. 1, *Social Location and Biblical Interpretation in the United States.* Vol. 2, *Social Location and Biblical Interpretation in Global Perspective.* Augsburg: Fortress Press.

Sellen, Abigail J., and Richard H. R. Harper. 2002. *The Myth of the Paperless Office.* Cambridge: MIT Press.

Shanin, Theodor. 1975. *Peasants and Peasant Societies.* Harmondsworth: Penguin.

Shapin, Steven. 1981. "Of Gods and Kings: Natural Philosophy and Politics in the Leibniz-Clarke Disputes." *Isis* 72:187–215.

———. 1984. "Pump and Circumstance: Robert Boyle's Literary Technology." *Social Studies of Science* 14:481–520.

———. 1988. "Following Scientists Around." *Social Studies of Science* 18:533–50.

———. 1988. "The House of Experiment in Seventeenth-Century England." *Isis* 79:373–404.

———. 1994. *A Social History of Truth: Civility and Science in Seventeenth-Century England.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1996. *The Scientific Revolution.* Chicago: University of Chicago Press.

———. 1998. "Placing the View from Nowhere: Historical and Sociological Problems in the Location of Science." *Transactions of the Institute of British Geographers* 23:5–12.

Shapin, Steven, and Simon Schaffer. 1985. *Leviathan and the Air-Pump: Hobbes, Boyle, and the Experimental Life.* Princeton: Princeton University Press.

Sharif, M. M., ed. 1963. *A History of Muslim Philosophy.* 2 vols. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.

Sharpe, Kevin. 2000. *Reading Revolutions: The Politics of Reading in Early Modern England.* New Haven: Yale University Press.

Shea, William R., ed. 1988. *Revolutions in Science: Their Meaning and Relevance.* Canton, MA: Science History Publications.

Shepherd, Christine. 1982. "The Inter-relationship between the Library and Teaching in the Seventeenth and Eighteenth Centuries." In *Edinburgh University Library, 1580–1980,* ed. Jean Guild and Alexander Low, 67–86. Edinburgh: Edinburgh University Library.

———. 1982. "Newtonianism in the Scottish Universities in the Seventeenth Century." In *The Origins and Nature of the Scottish Enlightenment,* ed. Roy H. Campbell and Andrew S. Skinner, 65–85. Edinburgh: John Donald.

Short, John Rennie. 1999. "A New mode of Thinking: Creating a National Geography in the Early Republic." In *Surveying the Record: North American Scientific Exploration to 1930,* ed. Edward C. Carter II, 19–50. Philadelphia: American Philosophical Society.

Sibbald, Sir Robert. 1693. *An Account of the Scotish Atlas: or, The Description of Scotland Ancient and Modern.* Edinburgh: Printed by David Lindsay, James Kniblo, Joshua van Solingen, and John Colmar.

Silver, Morris. 1974. "Political Revolutions and Repression: An Economic Approach." *Public Choice* 14:63–71.

Simon, Eduard. 1860. "La correspondence d'Alexandre de Humboldt avec Varnhagen de Ense, 1827 à 1858." *Revue Contemporaine* 25:128–58.

Sitwell, O. Francis G. 1993. *Four Centuries of Special Geography.* Vancouver: University of British Columbia Press.

Skelton, R. A. 1958. *Explorer's Maps.* London: Routledge.

———. 1964. "The Early Map Printer and His Problems." *Penrose Annual* 57:171–84.

Skocpol, Theda. 1979. *States and Social Revolutions: A Comparative Analysis of France, Russia and China.* Cambridge: Cambridge University Press.

Smith, Andrew B. 1993. "Different Facets of the Crystal: Early European Images of the Khoisan at the Cape, South Africa." *South African Archaeological Society Goodwin Series* 7:8–20.

Smith, Bernard. 1985. *European Vision and the South Pacific*. 2nd ed. New Haven: Yale University Press.

Smith, Charles H. 1989. "Historical Biogeography: Geography as Evolution, Evolution as Geography." *New Zealand Journal of Zoology* 16:773–85.

Smith, Crosbie, and Jon Agar, eds. 1998. *Making Space for Science: Territorial Themes in the Shaping of Knowledge*. London: Macmillan.

Smith, Elias. 1811. *The History of Anti-Christ: in Three Books, Written in Scripture Stile, in Chapters and Verses: For the Use of Schools*. Portland.

Smith, Neil. 2003. *American Empire: Roosevelt's Geographer and the Prelude to Globalization*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Smith, Pamela H., and Paula Findlen, eds. 2002. *Merchants and Marvels: Commerce, Science, and Art in Early Modern Europe*. London: Routledge.

Smith, Roger. 1996. "The Language of Human Nature." In *Inventing Human Science: Eighteenth-Century Domains*, ed. Christopher Fox, Roy Porter, and Robert Wokler, 88–111. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Smith, Samuel Stanhope. 1787. *Essay on the Causes of the Variety of Complexion and Figure in the Human Species*. Philadelphia: Robert Aitkin.

Snyder, K. Alan. 1983. "Foundations of Liberty: The Christian Republicanism of Timothy Dwight and Jedidiah Morse." *New England Quarterly* 61:382–97.

Sobel, Dava. 1995. *Longitude: The True Story of a Lone Genius Who Solved the Greatest Scientific Problem of his Time*. London: Penguin.

Solomon-Godeau, Abigail. 1991. *Photography at the Dock: Essays on Photographic History, Institutions, and Practices*. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Sommerville, Johan P. 1986. *Politics and Ideology in England, 1603–1640*. London: Longmans

Sorrenson, Richard. 1996. "The Ship as a Scientific Instrument in the Eighteenth Century." *Osiris*, 2nd ser., 11:221–36.

Spary, Emma C. 2000. *Utopia's Garden: French Natural History from Old Regime to Revolution*. Chicago: University of Chicago Press.

Spears, Timothy B. 1989. "Common Observations: Timothy Dwight's *Travels in New England and New York*." *American Studies* 30:35–52.

Spiller, Michael R. G. 1980. *"Concerning Natural Experimental Philosophie": Meric Casaubon and the Royal Society*. The Hague: Martinus Nijhoff.

Sprague, William Buell. 1874. *The Life of Jedidiah Morse, D.D.* New York: Anson D. F. Randolph

Sprat, Thomas. 1667. *History of the Royal Society of London*. London: Printed by J. Martyn and J. Allestry.

Stafford, Barbara Maria. 1984. *Voyage into Substance: Art, Science, Nature, and the Illustrated Travel Account, 1760–1840*. Cambridge: MIT Press.

———. 1994. *Artful Science: Enlightenment Entertainment and the Eclipse of Visual Education*. Cambridge: MIT Press.

Stafford, Barbara Maria, and Frances Terpak. 2001. *Devices of Wonder: From the World in a Box to Images on a Screen*. Los Angeles: Getty Research Institute.

Stafford, Robert. 1989. *Scientist of Empire: Sir Roderick Murchison, Scientific Exploration and Victorian Imperialism.* Cambridge: Cambridge University Press.

Stafforde, Robert. 1634. *A Geographicall and Anthologicall Description of all the Empires and Kingdomes, both of Continents and Ilands in this Terrestriall Globe.* London: Simon Waterson.

Stanton, William. 1960. *The Leopard's Spots: Scientific Attitudes Toward Race in America, 1815–59.* Chicago: University of Chicago Press.

Stauffer, Robert C., ed. 1975. *Charles Darwin's "Natural Selection": Being the Second Part of His Big Species Book Written from 1856 to 1858.* Cambridge: Cambridge University Press.

Stauffer, Vernon. 1918. *New England and the Bavarian Illuminati.* New York: Columbia University Press.

Staum, Martin. 1987. "Human Geography in the French Institute: New Discipline or Missed Opportunity?" *Journal of the History of the Behavioural Sciences* 23:332–40.

———. 1996. *Minerva's Message: Stabilizing the French Revolution.* Montreal and Kingston: McGill–Queen's University Press.

Steensgaard, Neils. 1975. *The Asian Trade Revolution of the Seventeenth Century: The East India Companies and the Decline of the Caravan Trade.* Chicago: University of Chicago Press.

Stevenson, Edward Luther. 1921. *Celestial and Terrestrial Globes.* 2 vols. New York: Hispanic Society of America.

Stilgoe, John R. 1986. "Smiling Scenes." In *Views and Visions: American Landscapes before 1830,* Edward J. Nygren, 213–28. Washington, DC: Corcoran Gallery of Art.

Still, Judith. 2000. "Genlis's *Mademoiselle de Clermont:* A Textual and Intertextual Reading." *Australian Journal of French Studies* 37:331–47.

Stoddart, David R. 1986. *On Geography and Its History.* Oxford: Blackwell.

Stone, Laurence. 1966. "Theories of Revolution." *World Politics* 18:159–76.

Suckow, Christian. 1996. "Die Alexander-von-Humboldt-Edition: Ein Projekt der Berlin-Brandenburgischen Akademie der Wissenschaften." *Jahrbuch der historischen Forschung in der Bundesrepublik Deutschland,* Berichtsjahr 1995, 16–21.

Suckow, Christian, and Ingo Schwarz. 1998. "Zur Problematik einer Auswählenden Briefedition: Beispiel: Die Briefe Alexander von Humboldts." In *Wissenschaftliche Briefeditionen und ihre Probleme* ed. Hans-Gert Roloff, 119–22. Berlin: Weidler Buchverlag.

Surface, George T. 1909. "Thomas Jefferson: A Pioneer Student of American Geography." *Bulletin of the American Geographical Society* 41:743–750.

Sutherland, Donald. 1982. *The Chouans: The Social Origins of Popular Counter-Revolution in Upper Brittany, 1770–1796.* Oxford: Clarendon.

Sydow, Carl von. 1948. *Selected Papers on Folklore.* Copenhagen: Rosenkilde and Bagger.

Symson, Andrew. 1823. *A Large Description of Galloway.* Ed. Thomas Maitland. Edinburgh: W. and C. Tait.

Symson, Matthias. 1702. *Geography Compendiz'd; or, The World Survey'd.* Edinburgh: Sold by Mr. Henry Know and John Vallange.

Taillandier, René Gaspard Ernest Saint-René. 1860. "Lettres intimes et entretiens familiers de M. A. de Humboldt." *Revue des Deux Mondes* 28:58–89.

Tallack, Timothy. 1996. *Becoming a Revolutionary: The Deputies of the French Assembly and the Emergence of a Revolutionary Culture.* Princeton: Princeton University Press.

Tapié, Victor-L. 1957. *Baroque et classicisme.* Paris: A Colin.

Taylor, Eva G. R. 1934. *Late Tudor and Early Stuart Geography, 1583–1650.* London: Methuen.

———, ed. 1963. *A Regiment for the Sea, by William Bourne, and Other Writings on Navigation.* Hakluyt Society, 2nd ser., vol. 121. Cambridge: Hakluyt Society.

Taylor, Stan. 1984. *Social Science and Revolutions.* London: Macmillan.

Terrall, Mary. 2002. *The Man Who Flattened the Earth: Maupertuis and the Sciences in the Enlightenment.* Chicago: University of Chicago Press.

Thomas, Alan. 1978. *The Expanding Eye: Photography and the Nineteenth Century Mind.* London: Croom Helm.

Thomas, Ann. 1997. "The Search for Pattern." In *Beauty of Another Order: Photography in Science,* ed. Ann Thomas, 76–119. New Haven: Yale University Press.

Thompson, E. P. 1963. *The Making of the English Working Class.* London: Gollancz.

———. 1967. "Time, Work-Discipline and Industrial Capitalism," *Past and Present* 38:56–97.

Thomson, John. 1873–74. *Illustrations of China and Its People, a Series of Two Hundred Photographs with Letterpress Description of the Places and People Represented.* 4 vols. London: Sampson Low, Marston, Low, and Searle.

———. 1879. *Through Cyprus with the Camera, in the Autumn of 1878.* London: Sampson Low, Marston, Searle and Rivington.

———. 1885. "Exploration with the Camera," *British Journal of Photography* 32:372–73.

———. 1891. "Photography and Exploration." *Proceedings of the Royal Geographical Society* 13:669–75.

———. 1891. "Photography Applied to Exploration." *Times* (London), 25 August, 5.

———. 1901. "Photography." In *Hints to Travellers: Scientific and General,* ed. John Coles, 52–64. London: Royal Geographical Society.

———. 1921. "Photography." In *Hints to Travellers,* ed. E. A. Reeves, 51–62. London: Royal Geographical Society.

Thomson, John, and Adolphe Smith. 1878. *Street Life in London.* London: Sampson Low, Marston, Searle, and Rivington.

Thomson, Keith Stewart. 1995. *HMS Beagle: The Story of Darwin's Ship.* New York: Norton.

Thrift, Nigel J., and Shaun French. 2002. "The Automatic Production of Space." *Transactions of the Institute of British Geographers,* n.s., 27:309–35.

Throop, William. 2000. "Eradicating the Aliens: Restoration and Exotic Species." In *Environmental Restoration: Ethics, Theory, and Practice,* ed. William Throop, 179–91 . Amherst, NY: Humanity Books.

Tichi, Cecilia. 1979. *New World, New Earth: Environmental Reform in American Literature from the Puritans through Whitman.* New Haven: Yale University Press.

Tilly, Charles. 1978. *From Mobilization to Revolution.* Reading, MA: Addison-Wesley.

Todd, Margot. 1987. *Christian Humanism and the Puritan Social Order.* Cambridge: Cambridge University Press.

Tomlinson, Howard, ed. 1983. *Before the Civil War: Essays on Early Stuart Politics and Government.* London: Macmillan.

Toulmin, Stephen. 1975. "Crucial Experiments: Priestley and Lavoisier." *Journal of the History of Ideas* 18:205–20.

Townsend, Mark. 2003. "Alien Invasion: the Plants Wrecking Rural Britain." *Observer* (London), 2 February, 14.

Toynbee, Arnold. 1884. *Lectures on the Industrial Revolution in England: Popular Addresses, Notes and other Fragments*. London: Rivingtons.

Trenard, Louis 1973. "Manuels scolaires au XVIIIe. siècle et sous la Révolution." *Revue du Nord* 55:99–111.

Tuan, Yi-Fu. 1979. "Sight and Pictures." *Geographical Review* 69:413–22.

Tucker, Jennifer. 1997. "Photography as Witness, Detective, and Imposter: Visual Representation in Victorian Science." In *Victorian Science in Context*, ed. Bernard Lightman, 378–408. Chicago: University of Chicago Press.

Tucker, Robert C. 1969. *The Marxian Revolutionary Idea*. New York: Norton.

Tullock, Gordon. 1974. *The Social Dilemma: The Economics of War and Revolution*. Blacksburg, VA: University Publications.

Turnbull, David. 1993. *Maps are Territories: Science Is an Atlas*. Chicago: University of Chicago Press.

———. 1996. "Cartography and Science in Early Modern Europe: Mapping the Construction of Knowledge Spaces." *Imago Mundi* 46:5–24.

———. 2002. "Travelling Knowledge: Narratives, Assemblage and Encounters." In *Instruments, Travel and Science: Itineraries of Precision from the Seventeenth to the Twentieth Century*, ed. Marie-Noëlle Bourguet, Christian Licoppe, and H. Otto Sibum, 273–94. London: Routledge.

Turner, Gerald L'E. 2000. *London Instrument Makers: The Origins of the London Trade in Precision Instrument Making*. Oxford: Oxford University Press.

Turner, Howard R. 1995. *Science in Medieval Islam*. Austin: University of Texas Press.

Turner, Stephen. 1994. *The Social Theory of Practices: Tradition, Tacit Knowledge, and Presuppositions*. Cambridge: Polity.

"Twenty-three Photographs of Mountain Scenery in Sikkim." 1893. *Proceedings of the Royal Geographical Society* 15:288.

Tyacke, Nicholas. 1978. "Science and Religion at Oxford before the Civil War." In *Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth-Century History Presented to Christopher Hill*, ed. Donald Pennington and Keith Thomas, 73–93. Oxford: Clarendon.

———. 1987. *Anti-Calvinists: The Rise of English Arminianism, c. 1590–1640*. Oxford: Clarendon.

Underdown, David. 1979. "The Chalk and the Cheese." *Past and Present* 85:25–48.

———. 1985. *Revel, Riot and Rebellion: Popular Politics and Culture in England, 1603–60*. Oxford: Oxford University Press.

———. 1995. "Regional Cultures?" In *Popular Culture in England, c. 1500–1850*, ed. Tim Harris. Basingstoke: Macmillan

Van Wyk Smith, Malvern. 1986. "'Waters Flowing from Darkness': The Two Ethiopias in the Early European Image of Africa." *Theoria* 68:67–77.

———. 1992. "'The Most Wretched of the Human Race': The Iconography of the Khoisann (Hottentots), 1500–1800." *History and Anthropology* 5:285–330.

Vance, Norman. 1985. *The Sinews of the Spirit: The Ideal of Christian Manliness in Victorian Literature and Religious Thought.* Cambridge: Cambridge University Press.

Vickers, Brian, ed. 1984. *Occult and Scientific Mentalities in the Renaissance.* Cambridge: Cambridge University Press.

Vic-Ozouf Marignier, Marie. 1989. *La formation des départements et la répresentation du territoire français à la fin du XVIIIe. siècle.* Paris: Gallimard.

Vovelle, Michel. 1993. *La découverte de la politique: Géopolitique de la Révolution française.* Paris: La Découverte.

Wace, N. M. 1967. "The Units and Uses of Biogeography." *Australian Geographical Studies* 5:15–29.

Waddy, Patricia. 1990. *Seventeenth-Century Roman Palaces.* New York: Architectural History Foundation and MIT Press.

Wallace, Alfred Russel. 1855. "On the Law which has Regulated the Introduction of New Species." *Annals and Magazine of Natural History,* 2nd ser., 16:184–96.

———. 1857. "On the Natural History of the Aru Islands." *Annals and Magazine of Natural History,* supplement, 2nd ser., 20:473–85.

———. 1858. "On the Tendency of Species to Depart Indefinitely from the Original Type." *Journal of the Proceedings of the Linnean Society: Zoology* 3:53–62.

———. 1860. "On the Zoological Geography of the Malay Archipelago." *Journal of the Proceedings of the Linnean Society: Zoology* 4:172–84.

———. 1862. "On the Trade of the Eastern Archipelago with New Guinea and Its Islands." *Journal of the Royal Geographical Society* 32:127–37.

———. 1864. "On Some Anomalies in Zoological and Botanical Geography." *Natural History Review* 4:111–23.

———. 1864. "The Origin of Human Races and the Antiquity of Man Deduced from the Theory of 'Natural Selection.'" *Journal of the Anthropological Society of London* 2:clviii–clxx.

———. 1869. *The Malay Archipelago: The Land of the Orang-utan and the Bird of Paradise; a Narrative of Travel with Studies of Man and Nature.* 1st ed. 2 vols. London: Macmillan.

———. 1877. *The Malay Archipelago: The Land of the Orang-utan and the Bird of Paradise; a Narrative of Travel with Studies of Man and Nature.* 2nd ed. 1 vol. London: Macmillan.

———. 1905. *My Life: A Record of Events and Opinions.* London: Chapman and Hall.

Wallerstein, Immanuel. 1974. *The Modern World System.* Vol. 1, *Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century.* New York: Academic Press.

Wallis, J. P. R., ed. 1956. *The Zambezi Expedition of David Livingstone, 1858–1863: The Journal Continued with Letters and Dispatches Therefrom.* 2 vols. London: Chatto and Windus.

Warnier, Jean-Pierre. 2001. "A Praxeological Approach to Subjectivation in a Material World." *Journal of Material Culture* 6:5–24.

Warntz, William. 1964. *Geography Then and Now.* New York: American Geographical Society Research Series, no. 25. New York: American Geographical Society.

———. 1989. "Newton, the Newtonians and the *Geographia Generalis Varenii.*" *Annals of the Association of American Geographers* 79:165–91.

Warwick, Andrew. 1993. "Cambridge Mathematics and Cavendish Physics: Cunningham,

Campbell and Einstein's Relativity." Part 2, "Comparing Traditions in Cambridge Physics." *Studies in History and Philosophy of Science* 24:1–25.

Webster, Charles. 1975. *The Great Instauration: Science, Medicine and Reform, 1626–1660.* London: Duckworth.

———, ed. 1981. *Biology, Medicine and Society, 1840–1940.* Cambridge: Cambridge University Press.

Webster, Noah. [1783] 1968. *A Grammatical Institute of the English Language, Part I.* Menston: Scolar Press.

———. [1788] 1965. "On the Education of Youth in America." In *Essays on Education in the Early Republic*, ed. Frederick Rudolph. Cambridge: Harvard University Press.

Weikart, Richard. 1995. "A Recently Discovered Darwin Letter on Social Darwinism." *Isis* 86:609–11.

Weindling, Paul. 1981. "Theories of the Cell State in Imperial Germany." In *Biology, Medicine and Society, 1840–1940*, 99–155. Cambridge: Cambridge University Press.

Welch, Cheryl B. 1984. *Liberty and Utility: The French Idéologues and the Transformation of Liberalism.* New York: Columbia University Press.

Welsby, Paul. 1962. *George Abbot: The Unwanted Bishop, 1562–1633.* London: SPCK.

Welshinger, Henri, ed. 1900. *La mission secrète de Mirabeau à Berlin, 1786–1787; d'après les documents originaux des Archives des Affaires Étrangères.* Paris: Plon, Nourrit et Cie.

Wenger, Etienne. 1999. *Communities of Practice.* Cambridge: Cambridge University Press.

Werner, Petra. 2000. *Casanova ohne Frauen? Bemerkungen zu Alexander von Humboldts Korrespondenzpartnerinnen.* Berlin: Alexander-von-Humboldt-Forschungsstelle.

Westfall, Richard S. 1971. *The Construction of Modern Science: Mechanisms and Mechanics.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1971. *Force in Newton's Physics: The Science of Dynamics in the Seventeenth Century.* London: Macdonald.

———. 1972. "Newton and the Hermetic Tradition." In *Science, Medicine and Society in the Renaissance*, ed. Allen G. Debus, 2:183–98. New York: Science History Publications.

———. 1980. *Never at Rest: A Biography of Isaac Newton.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1984. "Newton and Alchemy." In *Occult and Scientific Mentalities in the Renaissance*, ed. Brian Vickers, 315–35. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1993. "Science and Technology during the Scientific Revolution: An Empirical Approach." In *Renaissance and Revolution: Humanists, Scholars, Craftsmen and Natural Philosophers in Early Modern Europe*, ed. J. V. Field and Frank A. L. James, 63–72. Cambridge: Cambridge University Press.

Whitbread, Helena. 1988. *I Know My Own Heart: The Diaries of Anne Lister, 1791–1840.* London: Virago.

White, Hayden. 1973. *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Whitford, Kathryn, and Philip. 1970. "Timothy Dwight's Place in Eighteenth-Century American Science." *Proceedings of the American Philosophical Society* 114:60–71.

Whitrow, Gerald J. 1988. *Time in History: Views of Time from Prehistory to the Present Day.* Oxford: Oxford University Press.

Wiener, Philip P., ed. 1973. *Dictionary of the History of Ideas*. 5 vols. New York: Scribner's.

Williams, Raymond. 1976. *Keywords*. London: Fontana.

Wills, Garry. 1978. *Inventing America: Jefferson's Declaration of Independence*. Garden City: Doubleday.

Winchester, Simon. 2001. *The Map that Changed the World: The Tale of William Smith and the Birth of a Modern Science*. London: Viking, 2001.

Winichakul, Thongchai. 1994. *Siam Mapped: A History of the Geo-body of a Nation*. Honolulu: University of Hawai'i Press.

Winslow, Charles-Edward Amory. 1943. *The Conquest of Epidemic Disease: A Chapter in the History of Ideas*. Princeton: Princeton University Press.

Withers, Charles W. J. 1996. "Geography, Science and National Identity in Early Modern Britain: The Case of Scotland and the Work of Sir Robert Sibbald, 1641–1722." *Annals of Science* 53:29–73.

———. 1997. "Geography, Royalty and Empire: Scotland and the Making of Great Britain, 1603–1661." *Scottish Geographical Magazine* 113:22–32.

———. 1999. "Reporting, Mapping, Trusting: Practices of Geographical Knowledge in the Late Seventeenth Century." *Isis* 90:497–521.

———. 2000. "Authorizing Landscape: 'Authority,' Naming and the Ordnance Survey's Mapping of the Scottish Highlands in the Nineteenth Century." *Journal of Historical Geography* 26:532–54.

———. 2000. "John Adair, 1660–1718." *Geographers' Biobibliographical Studies* 20:1–8.

———. 2000. "Toward a Historical Geography of Enlightenment in Scotland." In *The Scottish Enlightenment: Essays in Reinterpretation*, ed. Paul Wood, 63–97. Rochester: University of Rochester Press.

———. 2001. *Geography, Science and National Identity: Scotland since 1520*. Cambridge: Cambridge University Press.

Withers, Charles W. J., and Robert J. Mayhew. 2002. "Rethinking 'Disciplinary' History: Geography in the British Universities, c. 1580–1887." *Transactions of the Institute of British Geographers* 27:11–29.

Withers, Charles W. J., and Paul Wood, eds. 2002. *Science and Medicine in the Scottish Enlightenment*. East Linton: Tuckwell.

Wittman, Reinhard. 1999. "Was There a Reading Revolution at the End of the Eighteenth Century?" In *A History of Reading in the West*, ed. Guglielmo Cavallo and Roger Chartier, trans. Lydia G. Cochrane, 284–312. Cambridge: Polity.

Wolf, Eric. 1969. *Peasant Wars of the Twentieth Century*. New York: Harper and Row.

———. 1975. "Aspects of Group Relations in a Complex Society: Mexico." In *Peasants and Peasant Societies*, ed. Theodor Shanin, 50–66. Harmondsworth: Penguin.

Wolfe, Don, ed. 1953–82. *The Complete Prose Works of John Milton*. 8 vols. New York: Columbia University Press.

Wolff, Larry. 1994. *Inventing Eastern Europe: The Map of Civilization on the Mind of the Enlightenment*. Stanford: Stanford University Press.

Wood, Michael. 1940. *Extracts from the Records of the Burgh of Edinburgh*. HMSO: London.

Wood, Paul B. 1980. "Methodology and Apologetics: Thomas Sprat's *History of the Royal Society.*" *British Journal for the History of Science* 13:1–26.

———. 1992. "The Scientific Revolution in Scotland." In *The Scientific Revolution in National Context*, ed. Roy Porter and Mikuláš Teich, 263–87. Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1996. "The Science of Man." In *Cultures of Natural History*, ed. Nicholas Jardine, James A. Secord, and Emma C. Spary, 197–210. Cambridge: Cambridge University Press.

Woods, Mark, and Paul Veatch Moriarty. 2001. "Strangers in a Strange Land: The Problem of Exotic Species." *Environmental Values* 10:163–91.

Woodward, Donald, ed. 1984. *The Farming and Memorandum Books of Henry Best of Elmswell.* Records of Social and Economic History, n.s., 8. London: British Academy.

Wooldridge, Sidney W. 1955 "The Status of Geography and the Role of Field Work." *Geography* 40:73–83.

Woolf, Daniel R. 2000. *Reading History in Early Modern England.* Cambridge: Cambridge University Press.

Woolf, Harry. 1959. *The Transits of Venus: A Study of Eighteenth-Century Science.* Princeton: Princeton University Press.

Woolhouse, Roger S., ed. 1981. *Leibniz: Metaphysics and Philosophy of Science.* Oxford: Oxford University Press.

Wright, Conrad. 1983. "The Controversial Career of Jedidiah Morse." *Harvard Library Bulletin* 31:64–87.

Wright, John Kirtland. 1959. "Some British 'Grandfathers' of American Geography." In *Geographical Essays in Memory of Alan G. Ogilvie*, ed. R. Miller and J. Wreford Watson, 144–65. London: Thomas Nelson.

———. 1966. "What's 'American' about American Geography?" In *Human Nature in Geography: Fourteen Papers, 1925–1965*, 124–39. Cambridge: Harvard University Press.

Wrigley, Anthony. 1988. *Continuity, Chance and Change: The Character of the Industrial Revolution in England.* Cambridge: Cambridge University Press.

Wrigley, Richard. 2002. *The Politics of Appearances: Representations of Dress in Revolutionary France.* Oxford: Berg.

Yaroshevsky, M. G. 1978. "National and International Factors in the Development of Scientific Schools of Thought." In *Human Implications of Scientific Advance*, ed. Eric G. Forbes, 174–81. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Yates, JoAnne. 2000. "Business Use of Information Technology during the Industrial Age." In *A Nation Transformed by Information*, ed. Alfred D. Chandler and James W. Cortada, 107–36. Oxford: Oxford University Press.

Young, Robert M. 1985. *Darwin's Metaphor: Nature's Place in Victorian Culture.* Cambridge: Cambridge University Press.

Zandvliet, Kees. 1988. *Mapping for Money: Maps, Plans and Topographic Paintings and their Role in Dutch Overseas Expansion during the Sixteenth and Seventeenth Centuries.* Amsterdam: Batavia Lion International.

Zeller, Suzanne. 1999. "Environment, Culture, and the Reception of Darwin in Canada, 1859–1909." In *Disseminating Darwinism: The Role of Place, Race, Religion, and Gender,* ed. Ronald L. Numbers and John Stenhouse, 91–122. Cambridge: Cambridge University Press.

Zilsel, Edgar. 1942. "The Genesis of the Concept of Physical Law," *Philosophical Review* 51:245–79.

Zuckert, Michael P. 1996. *The Natural Rights Republic: Studies in the Foundation of the American Political Tradition.* Notre Dame: University of Notre Dame Press.

———. 2000. "Founder of the Natural Rights Republic." In *Thomas Jefferson and the Politics of Nature,* ed. Thomas S. Engeman, 11–58. Notre Dame: University of Notre Dame Press.

مسرد بأهم الأعلام والمصطلحات

- **أبيقور** Epicurus **(٣٤١-٢٧٠ ق.م)**: فيلسوف إغريقى، يعد مؤسس المدرسة الفلسفية التى تدعى الأبيقورية، وهو يرى أن الغرض من الفلسفة يتمثل فى الوصول إلى الحياة السعيدة المطمئنة، التى تتصف بالطمأنينة - أى السلام والتحرر من الخوف - وانعدام الألم، وحياة الاكتفاء الذاتى المحاطة بالأصدقاء، فضلا عن تحقيق اللذة. وكان يقول إن السعادة والألم هما مقياسا الخير والشر؛ وإن الموت هو نهاية كل من الجسد والروح، ولذلك يجب ألا نخشاه؛ وإن الآلهة لا تكافئ ولا تعاقب البشر؛ وإن العالم لانهائى وأبدى؛ وإن الأحداث فى العالم تعتمد فى النهاية على حركات وتفاعلات الذرات التى تتحرك فى الفضاء الفارغ.

- **الأرمادا الإسبانى** Spanish Armada: أسطول إسبانى كان يتكون من ١٣٠ سفينة أبحرت من كورونا فى أغسطس ١٥٨٨ بهدف اكتساح إنجلترا. وكان الهدف الاستراتيجى يتمثل فى الإطاحة بالملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ومؤسسة تيودور البروتستانتية فى إنجلترا، مع توقع أن هذا سوف يوقف تدخل إنجلترا فى هولندا الإسبانية والضرر الذى تلحقه القرصنة الإنجليزية والهولندية بالمصالح الإسبانية. تمكن الأسطول الإنجليزى من هزيمة الأرمادا وظل يطارده على الساحل الشرقى لإنجلترا، وتعرض الأرمادا إلى الفوضى خلال عواصف شديدة فى شمال الأطلنطى، وتحطم جزء كبير من السفن على سواحل أسكتلندا وأيرلندا، وفشل أكثر من ثلث سفن الأسطول فى العودة. وكانت هذه الحملة بمثابة أكبر مشاركة فى الحرب الإنجليزية الإسبانية غير المعلنة (١٥٨٥-١٦٠٤). وفى السنة التالية، نظمت إنجلترا حملة كبيرة مشابهة ضد إسبانيا، حملة دريك - نوريس، والتى تعرف أيضا باسم الأرمادا المضاد فى ١٥٨٩، ولكنها فشلت أيضاً.

● **أرمنيـانيـة** Arminianism: يطلق هذا المصطلح على الأفكار اللاهوتيـة للإصــلاحى الهولندى يعقوب أرمينيوس (١٥٦٠-١٦٠٩) ومؤيديه التاريخيين المعروفين باسم المعترضين Remontrants. وكانت تعاليمه تتمسك بالأسس الخمسة للإصلاح، ولكنها كانت تتميز بشكل ما عن تعاليم محددة لمارتن لوثر، وتسفنجلى، وجون كالفن، وغيرهم من الإصلاحيين البروتستانت، حيث كان أرمينيوس أحد تلامذة بيزا (خليفة كالفن) فى الجامعة اللاهوتية فى جنيف. وتعرف الأرمنيانية بأنها تنوع طائفى من المسيحية البروتستانتية؛ حيث ظهرت الأرمنيانية الهولندية أساسا فى "الاحتجاج" (١٦١٠)، وهو بيـــان لاهـــوتى وقعـــه ٤٥ قسـا وقــدم إلى السلطات العــامة فى هـولندا. وقـد دعــت السلطات العــامـة سينود دورت (١٦١٨-١٦١٩) إلى دراسـة البنود الخمسـة للاحتجـاج.

● **أسرة ستيوات** House of Stewart **(عرفت لاحقا باسم** Stuart**)**: أسرة ملكية أوروبية، أسسها روبرت الثانى ملك أسكتلندا، وكانوا فى البداية ملوكا على مملكة أسكتلندا خلال أواخر القرن الرابع عشر، وبعد ذلك شغلوا منصب ملوك إنجلترا وأيرلندا وبريطانيا العظمى. وورثت الأسرة أراضى أخرى بحلول القرن السابع عشر، وكانت تشمل كل الجزر البريطانية بما فيها مملكة إنجلترا ومملكة أيرلندا، مع الاستمرار فى المطالبة بمملكة فرنسا.

● **أسرة ناسو** The House of Nassau: أسـرة أرستقـراطية متنوعـة فى أوروبا. وقـد استمدت هذه الأسرة اسمها من السيادة المرتبطة بقلعة ناسو. وتقع ناسو الحالية فى منطقة بالإتينيت على الراين فى ألمانيا. وينحدر كل ملوك هولندا منذ ١٨٩٠ وكل دوقات لكسمبورج الكبار منذ ١٩١٢، من أسرة ناسو.

● **إشعيا بومان** Isaiah Bowman: (ولد فى ٢٦ ديسمبر ١٨٧٨، فى أونتاريو بكندا، ومات فى ٦ ينـاير ١٩٥٠، فى بالتيمور بالولايات المتحدة) جغرافى أمريكى، تعلم فى هارفارد على يد الجغرافى والجيولوجى وليام موريس ديفز، ثم درس فى جامعة يال من ١٩٠٥ إلى ١٩١٥، حيث قام فى تلك الأثناء بثلاث رحلات إلى أمريكا الجنوبية

(١٩٠٧، ١٩١١، ١٩١٣)، وبعد ذلك أصبح مدير "الجمعية الجغرافية الأمريكية"، وهو المنصب الذى شغله لمدة عشرين عاما من ١٩١٥ إلى ١٩٣٥. وكان المستشار الإقليمى للرئيس وودرو ويلسون فى مؤتمر سلام باريس ١٩١٨-١٩١٩، وخدم الخارجية الأمريكية كمستشار إقليمى خلال الحرب العالمية الثانية. وفى ١٩٢١، أصبح مدير "مجلس العلاقات الخارجية" المؤسس حديثاً. وعمل بومان رئيساً لجامعة جون هوبكنز فى بالتيمور ، بولاية ميريلاند، من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٨.

- **اقتصاد أخلاقى** moral economy: نوع من الاقتصاد يأخذ فى اعتباره مراعاة الطبقات الفقيرة وتوفير احتياجاتها الأساسية، ولا يتركها عرضة لتأثير الاقتصاد الحر الشرس.

- **إكليسيولوجيا** Ecclesiology: مذهب معرفى يهتم بدراسة لاهوت الكنيسة المسيحية. ومع ذلك، فإنه عندما ظهرت الكلمة فى إنجلترا فى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، كانت تعرف بأنها "علم بناء وزخرفة مبانى الكنائس"، ولا تزال تستخدم بهذا المعنى وإن كان ذلك نادرا. أما بالمعنى اللاهوتى، فإنها تتناول أصول المسيحية، وعلاقتها بالمسيح، ودورها فى الخلاص، وسياستها، ونظامها، ومصيرها، وقيادتها. ونظرا لأن اختلاف مفاهيمها يعطى شكلا للمؤسسات المختلفة، يمكن أن تشير الكلمة أيضا إلى كنيسة معينة أو طبيعة طائفة معينة، تصف نفسها أو غير ذلك، ومن هنا ظهرت عبارات مثل الإكليسيولوجيا الكاثوليكية الرومانية، والإكليسيولوجيا اللوثرية، والإكليسيولوجيا العالمية.

- **ألكسندر فون همبولت** Alexander von Humboldt (١٤ سبتمبر ١٧٦٩-٦ مايو ١٨٥٩) جغرافى بروسى، وعالم طبيعية ومستكشف، وكان الأخ الأصغر للوزير والفيلسوف وعالم اللغة البروسى فيلهيلم فون همبولت (١٧٦٧-١٨٣٥). وقد أرسى عمل همبولت الكمى فى الجغرافيا النباتية أساس مجال الجغرافيا الأحيائية. وفيما بين ١٧٩٩ و١٨٠٤، سافر همبولت كثيرا إلى أمريكا اللاتينية، وكان يستكشفها ويصفها للمرة الأولى من منظور علمى حديث. وقد كتب ونشر وصفه للرحلة فى مجموعة هائلة من

المجلدات على مدى أكثر من ٢١ سنة. وكان من أول من اقترحوا أن الأراضي التي تحد المحيط الأطلنطي كانت ملتحمة في وقت ما (وخاصة أمريكا الجنوبية وأفريقيا). وبعد ذلك، حاول عمله المكون من خمسة مجلدات والمعروف باسم "الكون Cosmos" (١٨٤٥) أن يوحد فروع المعرفة العلمية المختلفة. وساند همبولت علماء آخرين وعمل معهم، ومنهم جوزيف لويس جاي لوساك، وجيستوس فون ليبيج، ولويس أجاسيز، وماتيو فونتين ماوري، وجورج فون نويماير، وخاصة إيمي بونبلاند، حيث أجرى معه معظم استكشافه العلمي.

- **أنطوان لافوازييه** Antoine Lavoisier (٢٦ أغسطس ١٧٤٣–٨ مايو ١٧٩٤): نبيل فرنسي وكيميائي مهم في الثورة الكيميائية في القرن الثامن عشر، وكان له تأثير كبير على تاريخ الكيمياء والأحياء. ويعتبر على نطاق واسع "أبو الكيمياء الحديثة". وعادة ما يقال إن إنجازات لافوازييه الكبيرة في الكيمياء نبعت من حقيقة أنه غيَّر العلم من المنظور الكيفي إلى المنظور الكمي، حيث يعتبر الأكثر شهرة لاكتشافه للدور الذي يلعبه الأكسجين في الاحتراق، حيث تعرف على الأكسجين وسماه (١٧٧٨)، وتعرف على الهيدروجين وسماه (١٧٨٣)، وعارض نظرية الفلوجستون. وساعد على تكوين النظام المتري، وكتب أول قائمة مستفيضة للعناصر، وساعد على إصلاح تسمية مجموعة المصطلحات الكيميائية. وتنبأ بوجود السيليكون (١٧٨٧)، وكان أول من قرر أن الكبريت عنصر (١٧٧٧) وليس مركبا. واكتشف أن كتلته تظل كما هي دائما، بالرغم من أن المادة يمكن أن يتغير شكلها. وكان مديرا "للمزرعة العامة"، وكان عضوا قويا في عدد من المجالس الأرستقراطية الأخرى، حيث مكنته كل هذه الأنشطة السياسية والاقتصادية من تمويل بحوثه العلمية. وفي ذروة الثورة الفرنسية، اتهمه جين بول مارات ببيع تبغ مغشوش وجرائم أخرى، وأعدم فعليا بعد سنة من وفاة مارات.

- **إيملي** Emile **أو "رسالة في التعليم"** On Education: رسالة عن طبيعة التعليم وطبيعة الإنسان كتبها جان جاك روسو، التي قال عنها إنها "أفضل وأهم كتاباتي كلها".

وبسبب جزء من هذا الكتاب بعنوان "مهنة الإيمان للنائب سافوا Profession of the Savoyard Vicar"، حظر العمل فى باريس وجنيف وحرق علانية فى ١٧٦٢، وهى سنة نشره الأولى. وخلال الثورة الفرنسية، كان هذا العمل ملهما لما أصبح بمثابة نظام تعليم وطنى جديد.

- **البابا جريجورى الأول** Pope Gregory I (باللاتينية جريجوريوس الأول): ولد فى نحو ٥٤٠ وتوفى فى ٦٠٤، يعرف باسم القديس جريجورى العظيم، وقد شغل منصب البابا من ٣ سبتمبر ٥٩٠ حتى وفاته فى ٦٠٤، وهو مشهور بكتاباته التى كانت أكثر انتشارا من كتابات أى من الباباوات السابقين. وهو معروف أيضا بالقديس جريجورى المحاور فى الأرثونوكسية الشرقية، بسبب حواراته، ولهذا السبب، فإن الترجمات الإنجليزية للنصوص الأرثوذكسية تسميه أحيانا "جريجورى المحاور".

- **البابا نيقولا الثالث** Pope Nicholas III (من نحو ١٢٢٥-٢٢ أغسطس ١٢٨٠): نبيل من نبلاء روما عمل مع ثمانية بابوات، حيث عينه البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) شماسا أساسيا لسانت نيكولا فى كارسرى توليانو، وعينه البابا ألكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) حاميا للفرنسيسكان، وعينه البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المحقق العام، وخلف البابا يوحنا الحادى والعشرين (١٢٧٦-١٢٧٧) بعد فراغ دام ستة أشهر فى الفاتيكان انتهى بانتخاب بابوى فى ١٢٧٧، وذلك من خلال تأثير عائلى فى المقام الأول، شغل منصب البابا من ٢٥ نوفمبر ١٢٧٧ حتى وفاته فى ١٢٨٠.

- **بيتر هيلين** Peter Heylin (٢٩ نوفمبر ١٥٩٩-٨ مايو ١٦٦٢): قس إنجليزى ومؤلف العديد من الأعمال الجدلية التاريخية والسياسية واللاهوتية: حيث أدمج مفاهيمه السياسية فى كتبه الجغرافية مثل "الكون الصغير Microcosmus" فى ١٦٢١، و"الكوزموجرافيا Cosmographie" فى ١٦٥٧.

- **ترتليان** Tertullian (أكوينتوس سبتميوس فلورنس ترتوليانوس Quintus Septimius Florens Tertullianus) ولد فى ١٦٠م، وتوفى فى ٢٢٥م: مؤلف مسيحى غزير الإنتاج عاش فى قرطاج ضمن إمارة أفريقيا الرومانية. كان ترتليان أول مؤلف مسيحى ينتج قدرا كبيرا من الأدب المسيحى اللاتينى، وكان أيضا مدافعا قويا عن المسيحية ومحاورا قويا ضد الهرطقة، وكان يسمى أيضا "أبو المسيحية اللاتينية" و"مؤسس اللاهوت الغربى".
- **الثورة المجيدة** Glorious Revolution: وتعرف أيضا باسم "ثورة ١٦٨٨" أو "الثورة غير الدموية"، ثورة فى التاريخ الإنجليزى تشير إلى أحداث ١٦٨٨-١٦٨٩ التى أدت إلى خلع جيمس الثانى وتنصيب ابنته مارى الثانية وزوجها ويليام الثالث أمير أورانج ونائب ملك هولندا. فبعد تولى جيمس الثانى فى ١٦٨٥، أدت مجاهرته بمذهبه الكاثوليكى الرومانى إلى نفور معظم الشعب. وفى ١٦٨٧، أصدر "إعلان تسامح"، حيث علق القوانين العقابية ضد المنشقين والمتمردين، وفى أبريل ١٦٨٨ أمر بمزيد من الإجراءات المتسامحة.
- **تشارلز الأول** Charles I of England (١٩ نوفمبر ١٦٠٠-٣٠ يناير ١٦٤٩): ملك إنجليزى حكم ثلاث ممالك هى إنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا، من ٢٧ مارس ١٦٢٥ حتى تاريخ إعدامه فى ١٦٤٩، وبعد أن تولى تشارلز الحكم، اختلف مع برلمان إنجلترا الذى حاول الحد من امتيازاته الملكية، إذ كان يؤمن بالحق الإلهى للملوك، واعتقد أنه يمكن أن يحكم طبقا لضميره الخاص. وكان الكثير من رعاياه يعارضون سياساته، وخاصة فرض الضرائب بدون موافقة البرلمان، واعتبر أن أعماله تمثل أعمال ملك مستبد طاغية. وكانت سياساته الدينية، بالإضافة إلى زواجه من كاثوليكية رومانية، قد ولدت عداوة وعدم ثقة جماعات إصلاحية مثل البوريتانيين والكالفنيين، الذين اعتبروا أن رؤاه كاثوليكية جدا. وكان يساند كبار رجال الكنيسة مثل ريتشارد مونتاجو وويليام لود، وفشل فى مساعدة القوى البروتستانتية خلال حرب الثلاثين عاما. وأدت محاولاته لإرغام كنيسة أسكتلندا على تبنى الممارسات الأنجليكانية إلى حروب الأساقفة، وتقوية موقف البرلمانين الإنجليزى والأسكتلندى، ما ساعد على التعجيل بسقوطه شخصياً.

• **توماس هوبز** Thomas Hobbes (٥ أبريل ١٥٨٨-٤ ديسمبر ١٦٧٩): فيلسوف إنجليزى، يشتهر اليوم بعمله فى الفلسفة السياسية، حيث أرسى كتابه "التنين Leviathan" (١٦٥١) أساس معظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعى. وبالرغم من أنه كان رائدا فى توظيف الأسس العقلانية فى الحكم الدكتاتورى المطلق، فإنه طور أيضا بعض أسس الفكر الليبرالى الأوروبى: حق الفرد؛ والمساواة الطبيعية بين البشر؛ والطبيعة المصطنعة للنظام السياسى (التى أدت لاحقًا إلى التمييز بين المجتمع المدنى والدولة)؛ وفكرة أن كل القوى السياسية الشرعية يجب أن تكون "نيابية" وتعتمد على موافقة الشعب؛ والتفسير الليبرالى للقانون الذى يترك للناس حرية عمل أى شىء لا يمنعه القانون صراحة. وذهب هوبز إلى أن المجتمعات السياسية تعتمد على "العقد الاجتماعى". وبالإضافة إلى الفلسفة السياسية، ساهم هوبز أيضا فى عدد من المجالات الأخرى، مثل التاريخ والهندسة وطبيعة الغازات واللاهوت والأخلاق والفلسفة العامة.

• **تيتوس ليفيوس باتافنُس** Titus Livius Patavinus (٥٩ ق.م-١٧م) ويعرف فى الإنجليزية باسم ليفى: مؤرخ رومانى كتب تاريخا تذكاريا لروما والشعب الرومانى. وكان كتابه "كتب منذ عصر تأسيس المدينة Books from the Foundation of the City" يغطى الفترة من أقدم الأساطير الرومانية قبل تأسيسها التقليدى فى ٧٤٣ ق.م حتى حكم الإمبراطور أغسطس فى عصر ليفى.

• **تيوفيل جوتييه** Théophile Gautier (١٨١١-١٨٧٢): شاعر وناقد وروائى فرنسى.

• **ثُريا** Pleides: سبعة نجوم فى برج الثور.

• **ثورة الأسعار** price revolution: مصطلح يشير إلى معدل التضخم المرتفع نسبيًا الذى ساد الفترة من النصف الأول من القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن السابع عشر، فى أوروبا الغربية، حيث ارتفعت الأسعار فى المتوسط ستة أضعاف تقريبا على مدى ١٥٠ سنة. وقد حدث ذلك نتيجة معدل تضخم كبير فى النقود نتج عن التدفق الكبير للذهب والفضة من الكنوز الإسبانية من العالم الجديد،

والتى بدأ تعدينها بكميات كبيرة منذ ١٥٤٥ فصاعدا. وطبقا لهذه النظرية، فقد كان الكثير من الناس من أصحاب النقود الكثيرة يشترون سلعا قليلة. وتركز تقارير أخرى على دور التحضر الذى زاد من سرعة دوران النقود، أو الزيادة فى إنتاج الفضة فى أوروبا ذاتها، والذى حدث فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر.

- **الثورة الإنجليزية** English Revolution: يشير المصطلح فى التراث الماركسى إلى حقبة الحروب الأهلية الإنجليزية وحقبة الكومنولث (١٦٤٠-١٦٦٠)، حيث كان البرلمان يتحدى سلطة الملك تشارلز الأول، ويشارك فى الصراع الأهلى ضد قواته، وأعدمه فى ١٦٤٩. وتشير الرؤية الماركسية إلى الثورة الإنجليزية إلى أن الأحداث من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٠ فى بريطانيا كانت ثورة بورجوازية تحطم فيها الجزء الأخير من الإقطاع الإنجليزى (الدولة) على يد الطبقة البورجوازية (ومسانديها)، وحل محلها دولة (ومجتمع) كانا يعكسان تأسيس الرأسمالية الزراعية (والصناعية لاحقا). ويرى هذا التحليل أن الثورة الإنجليزية كانت محورية فى التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، ومن دولة الإقطاع إلى دولة الرأسمالية فى بريطانيا.
- **ثورة العصر الحجرى الحديث** Neolithic Revolution: كانت هذه الثورة (أو الانتقال السكانى فى العصر الحجرى الحديث) والتى تسمى أحيانا "الثورة الزراعية"، أول ثورة فى الزراعة يمكن التحقق منها تاريخيا فى العالم. وكانت تتمثل فى الانتقال الواسع النطاق للكثير من الثقافات البشرية من نمط حياة الصيد والالتقاط إلى الزراعة والاستقرار، ما ساعد على إعالة عدد كبير ومتزايد من السكان. وتوضح البيانات التاريخية أن استئناس أنواع مختلفة من النبات والحيوان تطور فى مواقع مختلفة حول العالم، بداية من الحقبة الجيولوجية الهولوسينية وذلك قبل نحو ١٢ ألف سنة مضت.
- **ثورة حربية** Military Revolution: يشير هذا المصطلح إلى التغير السريع فى الاستراتيجية والتكتيك العسكرى بما يؤدى إلى تغيرات كبرى فى الحكم. وقد قدم هذا المفهوم ميشيل روبرتس Michael Roberts فى خمسينيات القرن العشرين، وذلك خلال

دراسته للتاريخ العسكرى للسويد فيما بين ١٥٦٠-١٦٦٠ بحثًا عن التغيرات الكبرى فى طريقة الحرب الأوروبية نتيجة ظهور الأسلحة النارية المحمولة، حيث ربط روبرتس التقنية العسكرية بنتائج تاريخية أوسع، مدعيا أن الابتكارات فى التكتيك والتدريب والمنهج من جانب الهولنديين والسويديين فى هذه الفترة، والتى عظمت فائدة الأسلحة النارية، أدت إلى الحاجة إلى قوات أكثر تدريبا، وبالتالى إلى قوات دائمة. وأدت هذه التغيرات بدورها إلى نتائج سياسية كبرى، وصنعت متطلبات مالية جديدة، وكونت مؤسسات حكومية جديدة. ويقول روبرتس "وهكذا فإن فن الحرب الجديد جعل من الممكن - ومن الضرورى - ظهور الدولة الحديثة". وفى التسعينيات، قام جيوفرى باركر Geoffrey Parker بتعديل المفهوم وتوسيعه، حيث قال إن التطورات فى التحصين وحالة الحصار أدت إلى ثورة فى هذا المضمار.

- **ثورة خضراء Green Revolution**: مصطلح يشير إلى سلسلة من مبادرات البحوث والتطوير ونقل التقنية، والتى حدثت فيما بين أربعينيات وستينيات القرن العشرين، وأدت إلى زيادة الإنتاج الزراعى فى العالم، وخاصة فى الدول النامية، والتى بدأت بصورة ملحوظة فى الستينيات. وتضمنت هذه التقنيات تطوير أنواع مرتفعة الغلة من الحبوب الغذائية، وتوسيع البنية التحتية للرى، وتحديث أساليب الإدارة، وتوزيع الحبوب المهجنة، والأسمدة المركبة، والمبيدات على المزارعين. وقد استخدم ويليام جود William Gaud - المدير السابق لهيئة التنمية الدولية الأمريكية USAID) - مصطلح "الثورة الزراعية" لأول مرة فى ١٩٦٨، حيث لاحظ انتشار التقنيات الحديثة فأعرب قائلا "تحتوى هذه التطورات وغيرها فى مجال الزراعة على صناعة ثورة جديدة. وهى ليست ثورة حمراء عنيفة مثل ثورة السوفييت، ولا هى ثورة بيضاء مثل ثورة شاه إيران، إننى أسميها "الثورة الخضراء".

- **ثوكيديدس Thucydides (نحو ٤٦٠-٣٩٥ ق.م)**: مؤرخ أثينى، وفيلسوف سياسى. حيث يفسر كتابه "تأريخ الحرب البيلوبونيزية" حرب القرن الخامس قبل الميلاد بين إسبرطة وأثينا حتى سنة ٤١١ ق م. وقد أطلق عليه لقب "أبو التاريخ العلمى" بسبب

معاييره الصارمة فى جمع الأدلة وتحليلها من حيث السبب والأثر دون الرجوع إلى تدخل الآلهة، كما يتضح فى مقدمة عمله. وكان يسمى أيضا أبا مدرسة الواقعية السياسية، التى ترى أن العلاقات بين الأمم تعتمد على القوة وليس الحق. ولا يزال كتابه يدرس فى الكليات العسكرية المتقدمة فى أنحاء العالم ومرجعا للعلاقات الدولية، وبصفة عامة، أظهر هذا المؤرخ اهتماما بتطوير فهم الطبيعة الإنسانية لتفسير السلوك فى الأزمات مثل: الطاعون، والمذابح، والحرب الأهلية.

- **جرب** Grub: أحد شوارع الأحياء الفقيرة فى لندن خلال أوائل القرن التاسع عشر، كان مشهورا بتركز "الكتاب الفاشلين" والشعراء المتطلعين، والناشرين البسطاء وبائعى الكتب، وكان شارع جرب يوجد على هوامش المشهد الصحفى والأدبى فى لندن، وكان يحفل بالمداخل الضيقة إلى الأزقة والأفنية، التى كان العديد منها يحتفظ بأسماء اللافتات القديمة، وكان مجتمعه البوهيمى يقع فى وسط المجاورات الفقيرة بمنازلها البسيطة المنخفضة الإيجار، والمواخير، والمقاهى.

- **جشتالط** Gestalt: كلمة ألمانية تعنى الشكل أو الهيئة. ويتمثل المبدأ الرئيس فى هذه الفلسفة فى أن العقل يكون كلا عاما له اتجاهات للتنظيم الذاتى. ويرى هذا المبدأ أن العقل البشرى ينظر للأشياء فى مجموعها، قبل - أو بالتوازى مع - إدراك أجزائه الفردية؛ ويرى أن الكل يختلف عن مجموع أجزائه. وتحاول هذه الفلسفة أن تفهم قوانين قدرتنا على اكتساب مفاهيم مفيدة والاحتفاظ بها فى عالم يتسم بالفوضى.

- **جغرافيا رياضية** Mathematical geography: فرع من فروع الجغرافيا يتناول شكل وحركات الأرض والكواكب والمجموعات النجمية، وتمثيلها على الخرائط والأشكال.

- **جوفانى ماريا كاسينى** Cassini (١٧٤٥-١٨٢٤): إيطالى عمل صانعا لمجسمات الكرة الأرضية، وجغرافيًا ونحاتا وكارتوجرافيا. وكان عمله الكارتوجرافى الرئيس يتمثل فى "الأطلس الجديد لجغرافية العالم "Nuovo Atalnte Geogrfico Universale فى ١٧٩٢-١٨٠١. وفى ١٧٩٠، أنتج فى روما عمله الذى يضم ١٢ كرة أرضية، وضم معلومات حديثة عن كارتوجرافية العالم بعد الرحلات الثلاث التى قام بها القبطان جيمس كوك حول العالم.

- **جيروند** Girondists: فصيل سياسي في فرنسا، أسس في ١٧٩٢-١٧٩٣ في الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني خلال الثورة الفرنسية. وكانوا يشنون حملة للقضاء على الملكية، ولكنهم قاوموا العزم المتصاعد للثورة، ودخلوا في صراع مع "الطتلة البرلمانية المعروفة باسم المونتاين Montagnards" (وهم فصيل أكثر راديكالية في نادي اليعاقبة). وأدى هذا الصرع فعليا إلى سقوط الجيروند وإعدامهم الجماعي، وبداية حكم الإرهاب. وكان الجيروند يشكلون مجموعة من الأفراد ذوي الانتماءات المختلفة، ولم يكونوا حزبا سياسيا منظما، وكان الاسم يطلق بصورة غير رسمية في البداية؛ لأن معظم الشخصيات البارزة المؤيدة لوجهة نظرهم كانوا من النواب من جيروند في جنوب غرب فرنسا، وأصبح الاسم معياريا مع تاريخ لامارتين في ١٨٤٧.

- **جيمس هوتون** James Hutton (٣ يونيو ١٧٢٦-٢٦ مارس ١٧٩٧): جيولوجي، وطبيب، وكيميائي، وطبيعي، وزراعي تجريبي أسكتلندي. وهو الذي قدم نظرية التطور التدريجي البطيء uniformatarianism - وهي نظرية أساسية في الجيولوجيا تفسر ملامح القشرة الأرضية من خلال العمليات الطبيعية عبر الأزمنة الجيولوجية. وأدى عمل هوتون إلى ظهور الجيولوجيا كعلم مستقل، وهكذا يشار إله غالبا بأنه "أبو الجيولوجيا الحديثة".

- **حديقة النباتات الملكية "كيو"** Royal Botanic Gardens, Kew: حديقة نباتات في بلدة كيو، مساحتها تقدر بنحو ١٢٠ هيكتارا. وهي مؤسسة ذات أهمية بحثية وتعليمية عالمية، يعمل بها ٧٠٠ فرد، ووصل دخلها إلى ٥٦ مليون جنيه إسترليني في السنة التي انتهت في ١٣ مارس ٢٠٠٨، بالإضافة إلى أنها تتمتع بجاذبية للزوار، حيث استقبلت نحو مليوني زائر في تلك السنة. ونظرا لأنها تأسست في ١٧٥٩، فقد احتفلت بذكراها السنوية رقم ٢٥٠ في ٢٠٠٩. وتضم هذه الحدائق أكبر مجموعة من النباتات الحية في العالم. وتستخدم المنظمة أكثر من ٦٥٠ عالما وموظفًا آخرين. وتشمل المجموعات الحية أكثر من ٣٠ ألف نوع من مختلف النباتات،

فى حين أن المعشبة التى تعد واحدة من أكبر المعشبات فى العالم بها أكثر من سبعة ملايين نوع من النباتات المحفوظة. وتحوى المكتبة أكثر من ٧٥٠ ألف مجلد، وتحوى مجموعة الرسوم التوضيحية أكثر من ١٧٥ ألف مطبوع ومرسوم للنباتات. ويشمل هذا الموقع أربعة مبانٍ مسجلة من الدرجة الأولى، و٣٦ مبنى مسجلاً من الدرجة الثانية فى مشهد له أهمية عالمية.

- **حديقة النباتات Jardin des Plantes:** واحدة من سبعة أقسام من المتحف الوطنى الفرنسى للتاريخ الطبيعى. وهى تقع فى المنطقة الخامسة فى باريس، على الضفة اليسرى من نهر السين. وتغطى ٢٨ هكتارا. وتأسست الحديقة فى ١٦٢٦، ولكن جاى دى لا بروس طبيب لويس الثالث عشر لم يزرعها كحديقة أعشاب طبية حتى ١٦٣٥. وكانت تعرف أصلا باسم الحديقة الملكية. وفى ١٦٤٠، تم افتتاحها للجمهور. وبعد فترة من التدهور، تولى جين بابتست مولبرت المهام الإدارية للحديقة، وعين د. جاى كريسنت فاجونواس فى ١٦٩٣، وأحاط نفسه بفريق من علماء النبات اللامعين، وأصبح الكونت دى بافون القيم عليها فى ١٧٣٠.

- **الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٢-١٦٥١):** سلسلة من الصراعات المسلحة والمؤامرات السياسية بين البرلمانيين (أصحاب الرؤوس المستديرة Roundheads) والملكيين (الفرسان Cavaliers) فى مملكة إنجلترا حول أسلوب الحكم أساسا، حيث حرضت الحرب الأولى (١٦٤٢-١٦٤٦) والثانية (١٦٤٨-١٦٤٩) أنصار الملك تشارلز الأول ضد أنصار البرلمان، بينما شهدت الحرب الثالثة (١٦٤٩-١٦٥١) صراعا بين أنصار الملك تشارلز الثانى وأنصار البرلمان، وانتهت الحرب بانتصار البرلمانيين فى معركة وورسيستر Worcester فى ٣ سبتمبر ١٦٥١. وكانت النتيجة العامة لهذه الحرب الثلاثية الأبعاد: محاكمة وإعدام تشارلز الأول، ونفى ابنه تشارلز الثانى، وإلغاء الملكية الإنجليزية، وإنشاء كومنولث إنجلترا (١٦٤٩-١٦٥٣) أولا، ثم مجلس الوصاية (١٦٥٣-١٦٥٩) تحت الحكم الشخصى لأوليفر كرومويل. وانتهى احتكار كنيسة إنجلترا للعبادة المسيحية فى إنجلترا بتدعيم المنتصرين للهيمنة

البروتستانتية المستقرة فى أيرلندا. ومن الناحية الدستورية، قررت الحروب السابقة أن الملك الإنجليزى لا يمكن أن يحكم بدون موافقة البرلمان، بالرغم من أن هذا المفهوم تقرر قانونا كجزء من الثورة المجيدة فى ١٦٨٨ فقط.

- **الحرب الثورية الأمريكية** American Revolutionary War (١٦٤٢-١٦٥١): أو حرب الاستقلال الأمريكية، أو الحرب الثورية فى الولايات المتحدة، انتفاضة ناجحة ضد بريطانيا العظمى من جانب ١٣ مستعمرة أمريكية شمالية وحدت نفسها باسم الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الأمر يقتصر فى البداية على الحرب فى هذه المستعمرات، ولكنه بعد ١٧٧٨ أصبح حربا عالمية بعد أن دخلت فرنسا وهولندا وإسبانيا على الخط مقدمة الدعم العسكرى للأمريكيين، وتحقق الاستقلال الأمريكى، واعترفت القوى الأوروبية باستقلال الولايات المتحدة الجديدة، مع ظهور نتائج مختلطة بالنسبة إلى الأمم الأخرى. وفى ١٧٨٣، أنهت "معاهدة باريس" الحرب واعترفت بسيادة الولايات المتحدة على المناطق التى يحدها ما يعرف الآن بكندا إلى الشمال، وفلوريدا إلى الجنوب، ونهر الميسيسيبى إلى الغرب، وتم الاتفاق على سلام عالمى أوسع، حيث تم تبادل عدة مناطق.

- **حروب الأساقفة** Bishops' Wars: كانت هذه الحروب (التى تسمى أيضا الحرب الأسقفية العادلة Bellum Episcopale) عبارة عن صراعات سياسية وعسكرية حدثت فى ١٦٣٩ و١٦٤٠، وتركزت حول طبيعة حكم كنيسة أسكتلندا، وحقوق وسلطات التاج. وكانت تمثل جزءاً من صراع سياسى أوسع عبر أسكتلندا وإنجلترا وأيرلندا، وكانت تعتبر مقدمة للحروب الأهلية الإنجليزية. وقد سميت هكذا بسبب الصراع الجوهرى بين تشارلز الأول الذى كان يفضل نظاما أسقفيا لحكم كنيسة أسكتلندا (بوجود الأساقفة) على رغبة معظم مكونات النظام السياسى فى أسكتلندا فى نظام الحكم المشيخى.

- **حكم الإرهاب** Reign of Terror (٥ سبتمبر ١٧٩٣-٢٨ يوليو ١٧٩٤): ويعرف أيضا بحكم الرعب أو "الإرهاب" اختصارا، كان عبارة عن فترة عنف حدثت بعد بداية

الثورة الفرنسية، وأثارها الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة: الجيروند واليعاقبة، وكانت تتميز بإعدامات جماعية "لأعداء الثورة". ووصل عدد القتلى إلى عشرات الآلاف، حيث أعدم ١٦٥٩٤ بالمقصلة (٢٦٣٩ فى باريس)، و٢٥٠٠٠ آخرين فى بقية أنحاء فرنسا.

- **حكومة الوصاية** Protectorate: كانت فترة حكومة الوصاية تمثل فترة خلو العرش، عندما كانت إنجلترا (التى كانت تضم ويلز فى ذلك الوقت) وأيرلندا وأسكتلندا، حيث بدأت حكومة الوصاية فى ١٦٥٣ عقب حل البرلمان، عندما عين أوليفر كرومويل وصيا على الكومنولث. وفى ١٦٥٩، قامت لجنة الأمن بحل برلمان الوصاية عندما أصبح ريتشارد كرومويل - الذى خلف أباه كوصى - غير قادر على السيطرة على البرلمان والجيش، وكان هذا بمثابة نهاية حكومة الوصاية وبداية الفترة الثانية من حكم البرلمان كجهة تنفيذية تقوم بدور المجلس التشريعى ومجلس الدولة.

- **حمار فى ثوب أسد** The Ass in the Lion's Skin: تبنى هذه العبارة على حكاية أسطورية تقول إن حمارا ارتدى جلد أسد، وأخذ يتسلى بتخويف كل الحيوانات الغبية. وعندما وصل إلى الثعلب أخيرا، حاول أن يخيفه أيضا، ولكن بمجرد أن سمع الثعلب صوته تعجب قائلا "كان يمكن أن أخيف نفسى، لولا أننى سمعت نهيقك". وغالبا ما يتمثل مغزى هذه القصة فى أن "الملابس" يمكن أن تخفى الغبى، ولكن كلماته ستكشفه. ويتمثل المغزى اللسفى فى الحكاية فى ألا نثق فى المظاهر، وبناء على تفسير الأصل الكلاسيكى، فإن الملابس لا تصنع الإنسان. وتظهر نفس القصة فى الهند بدلالة مختلفة حيث أنجب أسد شبلا يشبهه من أنثى ابن آوى ، ولكنه حين كبر كان يعوى مثل ابن آوى، ولذلك نصحه الأسد بأن يظل صامتا فى المستقبل حتى لا يستهزئ الآخرون به.

- **دلن** Dolomen: أنصاب صخرية فى عصور ما قبل التاريخ.

- **ديفونية** Devonian: حقبة جيولوجية ونظام لحقب الحياة القديمة تمتد من نهاية الحقبة السيلورية، نحو ٤٢٠ مليون سنة مضت، حتى بداية الحقبة الكربونية،

نحو ٣٦٠ مليون سنة. وقد سميت على اسم منطقة ديفون فى إنجلترا التى دُرست فيها لأول مرة صخور هذه الحقبة. وقد شهدت الحقبة الديفونية تنويعات كبيرة فى تطور الحياة على الأرض وخاصة الحياة النباتية والأسماك. وخلال هذه الحقبة كان يسيطر على الجغرافيا القديمة قارة جندوانا العظمى فى الجنوب، وقارة سيبيريا إلى الشمال، والتكوين المبكر لقارة أوروأمريكا الصغيرة فيما بينهما.

- **ضريبة الساحل** Ship Money: ضريبة حاول تشارلز الأول ملك إنجلترا أن يفرضها بدون موافقة البرلمان، عندما حاول أن يحكم بدونه ١١ سنة فيما بين ١٦٢٨ و١٦٣٩. وأصبحت هذه الفترة تعرف بطغيان السنوات الإحدى عشرة. وكانت هذه الضريبة التى طبقت فقط على المدن الساحلية خلال فترة الحرب تفرض ظلما على الناس الذين يعيشون قرب الساحل؛ لأن تشارلز ادعى أنه يملك البحر، وبالتالى فرضها على الناس مقابل استخدامه بغض النظر عن مهنتهم، ما داموا يعيشون داخل مدى ١٥ ميلا من الساحل، يجب فرض الضريبة عليهم. وبدأ جمع هذه الضريبة على البر فى وقت السلم فى ١٦٣٤، ما أثار مقاومة متزايدة بحلول ١٦٣٦، وكان هذا الصراع أحد أسباب الحرب الأهلية الإنجليزية.

- **الطبقة الثالثة** Third Estate (الطبقة العامة états généraux): جمعية تشريعية تضم ممثلين عن مختلف شرائح الجمهور العام الفرنسى أثناء حكم النظام السابق على الثورة الفرنسية. كان لكل طبقة من الطبقات الثلاث فى المجتمع الفرنسى (رجال الدين - النبلاء - الطبقة العامة) جمعية منفصلة تعقد وتُحل بواسطة الملك، لم يكن لها سلطة حقيقية قائمة بذاتها مثلما كان للبرلمان الإنجليزى، بل كانت هيئة استشارية للملك الفرنسى، مهمتها عرض الالتماسات من مختلف الفئات الاجتماعية وتقوم بالتشاور حول السياسة المالية. واستمرت الطبقة العامة فى الاجتماع بشكل متقطع حتى عام ١٦١٤، ونادراً ما اجتمعت مرة أخرى بعد ذلك، ولكن لم يتم حلها بشكل نهائى إلا بعد الثورة الفرنسية. وتتشابه الطبقة العامة إلى حد كبير مع مؤسسات أخرى فى أنحاء أوروبا مثل الطبقات العامة فى كل من هولندا، والبرلمان فى إنجلترا، وبرلمان الملكيات فى إسكتلندا، والكورتس فى إسبانيا، والدايت Diet فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدايت فى الملكيات التاريخية فى ألمانيا.

- **عاهرة بابل Whore of Babylon**: إحدى الشخصيات الرمزية غير الواقعية فى سفر الرؤيا والتى تكشف صوراً بمعنى مجازى، فالزنى فى العهد القديم ولدى الجيل الأول من المسيحيين كان يعتبر بمثابة عبادة الأصنام الوثنية، كما أن مدينة بابل غدت لدى الجيل الأول من المؤلفين المسيحيين رمزاً لكل المدن العظمى فى الإمبراطورية الرومانية وتعنى هنا مدينة "روما"، ويرد فى سفر الرؤيا عاهرة بابل يحيط بها سبعة تلال، ومن المعروف أن روما مؤسسة على سبعة تلال، وبالتالى يرى البعض أن عاهرة بابل إشارة إلى روما الوثنية التى اضطهدت المسيحيين.

- **الغال Gaul**: منطقة تاريخية فى غرب أوروبا فى العصر الحديدى والحقبة الرومانية، كانت تشمل فرنسا، ولكسمبورج، وبلجيكا، ومعظم سويسرا، وشمال إيطاليا، بالإضافة إلى مناطق من هولندا وألمانيا على الضفة الغربية من الراين. وخلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وقعت الغال تحت سيطرة الرومان.

- **فالتر بنيامين Walter Benjamin** (١٨٩٢-١٩٤٠): فيلسوف، وعالم اجتماع، وناقد أدبى، وواحد من أشهر أعضاء مدرسة فرانكفورت فى النظرية النقدية.

- **فرانسوا لابيروز Jean-François de Galaup, comte de Lapérouse** (٢٣ أغسطس ١٧٤١-١٧٨٨؟): ضابط بحرى فرنسى، كان مستكشفاً اختفت بعثته فى الأوقيانوسية. وقد عينه لويس السادس عشر ووزير بحريته، الماركيز دى كاسترى، فى ١٧٨٥، لقيادة بعثة كشفية حول العالم. وكانت أهداف الرحلة تتمثل فى استكمال اكتشافات جيمس كوك فى المحيط الهادى، وتصحيح واستكمال خرائط المنطقة، وإقامة علاقات تجارية، وفتح طرق بحرية جديدة، وإثراء العلوم والمجموعات العلمية الفرنسية. وكانت للرحلة أهداف جغرافية وعلمية وإثنولوجية واقتصادية (البحث عن فرص صيد الحيتان أو تجارة الفراء)، وسياسية (إقامة مستعمرات فرنسية أو التعاون الاستعمارى مع الحلفاء الإسبان فى الفلبين)، وكانت تهدف إلى استكشاف شمال وجنوب المحيط الهادى، بما فى ذلك سواحل الشرق الأقصى وأستراليا، وإرسال تقارير من خلال المحطات الأوروبية الموجودة فى المحيط الهادى.

- **فـرديـنـانـد الثــانى ملك أراجــون** Ferdinand II of Aragon (١٠ مــارس ١٤٢٥-٢٣ يناير ١٥١٦): يعـرف أيضــا باسم فـرديناند "الكاثوليكي"، ملك صـقلية من ١٤٦٨، وملك أراجون من ١٤٧٩، وكان ملكا على قشتالة باسم فرديناند الخامس، نظرا لزواجه من إيزابيلا الأولى، من ١٤٧٥ حتى وفاته فى ١٥٠٤. واعترف به كوصى على عرش قشتاله لابنته ووريثته جوانا، من ١٥٠٨ حتى وفاته. وفى ١٥٠٤، وبعد حرب مع فرنسا، أصبح ملك نابولى باسم فرديناند الثالث، حيث أعاد توحيد نابولى وقشتالة بصورة دائمة وللمرة الأولى منذ ١٤٥٨. وفى ١٥١٢، أصـبح ملك نافـار بالغزو بعد فـرض ادعـاء الوراثة. ويعتـبـر فـرديناند اليـوم مـشـهـورا بدوره فى بداية اكـتـشـاف العـالم الجديد، منذ أن رعى هو وإيزابيلا أول رحلة لكريستوفر كولومبس فى ١٤٩٢. وشن فى تلك السنة أيضا الحرب الأخيرة ضـد غرناطة، حيث محا آخر دولة إسلامية على الأراضى الإسبانية، وهكذا اختتم بنجاح عملية "الاسترداد" التى استمرت قرونا. وبعد وفاته خلفته جـوانا التى اشـتركت فى الحـكم مع ابنهـا تشارلز الخـامس، على الممالك الأيبيرية.
- **فرموزا** Formosa: الاسم التاريخى الذى كان يطلق على "تايوان" حاليًا.
- **قاليقوت** Calicut: أحد أهم المراكز التجارية العربية والهندية. وهو الاسم التاريخى الذى تعرف به اليوم مدينة قوشيقود Kozhikode فى ولاية كيرلا فى جنوب غرب الهند.
- **قامة:** قياس بحرى يساوى ٦ أقدام (١,٨ متر).
- **كتب الثقافة العامة** Commonplace Books: مجموعة من كتب تجميع المعرفة، وكانت هذه الكتب بمثابة سجلات قصاصات مليئة بأشياء من كل الأنواع: وصفات طبية، واقتباسات، وخطابات، وأشعار، وجداول أوزان ومقاييس، وأمثال، وصلوات، وصيغ قانونية. وكانت هذه الكتب تستخدم من جانب القراء، والكتاب، والطلاب، والدارسين: لتساعدهم على تذكر المفاهيم والحقائق المفيدة التى تعلموها. وكان كل كتاب فريدا بالنسبة للاهتمامات الخاصة بصاحبه. وأصبحت هـذه الكتب مهمة فى أوروبا الحديثة المبكرة.

• **مارتن لوثر** Martin Luther (١٠ نوفمبر ١٤٨٣-١٨ فبراير ١٥٤٦): راهب ألمانى، وقس كاثوليكى، وأستاذ لاهوت، وشخصية محورية فى حركة الإصلاح فى المسيحية فى القرن السادس عشر، والتى أصبحت تعرف لاحقا بالإصلاح البروتستانتى. وكان يعارض بشدة ادعاء أن الخلاص من عقاب الرب على الخطايا يمكن شراؤه بالمال. وواجه تساهل يوهان تتزل، وهو راهب دومينيكى، بمقالاته الخمس والتسعين فى ١٥١٧. وأدى رفضه للتراجع عن كتاباته، بناء على طلب البابا ليو العاشر فى ١٥٢٠ والإمبراطور الرومانى المقدس تشارلز الخامس، إلى حرمانه كنسيا وإدانته كخارج عن طاعة الإمبراطور.

• **مجلة الأعمال الفلسفية للجمعية الملكية (تحولات فلسفية)** The Philosophical Transactions of the Royal Society (Phil. Trans): يشير هذا المصطلح إلى مجلة علمية نشرتها الجمعية الملكية فى لندن، حيث ظهرت فى ١٦٦٥، ما جعلها أول مجلة فى العالم تخصص تماماً للعلم، وتتمتع بموقف قوى فى ادعائها أنها أقدم مجلة علمية حالية فى العالم.

• **مذهب البحث النقدى** Scholasticism: أسلوب للفكر النقدى سيطر على تعليم الأكاديميين فى جامعات العصور الوسطى فى أوروبا فى الفترة الممتدة من ١١٠٠-١٧٠٠، ويقوم على ترسيخ أسس العقيدة والدفاع عنها فى سياق تعددى. ويركز هذا الأسلوب على التفسير الجدلى لتوسيع المعرفة بالاستنباط وحل التناقضات. ويعرف هذا الفكر أيضا بتحليل المفاهيم الدقيق والتوضيح الدقيق للفروق. أما فى الدراسة والكتابة، فغالبا ما يأخذ شكل الخلاف الصريح: إذ إن الموضوع المأخوذ من التراث يعالج على شكل سؤال، وتقدم استجابات الخصوم، ويطرح مقترح مضاد وتفند حجج الخصوم. ونظرا لتركيزه على الأسلوب الجدلى الدقيق، كان هذا الأسلوب يطبق على العديد من مجالات الدراسة الأخرى. أما من ناحية كونه برنامجا، فقد بدأ هذا الأسلوب محاولة لتحقيق الانسجام بين المفكرين المسيحيين فى العصور الوسطى،

وتحقيق الانسجام بين السلطات المختلفة فى تراثهم، والتوفيق بين اللاهوت المسيحى والفلسفة التقليدية والقديمة، خاصة فلسفة أرسطو والأفلاطونية الجديدة.

- **مرتفعات شاير** Shire Highlands: مرتفعات هضبية فى جنوب ملاوى إلى الشرق من نهر شاير.

- **مشروع دارين** Darin **(يعرف أيضا باسم "كارثة دارين")**: محاولة فاشلة قامت بها مملكة أسكتلندا لتصبح أمة تجارية عالمية بتأسيس مستعمرة تسمى "كالدونيا" على مضيق بنما على خليج دارين فى أواخر تسعينيات القرن السابع عشر. ومنذ البداية، كان المشروع محاطا بسوء التخطيط والتموين، وضعف القيادة، ونقص الطلب على السلع التجارية، وانتشار الأمراض الوبائية وتزايد نقص الغذاء. وأخيراً، تم التخلى عنه بعد حصار القوات الإسبانية فى أبريل ١٧٠٠. ونظرا لأن شركة دارين كان يساندها نحو ربع الأموال المتداولة فى أسكتلندا، فقد أدى فشلها إلى ترك النبلاء وملاك الأراضى - الذين عانوا من سوء الحصاد - محطمين تماماً، وكان هذا عاملا مهما فى ضعف مقاومتهم لقانون الاتحاد (الذى اكتمل فى ١٧٠٧). وبالرغم من فشل المشروع، فإنه كان يعتبر بمثابة بداية تحول البلاد إلى أمة حديثة تتجه نحو التجارة. ويمثل خليج دارين الإقليم الواقع فى أقصى جنوب البحر الكاريبى، حيث يقع شمال وشرق الحدود بين بنما وكولومبيا.

- **مشيخية** Presbyterianism: فرع من البروتستانتية الإصلاحية التى ترجع أصولها إلى الجزر البريطانية. وتستمد هذه الكنائس المشيخية اسمها من الشكل المشيخى لحكم الكنيسة، وهو عبارة عن الحكم من خلال مجالس ممثلة من الكبار، حيث ينظم الكثير من الكنائس الإصلاحية بهذه الطريقة، ولكن عندما تستخدم كلمة مشيخية اصطلاحا، فإنها غالبا ما تنطبق فقط على الكنائس التى ترجع أصولها إلى الكنائس الإنجليزية والأسكتلندية التى تحمل اسم المجموعات السياسية الإنجليزية التى تشكلت خلال الحرب الأهلية. وتركز العقيدة المشيخية عادة على إعلاء سلطة الرب،

وسلطة الكتب المقدسة، والحاجة إلى النعمة من خلال الإيمان بالمسيح. وكان حكم الكنيسة المشيخية مضمونا فى أسكتلندا من خلال قوانين الاتحاد فى ١٧٠٧، التى كونت مملكة بريطانيا العظمى. وفى الحقيقة فإن معظم المشيخيين الموجودين فى إنجلترا ترجع أصولهم إلى أسكتلندا، وقد انتقلت الطائفة المشيخية إلى أمريكا الشمالية غالبا عن طريق المهاجرين الأسكتلنديين والأيرلنديين الأسكتلنديين. وتلتزم الطوائف المشيخية فى أسكتلندا بعقيدة جون كالفن وأتباعه المباشرين بالرغم من وجود عدد من الرؤى الدينية داخل المشيخية المعاصرة.

- **مضخة هواء** air pump: أداة لضغط الهواء، تشمل أمثلتها مضخة الدراجة، والمضخات التى تستخدم لتعبئة حوض أو وعاء بالهواء، وضاغط الغاز الذى يستخدم لشحن أداة هوائية، بوق الهواء ذا الشكل الأنبوبى: والمنفاخ الذى يستخدم لزيادة النار، والمكنسة الهوائية. وقد قام روبرت هوك بتركيب أول مضخة هوائية فعالة فى إنجلترا لأغراض علمية فى ١٦٥٨ لصالح روبرت بويلى.

- **معاهدة أميان** Treaty of Amiens: هى المعاهدة التى أنهت مؤقتا العداوة بين الجمهورية الفرنسية والمملكة المتحدة خلال حروب الثورة الفرنسية. وقد وقعت فى مدينة أميان (شمال فرنسا) فى ٢٥ مارس ١٨٠٢ "كمعاهدة سلام نهائية". واستمر سلام أميان لسنة واحدة فقط (١٨ مايو ١٨٠٣)، ولم تنجح هذه المعاهدة سوى فى إقرار السلام خلال هذا العام الواحد فقط خلال المدة من (١٧٩٣-١٨١٥).

- **منحة تفرغ علمى** sabbatical fellowship: نظام معمول به فى عدد من الجامعات، يتم بموجبه منح أستاذ جامعى تفرغا علميا مدفوع الراتب لمدة عام أكاديمى مرة كل سبع سنوات للقيام بالبحث العلمى مع إعفائه من أية أعباء تدريسية أو إدارية.

- **الموريسكيون** Morisco: هم مسلمو الأندلس الذين أجبروا على الاختيار ما بين التحول إلى المسيحية أو الإعدام أو طردهم من إسبانيا والبرتغال فى أوائل القرن السادس عشر. وبمرور الزمن، أصبح المصطلح يستخدم بمعنى ازدرائى، وينطبق على الكاثوليك الذين كان هناك شك فى أنهم يمارسون الإسلام سرا. وقد طرد الموريسكيون فعلا من إسبانيا فيما بين ١٦٠٩ (فالنسيا) و١٦١٤ (قشتالة).

• **مونتانيارد** Montagnards: مصطلح ظهر فى السياق التاريخى للثورة الفرنسية مشيرا إلى جماعة سياسية، يطلق على أعضائها اسم المونتاناراد نسبة إلى كلمة جبل Mountain، والذين اعتادوا أن يجلسوا فى أعلى المقاعد فى الجمعية التشريعية، واستخدم لأول مرة عام ١٧٩٣، وضمت الجماعة رجالا من مختلف الأطياف الفكرية القائمة على الممارسة الفعلية العنيدة، فى مقابل بقية أعضاء الجمعية الذين كانوا يستندون إلى فلسفات نظرية. وكان المونتاناراد أعلى أصواتًا فى الدفاع عن الطبقات الدُنيا، ويستندون إلى المزيد من الخطب الأخلاقية.

• **نظرية الاشتعال** Phlogiston Theory: نظرية علمية قديمة كانت تفترض أن عنصرا بشبه النار يسمى فلوجستون، موجود داخل الأجسام القابلة للاحتراق، ينطلق خلال عملية الاحتراق ذاتها. ويأتى هذا الاسم من اليونانية القديمة بمعنى (الاشتعال)، أو (اللهب). وقد طرحها يوهان بيشر فى ١٦٦٧، حيث حاولت النظرية تفسير عمليات الاشتعال مثل الاحتراق والصدأ التى تعرف فى مجموعها الآن بالأكسدة.

• **النقطية** Pointillisme: طريقة فنية فى الرسم بالألوان تعتمد على الرسم بـ "النقط" بدلا من "الخطوط"، وهو ما يعطى بعدا تفكيكيًا بدلا من الرسم المتصل الصلب الذى يميز طريقة الرسم بالخطوط. ويعتبر رائد هذا المجال الفنان والمصور الفرنسى جورج بيير سورا (١٨٥٩-١٨٩١) وهو من مؤسسى المدرسة الانطباعية الجديدة (Néo-Impressionniste) فى أواخر القرن التاسع عشر، إذ استطاع بتقانته وأسلوبه المعروف بالتنقيطية (بالإنجليزية: Pointillism) تصوير الضوء وانعكاساته باستعمال لطخات صغيرة متضادة الألوان، فأبدع فى استعمال هذه التقانة بتوليفاتها الضخمة ولطخات الألوان الصافية المنفصلة عن بعضها، والتى يصعب على المشاهد تمييزها إن لم ينظر عن بعد إلى كامل العمل الفنى نظرة شاملة.

• **نيقولا كوبرنيكوس** Nicolaus Copernicus (٤٧٣-١٥٤٣): عالم رياضة وفلك ولد فى مدينة تورنى فى شمال بولندا، نشر قبل وفاته بعام واحد كتابا حمل اسم "فى ثورات المجالات السماوية"، والذى يعد علامة مهمة فى تاريخ العلم بما طرحه

من نموذج جديد فند فيه النموذج القديم القائل بأن الأرض مركز الكون ويدور كل شيء حولها، وبين في نموذجه الجديد كيف أن الأرض تدور حول الشمس وأنها ليست مركزا للكون. ولم تكن ثورة كوبيرنيكوس بذاتها ثورة في مجال الفلك أو الطبيعة فحسب، فهي قد فتحت الباب على مصرعيه للثورة على الأيديولوجيا اللاهوتية المدرسية التي سيطرت على أوروبا في ذلك الوقت. وهناك إغفال أوربي متعمد والذي كشفته الأبحاث الحديثة وجدت حيث كوبيرنيكوس ربما استمد نموذجه الجديد من علم الفلك الإسلامي وبصفة خاصة من الكتاب الشهير الذي قدمه ابن الهيثم والذي يحمل عنوان "الشكوك على بطليموس" وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي، إضافة إلى ما كشفت عنه الأبحاث الحديثة من وجود نسخة من أعمال عالم الفلك الشهير نصير الدين الطوسي (١٢٠١-١٢٧٤) في مكتبة الفاتيكان، والتي يعتقد أن كوبيرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) قد اعتمد عليها في صياغة نظريته "الثورية".

- **هالدريتش زوينجل** Huldrych Zwingli (١ يناير ١٤٨٤-١١ أكتوبر ١٥٣١): مصلح ديني سويسري، ولد وقت صعود الوطنية السويسرية وزيادة انتقاد نظام المرتزقة السويسري، والتحق بجامعة فيينا وجامعة بازل ومركز دراسي في الإنسانيات، وواصل دراسته بينما كان يعمل قسيسا. بدأ في ١٥١٨ في نشر أفكاره في إصلاح الكنيسة الكاثوليكي، وهاجم الفساد في الهرمية الكنسية، وشجع زواج الكهنة، وهاجم استخدام الصور في أماكن العبادة. وانتشر الإصلاح في أماكن أخرى من الاتحاد السويسري، ولكن عدة كانتونات قاومته، وفضلت أن تظل كاثوليكية. وشكل زوينجل تحالفا بين الكانتونات الإصلاحية، ما قسم الاتحاد على أساس ديني. وفي ١٥٢٩ تم تجنب نشوب حرب بين الجانبين في اللحظة الأخيرة. وفي تلك الأثناء، كانت أفكار زوينجل قد وصلت إلى مارتن لوثر وغيره من الإصلاحيين. والتقوا في "ندوة ماربورج"، وبالرغم من أنهم اتفقوا على نقاط عديدة في المنهج، فلم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق في المنهج على "الوجود الحقيقي للمسيح في القربان المقدس". وفي ١٥٣١، طبق تحالف زوينجل حصارا غذائيا فاشلا على الكانتونات الكاثوليكية،

حيث قامت هذه الكانتونات بهجوم فورى على زيورخ التى لم تكن مستعدة، وقتل زوينجل فى المعركة عن عمر يناهز ٤٧ سنة. ويعيش تراثه فى الاعترافات والطقوس والأوامر الكنسية للكنائس الإصلاحية حتى اليوم.

- **هبريدز** Hebrides: أرخبيل واسع ومتنوع من الجزر المترامية قبالة الساحل الغربى لأراضى أسكتلندا. وهناك مجموعتان رئيستان: جزر هبريدز "الداخلية" وجزر هبريدز "الخارجية". ولهذه الجزر تاريخ طويل مع الاحتلال الذى يرجع إلى العصر الميزوليتى، حيث تأثرت ثقافة السكان بالتأثيرات المتعاقبة لكل من السلت، والنورد Norse، والشعوب الناطقة بالإنجليزية. وينعكس هذا التنوع فى أسماء الجزر المشتقة من اللغات التى سادت هناك فى العصور التاريخية وربما قبل التاريخية. وقد استمد كثير من الفنانين إلهامهم من تجاربهم هناك. ويعتمد اقتصاد هذه الجزر اليوم على زراعة الحقول الصغيرة والصيد والسياحة وصناعة النفط والطاقة المتجددة. وبالرغم من أن هذه الجزر تفتقر إلى التنوع الحيوى مقارنة بأراضى بريطانيا، فإنها تقدم الكثير لعلماء الطبيعة.

- **هرمجدون** Armageddon: موقع جغرافى ورد فى سفر الرؤيا للإشارة إلى مكان تجمع جيوش معركة آخر الزمان، وتفسر على أنها موقع حقيقى أو رمزى. ويستخدم التعبير أيضا بالمعنى العام ليشير إلى نهاية العالم. ويشير الاسم القديم إلى طريق ماريس Via Maris، وهو طريق تجارى قديم يربط بين مصر والإمبراطوريات الشرقية فى سوريا وأنطاكية وما بين النهرين. وكان هذا المكان موقع معارك قديمة مختلفة، إحداها فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأخرى فى ٦٠٩ قبل الميلاد. والموقع الحديث عبارة عن مدينة تقع على بعد ٤٠ كيلومترًا غرب وجنوب غرب الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية.

- **هرمسية** Hermeticism (تأويل): تقليد دينى وفلسفى يعتمد أساسا على كتابات تصويرية رمزية تنسب إلى هرمس ترسمجستوس Hermes Trismegistus "المعظم ثلاثا Thrice Great". حيث أثرت هذه الكتابات كثيرا على التقليد السرى الأوروبى، وكانت تعتبر ذات أهمية كبرى خلال النهضة والإصلاح. ويدعى هذا التقليد انحداره

من اللاهوت القديم، وهذا نهج يؤكد أن لاهوتا واحداً حقيقياً يوجد فى كل الأديان. وهناك كتاب مسيحيون يعتبرون هرمس بمثابة متنبيا وثنيا حكيما تنبأ بظهور المسيحية. وتعود تسمية هرمس "المعظم ثلاثا" إلى معرفته بأنواع حكمة الكون الثلاثة: الكيمياء والفلك والسحر.

- **وليام روى** William Roy (٤ مايو ١٧٢٦-١ يوليو ١٧٩٠): مهندس عسكرى أسكتلندى، عمل مساحا وأثريا، وأسهم فى الاكتشافات العلمية الجديدة والتقنيات التى ظهرت حديثا على الخرائط الجيوديسية الدقيقة لبريطانيا العظمى. وكانت خرائطه ورسومه للمواقع الأثرية الرومانية فى أسكتلندا أول دراسة دقيقة ومنهجية للموضوع، ولم يتم إدخال تعديل كبير عليها إلى اليوم. وكان روى زميلا للجمعية الملكية وعضوا فى جمعية الأثريين فى لندن.

- **ويليام سميث** William Smith (٢٣ مارس ١٧٩٦-٢٨ أغسطس ١٨٣٩): جيولوجى إنجليزى، ينسب إليه إعداد أول خريطة جيولوجية وطنية. ويعرف بأنه "أبو الجيولوجيا الإنجليزية"؛ لأنه قارن بين التاريخ الجيولوجى لإنجلترا وويلز فى سجل واحد، بالرغم من أن الاعتراف بذلك كان بطيئا فى الظهور، فعندما نشرت خريطته لأول مرة، تجاهله المجتمع العلمى؛ إذ إن تعليمه المتواضع نسبيا وعلاقاته الأسرية منعاه من الانخراط بسهولة فى مجتمع المتعلمين. وبعد ذلك سرق عمله وأفلس ماليًا، وقضى وقتا فى سجن المدينين. ولكنه حظى بالاعتراف بإنجازاته فى وقت متأخر جدا من حياته.

- **يوحنا الساكروبوسكى** Johannes de Sacrobosco (يكتب أيضًا Ioannis de Sacro Bosco) (حوالى ١١٩٥-حوالى ١٢٥٦): دارس وراهب وفلكى ومعلم فى جامعة باريس. وهو مشهور بثلاثة إنجازات: أولاً، كتب مقدمة مختصرة لنظام الأرقام الهندى العربى، وثانيًا، كتب نصًا فلكيًا مختصراً، كان يقرأ على نطاق وأسع، وكان ذائع الصيت فى أوروبا خلال القرون الوسطى المتأخرة كمقدمة فى الفلك، وثالثًا عمله الذى يهتم بوصف دقيق لعيوب التقويم اليوليانى الشرقى الذى كان يستخدم آنذاك، وأوصى بقدر كبير من الدقة بما كان بمثابة التقويم الجريجورى.

المساهمون فى سطور :

– بيتر بوركى Peter Burke

أستاذ التاريخ الثقافى فى جامعة كمبردج، وزميل كلية إيمانويل. وهو زميل الأكاديمية البريطانية، ومؤلف أكثر من عشرين كتابا، آخرها ما نشرته دار جامعة كمبردج فى ٢٠٠٤ بعنوان:

- Languages and Communities in Early Modern Europe,

وهو يعمل الآن مع زوجته على السيرة الفكرية للمؤرخ الاجتماعى البرازيلى جلبرتو فريرى Gilberto Fryre.

– ميشيل هفرنان Michael Heffernan

أستاذ الجغرافيا التاريخية فى جامعة نوتنجهام. وتركز أبحاثه على الفكر الجغرافى فى أوروبا وأمريكا الشمالية بعد التنوير، وعلى الجغرافيا السياسية والثقافية لأوروبا منذ القرن الثامن عشر، وعلى المضامين الثقافية والفكرية للتوسع الإمبريالى الأوروبى وحالة الحرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين. وتشمل منشوراته الحديثة:

- The Meaning of Europe: Geography and Geopolitics (1998).

– ديفيد لفنجستون David Livingstone (محرر)

أستاذ الجغرافيا والتاريخ الفكرى فى جامعة كوين – بلفاست، وهو زميل الأكاديمية البريطانية. وقد ألف العديد من الكتب منها:

- The Geographical Tradition (1992).

- Putting Science in Its Place (2003).

وهو محرر مشارك مع تشارلز وزرز فى:

- Geography and Enlightenment (1999).

ويعمل حاليًا فى مشروعين: كتاب عن تاريخ العلم والسلالة والدين بعنوان "آباء آدم" Adam's Ancestors، ودراسة مقارنة على استقبال الداروينية فى مواقع مختلفة.

– **روبرت مايهيو** Robert Mayhew

باحث فى الجغرافيا فى مدرسة العلوم الجغرافية فى جامعة بريستول. وهو مؤلف:

- Geography of Enlightenment (2000).

- Landscape, Literature and English Religious Culture (2004).

ويعمل حاليًا على إعداد سيرة ذاتية لألفريد راسل والاس، وعلى دليل لمراسلاته.

– **نيقولاس ربكى** Nicholaas Rubke

أستاذ تاريخ العلم فى جامعة جوتنجن، ومدير "معهد تاريخ العلم". وتتمثل مجالات خبرته فى الأرض الحديثة المتأخرة وعلوم الحياة. وعند استكشاف هذه المجالات، كان يتبع منهج السير الذاتية، حيث كتب عن رجال العلم فى القرن التاسع عشر، مثل ويليام بوكلاند فى The Great Chain of History (1983)، وعن رتشارد أوين فى Richard Owen (1994)، وكتب مؤخرًا عن ألكسندر فون همبولت فى Alexander von Humboldt: A Metabiography (تحت الطبع).

– **جيمس ريان** James R. Ryan

محاضر أول فى الجغرافيا فى جامعة لايكستر. وتشمل منشوراته:

- Picturing Empire: Photography and the Visualisation of the British Empire (1997).

وشارك مع شفارتس فى تحرير الكتاب التالى:

- Picturing Place: Photography and the Geographical Imagination (2003).

وهو عضو فى هيئة تحرير "مجلة الثقافة الفيكتورية".

- تشارلز و.ج. ويزرز Charles Withers

(محرر) أستاذ الجغرافيا التاريخية فى جامعة أدنبره. وتشمل منشوراته الحديثة التى شارك فى تحريرها مع ديفيد لفنجستون:

- Geography and Enlightenment (1999).

ومع بول وود :

- Science and Medicine in the Scottish Enlightenment (2002).

ومع مايلز أوجبورن:

- Georgian Geography: Essays on Space, Place and Landscape in the Eighteenth Century (2004).

وهو مؤلف كتاب:

- Geography, Science and National Identity: Scotland since 1520 (2001).

ولديه اهتمامات بحثية فى جغرافيات التنوير والذاكرة وإحياء الذكرى وتاريخ الجغرافيا.

المترجمون فى سطور :

عاطف معتمد

- أستاذ فى قسم الجغرافيا، كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- حصل على الدكتوراه فى جامعة سان بطرسبرج، روسيا عام ٢٠٠١.
- حائز على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٩.
- باحث ومترجم فى قضايا الجغرافيا السياسية والثقافية.

عزت زيان

- أستاذ مشارك فى معهد التخطيط القومى.
- حصل فى عام ١٩٩٨ على دكتوراه فى الجغرافيا الاقتصادية فى جامعتى القاهرة ومايننس فى ألمانيا.
- يعمل خبيراً فى معهد التخطيط القومى فى القاهرة، ويحاضر فى المركز الديموغرافى.
- له العديد من الترجمات التى تدور حول قضايا السياسة والتنمية والصراعات الدولية.

بدر الدين مصطفى

- مدرس فى قسم الفلسفة، كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- حصل على الماجستير والدكتوراه فى كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- الفلسفة فى عدة مؤسسات منها أكاديمية الفنون.
- نشر العديد من الأبحاث والمقالات.
- كما ترجم عدداً من الأعمال فى الفلسفة والنقد الأدبى، والبلاغة، والثقافة البصرية.

التصحيح اللغوى: عصام أبو الغيط
الإشـراف الفنـى: حســـن كـامـل